

فرانشيسكو غابرييلي

F R A N C E S C O G A B R I E L I

# المؤرخون العرب للحروب الصليبية

STORICI ARABI DELLE CROCIATE

إعداد وتحقيق وترجمة:  
نبيل رضا المهايني



الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc.

# **المؤرخون العرب للحروب الصليبية**

**Storici Arabi delle Crociate**

**فرانشيسكو غابرييلي**

**Francesco Gabrieli**

إعداد وتحقيق وترجمة:  
**نبيل رضا المهainي**

**Nabil R. Mahaini**



**الدار العربية للعلوم والنشر**  
Arab Scientific Publishers, Inc.su

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى  
1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2357-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر



عين التينة، شارع المفتى توفيق خالد، بناية الريم  
هاتف: (961-1+) 785107 - 786233 - 785108

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: (961-1+) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb  
الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه  
التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقرؤة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها  
حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطى من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل  
لوحة الغلاف: Jan van Huchtenburgh

تصميم الغلاف: سامح خلف  
التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107  
الطباعة: مطبع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

## إهدا

إلى أولئك الذين اختلست منهم وقتاً مضى في القيام بهذا العمل  
وفي غيره من أعمال كثيرة سابقة، وسأمضيه في تلك اللاحقة،  
غيبّتنى فعلتى الشنيعة-البديعة عنهم،  
غبنّهم حقّهم وغبنّت نفسي حقّها في أن نعيش سوية،  
وتنمّي سوية بنعمّة ثمينة هي نعمة الوقت في صحة وعافية،  
إلى أولئك الذين أحبّتهم في سرّي ولم ظهر لهم  
علانيتي كثيراً من ذلك الحبّ  
إلا ما ظنّوا ظناً وهم يشعرون ببعض دفع تجلّياته في حياتهم،  
إلى أولئك الذين غمضّتهم حقّهم وأنا منحه لهم، ومنحه لهم  
وأنا أسلّهم إياه،  
إليهم جميعاً أهدي في سلة واحدة جهّاً هذا العمل، وما سبقه،  
وماسيأتي بعده من أعمال لم أقصد بها والله إلاّها:  
أن تكون كاملة صحيحة سليمة قوية، وفي هذا مرضاة الله  
الذي هو من وراء كلّ قصد. فعسى ألاّ يكون قد ضللت أو أخطأت.  
إليهم: زوجتي الغالية وأولادي وذويهم، أحبابي،  
الشهدود على عثرات دربي، رفاقي.

نبيل

## مقدمة المؤلف

يهدف هذا الكتاب إلى مساعدة القارئ الغربي على النظر إلى فترة الحروب الصليبية من "الجانب الآخر"، أي من وجهة نظر الخصم آنذاك. لاشك أن هذه عملية مفيدة ومهمة على الدوام، لكنها تبدو أكبر فائدة وأعظم أهمية في حالتنا هذه، أي حالة الصدام بين المسيحية والإسلام خلال العهود الوسطى: حضارتان لا اختلاف جذرياً بينهما في ذلك الوقت، بل لوحظ - وبحق - أن كليهما مبنيتان على موقف روحي واحد وعلى طبقات ذهنية متشابهة في جوهرها، لكن التجربة الدينية التي خاضها الطرفان كانت مختلفة عن تطلعاتهم وطموحاتهما الشاملة، فاندفعت الواحدة ضد الأخرى ليزداد تشدد الطرفين. ومعروف أن ازدياد التشدد يزيد التعصب ويؤدي إلى بروز تطرفٍ يشتد خلال الأزمات على وجه الخصوص. وإذا كان هذا التعصب قد تلاشى الآن، لدينا على أقل تقدير، فإنه تحول إلى تناقضات من نوع آخر ليست في جوهرها إلا تناقضات دينية. إننا لانجد اليوم أحداً يستخدم "الخناجر" و"المطارق" في الدفاع عن علوم المسيحية، بل وعلى العكس، فقد أصبح تقليداً لدى الجانب المسيحي الكاثوليكي الموقف المتفهم نحو الإسلام، لكن الجانب الآخر لم يقابل على الأرجح هذا الموقف بنفس الروح. مع هذا كله فإن العداء القديم يظهر عنيفاً وحاداً عندما نعود ونفتح صفحات مؤرخي وجديري العهود الوسطى. وهكذا فإننا وإن نبدأ بتتبع أحداث الحروب الصليبية حتى نجد أنفسنا منساقين وراء حقد لا هوئي وعنصري - تعمقه ولاشك صراعات أخرى وتزيده حدة - حتى إننا نكاد نرى "العدو" متربصاً هناك، أي في الطرف الآخر:

[1] في معسكر سليمان وآرغانت والذى لم يكن إلا لأبيات الشعر وحدها أن  
[2] تنتزع كلوريندا منه لتأتي وتموت في معسكننا مطمئنة هائلة في حنایا عقيدتنا.

إن رؤية تاريخية مثاليةً تسعى للإحاطة بالجانبين معاً ستستفيد على الأرجح من عملية التعرف عن قرب على الأشكال الأصلية لعقلية ومثل وطرق الحياة وال الحرب لدى أعداء الصليبيين، أعداء لا يبدون في صفحات مؤرخيهم أقل قيمة، في الكم والكيف، من أولئك الغربيين. وسترينا هذه الصفحات بالطبع أن

[3] لوحة القيم قد انعكست، فمقابل "الكلاب المسلمين" سجد "الخنازير المسيحيين"، ومقابل التطلع نحو كنيسة القيامة هناك تطلع نحو الصخرة المقدسة حيث وضع النبي قدمه في معجزة إسرائيل الليلي، وعوضاً عن التقى كندفري هناك الورع صلاح الدين.

إننا سنبتعد هنا عن الأحكام ذات الطابع الديني والأخلاقي، لأن ما يهمنا تقديميه للمؤرخ أو لهاوي التاريخ هي معلومات تدور حول الطرف الآخر،

وتكمّل اللوحة التي تقدمها لنا عادة المصادر الغربية.

لقد أصابت الغزوات الصليبية الإسلام في لحظة حرجة من لحظات تاريخه، أي في وقت كانت الموجة العربية فيه قد بدأت ومن زمن بعيد تنحسر، أو أنها بدأت تتراجع إلى موقع الدفاع، بينما كانت الموجة التركية في طريقها لتدعم نفسها وتنظيم مواقعها في أحضان الأوطان الإسلامية والأوطان المجاورة، ذلك قبل أن تنتقل باسلوب منظم إلى موقع الهجوم ضد العالم المسيحي.

كان الإسلام قد عرف فيما مضى هجمات مضادة قام بها الجانب المسيحي خلال الحروب المزمنة ضد البيزنطيين، خاصة عندما نشطوا خلال القرن العاشر: لكن هجوم قوى الغرب اللاتيني - الذي تم صراحة تحت شعارات دينية حربية واضحة - باغت على حين غرة مجتمعاً إسلامياً منقسمًا من الناحية السياسية على نفسه وغير مستعد أو مهيأ لمجاشه حملة منظمة فعالة.

[4]

على هذا الأساس نرى أن المعادلة التي طرحتها Grousset عن بروز فوضى (آناركية) إسلامية مقابل نظام ملكي إفرنجي، توضح إلى حد بعيد معالم الوضع الذي كان قائماً في سوريا بين نهاية القرن الحادي عشر وأولى عقود القرن الثاني عشر: حيث تجزأت البلاد في إمارات تركية متاخرة فيما بينها، يتزعّمها أتابك السلاجقين وعساكرهم وأتباعهم، هذا بينما كان حكم فاطمي مصر يتربّح في فلسطين. أما في بغداد فقد خضع الخليفة العباسي لإمرة السلطان التركي وأصبح مجرد ظلٍّ لسُؤدد الإسلام الذي ظهر أيام المنصور والمأمون.

وبهذا تفشت الحروب الصليبية تفشيًّا بقعة الزيت رغم أن أمراء سوريا الشمالية وولاة الفاطميين في القدس والمدن الساحلية حاولوا أن يقاوموها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً - أي أنهم فشلوا. أما الحملة التي انتظروها على غير طائل من بغداد قد أظهرت منذ البداية وهنَاً وعجزًا.

لكن ما إن أطل العقد الرابع من القرن الثاني عشر حتى بدأت المقاومة الإسلامية تشتت، وحدث هذا بفضل "آرتوق" ماردين و"طغتكين" دمشق، بل وقبل الجميع، بفضل آتابكة الموصل الزنكي ونور الدين، اللذين أوقفا تقدم حملة كونت الراها قبل أن يضعوا الشام نصب عيونهما ويعملأ على تحقيق هدفهم المزدوج الساعي إلى توحيد البلاد تحت سيادتهما ودفع الفرنجة نحو البحر.

بدأت العروبية حينها تتراجع إلى الخط الخلفي من حيث هي قوة سياسية، مخلفة المجال للأسر التركية في تزعم حركة المقاومة. ومع أن هذا حدث ضمن محيط بيئيٍّ عربيٍّ من الناحية الثقافية فقد كان لهذه صبغة تركية من الناحيتين العسكرية والاجتماعية.

ولم يكن لوصول صلاح الدين إلى الحكم إلا أن يؤدي إلى إيقاف عملية التترىك هذه، لكن من ناحية معينة فقط، إذ أنه عمل من ناحية أخرى على استمرارها: فهذا الأيوبي العظيم - كردي الأصل، تركي/عربي اللغة والتربية، المسلم السنّي في عقیدته وأفعاله - جعل من مصر مركز سلطانه وأعادها للمذهب السنّي، كما أنه أعاد للعروبة هيبتها من جديد.

وعندما تلاقت المماليك سقط على صعيد حطين تاج القدس اللاتيني. لكن الحملة الصليبية الثالثة أتت لتسد الطريق على الهجوم الإسلامي ولتدعم وضع الدوليات الصليبية المتداعية في الساحل.

ومع هذا فقد استطاع الأيوبيون بفضل العادل والكامل أن يحافظوا بالطرق الدبلوماسية حيناً وبالطرق الحربية حيناً آخر، على توازن دام بين الفريقين نصف قرن من الزمان: فهم درعوا الحملة الخامسة، وحيدوا فردریك الثاني، لكنهم لم يفلحوا في مواجهة الدوليات الساحلية الصليبية المتبقية مواجهة فعالة. أما من أفلح في الأمر فكانوا سلاطين المماليك، وهم عبيد أتراك من أهالي روسيا الجنوبية والقوقاز، كان من جملة نجاحاتهم أن تمكناوا في منتصف القرن الثالث عشر من أن يحلوا محل آخر الأيوبيين عندما بدأوا يتضعضعون في مصر. بل إن الإسلام مدین لهؤلاء الجنود الخشنين الأفظاظ بصد الغزو المنغولي (بعدما خلصوا سوريا بانتزاعهم النصر في موقعة عين جالوت عام 1260) وبتصفية الصليبيين أيضاً. حقق المماليك هذا كله بعد أن تمكناوا من تطوير النظام الإقطاعي العسكري الذي أدخله السلاجوقيون وواصلوا الأيوبيون العمل به.

أما على الجانب الآخر فنجد أن الغرب لم يعد قادرًا علىمواصلة دعمه للكيانات التي اصطنعها في ما وراء البحار: فالبابوية - التي جنحت خلال الحملات الصليبية الأولى بالدافع الديني السامي وحولته نحو مطامعها في ترسیخ هیمنة اوربا وسيطرتها، والتي استخدمت الصليب رایةً لقوات مسيحية حاربت قوات مسيحية أخرى معمرة مثلها (حملة صليبية ضد الألبیج، محاربة

[5] الہوھنستاوون ) - كان عليها، أي على هذه البابوية، أن تراقب وهي مكتوفة الأيدي احتضار كل من أنطاكية وطرابلس وعكا، أي على المراحل الثلاث المهمة من سيطرة المسلمين على الساحل خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر. كما بدا أن دفاع جماعة الديوبية في الأرضي المقدسة عن أنفسهم كان يعبر أيضاً وإن بطريقة غير مباشرة عن بداية المأساة التي تعرضوا لها في الغرب.

كان هذان قرنان مليئان بالتاريخ، تاريخ يتعلّق بصورة متساوية بمصائر كل من المسيحية اللاتينية والروميه الشرقيه (التي كانت ضحية سلبية وبريئة للذنوب والأخطاء اللاتينية)، ومصير الإسلام فوق أراض يعتبرها منذ خمسة قرون أراضيه الخاصة. وكان لأحداث هذين القرنين أن انعكست انعكاساً كافياً

على التاريخ الإسلامي (الستوريografia الإسلامية) في ذلك العهد بل وفيما تلاه مباشرةً من قرون.

قلنا التاريخ الإسلامي ولم نقل العربي وذلك اعتباراً للأصول غير العربية التي كان ينحدر منها بعض مؤلفيه ومؤرخيه، لكن يمكننا أن نسميه عربياً دون شك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار اللغة المستعملة (فالتأريخ بالفارسية وماتبعة من تاريخ بالتركية لا يضيفان شيئاً لتأريخ الحروب الصليبية) وأن نسميه أيضاً عربياً-إسلامياً عندما تعتبر قوى العقيدة والفكر التي تحركه وتكمن وراءه. ولابد من هذا وجود بعض المساهمات الثانوية مما قدمه عربُ مصر المسيحيين.

إن غزو الفرنجة (كما كان العرب يسمون مسيحيي الغرب لتمييزهم عن الروم البيزنطيين) وما أحقوه بالإسلام من دمار ومذابح وأضرار، ثم المقاومة التي أبداها هذا الأخير والتي تكللت في النهاية بالنصر، لم تكن من المواضيع التي عالجها التاريخ الإسلامي في العصر الوسيط بصورة منفصلة ضمن دراسات منفردة. فرغم أن ذلك التاريخ كان يعطي أهمية عظمى لتلك الظواهر، فإنه كان على الدوام يضعها ضمن إطار الصيغ الأدبية التي اعتاد أن يفهم الأمور من خلالها وأن يعرضها بواسطتها، مما يجعلها تضيع ضمن سجلات السياسة والحواليات المسرودة، أو تتلخص ضمن إطار معالجات لا تركز بالطبع على أفعال الأعداء بل على بعض الشخصيات أو السلالات الإسلامية التي تتصبّـ هنا وهناك قيمةً على حماية الدين والعقيدة. هذا مما يجعل عبئاً البحث في التاريخ الإسلامي عن تاريخ واحد ومنظم يستعرض الحروب ضد الفرنجة ويدور بصورة كاملة حول مواضيعها.

على أنه باستطاعتنا نحن أن نعيد الآن صياغة مثل تلك المواضيع صياغة افتراضية بواسطة موازاة ومقارنة ودمج المواد الموجودة في مختلف أنواع المؤلفات المتعلقة بتاريخ ذاك العهد. إننا نتكلم عن مؤلفات التاريخ العام التي تتناول العالم الإسلامي، كمؤلف ابن الأثير الكلاسيكي المشهور أو مؤلفات أخرى أقل شهرة كالتي كتبها سبط ابن الجوزي وابن الفرات، أو التصنيفات المتأخرة أو أخبار المدن والأقاليم كمؤلفات ابن القلانسي أو كمال الدين المتعلقة بسورية الشمالية ومنطقة ما بين النهرين، أو حتى مؤلفات تتعلق بالأخبار المحلية والسلالات الحاكمة، كمؤلف ابن واصل والمقرزي، أو تلك الخاصة بالسلالة الحاكمة كتصنيف أبو شامة، أو في النهاية ككتب السير البيوغرافية المحضة، أو تلك التي تركز على مآثر بطل ما، مثلما هو الحال مع مؤرخي صلاح الدين أي بياء الدين وأمام الدين، ثم كتب السيرة الرسمية لأوائل سلاطين المماليك، كمؤلفات ابن عبد الزاهر.

هناك أيضاً كتاب السيرة الذاتية اللامعة لمؤلفه أسامة وهو كتاب فريد من نوعه من الناحية الأدبية، بل حتى من الناحية التاريخية كما سنرى لاحقاً.

تختلف هذه المؤلفات فيما بينها بالشكل - الجامد المهمل أحياناً، أو المنتفع بقرعات السجع أحياناً أخرى - أو النوع التاريخي، أو بالذكاء والدقة، أو

بالسطحية السقية والتصنيفية السلبية التي يتصف بها مختلف المؤلفين. لكن كما هو متوقع فإنها تشتراك كلها رغم تلك الاختلافات في موقفها العدائى الذى يزدرى الغريب الكافر الذى أتى ليغزو بلاد الإسلام مدفوعاً بتعصبه الأعمى (لأن كل طرف يرى تعصب الطرف الآخر). لكنه من النادر أن نجد مناقشات أو تحليلات للأهداف الحربية العملية التى بيتها العدو، فهذه المناقشات لم تظهر إلا خلال مشاورات الصلح أثناء الحملة الثالثة.

إن وجود الكافر مسلحاً فوق الأرضية الإسلامية هو أمر لا يمكن مجابهته إلا بالسلاح - بل إن للمسلم من الناحية النظرية حقاً شرعاً في حمل السلاح إلى بلاد الكفار ومقاتلتهم حتى الموت أو حتى يشهروا إسلامهم أو يخضعوا للدين الحق. لهذا لا يمكن أصلاً التحدث عن إقامة أي سلام مع الإفرنج أو مع الكفراة بصورة عامة، لكنه يمكن التحدث عن هدنة مؤقتة عندما تدعى الحاجة إليها. لهذا فقد عارض كثيرون في المعسكر الإسلامي الصلح أو الهدنة الشهيرة التي انعقدت عام 1192 بين ريتشارد وصلاح الدين. هذا كله من الناحية النظرية البحثة، أما من الناحية العملية، فلم يكن من المستطاع أن تنقضي مئتا عام من الحملات الصليبية في حرب دائمة مستمرة، وهكذا فإنه لم يكن لدينا فترات هدنة وحسب، بل إننا وجدنا في القرن الثاني عشر " تحالفات ضالة " عقدت بين مسلمين وصليبيين ضد أتباع نفس الدين من هؤلاء وأولئك، ومن كانوا في وقت معين أعداء مشتركين (وقد وصفنا ابن القلنسى بكل صراحة على مجرى أحداث أكثر تلك التحالفات فصيحة أي تحالف أبناء جلدته الدمشقيين مع الفرنجة من أجل صد غزو زنكي عام 1140).

لكن فترات السلام ليست موضوعاً مفضلاً من قبل التاريخ الإسلامي، وربما من قبل أي تاريخ كان، وهكذا فلم يكن التاريخ الإسلامي للحروب الصليبية إلا مقارعة متواصلة للسلاح وتتابعاً مستمراً للمعارك، يجري أغلب الأحيان على ذات الوتيرة، وليس إلا مناورات ومحاصرات وغزوات. لذلك فإن أفعالاً مثل "قتل"، "نهب"، "اقتحم" كانت هي الأفعال الأكثر تصريفاً في مجرى حكاية الحروب المقدسة المتبادلة. وكانت الأدوار هي التي تتغير فقط، فالمؤرخون الأقدمون كتبوا عن استسلام مدن الساحل السوري الإسلامي لحصار الفرنجة وعن المذابح والنهب والحرق، وكذلك فقد تكررت في الطرف المقابل نفس المناظر لكن بأدوار معكوسة، بل إن التعبير جرى أحياناً بنفس الكلمات خلال الحديث عن مراحل الفتح الإسلامي. "لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف [6]

يهلكون" . ومع هذا فإن الشجاعة والتضحية تبغيان مكرمتين يعجب بهما الطرفان ولا ينفصاً أبداً منهما.

في قمة الأمثلة، أي في الحملة الثالثة، تجاوزت شخصيات بارزة من كلا الجانبين، وتطورت المعارك تطوراً مأساوياً واسعاً (حطين، حصار عكا)، وبينما

كانت سيرة الوقائع العسكرية تسير على وثيرة واحدة، فإنها انفتحت بعد ذلك بنفسه أرحب، لتقدم لنا أوصافاً تتشح أحياناً بشاعرية دينية وهي ترسم يوم طبرية والصدامات العنيفة تحت أسوار عكا وكّرّ صلاح الدين وفرّه.

وقد كانت مهمة أيضاً، وإن كانت مملة في تفاصيلها المضطربة والمتناقصة غالباً، سجلات المشاورات الطويلة التي تدور حول ذلك السلام، ومن المؤسف ألا يكون النص الأصلي قد بقي، كما بقيت فصول أخرى عن معاهدات السلام أوالهدنة بعد أن حفظها مؤرخو المماليك حتى عهود متأخرة (معاهدات قلواون).

كانت إذن حرياً مستمرة لكن من الناحية النظرية البحتة، لأن كثيراً من الهدن الهشة قد تدخلت بينها: هذه هي صورة الوضع الرسمية التي سادت خلال قرنين من تعاقب الإسلام والنصرانية في الأرض المقدسة. وقد انعكست الصورة بالطبع على التاريخ الإسلامي لتمّ آفاقه على وثيرة واحدة. انعدم كذلك لدى المؤرخين المسلمين أي اهتمام بالتنظيم في الدول الإفرنجية وبحياتهم الاقتصادية والاجتماعية وثقافتهم.

لكننا نعثر من حين إلى آخر على توبيخ لبعض الحالات، التي لاندرى إن كانت قد سُجّلت إعجاباً أو ازدراءً، والتي نشاهد فيها أن الثقافة والعادات الإسلامية قد أثرت بال العدو، ذلك كما حدث مع أمير شقيق عرنون الذي أخبرنا مؤرخو صلاح الدين أنه كان يتكلّم العربية ويهمّ بالأدب العربي والشرع الإسلامي، رغم أنه حاول أيضاً استغلال معارفه لخداع العدو (وقد اكتفى الكريّم صلاح الدين بسجنه). كما أنها لا نجد أي اهتمام بعادات وأفكار وحياة العدو لدى كبار المؤرخين، هذا وإن كان باستطاعتنا أن نجد ملامح لهذا الاهتمام لدى مؤرخ غير تقليدي مثل اسامة، لهذا حاولنا هنا الاستشهاد بفقرات من مؤلفاته.

أما عندما يتكلّم المسلمون عن المسيحية وعن العقيدة والطقوس النصرانية، فإنهم يقدمون صورة كرنفالية مشوهة (ولنقرأ صفحات عماد الدين حول نهاية القدس الصليبية)، لا يمكن مقارنتها إلا بالصورة الأخرى التي تعرضها علينا نصوصنا الدينية التي كتبت في القرون الوسطى عن الطقوس والعقيدة الإسلامية. هذا مما يخولنا اختصار القول وتأكد أن كل جهة كانت تكافئ الأخرى بنفس العملة، وأن الحروب الصليبية لم تكن أبداً ذات جدوى في تعريف المسيحيين والمسلمين بما في العقائدتين من نواحٍ نبيلة سامية.

لكن إن نحن عدنا إلى ذلك التداخل المادي والروحي الذي لاشك أنه كان موجوداً، وإذا مراجعنا المصادر الإسلامية فسنعرف أن لمجال لمقارنة ما عرف وما أراد الإسلام أخذه عن الفرنجة مع ما أخذه الفرنج عن الشرقيين. فصاحب طرابلس الإفرنجي المدعى غوليلم تعلم العربية وأخذ عن مصادر عربية تاريخه المفقود والمعرف باسم تاريخ الشرق، وأصبح ظاهرة ليس لها مثيل في الجانب المقابل. لكن المؤرخين العرب للحروب الصليبية لم يهتموا

بالعدو فقط، بل انصب اهتمامهم بصورة أساسية على المقاومة الإسلامية وأبطالها. وهذا مايسمح لنا دون شك أن نجد جانباً يتمم التاريخ الغربي.

لقد أشار العرب أنفسهم وبكل وضوح إلى أن انقساماتهم كانت هي السبب الأساسي في انتصار الحملة الصليبية الأولى (وهناك اشارة مريضة في كتاب لكمال الدين تبين أن الأمراء المتنافسين في سوريا قد رجعوا بالتدخل الإفرنجي، بل إن أناينتهم العميماء دفعتهم لاستغلاله لمصالحهم الخاصة)، لكنهم أبدوا بعدها ارتياحاً كبيراً، تشوّه أحياناً شيء من الخيبة بحسب تباعين الخلفيات، عندما شاهدوا بروز أبطال كبار استطاعوا توحيد المقاومة ضد الصليبيين، ذلك مثل طفتين وزنكي وزنكي ونور الدين وصلاح الدين.

في هذا السياق بربت المقاومة الرائعة التي أبدتها دمشق ضد حصار عام 1148 لتكون فصلاً مشرفاً من فصول مقاومة الغزو اللاتيني بل من أكثر الحروب البلدية أو المحلية تشريفاً. بعدها مباشرة بل وقبل ذلك أحياناً،<sup>[7]</sup> أخذ الزنكيون والأيوبيون والمماليك على عاتقهم توحيد المقاومة، وهذا ماكان من واجب خليفة بغداد أن يفعله، من الناحية النظرية على أقل تقدير. لكن هذا الخليفة أصبح مجرد مظهر شكلي وتلاشت هيئته بشكل مهين خلال الحروب الصليبية بالذات عندما لم يتمكن القيام بأي دور سوى إلقاء الخطاب وإقامة الصلوات ورفع الأدعية وإرسال رسائل التهنئة إلى الأبطال المنتصرين من أهل السنة. لذلك فإن من استحق أمجاد محاربة الصليبيين كانت دوليات وأسر إسلامية ذكرناها أو أخرى أقل شأناً دعمت جميعها الحرب المقدسة عن قناعة أو لأسباب سياسية، بل إن هناك من تفاني وكرس كل حياته في ذلك السبيل.

ونفهم أن إيمان مؤرخي تلك الدوليات والأسر وآخلاقهم لها واعترافهم بجميل حكامهم زاد من تبجيل أولئك الحكام وتقليلهم من ثمة بأكاليل النصر. لكن صورة صلاح الدين ارتفعت عالية فوق الجميع، حتى أنها فرضت إعجاب العدو بالذات. فهو بأصوله البسيطة وبمسيرته التي لم تخلُ أولى فتراتها من الغموض والعنف استطاع أن يجسّد فيما بعد خلال انتصاراته وغيرها هيبة وانسانية وفروسية الحضارة الوسطى في الشرق، ذلك إلى جانب رفعه عالياً ويتضمّن باللغة العقيدة والسنة. وقد ترك لنا كل من يهاد الدين وعماد الدين صورة واضحة تمثل صلاح الدين أميراً مسلماً مثالياً يتمتع بصفات تعمها المساحة الإنسانية أكثر من الفروسية. رغم هذا كله فإن الصورة التي رسموها لا تستطيع أن تبرر تبريراً كاملاً المحبة الكبيرة التي كثّرها لذلك الرجل المعاصرون والمتاخرون في المعسكر الإسلامي أو في المعسكر المعادي

<sup>[7]</sup> على السواء. بيد أن الأسطورة التي أعطته مكاناً في البرزخ الدانتي وفي أشعار وروايات غريبة عديدة بقيت بكماء عنه في أرضه التي كرّمت من كان

<sup>[8]</sup> أدنى منه درجات من الناحية الإنسانية، أي بيبرس . نجد على كل أن المصادر

التاريخية العربية احتفظت ببطلي الجهاد الإسلامي هذين بذكرى حية ذلك كما فعلت مع زنكي ونور الدين والكامل والأخرين من كبار خصوم الفرنجة. والحقيقة أن أ Nigel فضائل التاريخ الإسلامي نجدها في أمانة وروعة تصنيفاته، التي ترتمي أحياناً - وإن بمشاعر معادية - على صفات مهمة لشخصيات من المعسكر الآخر. وهكذا فإننا نقرأ عن دهاء بالدوين الثاني وشجاعة قلب الأسد وإقدام كونراد ودبليوماسية فريديريك الثاني وشكوكه الساخرة وذلك ضمن بعض الملاحظات البارزة في صفحات المؤرخين المسلمين. غير أنها إن قبلنا بهذه الصفات فنحن أقل استعداداً لقبول وتأكيد أوصاف أخرى كالـ "ماكر الخبيث" التي وصف بها الملك القديس لويس التاسع (ومع هذا فما أجمل ما قاله ابن واصل عنه حين صوره بكل ودّه وأنسه في صورة حية خلال حواره مع المبعوث المصري في سجن المنصورة. أما أن يقال عنه إنه خبيث محنك؟ وهو الذي ذهب في قيظ الصيف مع الحملة الطائشة على تونس لينهي حياة اتصفت بالإيمان المتقوش والمثالية الدونكيسوتية!

إن غنى مواد التاريخ العربي للحروب الصليبية وكثرة بياناته التاريخية (وإن لن تكون متsequة دائماً فيما بينها، ولا متطابقة على الدوام مع المصادر الغربية) ثم روعة وصفه وتصنيفاته تؤهله حقاً للتفوق عند مقارنته بالتاريخ المسيحي المعاصر له. من ناحية أخرى نحن لا نرغب في أن نطالب هذا التاريخ بالموضوعية وفهم العدو ولا بأصالته أو عمق الرؤى أي بالصفات التي كان يحتاج إليها بصورة عامة التاريخ العربي في العصر الوسيط، الذي كان يتارجح بين البراغماتية العملية وبين ثيولوجية إيمانية آلية. لكن هناك شخصية مؤرخ حقيقي قد تبرز بين العديد من شخصيات المؤرخين المجتهدين، ألا وهي شخصية ابن الأثير، رغم أن هذا المؤرخ لم يحظ، من ناحية أخرى، بسمعة ملائمة لدى مستشرقى العهد الحديث كمؤرخ للحروب الصليبية، وذلك بسبب استعماله المزاجي والمتخيّز للمصادر التي أخذ عنها. لكن إن دعونا هذه الملاحظة لعدم الاعتماد عليه كثيراً الاعتماد من الناحية التوثيقية، فهي تؤكد لنا على أصالته كمؤرخ عبقري يبرز بين سلبيّة المصنفين البالغة. يفتقد الجانب العربي إذن في هذه الحقبة إلى شخصية مميزة كشخصية غوليلم صاحب صيدا، لكننا إذا تركنا هذه الشخصية النادرة جانباً فإن متوسط مستويات المؤرخين العرب للحروب الصليبية يبدو أعلى من مستوى المؤرخين الإفرنج. لكن الآخرين يتمتعون، في كثير من الحالات، بتجربة مهنية أعظم، أي بما يمكننا تسميته بالضمير المهني الكبير. خاصة وأن التاريخ الإسلامي من جهته ليس، في أغلب الأحوال، وكما أسلفنا، إلا جانباً من معالجة تاريخية ومن تجربة عامة أوسع.

إن محاولة عرض تاريخ الحروب الصليبية من خلال وجهة نظر "الجهة الأخرى" ليست بالمحاولة الجديدة في الغرب. فمنذ أكثر من قرن مضى، وبعد انتهاء Michaud Bibliothèque des croisades Reinaud

أستاذ Michelet Amari قد وضع مؤلفاً اسمه Chroniques arabes (باريس 1829)، جمع فيه ضمن نص متنابع بعض الإصدارات والنصوص المجددة المأخوذة عن المؤرخين العرب لتلك الفترة، خاصة وأن كثيراً من تلك النصوص لم تكن آنذاك مطبوعة، بل كانت محفوظة في "Bibliotheque du Roi". غير أن ذلك العمل الريادي، الذي ما زال يحتفظ حتى اليوم بفائدة كبيرة بالنسبة للمؤرخين غير المستشرقين، كان يهدف إلى تقديم رواية متكاملة عن الأحداث مستقاة من مصادر شرقية للحروب الصليبية، ذلك بدلاً من تقديم تلك المصادر المتباشرة بملامحها المميزة. وهذا ما تم اقتراحه خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر في باب Historiens orientaux في Accademie des Recueil des Historiens des Croisades Barbier de Inscriptiones et Belles Lettres Meynard (1872-1906)، وهو يحتوي في مجلداته الخمسة المطبوعة (باريس على نصوص وأقوال لمختلف المؤرخين، كابن الأثير وبهاء الدين وأبو الشامة وأبو الفداء.. الخ.. لكن هذا العمل الرائع (وإن كان غير عملي وغير ملائم للقراءة المتواصلة) كثيراً ما تم انتقاده بسبب الخيارات غير الموفقة وغير الأمينة للنصوص بل بسبب بعض أخطاء التفسير أيضاً، ومع هذا فإنه يبقى مرجعاً دراسياً مهمًا يستعمله المستشرقون وألمختصون بالقرن الوسطى على السواء.

يعتبر عملنا هذا شديد التواضع أمام العلمين اللذين استشهدنا بهما للتوكيل، وإذا كنا قد استفينا في محاولتنا هذه من كلا المؤلفين، فإن مراجعنا الأساسية هي النصوص المختلفة، التي أصبح أكثرها منشورة الآن، أما تلك التي لم تنشر بعد فيمكن مراجعتها بسهولة ضمن المجموعات الفتوغرافية المصورة للمخطوطات التاريخية المحفوظة في "مؤسسة كايتاني للدراسات الإسلامية" Fondazione Caetani Per gli studi musulmani في روما. النصوص التي استشهدنا بها مأخوذة عن سبعة عشر مؤلف، وهي إن لم تشكل كل المصادر الإسلامية التاريخية عن الحروب الصليبية، فإنها تشمل أكثرها أهمية، وتشكل محاولة لتقديم إطار متكملاً بما فيه الكفاية يستعرض مختلف النماذج والاتجاهات التاريخية والأدبية مما قدمنا عنه لمحات سريعة... أما الأحكام التي اتبعناها في اختيار النصوص فكانت تراعي، كما هو بدهي، أهمية الموضوع التاريخية من ناحية، ثم البحث من ناحية أخرى عن طابع إنساني وأدبي يكون حيوياً وهذا شأن ضمن الوريرة العامة للمصادر. أي عن بعض التفاصيل التصويرية البارزة، التي وإن لم تكن ذات أهمية تاريخية فائقة فإنها تنطبع بسهولة في الذاكرة وتبقى حية فيها. والحقيقة أن العديد من المؤرخين الشرقيين يميلون لمثل هذه التفاصيل التي اعترف أنها امتلكت مشاعر مصنفهم الحالي أيضاً. نجد على ضوء هذا أن القسم الثاني المخصص لصلاح الدين والحملة الثالثة قد نال بين ما اختربناه حصة الأسد، وكان هذا

بسبب أحد الحكمين المستشهد بهما رغم أنه يتمتع بالحق الأدنى في ذلك. بيد أن ما أمله هو أن تبرز من خلال هذه الصفحات الرؤية العامة والتفاصيل التي أعطانا إياها المسلمون عن ذلك العهد، وكذلك توجهات كل منهم، حيثما وجدت، وخصائص أساليبهم.

والآن، وبعد تصرّم شهور عديدة قضيتها في صحبة مؤرخي الحروب الصليبية أولئك، وبعد معاودتي سماع أصوات حادة النبرة، مغالية في عدائها لعقيدة أباينا، شديدة الغيرة الدينية وعميقة المحبة لتقاليدهم المتوارثة، قوية التعاطف مع ذكرياتها والإعجاب بإبطالها الشهداء الذين صنعوا في سبيل الدفاع عنها، بعد كل هذا فليسَح لجامع هذه النصوص بأن يعترف بمحبة واحترام حضارة كرسس سنوات طويلة من عمره لدراستها، رغم أنه لم يتمكن من الاقتراب منها كما يجب وفهمها في أعماقه حق التفهم. ومع هذا فإنها لم تظهر له أبداً قبل هذا الحين بكل مافيها من قوة تلهم الصبر وتكرس الذات والتصحّية ومرone فائقة ومقدرة على الآبعاد، ساعة تعاكسها الأقدار، وإيماناً حديدياً صلباً لا يلين بالملكوت السامي المطلق، هذا إلى جانب مافيها من عيوب وسلبيات ليس هناك الآن ضرورة للإصرار عليها. أما وقد اعتقدنا أن نصيغ كل المزايا المذكورة بتعابير توحّي بالعيوب والتواقص والمساوئ عندما نعرف أنها تتعلق بـ "الجهة الأخرى"، فلنعمل الآن إذن على تسميتها ولو لمرة واحدة بإسمها الحقيقي على ألا ننكر شيئاً من أهميتها وبدون أي تورع أو خوف.

ف.غ.  
روما، أيلول/سبتمبر 1957

تم في هذه الطبعة الثالثة من الكتاب تصويب بعض الأخطاء وتحديث بعض بيانات المراجع.

ف.غ.  
روما، آب/أوغست 1969

## مقدمة المُعرِّب

الْحَتَّ على فكرة إعداد هذا الكتاب بالعربية منذ معرفتي به للمرة الأولى بالإيطالية. وفكرة أنّه سيكون كتاباً "قديماً" و"حديثاً" في آن واحد، كتاب عن الحروب الصليبية بقلم مؤرخي العهد وقد لبس لباس عصرنا وتحلى بروح حلته. وقد قرأتنا أن غابرييلي قال في مقدمته إنه عمل على إعادة صياغة مواضع عمله صياغة افتراضية، فوازى وقارن ودمج مواد مختلف المؤلفات التي كتبها مسلمون في ذلك العهد عن تاريخ ذلك العهد. هذا بهدف (مساعدة القارئ الغربي على النظر إلى فترة الحروب الصليبية من "الجانب الآخر"، أي من وجهة نظر الخصم آنذاك). لهذا اعتقدت إن إخراج هذا الكتاب بالعربية سيساعد القارئ العربي هذه المرة على معرفة شئ عن الرؤية الغربية المعاصرة حول مجمل الأمر: كتاب عن الحروب الصليبية بقلم مؤرخين عرب لتلك الحقبة إذن، لكنه منسق ومنظم بطريقة علمية حديثة، ومن قبل غربياً يحاول أن يكون موضوعياً في رؤيته وعمله.

وتكلمت آنذاك مع الأستاذ غابرييلي، وبدأت بالعمل. ولم يكن بالسهولة التي تخيلتها بادئ ذي بدء: لكن بالعمل يمكن تجاوز كل صعوبة.

وقد وجهني الأستاذ غابرييلي آنذاك إلى أمين مكتبة كايتاني (الذي أصبح بعدها عميد كلية الدراسات الإسلامية في المعهد الشرقي في جامعة روما) وذلك لأنّه قادر على الحصول على صور لصفحات ذات الصلة في المخطوطات والمجلدات. كان من السهل تصوير بعض الكتب والمخطوطات بأجهزة الفوتوغرافي، لكن استعمال الميكروفيلم كان ضرورياً لتصوير بعضها الآخر. كان على إيجاد الكتب والمخطوطات المعنية في إرشيف المكتبة الضخم، ثم البحث في كل منها عن الصفحات التي تهمني والتي أشار إليها غابرييلي في كتابه الذي نقلت عنه. خرجت بعدها بمصنف واسع يضم صوراً لكل الصفحات الأصلية فجمعتها ورتبتها بحسب ما وردت في كتاب غابرييلي الإيطالي. وترجمت بالطبع كل ما كتبه غابرييلي من مقدمات وهوامش وفهارس وأضفتها إلى ذلك المصنف. كما أضفت إلى النصوص العربية المقتطفة التواريخ الميلادية التي وضعها غابرييلي إلى جانب التواريخ الهجرية الموجودة في النصوص الأصلية.

أورد في نهاية هذا الكتاب نماذج من صور طبق الأصل (فوتوغرافي) وميكروفيلم التي شكلت أساس المصنف المذكور وقوامه أكثر من 300 صفحة. وهي نماذج عن صور الصفحات الأصلية التي جمعتها ورتبتها بحسب ما وردت في كتاب غابرييلي الإيطالي.

لِمَ يمكن لأي ناشر أن يقبل تقييم الكتاب على أساس مصنف يجمع صوراً تصعب في كثير من الأحيان قراءة مافيها. وهكذا كان لابد من تنضيد

الكتاب من جديد. طال بي الزمان وأنا على هذه الحال إلى أن توفر في العالم الكمبيوتر ومن بعده الانترنت. فحاولت منذ فترة قريبة استعمال هذه التسهيلات وتمكنت من العثور على كثير من المواد المصنفة في مواقع الانترنت، وهكذا بدأت رحلة ثانية أقل صعوبة من الأولى لكنها ليست أقل تعقيداً. بحثت ووجدت ملفات كثيرة للكتب المعنية، وكان علي أن أستخلص من كل منها مقاطع المطلوبة. بعد لأي تمكنت من تجميع كثير من تلك المقاطع، لكن كثيراً منها أيضاً لم يكن موجوداً على الانترنت، أو أنها كانت موجودة بطريقة لا يمكن النسخ عنها أي بصورة PDF. وهكذا فإنه لم يكن [9] أمامي إلا العمل على تنضيد المقاطع الناقصة اطلاقاً من صور المصنف القديم.

ذكرت في الهوامش أسماء أهم الواقع التي أخذت عنها المقاطع [10] المعنية . وعلى هنا أن أسجل أن صفحات مقاطع الانترنت تختلف عن تلك الأصلية المستشهد بها. يتناول الاختلاف كلمات وعبارات بل وجملأً كاملة تزيد هنا أو تنقص هناك. ويبدو أن الطبعات التي أخذت عنها بعض مواقع الانترنت تختلف عن تلك التي نقل عنها غابرييلي كتابه. لذلك لابد أن تكون أرقام الصفحات التي أوردها غابرييلي، ونقلتها أنا بالطبع في هذا الكتاب، تختلف عن بعض الذي أخذته هنا أيضاً عن الانترنت. لكن المهم بمزيد من المتابعة عليه أن يعتمد الطبعات التي استشهد بها غابرييلي.

لقد بدأت باعداد هذا الكتاب في روما خلال سبعينيات القرن الماضي وتحت اشراف مؤلفه الأستاذ غابرييلي، وعاودت العمل فيه على فترات متقطعة، إلا أنه لم يتع لي أن انهيه إلا الآن وأنا في دمشق التي تشهد اليوم فترة عصيبة لاتخلو من بعض امتدادات ذاك الغزو الافرنجي الذي نحن بصدده، والذي عاد منذ فترة ليست قصيرة ليناوش كثيراً من بلداننا العربية. ومن هنا - مرة أخرى - أهمية مثل هذا الكتاب في هذه الفترة من التاريخ.

## الأعزل

صورة للرسالة التي كتبها لي البروفسور فرانشيسكو غابرييلي عام 1972 حول مقابلة أجريتها معه ونشرت في حينه. أسوقها هنا مع ترجمة لها بالعربية، مع أنه يؤسفني أنّي لم أتمكن من العثور على نص المقابلة. أشير إلى أن تعابير الل肯ة المستحبة والأعزل التي أشار إليها وردت في سياق المقابلة المذكورة.

الترجمة:  
معهد الشرق  
روما  
مكتب الرئيس روما  
14.9.1972

عزيززي نبيل

استلمت الثقافة وقرأت بسرور بالغ مقابلتك (وقد أسفت حول الل肯ة حتّى لو كانت مستحبّة، لأنّ المستعرب لن يتمكّن أبداً من التحدّث بلهجة العربيّ الأصيل...). لقد أعجبت بدقة وأمانة نقلك وتعبيرك حتّى عن أدقّ تفاصيل محادثنا. أشكرك لذلك مع ودّي الصادق.

أرجو أن نجتمع في لقاءات أخرى، وأحييك بكلّ ودّ

فرانشيسكو غابرييلي

الأعزل

ISTITUTO PER L'ORIENTE  
ROMA (I)  
VIA A. CANONICO 10

IL PRESIDENTE

ROMA,  
TELEF. 604.224

Roma, 14 IX 72

Caro Nabil,

ho ricevuto la Thacafa, ho letto con gran piacere la sua intervista (mi ha solo mortificato un po' la luqna, sia pur mustahabba; ma è fatale che un mustaqib non possa mai parlare come un farsiq puro...). Ho ammirato la precisione e fedeltà con cui Lei ha raccolto e reso sin nelle sfumature quella nostra conversazione; La ringrazio perciò con vera cordialità.

Spero in altre occasioni di incontro, e La saluto intanto amichevolmente

*Amo Junges Frisch*  
S:VI

## ملاحظات ببليوغرافية (1)

هناك كتابان تاريخيان كاملاً وحديثاً العهد يدوران حول الحروب الصليبية، دون أن يكون واصعاًهما من المستشرقين، لكنهما اعتمدما على أي حال على *Recueil de Reinaud* وهما:

R.GROUSSET, *Histoire des Croisades et du royaume franc* -1  
.36- 1943 de Jerusalem, Paris

ST.RUNCIMAN, *A History of the Crusades*, Cambridge -2  
.54 - 1951

يقع كل من هذين المؤلفين في ثلاثة مجلدات تحتوي على ببليوغرافية واسعة (وقد قدم R.GROUSSET نفسه ملخصاً عاماً سهلاً في *L'epopee des Croisades* طبعة باريس 1939). أما عن كتاب *History of the Crusades* الواسع والذي أتمه العديد من المساعدين بإشراف Setton La Monte و Film The later و The first hunfred years يصدر منه حتى الآن إلا جزءان في *Crusades* 1311-1189، فيلاديلفيا 1955-1962. كما أن هناك كتاب عن *الستوريوغرافية الإسلامية وأشكالها المختلفة* لـ F.ROSENTHAL وهو A *History of Muslim Historiography* Leiden طبعة 1952، لكن الاستعراض والتقييم العميقين للمؤرخين العرب للحروب الصليبية نجدهما لدى CL.CAHEN في كتاب:

*La syrie du Nord a' I "époque des Croisades et la principaute'* (francque d' Antioche, (Les sources arabes 93 - 33

وهناك معالجة محدثة أجرها CAHEN نفسه في مقالة *Croisades* في *Encyclopedie de l'Islam*. 1961-من الممكن أيضاً مراجعة مقالتنا في *Historiography of the Crusades* 1962 اوكسفورد 1962. وكذلك مقالتنا بالإيطالية *L'Islam nella storia* طبعة باري 1966 في *Historians of the Middle East* 1966 الصفحات 193-209. ونرى أنه من غير المفيد إيراد ببليوغرافية دقيقة وخصوصية جداً عن كل المؤلفين وعن كل المواضيع على انفراد، ولذلك فإننا سنذكر فقط الدراسات الثلاث المهمة لـ H.A.R.GIBB ألا وهي:

, *Note on the arabic materials for the history of the early Crusades-*  
الموجودة في (*Bulletin of the school of Oriental Studies*), العدد السابع  
(1935)، الصفحات 739 - 754

25, *speculum*، في (*The arabic sources for the life of Saladin-*  
(1950)، الصفحات 58 - 72)

The achievement of Saladin, (Bulletin of the John Rylands-Library (العدد 35(1952)، الصفحات 44 - 60) وفِيمَا يتعلّق بصلاح الدين تمكّن مراجعة ما كتبناه عنه في كتاب Storia e Firenze 1948 1947 وثم طبعة فلورنسة civilta musulmana . ثم Der Sturz des (1187 - 583) في J.KRAEMER der Darstellung des Imad ad-din al 1952 Wiesbaden -Konigraiches Jerusalem B.Lewis The sources for the history of the Syrian ,Katib al Isfahani F.GABRIELI, 89 - 475 (1952)27 (Speculum) في assassins Gli Ospitalieri di S.Giovanni negli storici muslimani delle Crociate 56 - 345 ((annuario delle R.scuola archeological di Atene 9 - 8 (1929)

## ملاحظات ببليوغرافية (2)

- رأيت أن أورد هنا الإضافات الببليوغرافية التي وردت في الطبعة الثالثة الإيطالية لكتاب عام 1969
- صدرت ترجمة ايطالية لكتاب L'epopee des Croisades السابق الذكر - ميلانو 1968
  - صدر لـ A.WASS كتاب Freiburg - Geschechte der Kreuzzuge الجزء الثاني 1956
  - F.cognasso- Storia delle crociate ميلانو 1967
  - Z.OLDENBOURG- Histoire des Croisades باريس 1967
  - صدر الجزء الثاني من The first hundred years the Later Crusades 1311-1109 فيلادلفيا 1962
  - صدرت طبعة ثانية من كتاب A History of Muslim Historiography Leiden 1968
  - معالجة لـ CAHEN للمقال Croisades in Encyclopedie del' Islam ص. 64 - 76 الطبعة الثانية 1961
  - وهناك فصل لغابرييلي نفسه في كتاب Historiens of the Middle East أوكسفورد 1962 ص. 98 - 107
  - وفي الإيطالية في كتاب Bari - L'Islam nella storia باري 1966 ص. 195 - 209
  - وكتاب The Assassins لندن 1967

## المؤلفون والكتب

[11]

### ابن القلansi

هو أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي، المشهور بابن القلansi (دمشق، حوالي 1073/465 - 555/1160). وهو أقدم مؤرخ عربي تناول الحروب الصليبية وذلك في تاريخه المشهور بـ "ذيل تاريخ دمشق" (اشارة لتاريخ يحمل نفس العنوان لـ هلال الصابي).

يذهب هذا التاريخ الذي وصلنا عبر مخطوطة فريدة - من عام 363/974 وحتى عام 555/1160، أي نفس العام الذي توفي فيه المؤلف، وقد روى فيه أحداث بلاد ما بين الرافدين، ولكن، وقبل كل شيء، تاريخ سوريا ودمشق حيث تقلد ابن القلansi مناصب ادارية وبلدية. وقد تناول في تاريخه، المأخوذ عن مصادر مباشرة، الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية وذلك حتى أوائل العهد الذي دخل فيه نور الدين إلى دمشق.

الجدير بالذكر أن روايته شاملة محيطة وأمينة وتحتوي على بعض التفاصيل حول أمراء دمشقيين من أسرة طفتكن، وهي مكتوبة بأسلوب جاف وموضوعي، عدا عن بعض الفصول حيث يوجد نثر مزخرف. يتسم تاريخ ابن القلansi بالموضوعية العامة، كما أن معاصرة المؤلف للحوادث المرورية وجود بعض الوثائق في الكتاب يجعل من هذا التاريخ مرجعاً أساسياً حول أقدم عهد من عهود الحروب الصليبية.

النص: طبعة Leiden, Amedroz 1908.

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
45-52, 55-56, 58-64, 67-69, 72-75.

### ابن الأثير

هو عز الدين ابن الأثير (جزيرة ابن عمر 555/1160 - الموصل 630/1233)، أشهر إخوة ثلاثة من عائلة كانت تقطن بلاد ما بين الرافدين، واشتهرت بثقافتها العربية الإسلامية. أهم أعماله هو "كامل التواریخ"، وهو تاريخ لكل العالم الإسلامي يبدأ بالأسطورة والتاريخ العربي - العبري السابق لرسالة محمد، وحتى عام 628/1231. يكرر بشكل عام في قسمه القديم (حتى أوائل القرن العاشر بعد الميلاد) الأحداث الواردة في المجموعة التاريخية الكبرى لابن الطبرى، لكنه يعتبر مصدرأً مهماً جداً فيما يتعلق بالقرون الثلاثة الأخيرة وعلى الأخص بالنسبة للحقبة التي عاصرها المؤلف. ويتميز الكتاب بشمولية الرؤية وتوازن البناء وغنى المواد المجمعة، وأخيراً وليس آخرأً، بوجود رؤية تاريخية صلدة وشخصية واضحة متميزة. يجعل هذا من ابن الأثير "المؤرخ"

**الحقيقي الوحيد**" العربي في هذا العهد. لكن هذه الشخصية الفذة ولدت عيوباً وهنّات مثل تعاطفه أحياناً مع العائلة الزنكية العراقية (زنكي ونور الدين وأتباعهما)، كما أنه يبدو أحياناً أخرى غير دقيق في معالجة مصادره. ولكن رغم هذه التحفظات فإن بنية كتابه تدعو للإعجاب، فهو مؤلف يحيط بكل ملء العالم الإسلامي بدءاً من بلاد ما وراء النهر وحتى بلاد المغرب وأسبانيا. كما نرى أنه يتبع أسلوب الأحداث وروابطها، ويجيد تصنيفها في عرض واضح فعال وذلك رغم هيكلية الحوليات المتباينة. أما فيما يتعلق بتاريخ الحروب الصليبية فان ابن الأثير كان شاهد عيان، ولم يكن دائم الإعجاب بفضائل صلاح الدين، واعتمد في بحوثه على مصادر مثل ابن القلansi وبهاء الدين وامام الدين (راجع عنهم الصفحات التالية). وقد كان لوضوح أسلوبه الذي يقصد جوهر الأحداث بعيداً عن وحشي الكلام ومزخرفه أن ساهم في جعله مؤرخاً رئيسياً لأوائل العهد المتوسط الإسلامي.

النص، طبعة Tornberg، المجلدات 10 - 11 - 12 - 1853 Leiden،  
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
64 - 65-69، 70-75، 77-103، 110-117، 122-138، 148-152، 153-158، 179-187.

## كمال الدين

هو كمال الدين ابن العديم (حلب 588/1192 - القاهرة 660/1262) كان مؤرحاً لمدينة مولده، وخاصة من خلال مؤلف ضخم ذي طابع وصفي، وهو "بغية الطلب" الذي لم يصلنا منه إلا قسم ما زال غير منشور. قام بعدها بتجمیع المواد ضمن تاريخ محلی هو "زیدة الحلب في تاريخ حلب"، والذي يصل حتى عام 641/1243، ويشکل هذا الكتاب بالنسبة لحلب في القرنين الثاني والثالث عشر ما شكله بالنسبة لدمشق في القرن الثاني عشر تاريخ ابن القلansi. أما فيما يتعلق بتاريخ الحروب الصليبية، فإن هذا الكتاب يهمنا قبل كل شيء كشهادة عربية حول حوادث سوريا الشمالية.

النص، طبعة سامي الدهان، الجزء الثاني، دمشق 1954  
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
53-55

## أسامي

هو أسامي بن منقذ، أمير شيزر (شيزر 488/1095 - دمشق 584/1188)، من أهم شخصيات العروبة السورية في عهد الحروب الصليبية. رجل سياسة وأدب، فارس وصياد، رجل قول وفعل، سياسي مخاتل قليل الوساوس، أمضى حياته الطويلة في علاقاته مع الفرنج وأمراء سوريا وخلفاء مصر

الفااطميين، مات بعدها ميّة غامضة في قمة انتصارات صلاح الدين. تعود شهرته لكتاب عن سيرته الذاتية عنوانه "كتاب الاعتبار"، والذي وصلنا ناقصاً عبر مخطوطة عن الايسکوریال، وهو عبارة عن صورة صادقة عنه نفسه، كما أنه كنز من الأخبار الخفية الخاصة ببعض معاصريه من الإسلام والفرنج. ولم يصلنا من إنتاجه الأدبي والفنى إلا الجزء البسيط، ومن بينه "كتاب العصا"، وهو مجموعة كتبت بالطريقة العربية وضمت النواود والقصائد والشعارات والأمثال حول العصى. وعنده أخذنا آخر مقتطفاتنا.

النص طبعة Derenbourg H. Derenbourg 1886 (والقسم الأخير، Ousama ibn Mounkidh; Un emir syrien au premier siecle des Croisades

(528/29. PP - 1893 I Paris

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

78-84

## بهاء الدين

هو بهاء الدين بن شداد (الموصل 539/1145 - حلب 632/1234)، دخل عام 1188 في خدمة صلاح الدين الذي عينه قاضياً للجيش، ويقي مخلصاً له حتى وفاته. وقد أصبح، تحت حكم أوائل من خلفوه، كبير قضاة حلب. وسيرته عن صلاح الدين "النواود السلطانية والمحاسن اليوسيفية" (يوسف هو الاسم الشخصي لصلاح الدين) إنما هي من أجود المصادر التاريخية والتصنيفية، وقد أملأها عليه تقاه الصادق وإعجابه الحالي من أي خنوع أو محاباة أو مداهنة. وهي تعتمد في قسم كبير منها على التجربة المباشرة المملاة بأسلوب سهل خال من المحسنات الأدبية، كما أنها تعطينا صورة كاملة عن هذا البطل من الجانب الإسلامي، فضلاً عن كونها تاريخ حي عن الحملة الصليبية الثالثة.

النص في، Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux 1884، الجزء الثالث، باريس

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

182-185، 169-174، 162-168، 160-161، 158، 153-155، 148-152، 86-102.

## عماد الدين

وهو إمام الدين الأصفهاني (أصفهان 519/1125 - 597/1201)، كان كاتب نور الدين ومن بعده صلاح الدين، وقد كان يعمل تحت إمرته القاضي الفاضل في ديوان الكتابة. وهو أديب وخطيب فحل، ألف كتاباً فيه مختارات قيمة من الشعراء العرب في القرن الثاني عشر، فضلاً عن مؤلفات تاريخية مختلفة، كتبها بأسلوب منمق مطرز بالبديع وبنثر مسجوع وموزون، وعبر سلسلة متواصلة من التشابيه والصور والتلاء بالألفاظ. لكن هذا الأسلوب الصعب

والغث سرعان مادفع بعض المصنفين كأبي الشامة (راجع الصفحة التالية) لاستخلاص الأحداث من ضمن القشور المزخرفة الموجودة في الأصل، لكنه علينا أن نعود دائمًا إلى ذاك الأصل كلما أردنا أن نعرف أموراً تاريخية مهمة يصعب العثور عليها في ملخصات التصنيف. وقد وصل إلينا كاملاً، وهو الآن مطبوع، مؤلفه عن فتح القدس والذي يصل حتى وفاة صلاح الدين، وهو "الفتح القسي في الفتح القدسي" (نرى أن التلاعب بالألفاظ بدأ منذ العنوان)، أما كتاب "البرق الشامي" فلم يصل إلينا كاملاً كما أنه مازال غير مطبوع، وهو يتناول حياة ومكارم صلاح الدين منذ عام 1175. على أن الدراسات الحديثة بدأت تجد تحت شكل هذين المؤلفين الذي لا يطاق مصدرًا واسعًا لسيرة الأيوبي الكبير وللحوادث التي كان هو يطلها في سوريا وما بين النهرين، كما أنها رأت في إمام الدين مؤلفاً قيماً دقيقاً وأميناً وغنياً بالمعلومات المهمة. لكننا سنرى في الماقطع التي اعتمدناها كيف أن المعطيات البسيطة مغمورة في بحر مرعب من التراثات.

النص طبعة 1888 Leiden-Landberg  
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
174-176، 155-157، 122-137، 110-117

## أبو شامة

هو شهاب الدين أبو القاسم أبو شامة (دمشق 599/1203 - 665/1267)، باحث ومعلم، كان مصنفاً "مكتبياً"، جمع في مؤلفه "كتاب الروضتين" (الذي يدور حول أسرتي نور الدين وصلاح الدين) كثيراً من المواد التاريخية التي نعرف الآن أكثرها من خلال مصادرها الأساسية. كان كثير الاستشهاد بالمصادر المأخوذة عن ابن القلansي وإمام الدين (بعد وضعه في شكل سهل مقبول) وبهاء الدين وابن الأثير.. الخ.. وبهمنا أكثر ما بهمنا فيه استشهاداته بمؤلفات مفقودة للمؤرخ الشيعي الحلبي ابن أبي الطyi، الذي ألف هو أيضاً كتاباً عن سيرة صلاح الدين. وقد حفظ لنا "كتاب الروضتين" وثائقاً كثيرة كانت في ديوان السلطان صلاح الدين، جمعها كاتبه الأول القاضي الفاضل والذي قام أيضاً بتنسيق مجموعات خاصة للرسائل.

النص، طبعة القاهرة 1870/1287  
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
162

## مناقب رشيد الدين

تشير تحت هذا العنوان إلى مؤلف فريد من نوعه أثانا عن طائفة الأسماعيليين في سوريا (الحساشين). وهو عبارة عن مجموعة من الذكريات

والنوادر عن "الشيخ الأعظم" رشيد الدين سنان، الذي عاصر صلاح الدين وتزعم الطائفة في سوريا عندما كانت على جانب كبير من الهيبة. نجد في الكتاب مواد عن القيم والأخلاقيات أكثر من المواد التاريخية التي يمكن الاعتماد عليها. وقد جمعها كلها عام 1324 أحد أتباع الطائفة المجهولين، وهو الشيخ أبو فراس من مأonce، كانت قوة الاسماعيليين في ذلك الوقت قد شارفت منذ حين بعيد على الغياب. ويمكننا أن نرى في النص الذي اقتطفناه شيئاً عن مقتل ملك فرنسا "ريدا فرنس كونراد" لكن تحت كثيـر من التلوين البلاغي.

- النص في: سلسلة Journal Asiatique، الجزء السابع، الصفحات 324 - 489

.(S.GUYARD, Un grand Maitre des Assassins au temps de Saladin)  
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
179-181

### ابن واصل

وهو جمال الدين بن واصل (حماة 1207/604 - 697/1298)، حصل على مناصب عديدة في أواخر عهد الأيوبيين وأوائل عهد المماليك، عُيـن عام 1261 سفيراً لبيبرس لدى منفريـد، ثم أصبح كـيراً لقضاء مـسـقط رأسـه حـماـه. أهم مؤلفاته "مـفـرـجـ الـكـروـبـ فيـ أـخـبـارـ بـنـيـ آـيـوبـ" الـذـي يـدورـ حـولـ أـسـرـةـ صـلاحـ الـدـيـنـ، وـلـكـنـهـ تـنـاـوـلـ أـيـضـاـ مـنـ سـبـقـهـاـ مـنـ السـلـالـةـ الـزنـكـيـةـ، وـمـنـ تـلـاهـاـ مـنـ الـأـسـرـةـ الـمـمـلـوـكـيـةـ وـذـلـكـ حـتـىـ عـامـ 1282/680. لـهـذاـ يـعـتـبـرـ الـكـتـابـ مـنـ أـهـمـ الـمـصـادـرـ حـولـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبـيـةـ فـيـ الـقـرـنـ الثـانـيـ عـشـرـ (الـحـمـلـةـ الـخـامـسـةـ، رـحـلـةـ فـرـدـوـيـكـ الـثـانـيـ، حـمـلـةـ سـانـ لـويـسـ)، وـعـنـهـ أـخـذـ أـوـاـخـرـ الـمـصـنـفـيـنـ. لـكـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ لـمـ يـنـلـ مـاـ يـسـتـحـقـهـ مـنـ اـهـتـمـامـ خـلـالـ وـقـتـ طـوـيـلـ مـنـ الـزـمـانـ وـبـقـيـ غـيـرـ مـطـبـوعـ، حـتـىـ [12]

تم نشره منذ زمن قريب .

النص: مخطوطة عربية - ms.Ar. 1702 (صور طبق الأصل في مكتبة كايتاني).

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
206-216, 193-198

### سيـطـ ابنـ الجـوزـيـ

وـهـوـ حـفـيدـ (ـسـيـطـ)ـ الـمـؤـرـخـ اـبـنـ الـجـوزـيـ،ـ كـانـ خـطـيـباـ مـرـمـوـقاـ،ـ عـاشـ مـدـةـ طـوـيـلةـ فـيـ دـمـشـقـ فـيـ قـصـورـ الـأـيـوبـيـيـنـ (ـبـغـدـادـ 582/1186 - دـمـشـقـ 654/1256).ـ وـصـلـ إـلـيـنـاـ مـؤـلـفـهـ الشـامـلـ الصـخـمـ وـالـدـقـيقـ "ـمـرـآـةـ الزـمـانـ"ـ فـيـ نـسـخـتـيـنـ،ـ وـتـعـودـ أـهـمـيـتـهـ،ـ قـبـلـ كـلـ شـيـءـ،ـ لـمـؤـلـفـهـ وـلـمـاـ يـذـكـرـهـ عـنـ الـحـوـادـثـ فـيـ سـوـرـيـاـ:ـ فـبـفـضـلـهـ

على سبيل المثال تعرفنا إلى التفاصيل المهمة حول زيارة فردريك إلى القدس، وتعرفنا كذلك إلى تفاصيل تصويرية تعود إلى القرن الأسبق وتدور حول حصار دمشق أيام الحملة الثانية.

النص: طبعة ناقصة Jewett, شيكاغو 1907 (495 - 654 هـ). أما النص حول حصار دمشق، فيطلب في هامش في كتاب ابن القلansi، طبعة Amedroz وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

.199-200, 70-71

### تأريخ المنصوري

تأريخ يصل حتى عام 631/1233، لمؤلف مغمور من حاشية أمراء الأيوبيين في سوريا، وهو أبو الفضل من حماة. الكتاب مكرس للملك المنصور ملك حمص (وهذا مايدل عليه عنوان الكتاب). وهو مهم بسبب مافيه من أخبار عن فردريك الثاني في الأراضي المقدسة، ونص رسائله العربية بعد أن عاد إلى إيطاليا مباشرة، وكذلك عن آخر أخبار المسلمين في صقلية، والتي وصلت إلى الشرق مع مهاجرين ومبعوثين عرب - صقليين. وقد نشر ميكيل أماري MICHELE AMARI هذه المقتطفات الثمينة الماخوذة من المخطوطة الفريدة غير المطبوعة والمحفوظة في المتحف الآسيوي في بطرسبurg (لينيفراد).

النص في الملحق الثاني ل Biblioteca Arabo-Sicula, Seconda 1887 Appendice, Leipzig وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

203-205

### ابن عبد الزاهر

وهو محي الدين بن عبد الزاهر (القاهرة 620/1233 - 692/1293)، كان كاتباً عند السلطانين المملوكيين بيبرس وقلاؤون، ومدوّناً للأحداث الرسمية في ديوانهم، ومن ثم أصبح مؤرخهم ومدون سيرهم من معلومات جمعها. لكنه لم يبق لنا من سيرة بيبرس المسماة "سيرة الملك الظاهر" إلا بعض الفصول الأصلية فضلاً عن ملخص لها حرره شافع العسقلاني قريب المؤلف. وهناك قسم كبير من سيرة قلاؤون في "تشريف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور". كتب ابن عبد الزاهر أيضاً سيرة ابن قلاؤون، الأشرف وهو فاتح عكا، ولم ينشر منه حتى الآن إلا جزء يسير. وكل ما تبقى من أعمال الكاتب ما زال حتى الآن غير منشور، ذلك رغم ماله من أهمية كشاهد مباشر عن الأحداث المروية، وناشر لوثائق رسمية قيمة (رسائل، أخبار... الخ..). يبقى على أي حال امراً طبيعياً أن تدفعنا مواقفه ومديحه لسلطانه إلى التمهل في الاستفادة التاريخية منه.

النص: "مختصر شافع حول حياة بيبرس"، مخطوطة عربية ms.an باريس 1707 وتشريف (حياة قلاوون) مخطوطة عربية ms.ar باريس 1704 (عن صور طبق الأصل في مكتبة كايتاني).

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

.231-235, 226, 221-224

## تشريف

(راجع ابن عبد الراهن)

## المقرزي

وهو تقي الدين المقرزي (القاهرة 766/1364 - 845/1442)، باحث وعالم ضلبي يهتم بالأثريات، جمع مواداً هامة حول تصاريض مصر التاريخية. له أهمية خاصة بالنسبة للفترة التي نحن بصددها بفضل أحد كتبه التاريخية، الذي يكاد يعتمد كلية على تصنيف مقتطفات من: (ابن واصل، سبط ابن الجوزي، ابن عبد الراهن، ومصادر أخرى أقل أهمية)، ويبقى كذلك مهماً وضرورياً على مانعرف حالياً، بفضل كتابه الآخر: "كتاب السلوك في معرفة تاريخ الملوك"، الذي يتناول تاريخ الأيوبيين والمماليك منذ عام 577/1181 حتى عام 840/1436. ولهذا الكتاب أهمية خاصة لتناوله الحملتين الصليبيتين على مصر والانتصارات المملوكية النهائية في سوريا.

النص: طبعة م. زيادة، الجزء الأول، القاهرة 1934

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

.241-242, 216-219

## ابن الفرات

وهو نصر الدين بن الفرات (القاهرة 735/1334 - 807/1405)، يعتبر مثله مثل المقرزي وأكثر المعاصرین مصنفاً كبيراً. تتبع أهميته عن أهمية المصادر التي نقل عنها. أما مؤلفه "تاريخ الدول والملوك" فلم يصلنا كاملاً ومازال قسم كبير منه غير مطبوع وهو يصل حتى القرن الرابع عشر، وفيه مواد مهمة تتناول عهد أوائل المماليك. من مزايا ابن الفرات الأخرى المعترف بها منذ حين أنه استشهد - مثلما فعل أبو شامة - بالمؤلف المفقود لابن أبي طي حول عهد صلاح الدين.

النص: مخطوطة عربية - فيينا A.F 814 - ms.Ar .4,5 (عن

صورة طبق الأصل في مكتبة كايتاني)

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

.236-237, 227-229, 225-226

## العيني

وهو بدر الدين العيني (عنتاب 762/1360 - القاهرة 855/1451) سياسيًّا وموظف لدى المماليك، عالم ودارس للتاريخ السني، ألف تاريخاً عاماً "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، تبع أهميته - كالعادة - بسبب المصادر التي أخذ عنها، سواء لم تكن معروفة بعد أو غير متوفرة.

النص في: Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux

الجزء الثاني، باريس 1887  
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
.229-230

## أبو الفداء

وهو أبو الفداء إمام الدين اسماعيل بن علي الأيوبي، وهو (أبو الفدا) لدى مستعربي القرنين الثامن والتاسع عشر (دمشق 672/1273 - حماة 1331/732) أمير أديب طريف، يذكرنا بعض الشيء بأسامة. وهو أحد أفراد العائلة الأيوبية، برع عندما بدأت تفقد قوتها الذاتية المستقلة، وبعد أن هزمها المماليك في كل من مصر وسوريا. لكنه انتزع اعتراف العائلة به ليعمل تحت سلطتهم سيداً على مدينة أجداده حماه، وقد حكمها تحت لقب الملك المؤيد حتى وفاته. أهم مؤلفاته كتاب "مختصر تاريخ البشر" التاريخي، وكتاب "تقويم البلدان" الجغرافي، وكان هذان الكتابان من أوائل الكتب الأدبية العربية التي عرفت ونشر بعضها في أوروبا منذ بداية عهد الاستشراق الحديث. هذا مما أدى إلى إعطاء هذين التصنيفين أهمية أكبر مما يستحقان، إلا أن هذا بقي أمراً مؤقتاً زال بعد التعرف إلى كتب أقدم وأكثر أصالة. أهم ما في تاريخه هو ما كتبه عن أحداث عاصرها هذا المؤلف الذي ساهم منذ صباه في حروب المماليك ضد طرابلس وعكا، فكان شاهد عيان للخاتمة الماساوية للحروب الصليبية.

النص في: Recueil des Historiens des Croisades, historiens orientaux

الجزء الأول، باريس 1872  
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:  
.241-244

## أبو المحاسن

وهو أبو المحاسن بن طغر بيردي (القاهرة 813/1411 - 874/1469)، وهو أيضاً من جملة العلماء في عهد المماليك. ويعتبر تاريخه "النجوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة" أوسع تاريخ عام عن بلده منذ الفتح العربي حتى عام

857/1453، لكن هذا الكتاب أيضاً يقوم على التصنيف. إن كتاب أبو الفداء، ثم ما أملأه لنا أبو المحاسن عن حصار ومجازرة عكا تحت قيادة الأشرف (الذي يعتمد بكل تأكيد على مصادر معاصرة) يعتبر أهم نص إسلامي وصلنا حول هذا الحدث، خاصة وأن الأمر لم يذكر في القسم المطبوع من سيرة ابن عبد الزاهر عن ذاك السلطان.

النص: مخطوطة عربية - ms.Ar باريس 1873(عن صور طبق الأصل في

[13]

مكتبة كايتاني)

وردت المقطفات في الصفحات التالية:

.244-246

# المؤرخون العرب للحروب الصليبية

## القسم الأول: من كندي إلى صلاح الدين

ابن القلansi وابن الأثير هما المدران الرئيسيان في روايتنا هذه عن الحملة الصليبية الأولى. سنلاحظ أن المؤرخ الدمشقي يكتفي بتقديم رواية إخبارية عن الأحداث، بينما يعمل ابن الأثير على ربط ظاهرة الحملات الصليبية بحركة الهجوم المسيحي على الإسلام (من تطورات استعادة إسبانيا إلى استيلاء النورماند على صقلية). على هذا الأساس يقدم لنا مؤرخ مابين النهرين، بطريقة شاملة وفعالة و مباشرة، رواياته عن سقوط أنطاكيه والقدس في أيدي الصليبيين ثم تقدمهم في الأرضي المقدسة وكذلك ردات الفعل الإسلامية الأولى.

## استيلاء الفرنجة على أنطاكيه

[14]

ابن الأثير (188-10/185)

كَانَ اِبْتَادُ ظُهُورِ دُوَلَةِ الْفَرِنْجِ، وَاسْتِدَادُ اُمَّرِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ إِلَى بِلَادِ اِسْلَامِ، وَاسْتِيَالَاهُمْ عَلَى بَعْضِهَا، سَنَةَ تَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمَائَةٍ، (1085-1086م) فَمَلَكُوا مَدِينَةَ طَلِيْطَلَةَ وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ الْأَنْذَلِسِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَصَدُوا سَنَةَ

[15]

أَرْبَعَ وَتَمَانِينَ وَأَرْبَعِمَائَةٍ (1091م) جَزِيرَةَ صِقلِّيَّةَ وَمَلَكُوها ، وَقَدْ ذَكَرْتُهُ أَيْضًا، وَنَطَرَّقُوا إِلَى أَطْرَافِ إِفْرِيقِيَّةَ، فَمَلَكُوا مِنْهَا شَيْئًا وَأَخْدَى مِنْهُمْ، ثُمَّ مَلَكُوا غَيْرَهُ عَلَى مَا نَرَاهُ. فَلَمَّا كَانَ سَنَةَ تِسْعِينَ وَأَرْبَعِمَائَةٍ (1097م) خَرَجُوا إِلَى بِلَادِ السَّامِ،

[16]

وَكَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ أَيْنَ مَلِكُوهُمْ بِزَوْبِلَ جَمَعَ جَمِيعًا كَثِيرًا مِنَ الْفَرِنْجِ، وَكَانَ تَسِيبُ رُجَاحَ الْفَرِنْجِيِّ الَّذِي مَلَكَ صِقلِّيَّةَ فَأَرْسَلَ إِلَى رُجَاحَ يَقُولُ لَهُ: "قَدْ جَمِعْتُ جَمِيعًا كَثِيرًا، وَأَنَا وَاصِلُ إِلَيْكَ، وَسَائِرُ مِنْ عِنْدِكَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ أَفْتَحُهَا، وَأَكُونُ مُجَاوِرًا لَكَ". فَجَمَعَ رُجَاحَ أَصْحَابَهُ، وَاسْتَسَارَ فِي ذَلِكَ، وَقَالُوا: وَحْقُ الْإِنْجِيلِ هَذَا حِيدُ لَنَا وَلَهُمْ، وَتُصْبِحُ الْبِلَادُ بِلَادَ النَّصْرَانِيَّةِ". قَرَفَ رِجْلُهُ وَحَبَقَ حَبْقَةً عَظِيمَةً

[17]

وَقَالَ: "وَحْقٌ دِينِي، هَذِهِ حَيْثُ مِنْ كَلَامُكُمْ!" قَالُوا: "وَكَيْفَ ذَلِكَ؟" قَالَ: "إِذَا وَصَلُوا إِلَيْهِ أَخْتَارُ إِلَى كُلُّفَةٍ كَثِيرَةٍ، وَمَرَاكِبَ تَحْمِلُهُمْ إِلَيْيَ إِفْرِيقِيَّةَ، وَعَسَاكِرٌ مِنْ عِنْدِي أَيْضًا، فَإِنْ فَتَحُوا الْبِلَادَ كَانَتْ لَهُمْ، وَصَارَتِ الْمَؤْنَةُ لَهُمْ مِنْ صِقلِّيَّةَ وَيَنْقُطُعُ عَنِّي مَا يَصِلُ مِنَ الْمَالِ مِنْ تَمَنِ الْغَلَاتِ كُلُّ سَنَةٍ، وَإِنْ لَمْ يُفْلِحُوا رَجَعُوا

[18]

إِلَى بِلَادِي، وَتَأْذِيَتْ بِهِمْ، وَيَقُولُ تَمِيمُ: عَدَرْتُ بِي، وَنَفَصَتْ عَهْدِي، وَتَنْقَطَعُ الْوَضْلَهُ وَالْأَسْفَارُ بَيْتَنَا، وَبِلَادُ إِفْرِيقِيَّةَ بَاقِيَهُ لَنَا، مَتَى وَجَدْنَا فُوَّهَ أَخْدَنَاهَا". وَأَحْصَبَ رَسُولَهُ، وَقَالَ لَهُ: "إِذَا عَرَمْتُمْ عَلَى جِهَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَفْصَلُ ذَلِكَ فَتُخْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، تُخَلِّصُونَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَكُونُ لَكُمُ الْفَحْرُ، وَأَمَّا إِفْرِيقِيَّةَ فَبَيْنِ

وَبَيْنَ أَهْلِهَا أَيْمَانٌ وَعُهْوُدٌ". فَتَجَهَّزُوا، وَخَرَجُوا إِلَى السَّامِ، وَقِيلَ: إِنَّ أَصْحَابَ مِصْرَ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ، لَمَّا رَأَوَا فُوَّهَ الدَّوْلَةِ السُّلْجُوقِيَّةِ، وَتَمَكَّنُوا وَاسْتِلَاءَهَا عَلَى يَلَادِ السَّامِ إِلَى غَرَّةً، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مِصْرَ وَلَائِهِ أُخْرَى تَمَنُّهُمْ، وَدُخُولَ [19]

أَفْسِيسَ إِلَى مِصْرَ وَحَصْرَهَا؛ حَافُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى الْفِرْنِجِ يَدْعُونَهُمْ إِلَى

[20]

الْخُرُوجِ إِلَى السَّامِ لِيَمْلِكُوهُ، وَيَكُونُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. (وَاللهُ أَعْلَمُ). قَلَّمَا عَزَمَ الْفِرْنِجُ عَلَى قَضْدِ السَّامِ، وَسَارُوا إِلَى الْفُسْطَاطِيَّةِ لِيَعْبُرُوا الْمَجَازَ إِلَى يَلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَسْبِيرُوا فِي الْبَرِّ، فَيَكُونُ أَسْهَلٌ عَلَيْهِمْ، قَلَّمَا وَصَلَوَا إِلَيْهَا مَنَعُهُمْ مَلِكُ الرُّومِ مِنِ الْإِحْتِيَازِ بِيَلَادِهِ، وَقَالَ: "لَا أَمْكَنْكُمْ مِنَ الْغُبُورِ إِلَى يَلَادِ الإِسْلَامِ حَتَّى تَخْلُفُوا لِي أَنْكُمْ تَسْلُمُونَ إِلَيَّ أَنْطَاكِيَّةَ"، وَكَانَ قَصْدُهُ أَنْ يَحْتَهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى يَلَادِ الإِسْلَامِ، طَلَّا مِنْهُمْ أَنْهُمْ أَنْتَرَكُ لَا يَبْقَوْنَ مِنْهُمْ أَحَدًا، لِمَا رَأَى مِنْ صَرَاوِيَّهُمْ وَمَلَكِهِمُ الْبَلَادَ. فَاجْبَوْهُ إِلَى ذَلِكَ، وَعَبَرُوا الْخَلِيجَ عَنْدَ الْفُسْطَاطِيَّةِ سَنَةَ تِسْعَينَ [أَوْ أَرْبَعِمَائِةِ] (1097م)، وَوَصَلُوا إِلَى يَلَادِ فِلِيَّجِ أَرْسَلَانَ بْنِ سَلِيمَانَ بْنِ قُلْتِمِشَ، وَهِيَ فُونِيَّةٌ وَغَيْرُهَا، قَلَّمَا وَصَلَوَا إِلَيْهَا لِقِيَّهُمْ فِلِيَّجُ أَرْسَلَانُ فِي جَمْوِعِهِ، وَمَنَعُهُمْ، فَقَاتَلُوهُ فَهَزَمُوهُ فِي رَجِبِ سَنَةِ تِسْعَينَ [21]

وَأَرْبَعِمَائِةِ (تموز - لولية 1097م)، وَاجْتَازُوا فِي يَلَادِهِ إِلَى يَلَادِ ابْنِ الْأَرْمَنِيِّ ،

فَسَلَكُوهَا، وَخَرَجُوا إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ فَخَصَرُوهَا. وَلَمَّا سَمِعَ صَاحِبَهَا يَاغِي سِيَّانَ يَتَوَجَّهُمْ إِلَيْهَا، خَافَ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ يَهَا، فَأَخْرَجَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا، لَيْسَ مَعَهُمْ عَيْرُهُمْ، وَأَمْرُهُمْ يَخْفِرُ الْخَنْدَقَ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنَ الْعَدِ النَّصَارَى لِعَمَلِ الْخَنْدَقِ أَيْضًا، لَيْسَ مَعَهُمْ مُسْلِمٌ، فَعَمِلُوا فِيهِ إِلَى الْعَصْرِ، قَلَّمَا أَرَادُوا دُخُولَ الْبَلَدِ مَنَعُهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: "أَنْطَاكِيَّةُ لَكُمْ تَهْبُونَهَا لِي حَتَّى أَنْظِرَ مَا يَكُونُ مِنَّا وَمِنَ الْفِرْنِجِ"، فَقَالُوا لَهُ: "مَنْ يَحْفَظُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا؟" فَقَالَ: "أَنَا أَحْلِفُكُمْ فِيهِمْ"، فَأَمْسَكُوا، وَأَقَامُوا فِي عَسْكَرِ الْفِرْنِجِ، فَخَصَرُوهَا تِسْعَةَ أَشْهَرٍ.

وَظَهَرَ مِنْ سَجَاعَةِ يَاغِي سِيَّانَ، وَجَوْدَةِ رَأْيِهِ، وَحَرْمِهِ، وَاحْتِيَاطِهِ مَا لَمْ يُشَاهِدْ مِنْ عَيْرِهِ، فَهَلَّ أَكْثَرُ الْفِرْنِجِ (مَوْأِيًّا)، وَلَوْ بَقَوْا عَلَى كُتْرِيَّهُمُ الَّتِي خَرَجُوا فِيهَا لَطَبَقُوا يَلَادِ الإِسْلَامِ، وَحَفِظُوا يَاغِي سِيَّانَ أَهْلَ نَصَارَى أَنْطَاكِيَّةِ الَّذِينَ أَخْرَجُهُمْ، وَكَفَّ الْأَيْدِيَ الْمُتَنَطِّرَةَ إِلَيْهِمْ.

قَلَّمَا طَالَ مُقَامُ الْفِرْنِجِ عَلَى أَنْطَاكِيَّةِ رَاسَلُوا أَحَدَ الْمُسْتَحْفِظِينَ لِلْأَبْرَاجِ، وَهُوَ رَرَادٌ يُعْرَفُ بِرُوزَبَةِ، وَبَدَلُوا لَهُ مَالًا وَأَفْطَاغًا، وَكَانَ يَتَوَلَّ حِفْظَ بُنْجَ يَلِي الْوَادِيِّ، وَهُوَ مَبْنِيٌ عَلَى سُبَّالِكِ فِي الْوَادِيِّ، قَلَّمَا تَقَرَّرَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَذَا الْمَلْعُونِ الرَّرَادِ، جَاءُوا إِلَى السُّبَّالِكِ فَفَتَحُوهُ، وَدَخَلُوا مِنْهُ، وَصَعَدَ جَمَاعَةً كَثِيرَةً بِالْجَبَالِ، قَلَّمَا رَادَتْ عَدُوَّهُمْ عَلَى حَمْسِيَّةِ صَرْبُوا الْبُوقِ، وَدَلِكَ عِنْدَ السَّحَرِ، وَقَدْ تَعَبَ النَّاسُ مِنْ كُثْرَةِ السَّهَرِ وَالْجَرَاسَةِ، فَاسْتَيْقَظَ يَاغِي سِيَّانَ، فَسَأَلَ عَنِ الْحَيَالِ، فَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْبُوقَ مِنَ الْفَلْقَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا قَدْ مُلِكَتْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ

القلعة، وإنما كان من ذلك البرج، فدخله الرعب، وفتح باب البلد، وخرج هارباً في ثلاثة علاماً على وجهه، فجاء تائبة في حفظ البلد، فسأل عنه، فقيل إنه هرب، فخرج من باب آخر هارباً، وكان ذلك معونة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا. ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب، وتهموا، وقتلوا من فيه من [22]

المسلمين، وذلك في جمادى الأولى. (نيسان-أيار/أبريل-ماي 1098 م/491) وأماماً ياغي سيان فإن الله لما طلع علينا النهار رجع إليه عقله، وكان كالولهان، فرأى [23]

نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: "أين أنا؟" فقيل: "على أربعة فراسخ من أنطاكية"، فتقدم كيف خلص سالماً، ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل، وجعل يتلهف، ويستريح على ترك أهله وأولاده والمسلمين، فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشيا عليه، فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يركبواه، فلم يكن فيه مسكة [فإنما كان قد قارب الموت فتركوه وساروه عنه، واحتار به إنسان أرمني كان يقطع الخطب، وهو ياخير رمق، فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج لأنطاكية. وكان الفرنج قد كانوا صاحب حلب، ودمشق، يأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لا تطلب سواها، مكررا منهم وحديعه، حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية].

## ذكر مسيرة المسلمين إلى الفرنج وما كان منهم

(ابن الأثير 188-190)

[24] لما سمع قوام الدولة كربولاً يحال الفرنج، وملتهم أنطاكية، جمع العساكر وسار إلى الشام، وأقام بمنجذب داير، وأجتمع معاً عساكر الشام، [25]

ثركوا وعربها سوياً من كان يحلب، فاجتمع معه دقاقيع بن شمش وطغتكين آتابيك، وجناح الدولة، وصاحب حفص، وأرسلان تاش، صاحب سنجار، وسليمان بن أرثق، وغيرهم من الأمراء ممن ليس منهم، فلما سمع الفرنج عظمت المصيبة عليهم، وخافوا لقائهم في من الوهن، وقلة الأقوات عندهم، وسار المسلمون، فنار لوههم على أنطاكية، وأساء كربولاً السيرة، فيمن معه من المسلمين، وأغضب الأمراء وتكبر عليهم طناناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك، وأصرروا له في أنفسهم العذر، إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند المضد وقاية. وأقام الفرنج لأنطاكية، بعد أن ملوكها، التي عشر يوماً ليس لهم مما يأكلون، وتفوت الأقواء بذويهم، والضعفاء بالميته وفرق الشجر، فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربولاً يطلبون منه الأمان ليخرجوه من البلد، فلم يعطهم ما طلبوه، وقال: "لا تخرجون إلا بالسيفي". وكان معهم من [26]

المملوك بزدوبل، وصنيع، وكندفري، والقمعن، (لاحقاً) صاحب الرها

وَبِيُمْنَثٍ، صَاحِبُ أَنْطَاكِيَّةَ، وَهُوَ الْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ مَعْهُمْ رَاهِبٌ مُطَاعٌ فِيهِمْ، وَكَانَ دَاهِيَّةً مِنَ الرِّجَالِ، فَقَالَ لَهُمْ: "إِنَّ الْمَسِيحَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ لَهُ حَرْبٌ

[27]

مَذْفُوتَهُ بِالْقِسْيَانِ الَّذِي يَأْنْطَاكِيَّةَ"، وَهُوَ يَتَاءُ عَظِيمٌ ، "فَإِنْ وَجَدْتُمُوهَا فَإِنَّكُمْ تَظْفَرُونَ، إِنْ لَمْ تَجِدُوهَا فَالْهَلَكُ مُتَحَقِّقٌ".

وَكَانَ قَدْ دَفَنَ قَبْلَ ذَلِكَ حَرْبَةً فِي مَكَانٍ فِيهِ، وَعَقِيَ أَتْرَاهَا، وَأَمْرَهُمْ بِالصَّوْمِ وَالنَّوْبَةِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ ثَلَاثَةً أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ أَدْخَلُوكُمُ الْمَوْضِعَ جَمِيعَهُمْ، وَمَعْهُمْ عَامَّهُمْ، وَالصُّنَاعَ مِنْهُمْ، وَحَفَرُوا فِي جَمِيعِ الْأَمَاكِنِ فَوَجَدُوهَا كَمَا

[28]

ذَكَرَ ، فَقَالَ لَهُمْ: "أَبْشِرُوا بِالظَّفَرِ"، فَخَرَجُوا فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْبَابِ مُتَقَرِّرٌ قِينَ مِنْ خَمْسَةَ، وَسَيِّةٌ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ لَكُرْبُوْقاً: "يَتَبَغِي أَنْ تَقْفَ أَعْلَى الْبَابِ، فَتَقْتُلَ كُلَّ مَنْ يَخْرُجُ، فَإِنْ أَمْرُهُمْ الْآنَ، وَهُمْ مُتَقَرِّرُونَ، سَهْلٌ" فَقَالَ "لَا تَفْعَلُوا! أَمْهَلُوهُمْ حَتَّى يَتَكَامِلَ خُرُوجُهُمْ فَتَقْتُلُهُمْ" ، وَلَمْ يُمَكِّنْ مِنْ مُعَاجِلِهِمْ، فَقَتَلَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةً مِنَ الْخَارِجِينَ، فَجَاءَ إِلَيْهِمْ هُوَ يَنْفُسِهِ، وَمَنْعِهِمْ، وَتَهَاهُمْ. فَلَمَّا تَكَامَلَ خُرُوجُ الْفِرِنْجِ، وَلَمْ يَبْقَ يَأْنْطَاكِيَّةً أَحَدٌ مِنْهُمْ، ضَرَبُوا مَصَافِقاً عَظِيمًا، فَوَلَى الْمُسْلِمُونَ مُهْزَمِينَ، لِمَا عَامَلُهُمْ بِهِ كَرْبُوْقاً أَوْلًا مِنْهُمْ الْإِسْتِهَاتَةُ بِهِمْ وَالْإِغْرَاضُ عَنْهُمْ، وَتَانِيَا مِنْ مَنْعِهِمْ عَنْ قَنْلِ الْفِرِنْجِ، وَتَمَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَصْرِبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسَيْفِ، وَلَا طَعَنْ بِرُمْحٍ، وَلَا رَمَى بِسَهْمٍ، وَآخِرُ مَنْ اتَّهَمَ سُقْمَانُ بْنُ أَرْنُقَ، وَجَنَاحُ الدُّولَةِ، لَا تَهْمَمَا كَاتَا فِي الْكَمِينِ، وَآتَهَرَمْ كَرْبُوْقاً مَعَهُمْ. فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجَ ذَلِكَ طَنُوهُ مَكْبِدَهُ، إِذَا لَمْ يَجِرْ قِتَالٌ يُنْهَرُمْ مِنْ مِثْلِهِ، وَخَافُوا أَنْ يَتَبَغِيَوهُمْ، وَتَبَيَّنَ حَمَاعَةُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ، وَقَاتَلُوا جَسْبَهُ، وَطَلَبَيَا لِلشَّهَادَةِ، فَقَتَلَ الْفِرِنْجُ مِنْهُمْ أَلْوَاقًا، وَغَنِمُوا مَا فِي الْعَسْكَرِ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَثَاثِ وَالدُّوَابَّ وَالْأَسْلِحَةِ، فَصَلَحَتْ حَالُهُمْ، وَعَادُتْ إِلَيْهِمْ فُؤُتُهُمْ.

## ذِكْرُ مَلْكِ الْفِرِنْجِ مَعَرَّةِ النَّعْمَانِ

(ابن الأثير 190/10)

لَمَّا فَعَلَ الْفِرِنْجُ بِالْمُسْلِمِينَ مَا فَعَلُوا سَارُوا إِلَى مَعَرَّةِ النَّعْمَانِ، فَتَأَرَّلُوهَا، وَحَصَرُوهَا، وَقَاتَلُهُمْ أَهْلَهَا قِتَالًا شَدِيدًا، وَرَأَى الْفِرِنْجُ مِنْهُمْ شِدَّةً وَنِكَايَةً، وَلَقُوا مِنْهُمُ الْجِدَّ فِي حَرْبِهِمْ، وَالْإِجْتِهَادُ فِي قِتَالِهِمْ، فَعَمِلُوا عِنْدَ ذَلِكَ بُرْجًا مِنْ حَشْبٍ يُقَازِي سُورَ الْمَدِينَةِ، وَوَقَعَ القِتَالُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَصْرِبْ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ خَافَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَدَأْلُهُمُ الْفَسْلُ وَالْقَلْعُ، وَطَبَّوْا أَنْهَمَهُ إِذَا تَحَصَّنُوا يَتَعَصَّبُ الدُّورِ الْكِبَارِ امْتَنَعُوا بِهَا، فَتَرَلُوا مِنَ السُّورِ وَأَخْلَوْا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانُوا يَحْفَظُونَهُ، فَرَاهُمْ طَائِفَةً أُخْرَى، فَقَعَلُوا كَفِيلِهِمْ، فَخَلَا مَكَانُهُمْ أَيْضًا مِنَ السُّورِ. وَلَمْ تَرَلْ شَيْءٌ طَائِفَةً مِنْهُمُ الَّتِي تَلَيَّا فِي التَّرْزُولِ، حَتَّى خَلَا السُّورُ، فَصَعَدَ الْفِرِنْجُ إِلَيْهِ عَلَى السَّلَالِيمِ، فَلَمَّا عَلَوْهُ تَحْيَرَ الْمُسْلِمُونَ، وَدَخَلُوا دُورَهُمْ، فَوَصَعَ الْفِرِنْجُ فِيهِمُ السَّيْفِ ثَلَاثَةً أَيَّامٍ، فَقَاتَلُوا مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَفْيِ، وَسَبَوْا

السَّبِيلِ الْكَثِيرِ، وَمَلَكُوهُ، وَأَقَامُوا أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَسَارُوا إِلَى عِزْقَةَ فَحَصَرُوهَا أَرْبَعَةَ أَسْهُرٍ، وَنَقَبُوا سُورَهَا عِدَّةَ نُفُوبٍ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، وَرَاسَلُهُمْ مُنْقِذٌ صَاحِبُ شَيْرَرَ، فَصَالَحُوهُمْ عَلَيْهَا، وَسَارُوا إِلَى حِمْصَةَ وَحَصَرُوهَا، فَصَالَحُوهُمْ صَاحِبُهَا جَنَاحَ الدَّوْلَةِ، وَخَرَجُوا عَلَى طَرِيقِ النَّوَافِرِ إِلَى عَكَّا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا.

## ذِكْرُ مُلْكِ الْفِرْنَجِ، لَعْنُهُمُ اللَّهُ، الْبَيْتُ الْمُقَدَّسَ

(ابن الأثير 195-193/10)

[29] كَانَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ لِتَاجِ الدَّوْلَةِ ثُشَّ، وَأَفْطَعَهُ الْأَمِيرُ سُقْمَانُ بْنُ أَرْثَقِ التُّرْكُمَانِيِّ، فَلَمَّا طَفَرَ الْفِرْنَجُ بِالْأَتْرَاكِ عَلَى أَنْطَاكِيَّةِ، وَقُتِلُوا فِيهِمْ، صَغَفُوا، وَتَفَرَّقُوا، فَلَمَّا رَأَى الْمِصْرِيُّونَ صَعْفَ الْأَتْرَاكِ سَارُوا إِلَيْهِ، وَمُقَدَّمُهُمُ الْأَفْصَلُ بْنُ

[30] بَدْرُ الْجَمَالِيُّ، وَحَصَرُوهُ، وَبِيِّ الْأَمِيرِ سُقْمَانِ، وَإِلْغَازِيِّ ابْنِ أَرْثَقِ، وَابْنِ عَمِّهِمَا سُوْنُخُ، وَابْنِ أَخِيهِمَا تَأْفُوتِي، وَتَصَبُّوا عَلَيْهِ تَبِعًا وَأَرْبَعِينَ مَنْجَنِيَّا، فَهَدُمُوا مَوَاضِعَ مِنْ شُورِهِ، وَقَاتَلُهُمْ أَهْلُ الْبَلْدِ، فَدَامَ الْقِتَالُ وَالْحِصَارُ تَبِعًا وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَمَلَكُوهُ

[31] يَا الْأَمَانِ فِي سَعْبَانَ تِسْعَ وَتَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةِ (آب/أوغست 1096). أَخْسَنَ الْأَفْصَلُ إِلَى سُقْمَانَ وَإِلْغَازِيِّ وَمَنْ مَعْهُمَا، وَأَخْرَلَ لَهُمُ الْعَطَاءَ، وَسَيَّرُهُمْ فَسَارُوا إِلَى دِمْسُقَ، ثُمَّ عَبَرُوا الْفُرَاتَ، فَأَقَامَ سُقْمَانُ بَلْدِ الرَّهَّا وَسَارَ إِلْغَازِيِّ إِلَى الْعِرَاقِ، وَاسْتَنَابَ الْمِصْرِيُّونَ فِيهِ رَجُلًا يُعْرَفُ بِاْفْتِحَارِ الدَّوْلَةِ، وَيَقِيَ فِيهِ إِلَى الْآنِ.

فَقَصَدَهُ الْفِرْنَجُ، بَعْدَ أَنْ حَصَرُوا عَكَّا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ حَصَرُوهُ تَبِعًا وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَتَصَبُّوا عَلَيْهِ بُرْجِينَ أَخْدُهُمَا مِنْ تَاجِيَّةِ صِهِيُّونَ، وَأَخْرَقَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَقُتِلُوا كُلُّ مَنْ بِهِ. فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ إِخْرَاقِهِ أَتَاهُمُ الْمُسْتَغْيِثُ يَأْنَ الْمَدِينَةَ قَدْ مُلَكَّتْ مِنَ الْجَانِبِ الْأَخْرِيِّ، وَمَلَكُوهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ مِنْهُ صَحْوَةَ تَهَارِ الْجُمُعَةِ لِسَبْعِ بَيْنَ مِنْ سَعْبَانَ (15 تموز/لوالية 1099م/492)، وَرَكِبَ النَّاسُ السَّيْفَ، وَلَيْتَ الْفِرْنَجُ فِي الْبَلْدَةِ أَسْبُوْعًا يَقْتُلُونَ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْتَمَى

[32] جَمَاعَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَمْحَرَّابِ دَاوَدَ، فَأَعْتَصَمُوا بِهِ، وَقَاتَلُوا فِيهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَبَدَلَ لَهُمُ الْفِرْنَجُ الْأَمَانَ، فَسَلَمُوهُ إِلَيْهِمْ، وَوَقَّى لَهُمُ الْفِرْنَجُ، وَخَرَجُوا لَيْلًا إِلَى عِسْقَلَانَ فَأَقَامُوا بِهَا. وَقَتَلَ الْفِرْنَجُ بِالْمَسْجِدِ الْأَفْصَنِ، مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعينَ أَلْفًا، مِنْهُمْ جَمَاعَةُ كَثِيرَةٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلْمَائِهِمْ، وَرُزَّهَادِهِمْ، وَرُزَّهَادِهِمْ،

[33] مِمَّنْ فَارَقَ الْأَوْطَانَ وَجَاءَرَ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ السَّرِيفِ، وَأَخْدُوا مِنْ عِنْدِ الصَّحْرَاءِ تَبِعًا وَأَرْبَعِينَ قِنْدِيلًا مِنَ الْفِصَّةِ، وَزُنُّ كُلُّ قِنْدِيلٍ ثَلَاثَةُ أَلْفٍ وَسِنْمَانَةُ دِرْهَمٍ، وَأَخْدُوا مِنَ الْقَنَادِيلِ الصَّقَارِ مَايَهُ وَخَمْسِينَ قِنْدِيلًا نُفَرَّةً، وَمِنَ الْدَّهْبِ تَبِعًا وَعِشْرِينَ قِنْدِيلًا، وَعَنِمُوا مِنْهُ مَا لَا يَقْعُ عَلَيْهِ الإِحْصَاءُ.

وَوَرَدَ الْمُسْتَنْفِرُونَ مِنَ السَّامِ، فِي رَمَضَانَ، إِلَى بَعْدَادَ صُحْبَةِ الْقَاضِي أَبِي  
 سَعْدِ الْهَرَوِيِّ<sup>[34]</sup>، فَأَوْرَدُوا فِي الدِّيَوَانِ كَلَامًا أَنَّكَى الْغَيْوَنَ، وَأَوْجَعَ الْقُلُوبَ،  
 وَقَامُوا بِالْجَامِعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَاسْتَعَاْثُوا، وَبَكُوا وَأَبْكُوا، وَذُكِرَ مَا ذَهَمَ الْمُسْلِمِينَ  
 بِذَلِكَ الْبَلْدِ السَّرِيفِ الْمُعَظَّمِ مِنْ قَتْلِ الرِّجَالِ، وَسَبْيِ الْخَرِيمِ وَالْأُولَادِ، وَتَهْبِ  
 الْأَمْوَالِ، فَلِشَدَّةِ مَا أَصَابَهُمْ أَفْطَرُوا.  
 وَاحْتَلَفَ السَّلَاطِينُ عَلَيْهِ مَا تَذَكَّرُهُ، فَتَمَكَّنَ الْفِرِنْجُ مِنِ الْبِلَادِ، فَقَالَ أَبُو  
 الْمُطَفَّرِ الْأَيْبُورْدِيُّ، فِي هَذَا الْمَعْنَى، أَمْبَاتَا مِنْهَا:  
 مَرَجَنَا دِمَاءً بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ  
 فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عَزِيزٌ لِلْمَرَاجِمِ  
 وَشَرِّ سِلَاحِ الْمَرْءِ دَمْعٌ يُفِيسُهُ  
 إِذَا الْحَرْبُ شَيَّثَ نَازِرَهَا بِالصَّوَارِمِ  
 فِيهَا، يَنْبِيُ الْإِسْلَامِ، إِنَّ وَرَاءَكُمْ  
 وَقَائِعٌ يُلْحِقُنَ الدُّرَيِّ بِالْمَنَاسِمِ  
 أَنْهُو يَمْهُدُ فِي ظَلِيلِ أَمْنٍ وَغَبْطَةٍ  
 وَعَيْشٌ كَنَوارِ الْحَمِيلَةِ تَاعِمٌ  
 وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مِلْعُجُونَهَا  
 عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ تَائِمٍ  
 إِلَّا خَوَانِكُمْ بِالسَّامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ  
 ظَهُورَ الْمَذَاكِيِّ، أَفْبُطُونَ الْقَسَاعِمِ  
 تَسُومُهُمُ الرَّوْمُ الْهَوَانُ، وَأَنْتُمْ  
 تَجْرِيُونَ ذِيلَ الْحَفْضِ فِيْلَ الْمُسَالِمِ  
 وَكُمْ مِنْ دِمَاءٍ قَدْ أَبْيَحْتُ، وَمِنْ دَمِي  
 تَوَارِي حَيَاءً خُسْنَتْهَا بِالْمَعَاصِيمِ  
 يَحْبِسُ السُّلُوفُ الْبِيْضُ مُحْمَرَّةُ الطَّبَىِ  
 وَسُمْرُ الْعَوَالِيِّ دَامِيَاتُ اللَّهَادِمِ  
 وَبَيْنَ اخْتِلَاسِ الطَّعْنِ وَالصَّرْبِ وَفَقَهَةِ  
 تَطْلِيلِ لَهَا الْوِلَدَانُ شِبَابُ الْقَوَادِمِ  
 وَتِلْكَ حُرْبُ مَنْ يَغْبُ عَنْ غِمَارِهَا  
 لِيَسْلَمَ، يَقْرَعُ بَعْدَهَا سَنَنَ تَادِمِ  
 سَلَلنَّ يَأْيِدِي الْمُشْرِكِينَ قَوْأَصِبَا  
 سَعْفَدُ مِنْهُمْ فِي الطَّلَى وَالْجَمَاجِمِ  
 يَكَادُ لَهُنَّ الْمُسْتَحِنُ بِطِبِيَّةِ يُنَادِي

[35]

يَأْعَلَى الصَّوْتِ يَا آلَ هَاشِمٍ  
 أَرَى أَمْتَيْ لَا يَسْتَغْوَنَ إِلَى الْعِدَى

رِمَاحُهُمْ، وَالدِّينُ وَاهِي الدَّعَائِمُ  
وَيَجْتَبُونَ النَّارَ حَوْفًا مِنَ الرَّدَى  
وَلَا يَحْسَبُونَ الْعَارِضَةَ لَازِمًا  
أَتْرَضَى صَنَادِيدَ الْأَعْارِبِ بِالْأَدَى  
وَيُعْصِي عَلَى ذُلُّ كُمَاءَ الْأَعْاجِمِ

**ذكْر طَفَرِ الْمُسْلِمِينَ يَالْفِرْجِ -  
الظفر ببِيِّمند صاحبِ انتَاكِيَّة**

(ابن الأثير 203-10/204)

فِي ذِي القَعْدَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ (اِيلُول/سِبْتَمْبَر ١١٠٠ م/٤٩٣). لَقِيَ كُمْشُكِينْ بْنُ الدَّانِسْمَنْدَ طَائِلُو، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ أَنَّ الدَّانِسْمَنْدَ لَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مُعْلِمًا لِلثُّرْكَمَانَ وَتَقْلِبَتْ بِهِ الْأَخْوَالُ، حَتَّى مَلَكَ، وَهُوَ صَاحِبُ مَلَطِيَّةٍ وَسِيُواسَنَ وَغَيْرِهِمَا، يِيمِنْدُ الْفِرْنِجِيُّ، وَهُوَ مِنْ مُقَدَّمِي الْفِرْنِجِ، قَرِيبُ مَلَطِيَّةٍ، وَكَانَ صَاحِبَهَا (السَّابِق) قَدْ كَاتَبَهُ، وَاسْتَفَدَمَهُ إِلَيْهِ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ فِي خَمْسَةِ آلَافٍ، قَلَقِيَّهُمْ أَنَّ الدَّانِسْمَنْدَ، فَانْهَرَمْ يِيمِنْدُ وَأَسْبَرَ ثُمَّ وَضَلَّ مِنَ الْبَحْرِ سَبْعَةَ قَمَامِصَةَ مِنَ الْفِرْنِجِ، وَأَرَادُوا يُخْلِيَصَ يِيمِنْدَ، فَأَتَوْا إِلَى قَلْعَةِ ثَسَمَى أَنْكُورِيَّةَ، فَأَخْذُوهَا وَقَتَلُوا مَنْ يَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَارُوا إِلَى قَلْعَةِ أَخْرَى فِيهَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ الدَّانِسْمَنْدَ، وَحَصَرُوهَا، فَجَمَعَ أَنَّ الدَّانِسْمَنْدَ جَمِيعًا كَثِيرًا، وَلَقِيَ الْفِرْنِجَ، وَجَعَلَ لَهُ كَمِيَّا، وَقَاتَلُوكُمْ، وَخَرَجَ الْكَمِيُّونُ عَلَيْهِمْ، قَلْمَ يُقْلِبُ أَحَدُ مِنَ الْفِرْنِجِ، وَكَانُوا ثَلَاثَمَائَةً أَلْفِ (!)، عَيْرَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ هَرَبُوا لَيَلَّا وَأَفْلَتُوا مَجْرُوحِينَ. وَسَارَ الدَّانِسْمَانْدُ إِلَى مَلَطِيَّةٍ، فَمَلَكَهَا وَأَسْتَرَ صَاحِبَهَا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ عَسْكَرُ الْفِرْنِجِ مِنْ أَنْطَاكِيَّةَ، قَلَقِيَّهُمْ وَكَسَرُوكُمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَقَائِعُ فِي شَهُورٍ قَرِيبَةٍ.

**ذِكْرُ مَا مَلِكَ الْفِرْيَجُ مِنَ السَّامِ -**  
موت كندرلي وانتصارات إفرنجية أخرى

(ابن الأثير 10/222)

فيها (493م/1100). سار كندريري، ملك الفرج الشامي، وهو صاحب الْبَيْتِ [36] المقدس، إلى مدينة عكا، بساحل الشام، فحضرها، فأصابه سهم فقتل، وكان قد عمر مدينة ياقا وسلمها إلى فمص من الفرج اسمه: طنكري، فلما قُتل كندريري بسار أخوه بعديون إلى الْبَيْتِ المقدس في حمساية فارس، وراحيل، فبلغ الملك دفاق، صاحب دمشق، خبره، فنهض إليه في عسكره، ومَعَهُ الأمير جناح الدولة (صاحب حمص) في جموعه، فقاتلته، فنصر على الفرج.

وَفِيهَا مَلَكُ الْفِرْنَجُ مَدِينَةٌ سَرُوجٌ مِنْ بَلَادِ الْخَزِيرَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْفِرْنَجَ كَانُوا قَدْ مَلَكُوا مَدِينَةَ الرُّهَا بِمُكَاتَبَةٍ مِنْ أَهْلِهَا لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ أَرْمَنُ، وَلَيْسَ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا قَلِيلٌ، فَلَمَّا كَانَ الْآنُ جَمَعَ سُقْمَانٌ بِسَرُوجٍ جَمِيعًا كَثِيرًا مِنَ التُّرْكَمَانِ، وَرَحَفَ إِلَيْهِمْ، فَلَقَوْهُ وَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمُوهُ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ (كانون الثاني - شباط/يناير-فبراير)، فَلَمَّا تَمَّ الْهَزِيمَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ سَارَ الْفِرْنَجُ إِلَى سَرُوجَ، فَخَصَرُوهَا وَتَسْلَمُوهَا، وَقَتَلُوا كَثِيرًا مِنْ أَهْلِهَا وَسَبَوْهَا حَرِيقَهُمْ، وَتَهَبُوا أَمْوَالَهُمْ، وَلَمْ يَسْلِمْ إِلَّا مَنْ مَصَنِّى مُنْهَزِمًا.

وَفِيهَا مَلَكُ الْفِرْنَجُ مَدِينَةٌ حَيْقَانٌ، وَهِيَ بِالْقُرْبِ مِنْ عَكَّةَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، مَلَكُوهَا عَنْوَةً، وَمَلَكُوا أَرْسُوفَ بِالْأَمَانِ، وَأَخْرُجُوا أَهْلَهَا مِنْهَا. وَفِيهَا، فِي رَجَبٍ (آيار/مايو)، مَلَكُوا مَدِينَةَ قَيْسَارِيَّةَ بِالسَّيْفِ، وَقَتَلُوا أَهْلَهَا، وَتَهَبُوا مَا فِيهَا.

## ذُكْرُ حَالِ صَنْجِيلِ الْفِرْنَجِيِّ وَمَا كَانَ مِنْهُ فِي حِصَارِ طَرَابُلْسَ

(ابن الأثير 236/10/237)

[37] كَانَ صَنْجِيلُ الْفِرْنَجِيِّ ، لَعْنَةُ اللَّهِ، قَدْ لَقِيَ قِلْجَ أَرْسِلَانَ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنِ فَتَلْمِيشَنَ، صَاحِبَ قُونِيَّةِ، وَكَانَ صَنْجِيلُ فِي مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، وَكَانَ قِلْجَ أَرْسِلَانَ فِي عَدِّ قَلِيلٍ، فَاقْتَلُوا، فَانْهَرَمُ الْفِرْنَجُ وَفُتِلَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ، وَأَسْرَ كَثِيرٌ وَعَادَ قِلْجَ أَرْسِلَانَ بِالْغَنَائِمِ، وَالظَّفَرِ الَّذِي لَمْ يَخْسِبُهُ.

[38] وَمَصَنِّى صَنْجِيلُ مَهْرُومًا فِي ثَلَاثِيَّةِ، فَوَصَلَ إِلَى السَّامِ، فَأَزْسَلَ فَخْرَ الْمُلْكِ بْنِ عَمَّارٍ، صَاحِبِ طَرَابُلْسَ، إِلَى الْأَمِيرِ يَاخِرَ، خَلِيقَةِ جَنَاحِ الدُّولَةِ عَلَى حِمْصَنَ، فَإِلَى الْمَلِكِ (عَلَى دَمْشِقِ) دَفَاقَ بْنِ شُشِّ، يَقُولُ: "مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يُعَاجِلَ صَنْجِيلُ إِذْ هُوَ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ الْقَرِيبَةِ"، فَخَرَجَ الْأَمِيرُ يَاخِرُ بِنَفْسِهِ، وَسَيَّرَ دُقَاقِيَّ الْقَيْنِ مُقَاتِلٍ، وَأَتَتْهُمُ الْأَمْدَادُ مِنْ طَرَابُلْسَ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى بَابِ طَرَابُلْسَ، وَصَافُوا صَنْجِيلُ هَنَاكَ، فَأَخْرَجَ مِائَةً مِنْ عَسْكَرِهِ إِلَى أَهْلِ طَرَابُلْسَ، وَمِائَةً إِلَى عَسْكَرِ دَمْشِقِ، وَخَمْسِينَ إِلَى عَسْكَرِ حَمْصَنِ، وَيَقِيَ هُوَ فِي حَمْسِينَ. فَأَمَّا عَسْكَرُ حَمْصَنِ، فَإِنَّهُمْ اِنْكَسَرُوا عِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ، وَوَلُوا مُنْهَزِمِينَ، وَتَبَعَهُمْ عَسْكَرُ دَمْشِقِ. وَأَتَاهُمْ أَهْلُ الْجَيْلِ فَأَعْنَوْهُ عَلَى حِصَارِهَا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّوَادِ، وَأَكْثَرُهُمْ نَصَارَى، فَقَاتَلَ مَنْ بِهَا أَسْدَ قِتَالٍ، فُتِلَ مِنَ الْفِرْنَجِ ثَلَاثِيَّةً، ثُمَّ إِنَّهُ هَادَتْهُمْ عَلَى مَالٍ وَخَيْلٍ، فَرَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى مَدِينَةِ أَنْطَرْسُوسَ، وَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلْسَ، فَحَصَرَهَا، وَفَتَحَهَا، وَقَتَلَ مَنْ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَحَلَ إِلَى حِضْنِ الْطَّوَيَانِ وَهُوَ يُقَارِبُ رَقَنِيَّةَ، وَمُقَدَّمَةُ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْعَرِيْضِ، فَقَاتَلُوهُمْ، فَتَصَرَّ عَلَيْهِ أَهْلُ الْحِصْنِ، وَأَسْرَ ابْنِ الْعَرِيْضِ مِنْهُ فَارِسًا مِنْ أَكَابِرِ فُرْسَانِهِ، فَبَذَلَ صَنْجِيلُ فِي فِدَائِهِ عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ [39] وَأَلْفَ أَسِيرٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ ابْنُ الْعَرِيْضِ إِلَى ذَلِكَ.

## تحرير بيمند وانكسار بالدوين في الرملة وذكر ما فعله الفريح

(ابن الأثير 238-10/237)

في هذه السنة (495-1102م). أطلق الدانسمند يمينه الفريح، صاحب أنطاكية، وكان قد أسره، وقد تقدم ذكر ذلك، وأخذ منه مائة ألف دينار، وشرط عليه إطلاق ابنة ياغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية، وكانت في أسراه. ولما خلص يمينه من أسراه عاد إلى أنطاكية، فقويت نفس أهله به، ولم يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنيطرة وما جاورها يطالبهم بالإتاوة، فوراً على المسلمين من ذلك ما طمس المقاوم التي بناها الدانسمند.

[40]

وفيها سار صنجل إلى حصن الأكراد فحصاره، فجتمع جنائع الدولة

[41]

عسكراً ليسيير إليه ويكيسته، فقتلته باطني بالمسجد الجامع (في حمص)، فقيل: إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله، فلما قتل صباح صنجل حفص من الغد، وتاز لها، وحصار أهله، وملك أعمالها.

ونزل القمص على عك في جمادى الآخرة السنة (نisan/أبريل 1102م)، وصيق علىها، وكاد يأخذها، ونصب عليها المنجنيقات والآبراج، وكان له في البحر سبع عشرة قطعة، فاجتمع المسلمين من سائر السواحل، وأتوا إلى منجنيقاتهم، وأبراجهم، فآخرفوا سفنهم أيضاً، وكان ذلك نصرًا عجيباً أدل الله به الكفار.

وفيها صار القمص الفريح، صاحب الرها إلى بيروت من ساحل الشام، وحصارها وصائقها، وأطاح المقام عليها، فلم ير فيها طمعاً فرحل عنها.

وفيها، في رجب (أيار/مايو 1102م). حرجت عساكر مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفريح عملاً يقي في أيديهم من البلاد الشامية، فسمع لهم بزدوبل، صاحب القدس، فسار إليهم في سبعينات قارس، وقاتلهم، فنصر الله المسلمين، وأنهزم الفريح، وكثر القتل فيه، وأنهزم بزدوبل، فاختفى في أجمة قصب، فآخرقت تلك الأجمة، ولحقت الناز بعض جسده، وتجأ منها إلى الرملة، فتبعد المسلمين، وأخاطوا به فتتكرا، وخرج منها إلى يافا، وكثر القتل والأسر في أصحابه.

## ذكر ملك الفريح جبيل وعكا من الشام

(ابن الأثير 10/255)

في هذه السنة (497-1103م). وصلت مراكب من بلاد الفريح إلى مدينة اللاذقية، وفيها التجار، والأختاد، والحجاج، وغير ذلك، واستعاد لهم صنجل الفريح على حصار طرابلس، فحاصرواها معه بربا وبخراء، وصائقوها،

وَقَاتَلُوهَا أَيَّامًا، فَلَمْ يَرُوا فِيهَا مَطْمَعًا، فَرَحَلُوا عَنْهَا إِلَى مَدِينَةِ جُبِيلٍ، فَخَصَرُوهَا،  
وَقَاتَلُوا عَلَيْهَا قَتالًا شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى أَهْلَهَا عَجْزَهُمْ عَنِ الْفِرْجِ أَخْذُوا أَمَانًا،  
وَسَلَمُوا الْبَلَدَ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ تَفِ الْفِرْجُ لَهُمْ بِالْأَمْانِ، وَأَخْذُوا أَمْوَالَهُمْ، وَاسْتَقْدَمُوهَا  
بِالْعُفُوَاتِ وَأَنْواعِ الْعَدَابِ. فَلَمَّا قَرَعُوا مِنْ جُبِيلَ سَارُوا إِلَى مَدِينَةِ عَكَاءِ،  
اسْتَبَدَهُمُ الْمَلِكُ بَعْدَوْبَينْ، مَلِكُ الْفِرْجِ، صَاحِبُ الْقُدْسِ عَلَى حِصَارِهَا،  
فَنَازَلُوهَا، وَخَصَرُوهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.  
وَكَانَ الْوَالِي بِهَا اسْمُهُ بَنَا، وَيُعْرَفُ بِرَهْرِ الدَّوْلَةِ الْجُبُوشِيِّ، نِسْبَةً إِلَى مَلِكِ  
الْجُبُوشِ الْأَفْصَلِ، فَقَاتَلُوهُمْ أَسْدَ قِتَالٍ، فَرَحَفُوا إِلَيْهِ عَيْرَ مَرَّةً، فَعَجَرَ عَنْهُ حَفْظِ  
الْبَلَدِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، وَمَلَكَ الْفِرْجَ الْبَلَدَ بِالسَّيْفِ قَهْرًا، وَفَعَلُوا بِأَهْلِهِ الْأَفْعَالَ  
الْبَيْسِيَّةَ، وَسَارَ الْوَالِي بِهِ إِلَى دِمْشَقَ، فَأَقَامَ بِهَا، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ، وَاغْتَدَرَ إِلَى  
الْأَفْصَلِ فَقِيلَ عُذْرَةٌ.

نقلت الصفحات التالية عن ابن الأثير أيضاً، وأهميتها أنها تروي نجاحات ردة الفعل الإسلامية على قيام الفرنجة بالمراهنة على حَرَّان، ثغر مابين النهرين على طريق بغداد. لكن أهميتها الأكبر تبرز بسبب ماتبع ذلك من تحالف قوى إسلامية - فرنجية كانت تتقاول فيما بينها: ذلك

أن عدوى ترجح المصالح الخاصة لدى المسلمين، والتي سهلت انتصار الفرنجة، انتقلت إلى المنتصرين أنفسهم. وهكذا رأينا كيف أن بالدوين الراها وطنكري أنطاكيه لم يترددوا عن المشاركة في التحالفات المتتصارعة التي أقامها الأمراء المسلمون المتخاصمون.

## ذِكْرٌ

غَزُو سُقْمَانَ وَجَكْرَمَشَ الْفِرْنَجَ

(ابن الأثير 256-10/257)  
لَمَّا اسْتَطَالَ الْفِرْنَجُ،

خَدَّلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، بِمَا مَلَكُوهُ مِنْ يَلَادِ إِسْلَامٍ،  
وَأَنْقَقَ لَهُمُ اسْتِغَالٌ عَسَاكِيرُ الْإِسْلَامِ وَمُلُوكِهِ، يُقَتَّالٌ  
بَعْضُهُمْ بَعْصًا، تَفَرَّقَتْ جِبَنَيْدٌ بِالْمُسْلِمِينَ الْأَرَاءُ،  
وَاحْتَلَقَتِ الْأَهْوَاءُ، وَتَمَرَّقَتِ الْأَمْوَالُ. وَكَانَتْ حَرَّانُ

لِمَوْلَوِيٍّ مِنْ مَمَالِيكِ مَلْكَسَاهُ اسْمُهُ فُرَاجَهُ، فَاسْتَحْلَفَ  
 عَلَيْهَا إِنْسَانًا يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدُ الْأَصْبَهَانِيُّ، وَخَرَجَ فِي  
 الْعَامِ الْمَاضِيِّ، فَعَصَى الْأَصْبَهَانِيُّ عَلَى فُرَاجَهُ، وَأَعْاتَهُ  
 أَهْلَ الْبَلَدِ لِطُلْمِ فُرَاجَهُ. وَكَانَ الْأَصْبَهَانِيُّ جَلْدًا،  
 شَهْمَمًا، قَلْمَ يَتْرُكْ بِحَرَّانَ مِنْ أَصْحَابِ فُرَاجَهُ سِوَى غُلَامٍ  
 تُرْكِيٌّ يُعْرَفُ بِجَأْوِلِيٍّ، وَجَعَلَهُ أَصْفَهَنْسَلَارُ الْعَسْكَرِ، وَأَنْسَ  
 بِهِ، فَجَلَسَ مَعَهُ يَوْمًا لِلشَّرْبِ، فَأَتَقَقَ جَأْوِلِيٌّ مَعَ حَادِمٍ لَهُ  
 عَلَى قَنْلِهِ فَقَتَلَاهُ وَهُوَ سَكْرَانُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ سَارَ الْفِرْيَنْجُ  
 إِلَى حَرَّانَ وَحَصَرُوهَا.  
 فَلَمَّا سَمِعَ مُعِينُ

[42] الْدُّولَةِ سُقْمَانُ، وَسَمْسُ الدُّولَةِ جَكْرِمِشُ ذَلِكَ،  
 وَكَانَ بَيْنُهُمَا حَزْبُ، وَسُقْمَانُ يُطَالِبُ بِقَتْلِ ابْنِ أَخِيهِ،  
 وَكُلُّ مِنْهُمَا يَسْتَعِدُ لِلقاءِ صَاحِبِهِ، وَأَنَا أَذْكُرُ سَبَبَ  
 قَتْلِ جَكْرِمِشَ لَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، أَرْسَلَ كُلُّ مِنْهُمَا  
 إِلَى صَاحِبِهِ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِجْتِمَاعِ مَعَهُ لِتَلَاقِي أَمْرِ  
 حَرَّانَ، وَيُعْلَمُهُ أَنَّهُ قَدْ بَذَلَ تَفْسِهَ لِلَّهِ تَعَالَى،  
 وَتَوَابِيهِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَجَابَ صَاحِبَتِهِ إِلَى مَا طَلَبَ  
 مِنْهُ، وَسَارَا فَاجْتَمَعاً عَلَى الْخَابُورِ، وَتَحَالَفَا، وَسَارَا إِلَى  
 لِقاءِ الْفِرْيَنْجِ. وَكَانَ مَعَ سُقْمَانُ سَبْعَةُ آلَافٍ فَارِسٍ مَعَ

الْتُّرْكُمَانِ، وَقَعَ جَكْرِمَشَ تَلَانَهُ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ التُّرْكِ،  
وَالْعَرَبِ، وَالْأَكْرَادِ، فَالْتَّفَقُوا عَلَى تَهْرِ الْتَّلِيْخِ، وَكَانَ  
الْمَسَافَةُ بَيْنَهُمْ هُنَاكَ، فَاقْتَلُوا، (أيار/مايو  
1104م). فَأَظَاهَرَ

الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمُ الْفِرْنِجُ تَحْوَ قَرْسَحَينِ،  
فَعَادَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوهُمْ كَيْفَ شَاءُوا، وَامْتَلَأَ  
أَيْدِي الْتُّرْكُمَانِ مِنَ الْعَنَائِمِ، وَوَصَلُوا إِلَى الْأَمْوَالِ الْعَظِيمَةِ،  
لَاَنَّ سَوَادَ الْفِرْنِجِ كَانَ قَرِيبًا، وَكَانَ يِمْنَدُ، صَاحِبُ  
أَنْطَاكِيَّةِ، وَطَنْكِرِيِّ، صَاحِبُ السَّاحِلِ، قَدِ انْقَرَدا وَرَاءَ جَبَلٍ  
لِيَاتِيَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ طُهُورِهِمْ، إِذَا اسْتَدَّ  
الْحَرْبُ، فَلَمَّا حَرَجَا رَأَيَا الْفِرْنِجَ مُنْهَزِمِينَ، وَسَوَادُهُمْ  
مُنْهَوِيَا، فَأَقَاما بِاللَّيْلِ، وَهَرَبَا، فَتَبَعَهُمَا الْمُسْلِمُونَ،  
وَقَتَلُوا مِنْ أَصْحَابِهِمَا كَثِيرًا، وَأَسْرُوا كَذَلِكَ، وَأَفْلَتَا فِي  
سِيَّئَةِ قُرْسَانِ. وَكَانَ الْقُمَصُ بَرْدَوِيلُ، صَاحِبُ الرُّهَا، قَدِ  
انْهَرَمْ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَمَامَصِتِهِمْ، وَخَاطُوا تَهْرِ الْتَّلِيْخِ،  
فَوَحِلَّتْ خُيُولُهُمْ، فَجَاءَ الْتُّرْكُمَانِيُّ مِنْ أَصْحَابِ سُقْمَانِ  
فَأَخْذَهُمْ، وَحَمَلَ بَرْدَوِيلَ إِلَى خَيْمِ صَاحِبِهِ، وَقَدْ سَارَ فِي مَنْ  
مَعْهُ لِإِتْبَاعِ يِمْنَدَ، فَرَأَى أَصْحَابُ جَكْرِمَشَ أَنَّ أَصْحَابَ  
سُقْمَانَ قَدْ اسْتَوْلَوا عَلَى مَالِ الْفِرْنِجِ، وَيَرْجِعُونَ هُمْ مِنَ  
الْغَيْنِيَّةِ بِعَيْنِ طَائِلِ، فَقَالُوا لِجَكْرِمَشَ: "أَيُّ مَنْزِلَةٍ

تَكُونُ لَنَا عِنْدَ النَّاسِ، وَعِنْدَ الْتُّرْكَمَانِ إِذَا ائْصَرُفُوا  
 بِالْغَنَائِمِ دُونَنَا"؟ وَحَسَّنُوا لَهُ أَخْدَ الْقُمَصِ، فَأَنْفَدَ  
 فَأَخْدَ الْقُمَصَ مِنْ خَيْمِ سُقْمَانَ، فَلَمَّا عَادَ سُقْمَانُ شَقَّ  
 عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَرَكَبَ أَصْحَابَةَ الْقِتَالِ، فَرَدَّهُمْ، وَقَالَ  
 لَهُمْ: "لَا يَقُومُ قَرْخُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْعَزَاءِ  
 بِعَمَّهُمْ يَا حِتَّلَافَنَا، وَلَا أُؤْثِرُ شَقَاءَ غَيْطِي بِشَمَائِةِ  
 الْأَعْدَاءِ بِالْمُسْلِمِينَ". وَرَحَلَ لِوَقْتِهِ، وَأَخْدَ سِلَاجَ  
 الْفِرْنِيجِ، وَرَأَيَاهُمْ، وَأَلْبَسَ أَصْحَابَةَ لُبْسَهُمْ، وَأَرْكَبَهُمْ  
 حَيْلَهُمْ، وَجَعَلَ يَأْتِي خُصُونَ شَيْخَانَ، وَبَهَا الْفِرْنِيجِ،  
 فَيَخْرُجُونَ طَافِلًا مِنْهُمْ أَنَّ أَصْحَابَهُمْ نُصِرُوا، فَيَقْتُلُهُمْ  
 وَيَأْخُذُ الْحِصْنَ مِنْهُمْ، فَعَلَ ذَلِكَ يَعْدَدُهُ خُصُونِ. وَأَمَّا  
 جَكْرِمَشُ فَإِنَّهُ سَارَ إِلَى حَرَّانِ، فَتَسَلَّمَهَا، وَاسْتَخْلَفَ بِهَا  
 صَاحِبَهُ. وَسَارَ إِلَى الرُّهَا، فَحَصَرَهَا خَمْسَةً عَشَرَ يَوْمًا، وَعَادَ  
 إِلَى الْمَوْصِلِ وَمَعَهُ الْقُمَصُ الَّذِي أَخْدَهُ مِنْ خَيْمِ سُقْمَانَ،  
 فَقَادَهُ بِخَمْسَةٍ وَّتَلَاثَيْنِ دِينَارًا، وَمَائَةٍ وَسَيْنَى أَسِيرًا  
 مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ عِدَّهُ الْقَتْلَى مِنَ الْفِرْنِيجِ يُقَارِبُ  
 أَنَّهُ عَشَرَ أَلْفَ قَتِيلٍ.

بالدوين

الرها وطنكري أنطاكيه

(ابن الأثير 326/10)

لَمَّا هَرَبَ إِلْغَازِي مِنْ

[43] جَاؤْلِي سَارَ

جَاؤْلِي إِلَى الرَّحْبَةِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَا كِسِّينَ أَطْلَقَ  
الْقُمَّصَ الْفِرْنِيجِيَّ، الَّذِي كَانَ أَسِيرًا بِالْمُؤْصِلِ، وَأَخَدَهُ  
مَعْهُ، وَاسْمُهُ بَرْدَوِيلُ، وَكَانَ صَاحِبَ الرُّهَّا وَسَرْوَجَ وَغَيْرِهِمَا،  
وَبَقَيَ فِي الْخَبْسِ إِلَى الْآنِ (501م / 1108م).  
وَبَدَلَ الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ، فَلَمْ يُطْلِقْ، فَلَمَّا كَانَ الْآنَ  
أَطْلَقَهُ جَاؤْلِي، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُقَامُهُ فِي السَّجْنِ مَا

[44] يُقَارِبُ خَمْسَ سِنِينَ ،

وَقَرَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْدِي نَفْسَهُ بِمَالٍ، وَأَنْ يُطْلِقَ أَسْرَى  
الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ فِي سِجْنِهِ، وَأَنْ يَنْتَصِرَهُ مَنِي أَرَادَ ذَلِكَ  
مِنْهُ يَنْفَسِيهِ وَعَسْكِرِهِ وَمَالِهِ. فَلَمَّا اتَّفَقَا عَلَى ذَلِكَ سَرَّ القُمَّصُ إِلَى  
قلعة جعبر، وَسَلَّمَ إِلَى صَاحِبِهِ سَالِمَ بْنَ مَالِكٍ، حَتَّى وَرَدَ عَلَيْهِ ابْنُ  
خَالِتِهِ جُوسْلِينُ، وَهُوَ مِنْ فُرْسَانِ الْفِرْنِيجِ وَشُجَاعَانِهَا، وَهُوَ  
صَاحِبُ تَلٌّ بَاشِرَ وَغَيْرِهِ، وَكَانَ أَسِيرًا مَعَ الْقُمَّصِ فِي تَلٌّكَ  
الْوُقْعَةِ، فَقَدَى نَفْسَهُ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَلَمَّا وَصَلَ  
جُوسْلِينَ إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرِ أَقَامَ رَهِينَةً عَوْضَ الْقُمَّصِ،  
وَأَطْلَقَ الْقُمَّصَ، وَسَارَ إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ، وَأَخَذَ جَاؤْلِي  
جُوسْلِينَ مِنْ قَلْعَةِ جَعْبَرِ فَأَطْلَقَهُ، وَأَخَذَ عِوْضَهُ أَخَا

رَوْجِيَهُ، وَأَخَا رَوْجَهُ الْفُمَّصِ، وَسَيَرَهُ إِلَى الْفُمَّصِ لِيَقُولَيْ  
 بِهِ، وَلِيُحِنَّهُ عَلَى إِطْلَاقِ الْأَسْرَى، وَإِنْقَادِ الْمَالِ وَمَا  
 ضَمِّنَهُ، فَلَمَّا وَصَلَ جُوْسِلِينُ إِلَى مَنْبِعِ أَغَارِ عَلَيْهَا  
 وَنَهَبَهَا، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ جَاؤْلِي، فَأَنْكَرُوا  
 عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَتَسْبُوهُ إِلَى الْعَدْرِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ  
 الْمَدِينَةَ لَيْسَتْ لَكُمْ.

(ذِكْرُ مَا جَرَى بَيْنَ هَذَا

الْفُمَّصِ وَبَيْنَ صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةِ)  
**لَمَّا أَطْلَقَ الْفُمَّصُ**  
 وَسَارَ إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ أَغْطَاهُ طَنْكَرِي صَاحِبُهَا ثَلَاثَيْنَ أَلْفَ  
 دِينَارٍ، وَخَيْلًا، وَثِيَابًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَكَانَ طَنْكَرِي قَدْ أَخَذَ  
 الرُّهَى مِنْ أَصْحَابِ الْفُمَّصِ حِينَ أُسِرَ، فَخَاطَبَهُ الْأَنَّ فِي  
 رَدِّهَا عَلَيْهِ، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى تَلٌّ بَاشِرَ  
 فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جُوْسِلِينُ، وَقَدْ أَطْلَقَهُ جَاؤْلِي، سَرَّهُ  
 ذَلِكَ، وَفَرِحَ بِهِ. وَسَارَ إِلَيْهِمَا طَنْكَرِي، صَاحِبُ أَنْطَاكِيَّةِ،  
 يَعْسَاكِرِي لِيُخَارِبَهُمَا، قَبْلَ أَنْ يَقُولَى أَمْرُهُمَا، وَيَجْمِعَا  
 عَسْكَرًا، وَيَلْحَقَ بِهِمَا جَاؤْلِي وَيُنْجِدُهُمَا، فَكَانُوا  
 يَقْتَلُونَ، فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ الْقِتَالِ اجْتَمَعُوا وَأَكَلُ بَعْضُهُمْ

[45] مَعَ بَعْضٍ وَتَحَادُّوا.

وَأَطْلَقَ الْفُمَّصَ مِنْ

الْأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ مِائَةً وَسِتِّينَ أَسِيرًا كُلُّهُمْ مِنْ سَوَادِ حَلَبِ،  
وَكَسَاهُمْ وَسَيَرُهُمْ. وَعَادَ طَنَكَرِي إِلَى أَنْطَاكِيَةَ مِنْ عَيْرِ  
فَصْلِ حَالٍ فِي مَعْنَى الرُّهَا، فَسَارَ الْفُمَّصُ وَجُوسُلِينُ وَأَغَارَا  
عَلَى خُصُونِ طَنَكَرِي صَاحِبِ أَنْطَاكِيَةَ، وَالْتَّجَأَ إِلَى وِلَايَةِ  
كَوَاسِيلَ، وَهُوَ رَجُلٌ أَزْوَانِيُّ وَمَعْهُ حَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ  
الْمُرْتَدِينَ وَعَيْرِهِمْ، وَهُوَ صَاحِبُ رَعْبَانَ، وَكَيْسُومَ،  
وَعَيْرِهِمَا مِنْ الْقِلَاعِ، شَمَالِيٌّ حَلَبَ، فَأَنْجَدَ الْفُمَّصَ  
بِالْأَفْلِي فَارِسٍ مِنْ الْمُرْتَدِينَ، وَالْأَفْلِي رَاجِلٌ، فَقَصَدَهُمْ  
طَنَكَرِي، فَتَنَازَعُوا فِي أَمْرِ الرُّهَا، فَتَوَسَّطَ بَيْنَهُمُ الْبِطْرُكُ  
الَّذِي لَهُمْ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ كَالْإِمَامِ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ، لَا  
يُخَالِفُ أَمْرُهُ، وَشَهِدَ جَمَاعَةُ مِنْ الْمَطَارِيَةِ وَالْقِسِّيسِينَ: أَنَّ بَيْمُونَدَ حَالَ طَنَكَرِي  
قَالَ لَهُ، لَمَّا أَرَادَ رُكُوبَ الْبَخْرِ،  
وَالْعَوْدَ إِلَى بِلَادِهِ، لِيُبَعِّدَ الرُّهَا إِلَى الْفُمَّصِ، إِذَا حَلَصَ  
مِنْ الْأَسْرِ، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ طَنَكَرِي تَاسِعَ صَفَرٍ (29 أَبْرَil 1108 م) / . ،  
وَعَبَرَ الْفُمَّصَ الْفَرَاتَ، لِيُسْلِمَ إِلَى أَصْحَابِ جَاؤْلِي الْمَالَ،  
وَالْأَسْرَى، فَأَطْلَقَ فِي طَرِيقِهِ حَلْقًا كَثِيرًا مِنْ الْأَسْرَى مِنْ  
حَرَّانَ وَعَيْرِهَا. وَكَانَ يَسْرُوحُ ثَلَاثِمَائَةً مُسْلِمٍ ضَعْفَى،  
فَعَمَّرَ أَصْحَابَ جَاؤْلِي مَسَاجِدَهُمْ، وَكَانَ رَئِيسُ سَرْوَحَ مُسْلِمًا  
قَدِ ازْتَدَ، فَسَمِعَهُ أَصْحَابُ جَاؤْلِي يَقُولُ فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا

سَيِّعًا، فَصَرَبُوهُ، وَجَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفِرْنِيجِ يَسْبِي  
نَرَاغٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلْقُمَصِ، فَقَالَ: هَذَا لَا يَصْلُخُ لَنَا وَلَا  
لِلْمُسْلِمِينَ، فَقَاتَلَهُ .

(ذِكْرُ الْحَرْبِ بَيْنَ جَاؤِلِي

وَالْفِرْنِيجِ)

... وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي

صَفَرٍ (أَيُّولُ 1109 م/502)،

كَانَ الْمُصَافُ بَيْنَ جَاؤِلِي سَقَافُو وَبَيْنَ طَنْكَرِي الْفِرْنِيجِ،  
صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةِ. وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ رِضْوَانَ (صَاحِبِ حَلْبِ) كَتَبَ إِلَى  
طَنْكَرِي، صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةِ، يُعَرِّفُهُ مَا هُوَ جَاؤِلِي  
عَلَيْهِ مِنَ الْعَدْرِ، وَالْمَكْرِ، وَالْخِدَاعِ، وَيُحَذِّرُهُ مِنْهُ،  
وَيُعْلَمُهُ أَنَّهُ عَلَى قَصْدِ حَلْبِ، وَأَنَّهُ إِنْ مَلَكَهَا لَا يَبْقَى  
لِلْفِرْنِيجِ مَعْهُ بِالشَّامِ مُقَامٌ، وَطَلَبَ مِنْهُ النُّصْرَةِ  
وَالِّتَّاقَقَ عَلَى مَنْعِهِ. فَأَجَابَهُ طَنْكَرِي إِلَى مَنْعِهِ وَبَرَزَ  
مِنْ أَنْطَاكِيَّةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رِضْوَانُ سِنِمَائِيَّةَ فَارِسِيِّ،  
فَلَمَّا سَمِعَ جَاؤِلِي الْخَبَرَ أَرْسَلَ إِلَى الْقُمَصِ، صَاحِبِ الرُّهَا،  
يَسْتَدِعِيهِ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ، وَأَطْلَقَ لَهُ مَا يَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ  
مَالِ الْمُقَادِّةِ، فَسَارَ إِلَى جَاؤِلِي فَلَحَقَ بِهِ، وَهُوَ عَلَى  
مَنْيَخَ، فَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، يَأْنَ

[46]

الْمُؤْصِلَ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا السُّلْطَانُ ،

وَمَلَكُوا حَرَائِثَهُ وَأَمْوَالَهُ، فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَفَارَقَهُ  
كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ أَتَاكِيلُ زِنْكِيُّ بْنُ آفْسُنْقَرِ،  
وِبِكْتَاشُ الْتَّهَاوْنِدِيُّ، وَبَقِيَ جَاؤِلِي فِي الْأَلْفِ قَارِسِ، وَأَنْصَمَّ  
إِلَيْهِ خَلْقٌ مِنَ الْمُطَّوْعَةِ، فَنَزَلَ يَنْلَلْ بَاشِرَ، وَقَارِبَهُمْ  
طَنْكَرِي، وَهُوَ فِي الْأَلْفِ وَخَمْسِيَّةِ قَارِسِ مِنَ الْفِرْنِجِ،  
وَسِنْمَائِيَّةِ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلِكِ رِضْوَانَ، سَوَى الرَّجَالَةِ،  
فَجَعَلَ جَاؤِلِي فِي مَيْمَنَتِهِ الْأَمِيرَ أَفْسَيَانَ، وَالْأَمِيرَ  
الْتُّوْتَاشَ الْأَبْرِيَّ، وَغَيْرُهُمَا، وَفِي الْمَيْسَرَةِ الْأَمِيرَ  
بَدْرَانَ بْنَ صَدَقَةَ، وَأَصْبَهَبَدَ صَبَاوَةَ، وَسُنْقَرَ دَرَازَ، وَفِي  
الْقَلْبِ الْقُمَصَ بَعْدُوِينَ، وَجُوسْلِينَ الْفِرْنِجِيِّينَ، وَوَقَعَتِ  
الْحَرْبُ، فَحَمَلَ أَصْحَابُ أَنْطَاكِيَّةَ عَلَى الْقُمَصِ، صَاحِبِ الرُّهَاهَا،  
وَاسْتَدَّ الْقِتَالُ، فَأَرَأَخَ طَنْكَرِي الْقَلْبَ عَنْ مَوْضِعِهِ،  
وَحَمَلَتْ مَيْسَرَةُ جَاؤِلِي عَلَى رَجَالَةِ صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةِ،  
فَقُتِلَتْ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ هَزِيمَةِ صَاحِبِ  
أَنْطَاكِيَّةِ، فَجَيَّئَ عَمَدَ أَصْحَابَ جَاؤِلِي إِلَى جَنَائِبِ  
الْقُمَصِ، وَجُوسْلِينَ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْفِرْنِجِ، فَرَكِبُوهَا  
وَانْهَرُمُوا، فَمَضَى جَاؤِلِي وَرَاءَهُمْ لِيَرْدَهُمْ، فَلَمْ يَرْجِعُوا،  
وَكَانَتْ طَاعَةُ قَدْرَالِثَ عَنْهُمْ حِينَ أَخِذَتِ الْمَوْصِلُ مِنْهُ،  
فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَغُودُونَ مَعْهُ أَهْمَمَهُ تَفْسُهُ، وَخَافَ  
مِنَ الْمُقَامِ، فَانْهَرَمْ، وَانْهَرَمْ بَاقِي عِسْكَرِهِ. فَأَمَّا

اَصْبَهَ بُدْ صَبَاوَةَ فَسَارَ تَحْوَ السَّامِ، وَأَمَّا بَدْرَانُ بْنُ  
صَدَقَةَ فَسَارَ إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرِ، وَأَمَّا ابْنُ جَكْرِمَشُ فَقَصَدَ  
جَزِيرَةَ ابْنِ عُمَرَ، وَأَمَّا جَاؤُلِي فَقَصَدَ الرَّحْبَةَ، وَفُتِلَّ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ حَلْقُ كَثِيرٍ، وَتَهَبَ صَاحِبُ أَنْطَاكِيَةَ أَمْوَالَهُمْ  
وَأَنْقَالَهُمْ، وَعَظَمَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفِرِنْجِ، وَهَرَبَ  
الْقُمَّصُ وَجُوَسْلِينُ إِلَى تَلٌّ تَاشِرَ وَالنَّجَّاجَ حَلْقُ كَثِيرٍ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ، فَقَعَلَا مَعَهُمُ الْجَمِيلَ، وَدَأَوَّتَا الْجَرْحَى وَكَسَوَا  
الْغَرَاءَ، وَسَيَّرَا هُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ.

ثُبَرَ الصُّفَحَاتُ التَّالِيَةُ الْمُنْقُولَةُ عَنْ أَبِنِ الْقَلَانِسِيِّ تَفَاصِيلُ حَيَّةٍ وَمُبَاشِرَةٍ عَنْ سُقُوطِ مُدُنِ السَّاحِلِ السُّورِيِّ (طَرَابِلسُ، بَيْرُوتُ، صِيدَا)، كَمَا عَنِ الْحَصَارِ الْقَائِمِ عَلَى صُورٍ، وَكَذَلِكَ عَنْ رَدُودِ الْفَعْلِ الَّتِي حَدَثَتْ دَاخِلَّ عَاصِمَةِ الإِسْلَامِ الرُّوْحِيَّةِ بَغْدَادُ عَلَى الغُزوِ الْإِفْرَنجِيِّ وَتَوْسِعِهِ خَاصَّةً وَأَنَّ الرَّأْيَ الْعَامِ الْإِسْلَامِيِّ قَدْ ثَارَ بِتَأْثِيرِ مِنْ الْلَّاجِئِينَ السُّورِيِّينَ وَبِدَأَ يَطَالِبُ بِعَمَلِ عَسْكَرِيِّ مَنَاسِبٍ تَقْوِيمُ بِهِ السُّلْطَانَاتِ الْمُرْكَبَةِ (أَيِّ الْخَلِيفَةِ وَالسُّلْطَانِ السُّلْجُوقِيِّ)، الَّتِي عَادَةُ مَا "تَعَدُّ خَيْرًا".

## سُقُوطُ طَرَابِلسُ

(ابن القلانسي 163-164)

وَفِي شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ (502/آذَارِ/مَارْسِ 1109م) وَصَلَ رِيمَنْدُ بْنُ صَنْجِيلِ<sup>[47]</sup> الَّذِي كَانَ نَازِلًا عَلَى طَرَابِلسُ مِنْ بَلَادِ الْإِفْرَنجِ فِي جَمْلَةِ سَتِينِ مَرْكَبًا فِي الْبَحْرِ مَشْحُونًا بِالْإِفْرَنجِ وَالْجُنُوبِينَ. فَنَزَلَ عَلَى طَرَابِلسُ وَوَقَعَ بَيْنَ وَبَيْنِ السَّرْدَانِيِّ أَبْنِ أَخْتِ صَنْجِيلِ مَشَاجِرَةً، وَوَصَلَ طَنَكَرِيُّ صَاحِبِ اِنْطاكِيَّةِ إِلَيْهِ لِمَعْوِنَتِهِ لِلْسَّرْدَانِيِّ، وَوَصَلَ الْمَلَكُ بَغْدَوْنُ صَاحِبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي عَسْكَرِهِ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ. وَعَادَ السَّرْدَانِيُّ إِلَى عَرْقَةٍ وَوُجِدَ بَعْضُ الْإِفْرَنجِ فِي زَرِعَهَا، فَأَرَادَ ضَرِبَهُ فَضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ. وَلَمَّا بَلَغَ الْخَبْرُ رِيمَنْدَ بْنَ صَنْجِيلَ، وَجَّهَ مِنْ تَسْلِمٍ عَرْقَةَ مِنْ أَصْحَابِهِ. وَنَزَلَ الْإِفْرَنجُ بِجَمْعِهِمْ وَحَشَدُهُمْ عَلَى طَرَابِلسُ، وَشَرَعُوا فِي قَتَالِهَا وَمُضَايِقَةِ أَهْلِهَا مِنْذَ أَوَّلِ شَعْبَانَ إِلَى الْحَادِي عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ مِنَ السَّنَةِ (6 آذَارِ/مَارْسِ-12 آبِ/أُغْسِتِ 1109)، وَأَسَنَدُوا أَبْرَجَهُمْ إِلَى السَّوْرِ. فَلَمَّا شَاهَدَ الْجَنْدُ وَالْمُقَاتَلَةُ أَهْلَ الْبَلَدِ، سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَأَيْقَنُوا بِالْهَلاَكِ وَذَلَتْ نُفُوسُهُمْ، لَا شَتَمَالَ الْيَأسِ مِنْ تَأْخِرِ وَصُولِ الْاِصْطَوْلِ الْمَصْرِيِّ فِي الْبَحْرِ وَالْمِيرَةِ وَالنِّجَادَةِ. وَقَدْ كَانَتْ غَلَةُ الْاِصْطَوْلِ أَزِيَّنَتْ وَسِيرَ الْرِّيحِ تَرَدَّهُ لِمَا يَرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نَفَادِ الْأَمْرِ الْمُقْضِيِّ. فَشَدَ الْإِفْرَنجُ الْقَتَالَ عَلَيْهَا وَهَجَمُوهَا مِنَ الْأَبْرَاجِ فَمَلَكُوهَا بِالسِّيفِ فِي يَوْمِ الْاثْنَيْنِ لِإِحْدَى عَشَرَةِ لَيْلَةٍ خَلَتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ مِنَ السَّنَةِ (12 تمُوزِ/لُولِيةِ 1109م)، وَنَهَبُوا مَا فِيهَا وَأَسْرُوا رِجَالَهَا وَسَبُوا نِسَاءَهَا وَأَطْفَالَهَا وَحَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَمْتَعَتْهَا وَذَخَائِرَهَا وَدَفَّاتِرِ<sup>[48]</sup>

دارَ عِلْمَهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي خَزَائِنِ أَرْبَابِهَا مَا لَا يَحْدُدُ عَدَدُهُ وَلَا يَحْصُرُ فِي ذِكْرِهِ. وَسَلَمَ الْوَالِيُّ بِهَا، وَجَمَاعَةُ مِنْ جَنْدِهِ كَانُوا التَّمَسُوا أَلْمَانَ قَبْلَ فَتْحِهَا. فَلَمَّا مَلَكَتْ أَطْلَقُوا وَوَصَلُوا إِلَى دَمْشَقَ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ فَتْحِهَا، وَعَوَّقَبَ أَهْلَهَا وَاسْتَصْفَيَتْ أَمْوَالَهَا وَاسْتَثْيَرَتْ ذَخَائِرَهُمْ مِنْ مَكَانِهَا وَنَزَلَ بِهِمْ أَشَدُ الْبَلَاءِ وَمَؤْلِمُ الْعَذَابِ.

وتقرر بين الافرنج والجنويين على أن يكون للجنويين الثالث من البلد وما نهب منه والثلاثان لريمند بن صنجل وأفردوا للملك بعديون من الوسط ما رضي به.

وكان طنكري لما لم ينل ما أراد من نصرة السرداي قد عاد ونزل بانياس وافتتحها وأمن أهلها في شوال من السنة (آيار/مايو 1109) ونزل على ثغر [49]

جيبل وفيه فخر الملك ابن عمار (أمير طرابلس) والقوت فيه نزر قليل. فلهم ينزل مضايقاً له ولأهلـه إلى يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة (23 تموز/لوالية 1109م) فراسلـهم وبذلـ لهم الأمان بينـهما. (وبهذا خرج فخر الملك سالماً)، وقد وعدـه باحسـان النظر والاقطـاع.

ووصلـ عـقب ذلك الأصـطـول المـصـري ولم يكن خـرجـ للمـصـريـن فيما تـقدـمـ مثلـه كـثـرة رـجـالـ وـمـراكـبـ وـعـدـ وـغـلـالـ لـحـمـاـيـة طـرـابـلـسـ وـتـقـويـتها بالـغـلـةـ الـكـثـيرـةـ والـرـجـالـ وـالـمـالـ لـمـدـةـ سـنـةـ معـ تـقـويـةـ ماـ فـيـ الـمـمـلـكـةـ الـمـصـرـيـةـ منـ ثـغـورـ السـاحـلـ وـأـهـلـهـ وـوـصـلـ إـلـىـ صـورـ فـيـ يـوـمـ الثـامـنـ مـنـ فـتـحـ طـرـابـلـسـ وـقـدـ فـاتـ الـأـمـرـ فـيـهـ لـلـقـضـاءـ النـازـلـ بـأـهـلـهـ. وـأـقـامـ بـالـسـاحـلـ مـدـةـ وـفـرـقـتـ الـغـلـةـ فـيـ جـهـاتـهـ وـتـمـسـكـ بـهـ أـهـلـ صـورـ وـصـيدـاـ وـبـيـرـوـتـ وـشـكـوـاـ أـحـوـالـهـ وـضـعـفـهـاـ عـنـ مـحـارـيـةـ الـأـفـرنـجـ وـلـمـ يـمـكـنـ الـأـصـطـولـ الـمـقـامـ فـأـقـلـعـ عـائـدـاـ عـنـ اـسـتـقـامـةـ الـرـيـحـ إـلـىـ مـصـرـ.

## سقوط بيروت

(ابن القلانسي 167-168)

وفي هذه السنة (1109/503-1110) خـرجـ طـنـكـريـ منـ أـنـطاـكـيـةـ فـيـ حـشـدـهـ وـلـفـيفـهـ الـمـخـذـولـ إـلـىـ التـغـورـ الشـامـيـةـ فـمـلـكـ طـرـسـوسـ وـمـاـ وـالـهـاـ وـأـخـرـ صـاحـبـ مـلـكـ الرـومـ مـنـهـ وـعـادـ إـلـىـ أـنـطاـكـيـةـ ثـمـ خـرجـ إـلـىـ شـيـزـرـ وـقـرـرـ عـلـيـهـ عـشـرـةـ آـلـافـ دـيـنـارـ مـقـاطـعـةـ تـحـمـلـ إـلـيـهـ بـعـدـ أـنـ عـاثـ فـيـ عـمـلـهـ وـنـزـلـ عـلـىـ حـصـنـ الـأـكـرـادـ فـتـسـلـمـهـ مـنـ أـهـلـهـ وـتـوـجـهـ إـلـىـ عـرـقـةـ وـكـانـ الـمـلـكـ بـعـدـهـ بـعـدـ صـنـجـيلـ قـدـ نـزـلـ عـلـىـ ثـغـرـ بـيـرـوـتـ بـرـأـ وـبـحـرـأـ فـعـادـ طـنـكـريـ إـلـىـ أـنـطاـكـيـةـ وـسـارـ جـوـسـلـينـ صـاحـبـ تـلـ باـشـرـ إـلـىـ ثـغـرـ بـيـرـوـتـ لـمـعاـونـةـ النـازـلـينـ عـلـيـهـ مـنـ الـأـفـرنـجـ وـيـسـتـنـجـدـ بـهـمـ عـلـىـ عـسـكـرـ الـأـمـيـرـ مـوـدـودـ النـازـلـينـ عـلـىـ الرـهـاـ. وـشـرـعـ الـأـفـرنـجـ فـيـ عـملـ الـبـرـ وـنـصـبـهـ عـلـىـ سـوـرـ بـيـرـوـتـ فـجـيـنـ نـجـزـ وـزـحـفـواـ بـهـ كـسـرـ بـحـجـارـةـ الـمـنـاجـيقـ وـأـفـسـدـ فـشـرـعـواـ فـيـ عـمـلـ غـيـرـهـ وـعـمـلـ اـبـنـ صـنـجـيلـ بـرـجـاـ آـخـرـ.

وـوـصـلـ فـيـ الـوـقـتـ مـنـ اـصـطـولـ مـصـرـ فـيـ الـبـرـ تـسـعـ عـشـرـ مـرـكـباـ حـرـبيـةـ فـظـهـرـوـاـ عـلـىـ مـرـاكـبـ الـأـفـرنـجـ وـمـلـكـوـاـ بـعـضـهـاـ وـدـخـلـوـاـ بـالـمـيـرـةـ إـلـىـ بـيـرـوـتـ فـقـوـيـتـ [50]

بـهـ نـفـوسـ مـنـ فـيـهـ مـنـ الـرـعـيـةـ. وـأـنـفـذـ الـمـلـكـ بـعـدـيـونـ إـلـىـ السـوـيـدـيـةـ يـسـتـنـجـدـ بـمـنـ فـيـهـ مـنـ الـجـنـوـيـةـ فـيـ مـرـاكـبـهـمـ فـوـصـلـ مـنـهـاـ إـلـىـ بـيـرـوـتـ أـرـبعـونـ مـرـكـباـ مـشـحـنـاـ بـالـمـقـاتـلـةـ فـزـحـ الـأـفـرنـجـ فـيـ الـبـرـ وـالـبـرـ إـلـيـهـ بـأـسـرـهـمـ فـيـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ

21 شوال (13 أيار/مايو 1110)، [انصبوا] أعلى سور برجين واشتبوا في القتال فقتل مقدم الأسطول المصري وخلق كثير من المسلمين ولم ير الإفرنج من ما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا. وانخذل الناس في البلد وأيقنوا بالهلاك فهجم الإفرنج على البلد آخر نهار هذا اليوم فملكتوه بالسيف قهراً وغلبهاً. وهرب الوالي الذي كان فيه في جماعة من أصحابه وحمل إلى الإفرنج فقتل ومن كان معه وغنموا ما كان استصحبه من المال ونهب البلد وسبى من كان فيه وأسر واستصفيت أموالهم وذخائرهم. ووصل عقب ذلك من مصر ثلاثة أيام فارس نجدةً لبيروت فجئن حصلوا بالأردن خرجت عليهم فرقة من الإفرنج يسيرة العدد فانهزموا منهم إلى الجبال فهلك منهم جماعة. فلما تقرر أمر بيروت رحل الملك بعدهم في الإفرنج ونزل على ثغر صيدا وراسل أهله يلتمس منهم تسليمه فاستمهلوه مدة عينوها فأجابهم إلى المهلة بعد أن قرر عليهم ستة آلاف دينار تحمل إليه مقاطعةً وكانت قبل ذلك ألفي دينار ورحل عنها إلى بيت المقدس للحج.

## سقوط صيدا

(ابن القلانسي 171)

[51] ووردت الأخبار فيها (1109-503/1110) بوصول بعض ملوك الإفرنج في البحر ومعه نيف وستون مركاً مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو في بلاد الإسلام فقصد بيت المقدس وتوجه إليه بعدهم واجتمع معه وتقرر بينهما قصد البلاد الإسلامية. فلما عادوا من بيت المقدس نزلوا على ثغر صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر سنة 504 (19 تشرين أول/أكتوبر 1110) وضايقوه برياً وبحراً. وكان الأسطول المصري مقيناً على ثغر صور ولم يتمكن من انجاد صيدا فعملوا البرج وزحفوا به إليها وهو ملبس بحطب الكرم في عدة أيام متفرقة فإذا كان يوم الحرب وقرب من سور زحفوا به وفيه الماء والخل لطفى النار وآلله الحرب.

فلما عاين من بصيدا هذا الأمر ضفت نفوسهم وأشفقوا من مثل نوبة بيروت فأخرج إليها قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبو من بعدهم من الأمان فأجابهم إلى ذلك وأمنهم العسكرية معهم على النفوس والأموال واطلاق من أرد الخروج منها إلى دمشق واستخلفوه على ذلك وتوثقوا منه وخرج الوالي والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من أهل البلد وتوجهوا إلى دمشق لعشر بقين من جمادى الأولى سنة 504 (4 كانون أول/ديسمبر 1110) وكانت مدة الحصار سبعةً وأربعين يوماً. ورتب بعدهم الأحوال بها والحافظين لها وعاد إلى بيت المقدس ثم عاد بعد مدة يسيرة إلى صيدا فقرر على من

أقام بها نيفاً وعشرين ألف دينار فأفقرهم واستغرق أحوالهم وصادر من علم  
أن له بقية منهم.

## أثر أحداث الشام في بغداد

(ابن القلansi 173)

وفيها (504/1110) وصل السلطان غياث الدين محمد بن ملك شاه من همدان إلى بغداد في جمادى الأولى منها ووردت الكتب والرسائل إليه من الشام بانهاء الحال وما جرى من الإفرنج بعد عودتهم عن الفرات ونوبية صيدا والأثارب وأعمال حلب. ولما كان أول جمعة من شعبان حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة، والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان، بما يسكنهم من انفاذ العساكر والانتصار للإسلام من الإفرنج والكافر. وعادوا في الجمعة الثانية، المصير إلى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب. ووصلت عقيب ذلك الخاتون السيدة أخت السلطان زوجة الخليفة إلى بغداد من أصفهان ومعها من التجمل والجواهر والأموال والآلات وأصناف المراكب والدواب والأثاث وأنواع الملابس الفاخرة والخدم والغلمان والجوار والحواشي ما لا يدركه حزر فيحصر ولا عد فيذكر، واتفقت هذه الاستغاثة فتقدر ما كان صافياً من الحال والسرور بمقدمها. وأنكر الخليفة المستظر بالله أمير المؤمنين ما جرى وعزم على طلب من كان الأصل والسبب ليوقع به المكرور، فمنعه السلطان من ذلك وعذر الناس فيما فعلوه، وأوعز إلى الأمراء والمقدمون بالعود إلى أعمالهم والتأهب للمسير إلى

[52]

جهاد أعداء الله الكفار .

وفي جمادى الآخرة منها (كانون أول/ديسمبر 1110-كانون ثاني/يناير 1111)

[53]

وصل رسول متملك الروم بهدايا وتحف ومراسلات مضمونها البعث على قصد الإفرنج والإيقاع بهم والاجتماع على طردهم من هذه الأعمال وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل اغتصاب خطبهم واستفحال شرهم، ويقول أنه قد منعهم من العبور إلى بلاد المسلمين وحاربهم، فإن طمعوا فيها بحيث تتواصل عساكرهم وامدادهم إلى البلاد الإسلامية احتاج إلى مداراتهم واطلاق عبورهم ومساعدتهم على مقاصدهم وأغراضهم للضرورات القائدة إلى ذلك وبيان في الحث والتحريض على الاجتماع على حربهم وقلعهم من هذه الديار بالاتفاق عليهم.

## حصار صور

(ابن القلانسي 181-178)

وفي هذه السنة (1111-505/1112) جمع بعديون الملك من أمكنه جمّعه من الأفريقيين وقصد ثغر صور فبادر عز الملك والي وآهل البلد بمراسلة ظهير الدين أتابك بدمشق يستصرخون به ويستنجدونه ويبيذلون تسليم البلد إليه ويستئلونه المبادرة والتعجيل بانفاذ عدة وافرة من الأتراك تصل إليهم سرعةً لمعونتهم وتقويتهم وإن تأخرت المعونة عنهم قادتهم الضرورة إلى تسليمه إلى الأفريقيين [54]

لپأسهم من نصرة الأفضل صاحب مصر فبادر أتابك بانفاذ جماعة وافرة من الأتراك بالعدد الكاملة تزيد على المائتين فرساناً رماة أبطالاً فوصلت إليهم وأتت أهل صور رجالات كثيرة من صور وجبل عاملة، رغبوا في ذلك مع رجالات من دمشق وصلوا إليهم وحصلوا عندهم وشرع أتابك في إنفاذ عدة أخرى. فحين عرف بعديون ما تقرر بين أتابك وأهل صور بادر النزول عليهما فيمن جمعه وحشده في اليوم الخامس وعشرين من جمادى الأولى سنة 505 (29 تشرين ثاني / نوفمبر 1111) وتقدم بقطع الشجر والنخل وبنى بيوت الاقامة عليها وزحف إليها فقاتلها عدة دفعات ويعود خاسراً لم ينل منها غرضاً وقيل أن أهل صور رشقوا في بعض أيام مقاتلتها في يوم واحد بعشرين ألف سهم.

وخرج ظهير الدين من دمشق حين عرف نزولهم على صور وخيم ببابانياس وبث سراياه ورجالات الحرامية في أعمال الأفريقيين وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والأخراج والحرق طلباً لازعاجهم وترحيلهم عنها فتدخل العدة الثانية إلى صور فلم يتمكن من الدخول. ونهض ظهير الدين إلى الحبس الذي في السواد، وهو حصن منيع لا يُرام، فشد القتال عليه وملكه بالسيف قهراً، وقتل من كان فيه قسراً، وشرع الأفريقيون في عمل برجي خشب للزحف بهما إلى سور صور، وزحف ظهير الدين إليهم عدة دفعات ليشغلهم بحيث يخرج عسكرو صور فيحرق البرجين. وعرف الأفريقيون قصده في ذلك وخندقوا عليهم من جميع الجهات ورتبو على الخندق الرجال بالسلاح لحفظه وحفظ الأبراج، ولم يحفلوا بما يفعل وما يجري على أعمالهم من الغارات عليها والفتوك بمن فيها. وهجم الشتاء فلم يضر بالأفريقيين لأنهم كانوا نزولاً في أرض رملة صلبة والأتراك بالصد من ذلك قد كابدوا من مقامهم شدةً عظيمة ومشقةً مؤلمة إلا إنهم لا يخلون من غارة وفائدة وقطع ميرة عن الأفريقيين ومادة وأخذ ما يحمل إليهم.

وقطع الأتراك الجسر الذي كان يعبر عليه إلى صيدا ليقطع المادة أيضاً عنها فعدلوا عند ذلك إلى استدعاء الميرة في البحر من جميع الجهات ففطن ظهير الدين لذلك ونهض في فريق من العسكر إلى ناحية صيدا وغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحريين وأحرق تقدير عشرين مركباً على الشط وهو

مع ذلك لا يهمل إصدار الكتب إلى أهل صور بتفويه قلوبهم وتحريضهم على استعمال المصاibرة للافرنج والجد في قتالهم.

وتم عمل البرجين وكباشهما التي تكون فيها في تقدير خمسة وسبعين يوماً وشرع في تقديمها والزحف بها في عاشر شعبان (11 شباط/فبراير) وقريباً من سور البلد واشتد القتال عليهما وكان طول البرج الصغير منها نيفاً وأربعين ذراعاً والكبير يزيد على الخمسين ذراعاً. ولما كان أول شهر رمضان (2 آذار/مارس) خرج أهل صور من الأبراج بالنفط والخطب والقطaran وآلية الحرق فلم يتمكنوا من الوصول إلى شيء منها فألقوا النار قريباً من البرج الصغير بحيث لم يتمكن الأفرنج من دفعها فهبت ريح وألقت النار على البرج الصغير فاحتراق بعد المحاربة الشديدة عليه والمكافحة العظيمة عنه ونهب

[55]

منه زرديات كثيرة وطوارق وغير ذلك واتصلت النار بالبرج الكبير. واتصل الخبر بال المسلمين بأن الأفرنج قد هجروا حرية البلد للاشتغال بحرق البرج وانثنوا عن المقاتلة على الأبراج، وشد الأفرنج عليهم وكشفوهم عن البرج واطقووا ما علق به من النار وربوا عدة وافرة من أبطالهم لحفظ البرج والمنجنيقات من جميع الجهات.

وواطبووا الزحف إليها إلى آخر شهر رمضان، وقربوا البرج إلى بعض أبراج البلد وطمموا ثلاثة الخنادق التي أمامه، وعمد أهل البلد إلى تعليق حائط البرج

[56]

الذي بإزاء برج الأفرنج وأطلقوا النار فيه، فاحتراق التعليق وسقط وجه الحائط في وجه البرج، فمنع من تقديميه إلى سور والزحف به وصار الموضوع الذي قصدهم قصيراً، وأبراج البلد تحكم عليه، وبطل تقديميه من ذلك الوجه، وكشف الأفرنج الردم وجروه إلى برج آخر من أبراج البلد ودفعوه إليه وقربوه من سور البلد، واصدموا بالكباش التي فيه السور، فزعزعوه، ووقع منه شيء من الحجارة، وأشرف أهل البلد على الهلاك. فعمد رجلٌ من مقدمي البحري، عارف بالصنعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب، إلى عمل كلاليب حديد لمسك الكباش إذا نظر به السور من رأسه ومن جانبه، بحبالٍ يجذبها الرجال حتى يقاد البرج الخشب يميل من شدة جذبهم بها، فتارةً تكسره الأفرنج خوفاً من البرج، وتارةً يميل أو يفسد، وتارةً ينكسر بصخرتين تلقيان عليه من البلد مشدودة احداهما إلى الأخرى. فعملوا عدة من الكباش وهي تكسر على هذه الصفة واحداً بعد واحد، وكان طول كل واحد منها سنتين ذراعاً معلقاً في البرج الخشب بحبال، في رأس كل واحد من الكباش حديد يزيد وزنه على عشرين رطلاً. فلما طال تجديد الكباش وقربوا البرج من سور عمد هذا الرجل البحري المقدم ذكره إلى خشبة طويلة جافية قوية أقامها في برج البلد الذي بإزاء برج الأفرنج وفي رأسها خشبة على شكل

[57]

الصلب طولها أربعون ذراعاً تدور على بكر بلوبي كيف ما أراد متوليها على

مثال ما يكون في الصواري البحرية وفي طرف الخشبة التي تدور سهم حديد وفي طرفها الآخر جبال مدارة بها على ما يريد متوليها، وكان يرفع فيها جرار الكدر والنجاسة ليشغلهم بطرح ذلك عليهم في البرج عن الكباش. وضاق الأمر بالناس وشغلهم ذلك عن أمرهم وأشغالهم وعمد البحري المذكور إلى سلال العنبر والقفاف فيجعل فيها الزيت والقير والسرقة والقلفوئية وقشر القصب ويطلق فيها النار فإذا علقت بذلك وقع ذلك في الآلة المذكورة حتى يوازي برج الأفرينج فتقع النار في أعلى البرج فيبادروا باطفائتها بالخل والماء، فيبادر برفع أخرى، ومع هذا يرمي أيضاً بالزيت المغلبي في قدور صغار على البرج فيعظم الوقييد. فلما كثرت النار وحمل بعضها بعضاً وقويت قهرت الرجلين المتوليين لرأس البرج، وقتل أحدهما وأنهزم الآخر ونزل منه فتمكنت النار من رأسه ونزلت إلى الطبقة الثانية من رأسه ثم إلى الوسطى وعملت في الخشب وقهرت من كان حوله في الطبقات وعجزوا عن اطفائها، وهرب كل من فيه وحوله من الأفرينج، وخرج أهل صور إليه فنهبوا ما فيه وغنموا من السلاح والآلات والعدد ما لا يحده وصف.

فبعد ذلك وقع يأس الأفرينج منه وشرعوا في الرحيل عنه وأحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها في المنزل لسكنهم وأحرقوا كثيراً من المراكب التي كانت لهم على الساحل لأنهم كانوا أخذوا صواريها وأرجلها وآلاتها للأبراج وكانت عدتهم تقدير مائتي مركب كبيرة وصغراء منها تقدير ثلثين مركباً حربية وحملوا في بعضها ما خف من ثقالتهم ورحلوا في العاشر من شوال من السنة (10 نيسان/ابريل 1112) وكانت مدة إقامتهم على محاصرة صور أربعة أشهر ونصف شهر. وقصدوا عكا وتفرقوا إلى أعمالهم. وخرج أهل صور وغنموا ما طفروا به منهم، وعادت الأتراك المندوبون لسعادتهم إلى دمشق، وقد فقد

[58]

منهم في الحرب نحو عشرين رجلاً وكان لهم فيها الجراية والواجب في كل شهر. ولم يتم على برج من أبراج الأفرينج في القديم والحديث مثل ما تم على هذا البرج من إحراقه من رأسه إلى أسفله والذي أuan على هذا هو تساوي

[59]

البرجين في الارتفاع ولو طال أحدهما على الآخر لهلك أقصرهما. وكان عدد المفقودين من أهل صور أربعين ألفاً نفس ومن الأفرينج في الحرب أيضاً على ما حكي الحاكي العارف تقدير ألفي نفس. ولم يف أهل صور بما كانوا بذلوه لظهور الدين أتابك من تسليم البلد إليه ولم يظهر لهم في ذلك قوله "إنما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين لا لرغبة في مال ولا مملكة". فكثر الدعاء له والشكر بحسن فعله ووعدهم أنه متى دهمهم خطب مثل هذا سارع إليه وبالغ في المعونة عليه، وعاد إلى دمشق بعد مكافحة المشقة في مقابلة الأفرينج إلى أن فرج الله عن أهل صور. وشرع أهل صور في ترميم ما شعنه

الافرج من سورها وأعادوا الخنادق إلى حالها ورسمها بعد طمتها وحصنوا البلد  
[60] وتفرق من كان فيه من الرجال .

لكن اول ضربة قاسية على الفرنجة لم تأتٍ من بغداد، بل جاءت بعد ان تحرك كل من إيلغازي امير ماردین وأتابك دمشق طفتکین. فقد فاجأ إيلغازي عام 1911 في بلاط (أو سرما شرق حلب) الأمير النورماندي روجر صاحب انطاکية فهزمه شر هزيمة وقتلته. وفيما يلي رواية حول هذه الحادثة كتبها المؤرخ الحلبي کمال الدين، وهو الذي تابع أحداثها بصورة مباشرة وقدم لنا صدى صادقاً عنها. نورد بعد ذلك رواية ابن القلansi الذي لم يفته أن يشير إلى عدم انتهاز المسلمين فرصة استعادة انطاکية رغم أنها كانت آنئذ سهلة المنال.

(کمال الدين 187/2/190)

### هزيمة سرجال صاحب انطاکية وموته

(وقعة تل عفرىن)

وتوجه إيلغازي إلى ماردین ومعه أتابك (طفتكين)، وراسلا من بعده وقرب من عساكر المسلمين والتركمان، فجمعا عسكراً عظيماً، وتوجه إيلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفاً في سنة ثلاثة عشرة وخمسين، وقطع الفرات [61] من عبر بدايا وسنجه .

وامتدت عساكره في أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربها، يقتل وينهب ويأسر، وغنموا كل ما قدروا عليه. ووصل من رسلي حلب من يستحثه على الوصول لتوالى غارات الفرنج من جهة الآثارب، وأیاس أهلها من أنفسهم، فسار إلى مرج دابق ثم إلى المسلمية، ثم إلى قنسرين في أواخر صفر من سنة ثلاثة عشرة وخمسين (حزيران/يونية 1119).

[62] وسارت سراياه في أعمال الروج والفرنج يقتلون ويأسرون، وأخذوا حصن قسطون في الروج، وجمع سرجال صاحب انطاکية الفرنج والأرمن [63]

وغيرهم، وخرج إلى جسر الحديد (على العاصي)، ثم رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين، مما يلي درب سرماً ، شمالي الآثارب، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول (20 حزيران/يونية 1119).

[64] وضجر الأمراء من طول المقام، وإيلغازي ينتظر أتابك طفتکين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلنه، فاجتمعوا وحثوا إيلغازي على مناجزة العدو فجدد إيلغازي الأيمان على الأمراء والمقدمين أن يناصحوا في حربهم، ويصابروا في

قتال العدو، وأنهم لا ينكرون ويدلون مهجوم في الجهاد، فحلفو على ذلك بنفوس طيبة.

وسار المسلمون جرائد، وخلفوا الخيام بقنسرين، وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول (27 حزيران/يونية 1119). فباتوا قريباً من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين والفرنج يتوهمون أن المسلمين ينذلون الأنوار أو زرَّدنا، فما شعرو عن الصبح إلا ورأيات المسلمين قد أقبلت، وأحاطوا بهم من كل جانب.

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتال، وهو راكب على حجر وبيده رمح، فرأه بعض العسكر فازدراه وقال: "إنما جئنا من [65] بلادنا تبعاً لهذا المعمم"! فأقبل على الناس، وخطبهم خطبة بلغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهف هممهم بين الصفين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم.

[66] ودار طغان أرسلان بن دملج من ورائهم ونزل في خيامهم، وقتل من فيها ونهبها، وألقى الله النصر على المسلمين، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قُتل.

وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقوهم فيها، وكانت السهام كالجراد، ولكرة ما وقع في الخيل والسوداد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها، وطاحت الرجال والأتباع والعلماني بالسهام، وأخذوهم بأسرهم أسرى.

[67] وقتل سرجال في الحرب ، وفقد من المسلمين عشرون نفراً (فقط!) منهم سليمان بن مبارك بن شبل، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفراً لا غير، وانهزم جماعة من أعيانهم وقتل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج، وكانت الواقعة يوم السبت (28 حزيران/يونية). وقت الظهر، فوصل البشير إلى حلب بالنصر، والمصاف قائم، والناس يصلون صلاة الظهر بجامع حلب، سمعوا صيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب، ولم يصل أحد من العسكر إلى نحو صلاة العصر.

وأحرق أهل القرى القتلى من الفرنج، فوجد في رماد فارس واحد أربعون نصل نشاب، ونزل إيلغازي في خيمة سرجال، وحمل إليه المسلمين ما غنموه، فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام، ورد عليهم ما حملوه بأسره.

ولما حضر الأسرى بين يدي إيلغازي، كان فيهم رجل عظيم الخلقة مشهراً بالقوة، وأسره رجل ضعيف قصير قليل السلاح، فلما حضر بين يدي إيلغازي قال له التركمان: أما تستحي يا سرجال مثل هذا الضعيف وعليك مثل هذا الحديد. فقال والله ما أخذني هذا، ولا هو مولي وإنما أخذني رجل عظيم

أعظم مني وأقوى، وسلمني إلى هذا وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس [68] أخضر.

(ابن القلansi 1/200)

ولما وصل ظهير الدين أتابك إلى حلب للجتماع مع نجم الدين (إلغازى) على الأمر المقرر بينهما بعد مضي الأجل المعين عليه بتدبيرهما وجد التركمان قد اجتمعوا إليه من كل فج وكل صوب في الأعداد الدثرة الوافرة والقوة الظاهرة كأنهم الأسود تطلب فريسها والشواهين إذا حامت على مكاسرها. ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب انطاكية منها في من جمعه وحشده من طوائف الأفرينج ورجاله الأرممن من سائر أعمالهم وأطرافهم بحيث يزيد عددهم على العشرين ألف فارس وراجل سوى الأتباع وهو العدد الكثير في أتم عدة وأكمل شكة وإنهم قد نزلوا في الموضع المعروف بشرمدا، وقيل دانيث البقل بين انطاكية وحلب. فحين عرف المسلمون ذلك طاروا إليهم بأجنحة الصقور إلى حماية الوكور، فما كان بأسرع من وقوع العين، وتقرب الفريقين حتى حمل المسلمون عليهم وأحاطوا بهم من جميع الجهات وسائل الجنبات، ضرباً بالسيوف ورشقاً بالسهام. ومنح الله تعالى - ولله الحمد - حزب الإسلام النصر على المردة الطغام، ولم تمض ساعة من نهار يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول من سنة 513 (28 حزيران/يونيه 1118) إلا والأفرينج على الأرض سطحةً واحدةً فارسهم ورجالهم بخيлем وسلامهم بحيث لم يفلت منهم شخص يخبر خبرهم، ووجد مقدمهم روجير صريعاً بين القتلى. ولقد حكى جماعةً من المشاهدين لهذه الواقعة إنهم طافوا في مكان هذه المعركة لينظروا آية الله تعالى الباهرة وإنهم شاهدوا بعض الخيول مصرعهً كالقنافذ من كثرة النشاب الواقع فيها. وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح لم يتفق مثله للإسلام في سالف الأعوام ولا الانف من الأيام. وبقيت انطاكية شاغرةً خاليةً من حماتها ورجالها خاويةً من كماتها وأبطالها فريسة الواثب نهزه التركمان إليها من غير تأهب لها للأمر الناذر والقدر النازل واشغال الناس باحراز الغائم التي امتلأت بها الأيدي وقويت بها النفوس [69]

وسرت بحسناها القلوب فتلك بيوتهم خاويةً والحمد لله رب العالمين.

## صفات بدوين الثاني وموته

(ابن القلansi 233)

في هذه السنة (1132-526) ورد الخبر من ناحية الأفرينج بهلاك بدوين الرويس ملك الأفرينج صاحب بيت المقدس بعكا في يوم الخميس [70]

الخامس والعشرين من شهر رمضان منها (8 آب/اغسطس 1132) وكان شيخاً قد عرّكه الزمان بحوادثه وعاني الشدائيد من نوائبها وكوارثه ووقع في أيدي المسلمين عدة وقفات اسيراً في محارباته ومصافاته، وهو يخلص منهم بحيلة المشهورة، وخدعه المخبورة، ولم يخلف فيهم بعده صاحب رأي صائب [71] ولا تدبير صالح. وقام فيهم بعده الملك القومص الجديد الكنديجور ، الوائل إليهم في البحر من بلادهم، فلم يتسرّد في رأيه، ولأصاب في تدبيره، فاضطربوا لفقده واختلفوا من بعده.

بدأ الهجوم الإسلامي المعاكس بصورة فعلية حقيقة عندما دخل مسرح الأحداث اتابكُ الموصل وحلب نور الدين زنكي، التركي الأصل، (والذي حكم بين 1129-1146).

وقد لقيت موافق أبي نور الدين الحربية أصوات احتفالية لدى ابن الأثير الذي كان موظفاً ومؤرخاً مخلصاً للسلالة الزنكية التي لم يطل حكمها في بلاد ما بين النهرين وسورية: لقد هيأت الأقدار لزنكي - بحسب الرؤية الدينية الأثيرية للتاريخ - وراثة طفتين دمشق الذي توفي عام 1128 بعد أن كان أول خصم معترض للصلبيين.

زنكي،  
قائد هيئة الأقدار لنصرة الإسلام في سورية  
(ابن الآثير 458/10)  
ولَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
مَنْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يُمْلِكُ أَتَايِكْ بِيَلَادِ الشَّامِ، لَمْلَكَهَا  
الْفِرْنُخُ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْصُرُونَ بَعْضَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ،  
وَإِذَا عَلِمَ ظَهِيرُ الدِّينِ طُغْتِيكْ بِيَلَكَ جَمَعَ عَسَاكِرَهُ،

وَقَصَدَ بِلَادِهِمْ وَحَصَرَهَا، وَأَغَارَ عَلَيْهَا، فَيَضْطَرُّ الْفِرْنَجُ

إِلَى الرَّجِيلِ لِدَفْعِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ، فَقَدَرَ اللَّهُ تَعَالَى

أَنَّهُ تُؤْفَّى هَذِهِ السَّنَةَ (522/1128)،

فَخَلَا لَهُمُ السَّامُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ مِنْ رَجُلٍ يَقُولُ يُنْصَرَةً

أَهْلِهِ، قَلَطَفَ اللَّهُ بِالْمُسْلِمِينَ بِوَلَايَةِ عِمَادِ الدِّينِ (زنكي)،

فَفَعَلَ بِالْفِرْنَجِ مَا تَذَكَّرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذِكْرُ مُلْكِ زَنْكِي قَلْعَةٌ

بَغْرِينَ (حصن الفرنجة) وَهِزِيمَةُ الْفِرْنَجِ

(ابن)

الأخير 11/3334) وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ فِي

سَوَّالٍ (531/تموز/لوالية

سَارَ أَتَابُكْ (1137)

[72] زَنْكِي مِنْ الْمَوْصِلِ إِلَى السَّامِ، وَحَصَرَ قَلْعَةَ بَغْرِينَ ،

وَهِيَ ثُقَارِبُ مَدِينَةِ حَمَاءَ، وَهِيَ مِنْ أَمْنَى مَعَاقِلِ الْفِرْنَجِ،

وَأَحْصَنَهَا، فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهَا قَاتَلَهَا وَرَحَفَ إِلَيْها،

فَجَمَعَ الْفِرْنَجُ قَارِسَهُمْ وَرَاجِلَهُمْ، وَسَازُوا فِي قَصْبِهِمْ

وَقَصِيبِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَقَمَامِصَتِهِمْ وَكُنُودِهِمْ إِلَى أَتَابُكْ

زَنْكِي لِيُرَحِّلُوهُ عَنْ بَغْرِينَ، فَلَمْ يَرْجِعُ، وَصَبَرَ لَهُمْ إِلَى

أَنْ وَصَلُوا إِلَيْهِ، فَلَقِيَهُمْ وَقَاتَلَهُمْ أَسْدَ قِتَالٍ رَآهُ

النَّاسُ، وَصَبَرَ الْقَرِيقَانِ، ثُمَّ أَجَلَتِ الْوَقْعَةَ عَنْ هَزِيمَةِ  
الْفِرِيْجِ، وَأَخَذَتِهِمْ سُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،

[73] ،  
وَاحْتَمَى مُلُوكُهُمْ ،

وَفُرَسَانُهُمْ يَحْصُنَ بَعْرِينَ لِفُرْيَهِ مِنْهُمْ، فَحَصَرَهُمْ رَئِيْكِي  
فِيهِ، وَمَنَعَ عَنْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْأَخْبَارِ، فَكَانَ مَنْ يَهُ  
مِنْهُمْ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ بِلَادِهِمْ لِشِدَّةِ صَبْطِ  
الْطَّرْقِ وَهَبْيَتِهِ عَلَى جُنْدِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْقُسُوسَ

وَالرُّهْبَانَ دَخَلُوا بِلَادَ الرُّومِ وَبِلَادَ الْفِرِيْجِ وَمَا وَالآهَا<sup>١</sup>  
مُسْتَفِرِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْلَمُوهُمْ أَنَّ رَئِيْكِي إِنْ أَخَذَ  
قَلْعَةَ بَعْرِينَ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْفِرِيْجِ مَلَكَ جَمِيعَ بِلَادِهِمْ  
فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ لَهُمْ هِمَةٌ إِلَّا قَصْدُ  
الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَجَيَّنَتِي اجْتَمَعَتِ النَّصْرَانِيَّةُ، وَسَارُوا

[74] ،  
عَلَى الصَّعْبِ وَالذَّلْوِلِ، وَقَصَدُوا السَّامِ

وَكَانَ مِنْهُمْ مَا تَذَكَّرُهُ. وَأَمَّا رَئِيْكِي فَإِنَّهُ جَدَّ فِي قِتَالِ  
الْفِرِيْجِ فَصَبَرُوا، وَقَلَّتِ عَلَيْهِمُ الدَّخِيرَةُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا  
عَيْنَرْ مُسْتَعِدِّينَ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَحَدًا يَقُولُ  
عَلَيْهِمْ، بَلْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مُلْكَ بَاقِي السَّامِ، فَلَمَّا  
قَلَّتِ الدَّخِيرَةُ أَكَلُوا دَوَابَهُمْ، وَأَدْعَنُوا بِالْمُسْلِمِ

لِيُوْمَهُمْ وَيَنْرَكُهُمْ يَعْوُذُونَ إِلَىٰ يَلَادِهِمْ، فَلَمْ يُحِبْهُمْ  
إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَ بِاجْتِمَاعِ مَنْ بَقِيَ الْفِرِنْجُ، وَوُصُولِ  
مَنْ قَرْبَ إِلَيْهِمْ، أَعْطَى لِمَنْ فِي الْحِصْنِ الْأَمَانَ، وَقَرَرَ  
عَلَيْهِمْ حَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ يَحْمِلُوهَا إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ  
إِلَى ذَلِكَ فَأَطْلَقُهُمْ، فَخَرَجُوا وَسَلَّمُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا  
فَارَقُوهُ بَلَغُهُمْ اجْتِمَاعُ مَنِ اجْتَمَعَ بِسَبِيلِهِمْ، فَنَدِمُوا عَلَى  
السَّلِيلِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ، وَكَانَ لَا يَصِلُّهُمْ شَيْءٌ  
مِنِ الْأَخْبَارِ أَلْبَتَهُ؛ فَلِهَذَا سَلَّمُوا.  
وَكَانَ رَنْكِي فِي مُدَّةٍ

مُقاِمِهِ عَلَيْهِمْ قَدْ فَتَحَ الْمَعَرَّةَ وَكَفَرَ طَابَ مِنِ الْفِرِنْجِ  
فَكَانَ أَهْلُهُمَا وَأَهْلُ سَائِرِ الْوِلَايَاتِ الَّتِي بَيْنَ حَلَبَ  
وَحَمَاءَ مَعَ أَهْلِ بَعْرِينَ فِي الْخِزِيرِ؛ لِأَنَّ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ  
قَائِمَةٌ عَلَى سَاقِ، وَالنَّهْبُ وَالْقَتْلُ لَا يَرْأُلُ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا  
مَلَكَهَا أَمِنَ النَّاسُ، وَعِمَرَتِ الْبِلَادُ، وَعَطُمَ دَخْلُها، وَكَانَ  
فَتَحًا مُبِينًا، وَمَنْ رَأَاهُ عَلِمَ صَحَّةَ قَوْلِي. وَمَنْ أَخْسَى  
الْأَعْمَالِ وَأَعْدَلَهَا مَا عَمِلَهُ رَنْكِي مَعَ أَهْلِ الْمَعَرَّةِ،  
فَإِنَّ الْفِرِنْجَ لَمَّا مَلَكُوا الْمَعَرَّةَ كَانُوا قَدْ أَخْدُوا  
أَمْوَالَهُمْ وَأَمْلَاكَهُمْ، فَلَمَّا فَتَحَهَا رَنْكِي الْآنَ حَصَرَ مَنْ  
بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا وَمَعْنَمُ أَعْقَابُ مَنْ هَلَكَ، وَطَلَبُوا  
أَمْلَاكَهُمْ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ كُتُبَهَا، فَقَالُوا: إِنَّ الْفِرِنْجَ

أَخْدُوا كُلًّا مَا لَنَا، وَالْكَتَبَ الَّتِي لِلْأَمْلَاكِ فِيهَا. قَوْلَ: اطْلُبُوا دَفَاتِرَ حَلَبَ، وَكُلُّ مَنْ عَلَيْهِ خَرَاجٌ عَلَى مِلْكٍ يُسَلِّمُ إِلَيْهِ، فَقَعُلُوا دَاكَ، وَأَعَادَ عَلَى النَّاسِ أَمْلَاكَهُمْ، وَهَذَا مِنْ أَخْسَنِ الْأَفْعَالِ وَأَعْدَلُهَا.

## التحالف

الإفرنجي - الدمشقي ضد زنكى

(ابن)

القلانسي (270-73)

وفي أول هذه السنة المباركة مستهل

[75] المحرم (1140-534/1139) ورد

الخبر بفراغ عماد الدين أتابك من ترتيب أمر بعلبك وقتلها وترميم ما تشعث منها

وشروعه في التأهب للنزول على مدينة دمشق لمضايقتها وورد عقب ذلك الخبر برحيله

[76] عنها في العسكر ونزوله في البقاع في شهر ربيع الأول منها (تشرين أول/اكتوبر 1139) وأنفذ رسوله إلى

[77] الأمير جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن أتابك صاحبها في التماس تسليم البلد إليه ويغوض عنه بما يقع الاختيار والاقتراح عليه فلم يجب

إلى ما رغب فيه فرحل عن البقاع ونزل على داريا ظاهر دمشق في يوم  
الأربعاء ثالث عشر

ربيع الآخر منها (6 كانون ثاني/يناير).

وكان عند نزوله على داريا قد التفت الطلائع فظفر بجماعة وانهزم الباقيون  
إلى البلد

[78] وزحف بعد ذلك إلى البلد في عسكر من ناحية المصلى في  
يوم الجمعة الثامن وعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة فظفر بجماعة  
وافرة من أحداث  
البلد والغوطة وأطلق السيف فيهم فمنهم من مضى قتيلاً وأسيراً ومنهم من  
عاد إلى

البلد سالماً وجريحاً وأشرف البلد في هذا اليوم على الهلاك لولا لطف الله  
تعالى

[79] وعاد إلى مخيمه بمن أسر بعد من قتل وأمسك أياماً عن الحرب .  
وتابع المراسلة والتلطف في تسليم البلد وأخذ العوض عنه بعلبك وحمص وما  
يقترب معهما

فأثر جمال الدين محمد بن تاج الملوك الدخول في هذا الأمر لما فيه من  
الصلاح وحقن

الدماء وعمارة الأعمال وسكنون الدهماء واباءة غيره عند الاستشارة فيه  
وجعل يزحف

بعسكنه في أيام متفرقة بحيث لم يصدق في القتال ولا بالغ في التضييق  
والنزال

اشفاقاً من سفك الدماء كالكاف المسلح والمتأني في الواقع والمفاجئ.  
وابتدأ بجمال

الدين محمد ابن تاج الملوك مرض اتصل به في جمادى الأولى من السنة  
فصار يخف تاره

ويشفل ويمضي ويعود ويقل ويزيد إلى أن اشتداداً وقع اليأس معه منه  
ولم يكن

له فيه طيب ولا راق ولم يزل على هذه الحال إلى أن قضى محظوم نحبه وصار  
إلى رحمة

ربه في ليلة الجمعة الثامن من شعبان منها (29 آذار/مارس

1140) في الوقت الذي أصيب

فيه أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك رحمهما الله فعجب الناس من  
ذلك واتفاق

الوقت وال الساعة وسبحوا الله وقدسوا وجهه ودفن في تربة جدته  
[80] بالفردان .

فاجتمع رأي المقدمين وأصحاب الأمر

من بعده على سد ثلعة فقده بنصب ولده الأمير عضد الدولة أبي سعيد آبق بن  
جمال الدين

محمد في مكانه وأخذت له بذلك الوعود المؤكدة بالإيمان المشددة على  
الإخلاص في

الطاعة والصدق في الخدمة والمناصحة فاستقام الأمر وصلاح التدبير وزال  
الخلف وسكنت

الأمور بعد اضطرابها وقررت النفوس بعد استيحاشها. وحين عرف عماد الدين  
أتايك هذه

القضية زحف في عسكره إلى البلد طاماً في خلف يجري بين المقدمين  
بوفاته فيnal به

بعض طلباته فكان الأمر بالضد مما أمل والحال بالعكس فيما ظن ولم يصادف من أجناد

دمشق وأحداثها إلا الثبات على القراء والمصبر على المناوشة والمصاع فعاد منكئاً

إلى عسکره وقد ضعفت نفسه وضاق لهذا الأمر صدره. وقد كان تقرر الأمر مع الأفرنج على

الاتفاق والاعتصاد والمؤازرة والاسعاد والامتزاج في دفعه والاختلاط في صده عن

مراده ومنعه ووّقعت المعاهدة على ذلك بالأيمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه

والتمسوا على ذلك مالاً معيناً يحمل إليهم ليكون عوناً لهم على ما يحاولونه وقوهً

ورهاناً تسكن بها نفوسهم وأجيروا إلى ذلك وحمل إليهم المال والرهائن من أقارب

المقدمين وشرعوا في التأهب للإنجاد والاستعداد للمؤازرة والاسعاد وكاتب بعضهم

بعضاً بالبعث على الاجتماع من سائر المعامل والبلاد على أبعاد أتابك وصده عن نيل

الأرب من دمشق والمراد قبل استفحال أمره واعصال خطبه وقوة شوكته واستظهاره على عصب

الأفرنج وقصد بلادهم.

فحين تيقن صورة الحال في هذا العزم

وتجمعهم لقصده مع عسکر دمشق رحل عن منزله بداريا في يوم الأحد الخامس من شهر رمضان

طالباً ناحية حوران للقاء الافرنج إن قربوا منه وطلبهم إن بعدوا عنه وأقام على هذا

الاعتزام مدةً ثم عاد إلى ناحية غوطة دمشق ونزل [81]

بعذراء يوم الأربعاء لست بقين من شوال (12 حزيران/يونية)

فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حرستا التين ورحل يوم السبت تالي مت shamalaً

حين تحقق نزول الافرنج بالمدان في جموعهم. وكان الشرط مع الافرنج أن يكون في جملة

المبدول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد ابراهيم بن طرغت وتسليمها إليهم فاتفق أن

ابراهيم بن طرغت واليه كان قد نهض من أصحابه إلى ناحية صور للاغارة عليها فصادفه

[82] ريمند صاحب

أنطاكية في قصده واصلاً إلى اسعد الافرنج على انجاد أهل دمشق فالتقى فكسره وقتل

في الواقعة ومعه نفر يسير من أصحابه وعاد من بقي منهم إلى بانياس فتحصنوا بها

وجمعوا إليها رجال وادي التيم وغيرهم ومن أمكن جمعه من الرجال للذب عنها والمراما

[83] دونها فنهض إليها الأمير معين الدين في

عسكر دمشق ونزل عليها ولم يزل محارباً بالمنجنيقات ومضايقاً لها بأنواع المحاربات

ومعه فريق وافر من عسكر الافرنج عامه شوال (ايار-حزيران/مايو-يونية

.(1140)

## ورد الخبر بأن الأمير عماد الدين

أتايك قد نزل على بعلبك وأنفذ يستدعى التركمان من مطانهم كذا في شوال  
لقصد بانياس

دفع المنازلين لها عنها ولم تزل الجالية جارية على هذه القضية إلى آخر ذي  
الحجـة

من السنة.

... ولم تزل بانياس على حالها في

المضايقة والمحاصرة إلى أن نفدت منها الميرة وقل قوت المقاتلة فسلمت  
إلى معين

الدين وعوض عنها الوالي الذي كان بها بما أرضاه من الاقطاع والاحسان  
وسلمها إلى

الافرنج ووفى لهم بالشروط ورحل عنها منكثاً إلى دمشق ظافراً بأمله خامداً  
لعمله

في أواخر شهر شوال.

وفي صبيحة يوم السبت السابع من ذي  
القعدة من السنة (22 حزيران/يونية)

حصل عماد الدين أتابك بعسكره جريدةً بظاهر دمشق ووصل المصلى وقرب  
من سور البلد ولم

يشعر به أحمد لكون الناس في أعقاب نومهم فلما تبلج الصباح وعرف خبره  
علت الجلبة

والصياح ونفر الناس واجتمعوا إلى الأسوار وفتح الباب وخرجت الخيـل  
والرجالـة وكان قد

فرق عسكره إلى حوران والغوطة والمرح وسائل الأطراف للغارة ووقف هو  
في خواصه بازاء

عسكر دمشق بحيث لا يمكن أحداً من أصحابه في اتباع أحد من خيله المغيرة  
ونشبت الحرب

بينه وبين عسكر دمشق وخرج من الفريقين جملة وافرة وأحجم عنهم  
لاشتغاله بمن بثه من

سراياه في الغارات وحصل في أيديهم من خيول الجشار والأغنام  
والأحمال والأبقار والأثاث ما لا يحصى كثرة لأنهم جاءوا على غفلة وغرة ونزل  
من

يومه بمرج راهط إلى أن اجتمع الرجال والغنائم وسار عائداً على الطريق  
الشماليه

بالغنائم الدثرة المتناهية في الكثرة.

بعد أن خاب أمله في دمشق استعاد زنكي الرجاء بفتح الراها (1144) وتحطيم مقاطعتها المحلية، فأصبحت أول مازال من الدولات النصرانية الأربع التي نشأت خلال الحملة الأولى. نورد في البداية صفحات من ابن القلansi ثم من ابن الأثير الذي، وإن كتب باسلوب الحكايات والنواودر، فإنه ينطلق هنا أيضاً من الحوادث اليومية المحلية ليلاقي نظرة شاملة أوسع على مسرح الصراع القائم بين الغرب والاسلام. غير أن المليمة ليلقي نظرة شاملة أوسع على مسرح الصراع القائم بين الغرب والاسلام. غير أن زنكي مالبث أن قُتل بعد عامين على تحقيق ذاك الانتصار وهو يحارب ضد غيره من المسلمين. وقد ورث برنامجه السياسي-العسكري ابنه نور الدين سلطان حلب. نرى هنا أن مدائج ابن الأثير لزنكي تبين - بعيداً عن الطلال العاطفية - السمات التاريخية الهامة التي كانت تميز هذه الشخصية العظيمة.

## زنكي

### يفتح الراها

(ابن القلansi 80-279)

وفي هذه السنة (539/1144) وردت الأخبار من ناحية الشمال بأن الأمير عماد الدين أتابك افتتح مدينة الراها

بالسيف مع ما هي عليه من القوة والحسانة والامتناع على قاصديها والحماية  
على

طالبيها من العساكر الجمة ومنازلتها، وأن السبب في ذلك أن الأمير عماد  
الدين أتابك

لم يزل لها طالباً وفي تملكتها راغباً ولانتهاز الفرصة فيها متربقاً لا ييرح ذكرها  
جائلاً في خلده وسره وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه إلى أن عرف أن جوسلين  
(الثاني) صاحبها

قد خرج منها في جل رجاله وأعيان حماته وابطاله لأمر اقتضاه وسبب من  
أسباب إلى

البعد عنها دعاه للأمر المقضي والقدر النازل فحين تحقق ذاك بادر بقصدها  
وسارع إلى

النزول في العسكر الدثر عليها لمضايقتها والحصر لمن فيها وكاتب طوائف  
التركمان

بالاستدعاء لهم للمعونة عليها والاسعاد وأداء فريضة الجهاد فوصل إليه منهم  
الخلق

الكثير والجم الغفير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما  
يصل

إليها من المير والأقوات والطائر لا يكاد يقرب منها خوفاً على نفسه من  
صوائب سهام

منازلها ويقطة المضيقين عليها ونصب على أسوارها المناجيق ترمي عليها  
دائماً

والمحارية لأهلها مضرأً ومواطباً. وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون  
بمواضع

النقوب الماضون فيها فنقبو في عدة مواضع عرفوا أمرها وتيقنو نفعها  
وضرها ولم

يزالوا على هذه الحال في الإيغال في النقب والتمادي في بطن الأرض إلى أن  
وصلوا إلى

تحت أساس أبراج السور فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة وفرغوا  
من ذلك ولم

يبق غير اطلاق النار فيها. فاستأذنوا عmad الدين أتابك في ذلك فأذن لهم بعد  
أن دخل

في النقب وشاهد حاله واستعظم كونه وهاله. فلما أطلقت النار في تعليق  
النقوب، تمكنت

من أخشابها وابادتها فوق السور في الحال وهجم المسلمون البلد بعد أن قتل  
من

الجهتين الخلق الكثير على الهدم وقتل من الأفرنج والأرمن وجراح ما أوجب  
هزيمتهم عنه

وملك البلد بالسيف في يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الآخرة منها  
(23) كانون أول / ديسمبر

[85]  
1144) صحوة النهار. وشرع

في النهب والقتل والأسر والسببي وامتلاء الأيدي من المال والأثاث والدواب  
والغائم

والسببي ما سرت به النقوس وابتهدت بكثره القلوب وشرع عmad الدين أتابك  
بعد أن أمر

برفع السييف والنهب في عمارة ما انهدم وترميم ما تشعث ورتب من رآه  
لتدبیر أمرها

وحفظها والاجتهاد في مصالحها وطيب بنفوس أهلها ووعدهم بجمال السيرة  
فيهم وبسط

المعدلة في أقاصيهم وأدانيهم. ورحل عنها وقصد سروج وقد هرب الأفرنج  
منها فملكتها

وَجَعَلَ لَا يَمْرُ بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهَا وَلَا مَعْقُلٍ مِنْ مَعَاقِلِهَا فَيَنْزَلُ عَلَيْهِ إِلَّا سَلْمٌ إِلَيْهِ  
فِي  
الحَالِ.

(ابن الأثير 66/11/64)  
فِي هَذِهِ السَّنَّةِ سَادِسَ

[86]  
جَمَادَى الْآخِرَةِ ،

فَتَّحَ أَتَابُكُ عِمَادُ الدِّينِ رَنْكِي بْنُ آفْسُنْقُرْ مَدِينَةَ الرُّهَا  
مِنَ الْفِرْنِيجِ، وَفَتَّحَ عَيْرَهَا مِنْ خُصُونِهِمْ بِالْجَزِيرَةِ أَيْضًا،  
وَكَانَ ضَرْرُهُمْ قَدْ عَمِّ يَلَادَ الْجَزِيرَةِ، وَشَرُّهُمْ قَدْ اسْتَطَارَ  
فِيهَا، وَوَصَلَتْ غَارَاتُهُمْ إِلَى أَدَانِيهَا وَأَفَاصِيهَا، وَبَلَقَتْ  
آمِدَ، وَتَصِيبِينَ وَرَأْسَ عَيْنِ، وَالرَّفَةَ. وَكَانَتْ مَمْلَكَتُهُمْ  
يَهْذِهِ الدِّيَارِ مِنْ قَرِيبِ مَارِدِينَ إِلَى الْفُرَاتِ مِثْلَ الرُّهَا،  
وَسَرُوجَ، وَالْبِيرَةِ، وَسِنَّ ابْنِ عُطَيْبِ، وَحِمْلِينَ، وَالْمُؤَزِّرِ،  
وَالْفَرَادِيِّ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ مَعَ عَيْرِهَا  
مِمَّا هُوَ عَزْبُ الْفُرَاتِ لِجُوْسِلِينَ، وَكَانَ صَاحِبَ رَأْيِ الْفِرْنِيجِ  
وَالْمُقَدَّمَ عَلَى عَسَاكِرِهِمْ، لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ السُّجَاجِعَةِ  
وَالْمَكْرِ. وَكَانَ أَتَابُكُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَنِيَ قَصَدَ حَصْرَهَا  
اجْتَمَعَ فِيهَا مِنَ الْفِرْنِيجِ مَنْ يَمْنَعُهَا، فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ  
مُلْكُهَا لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَصَائِدِ، فَاسْتَغَلَ يَدِيَارِ بَكْرٍ  
لِيُوْهُمُ الْفِرْنِيجَ أَنَّهُ عَيْرُ مُنَقَّرٍ لِقَصْدِ يَلَادِهِمْ. فَلَمَّا

رأوا الله عَزِيزَ قَادِيرَ عَلَى تَرْكِ الْمُلُوكِ الْأَرْقَبَيَّةِ  
 وَعَيْرِهِمْ مَنْ مُلُوكٌ دَيَارِ بَكْرٍ، حَيْثُ إِنَّهُ مُحَارِبٌ لَهُمْ،  
 اطْمَأَنُوا، وَفَارَقَ جُوْسِلِينَ الرُّهَا وَعَبَرَ الْفُرَاتَ إِلَى بِلَادِ  
 الْغَرْبَيَّةِ، فَجَاءَتْ عَيْنُونَ أَتَابَكَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَتْهُ فَتَادَى  
 فِي الْعَسْكَرِ بِالرَّحِيلِ، وَأَنْ لَا يَتَحَلَّفَ عَنِ الرُّهَا أَحَدٌ مِنْ  
 غَدِ يَوْمِهِ، وَجَمِيعَ الْأُمَرَاءِ عِنْدَهُ، وَقَالَ: قَدَّمُوا الطَّعَامَ؛  
 وَقَالَ: "لَا يَأْكُلُ مَعِي عَلَى مَائِدَتِي هَذِهِ إِلَّا مَنْ يَطْعَنُ  
 غَدًا مَعِي عَلَى بَابِ الرُّهَا"، فَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيْهِ عَيْزِ  
 (أَمِينٍ) وَاحِدٍ وَصَبِيًّا لَا يُعْرَفُ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ إِفَادَاهِ  
 وَسَجَاعَتِهِ، وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مُسَاوَاتِهِ فِي الْحَزْبِ.  
 فَقَالَ الْأَمِيرُ لِذَلِكَ الصَّبِيِّ: "مَا أَنْتَ فِي هَذَا الْمَقَامِ؟"  
 فَقَالَ أَتَابَكُ: "دَعْهُ، فَوَاللهِ إِنِّي أَرَى وَجْهًا لَا  
 يَتَحَلَّفُ عَنِّي". وَسَارَ وَالْعَسَاكِرُ مَعَهُ، وَوَصَلَ إِلَى  
 الرُّهَا، وَكَانَ هُوَ أَوَّلَ مَنْ حَمَلَ عَلَى الْفِرْنِيجِ وَمَعْهُ ذَلِكَ  
 الصَّبِيُّ، وَحَمَلَ فَارِسٌ مِنْ خَيَالِ الْفِرْنِيجِ عَلَى أَتَابَكَ

[87]

عَرْصًا، فَاعْتَرَضَهُ ذَلِكَ الْأَمِيرُ قَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ ،  
 وَسَلِيمُ السَّهِيدُ، وَنَازَلَ الْبَلَدَ، وَقَاتَلَهُ ثَمَانِيَّةً وَعِشْرِينَ  
 يَوْمًا، فَرَحَفَ إِلَيْهِ عِدَّةَ دَفَعَاتٍ، وَقَدَّمَ النَّقَابَيْنَ  
 فَنَقَبُوا سُورَ الْبَلَدِ، وَلَجَ فِي قِتَالِهِ حَوْفًا مِنْ اجْتِمَاعٍ

الْفِرْجُ وَالْمَسِيرُ إِلَيْهِ وَاسْتِنْقَاذُ الْبَلْدِ مِنْهُ، فَسَقَطَتِ  
 الْبَدَّةُ الَّتِي تَقَبَّلَا النَّقَابُونَ، [وَأَحَدُ] الْبَلْدَ عَنْهُ  
 وَقَهْرًا، وَحَصَرَ قَلْعَةَ فَمَلَكَهَا أَيْضًا، وَتَهَبَ النَّاسُ  
 الْأَمْوَالَ وَسَبُوا الدُّرْرِيَّةَ وَقَتَلُوا الرِّجَالَ. فَلَمَّا رَأَى  
 أَبَاكُ الْبَلْدَ أَغْبَبَهُ، وَرَأَى أَنَّ تَخْرِيبَ مِثْلِهِ لَا يَجُوزُ  
 فِي السِّيَاسَةِ، فَأَمَرَ قَنْوَدِيَ فِي الْعَسَاكِيرِ يَرْدُّ مِنْ أَخْدُوهُ  
 مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَإِعَادَةِ مَا  
 عَنِمُوهُ مِنْ أَتَاثِهِمْ وَأَمْتَعَتِهِمْ، فَرَدُّوا الْجَمِيعَ عَنْ آخِرِهِ  
 لَمْ يُفَقَّدْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، إِلَّا السَّادَّ التَّادِرُ الَّذِي أَخِدَّ،  
 وَفَارَقَ (مِنْ أَحَدَهُ) الْعَسْكَرَ، فَعَادَ الْبَلْدُ إِلَى حَالِهِ  
 الْأَوَّلِ، وَجَعَلَ فِيهِ عَسْكَرًا يَحْفَظُهُ، وَتَسَلَّمَ مَدِينَةَ سَرْوَاجَ  
 وَسَائِرَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي كَانَتْ يَبْدِ الْفِرْجُ شَرْقِيَّ الْفَرَاتِ،

[88]  
مَا عَدَا الْبِيرَةَ ،

فَإِنَّهَا حَصِينَةٌ مَنِيعَةٌ وَعَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ، فَسَارَ إِلَيْهَا  
 وَحَصَرَهَا، وَكَانُوا قَدْ أَكْثَرُوا مِيرَتَهَا وَرِجَالَهَا، فَبَقِيَ عَلَى  
 حِصَارِهَا إِلَى أَنْ رَحَلَ عَنْهَا، عَلَى مَا تَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
 تَعَالَى.

حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ  
 بِالْأَنْسَابِ وَالْتَّوَارِيخِ قَالَ: كَانَ صَاحِبُ جَزِيرَةِ صِيفَلِيَّةَ قَدْ أَرْسَلَ

سَرِيَّةً فِي الْبَحْرِ إِلَى طَرَابُلْسَنَ الْعَرْبِ وَتِلْكَ الْأَعْمَالِ،  
فَنَهَبُوا وَقَتُلُوا؛ وَكَانَ بِصِقلِّيَّةِ إِنْسَانٍ مِنَ الْغُلَمَاءِ  
الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ، وَكَانَ صَاحِبُ صِقلِّيَّةِ  
يُكْرِمُهُ وَيَحْتَرِمُهُ، وَيَرْجِعُ إِلَى قَوْلِهِ، وَيُقَدِّمُهُ عَلَى مَنْ  
عِنْدَهُ مِنَ الْقُسُوسِ وَالرُّهْبَانِ؛ وَكَانَ أَهْلُ وِلَايَتِهِ يَقُولُونَ  
إِنَّهُ مُسْلِمٌ بِهَذَا السَّبِّبِ.

فَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ كَانَ  
جَالِسًا فِي مَنْطَرَةٍ لَهُ تُسْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ، وَإِذْ قَدْ أَفْبَلَ  
مَرْكِبٌ لَطِيفٌ، وَأَخْبَرَهُ مَنْ فِيهِ أَنَّ عَسْكَرَهُ دَخَلُوا بِلَادَ  
الْإِسْلَامِ، وَعَنِمُوا وَقَتُلُوا وَظَفِرُوا؛ وَكَانَ الْمُسْلِمُ إِلَى  
جَانِبِهِ وَقَدْ أَعْفَى، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ! أَمَا تَسْمَعُ  
مَا يَقُولُونَ؟ قَالَ: لَا! قَالَ: إِنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِكَذَا وَكَذَا.  
أَيْنَ كَانَ مُحَمَّدٌ عَنْ تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا؟ فَقَالَ لَهُ: كَانَ  
قَدْ غُلِبَ عَنْهُمْ، وَشَهِدَ فَتْحَ الرُّهَّا، وَقَدْ فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ  
الآنَ؛ فَصَحَّكَ مِنْهُ مَنْ هُنَاكَ مِنَ الْفَرِنْجِ، فَقَالَ الْمَلِكُ: لَا  
تَصْحِكُوا، فَوَاللَّهِ مَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقُّ؛ فَبَعْدَ أَيَّامٍ وَصَلَتِ

[89]      الأَخْبَارُ مِنْ فِرِنْجِ السَّامِ يَقْنِحُهَا .

وَحَكَى لِي جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ أَنَّ إِنْسَانًا  
صَالِحًا رَأَى السَّهِيدَ فِي مَتَامِهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟

قَالَ: عَفَرَ لِي يَقْتُلُ الرُّهَا.

## ذِكْرٌ

قُتِلَ أَتَابَكَ عِمَادُ الدِّينِ رَنْكِي وَشَنْبِي مِنْ سِيرَتِهِ

(ابن الأثير 74-11/72)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (541)،

لِحَمْسِ مَصَيْنَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ (14 أيلول/سبتمبر

1146)، قُتِلَ أَتَابَكُ

<sup>[90]</sup> السَّهِيدُ عِمَادُ

الدِّينِ رَنْكِي بْنُ آفْسُنْقُرْ، صَاحِبُ الْمَوْصِلِ وَالشَّامِ، وَهُوَ

يُحَاكِمُرْ قَلْعَةَ جَعْبَرَ، عَلَى مَا ذَكَرْتَاهُ، قَتَلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ

مَمَالِيكِهِ لَيْلًا غَيْلَةً، وَهَرَبُوا إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرَ، فَصَاحَ مَنْ

يَهَا إِلَى الْعَسْكَرِ يُعْلَمُونَهُمْ يُقْتَلُهُ، وَأَطْهَرُوا الْفَرَّاحَ،

فَدَخَلَ أَصْحَابَهُ، فَأَدْرَكُوهُ وَبِهِ رَمْقُ. حَدَّثَنِي وَالِّدِي عَنْ

بَعْضِ حَوَاطِّهِ، قَالَ: "دَخَلْتُ إِلَيْهِ فِي الْحَالِ وَهُوَ حَيٌّ،

فَحِينَ رَأَيْتُ طَنَّ أَنِّي أُرِيدُ قَتْلَهُ، فَأَشَارَ إِلَيَّ بِإِصْبَاعِهِ

السَّبَابَةِ يَسْتَعْطِفُنِي، فَوَقَعْتُ مِنْ هَبْيَتِهِ، قَفَلْتُ: يَا

مَوْلَايَ مَنْ فَعَلَ بِكَ هَذَا؟ قَلْمَ يَقْدِرُ عَلَى الْكَلَامِ، وَفَاصَّ

نَفْسُهُ لِوْقَتِهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ".

قَالَ: وَكَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ،

اسْمَرَ اللَّوْنِ، مَلِيحَ الْعَيْنَيْنِ، قَدْ وَحَطَّهُ الشَّيْبُ، وَكَانَ  
قَدْ رَادَ عُمْرَهُ عَلَى سِتِّينَ سَنَةً؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَمَّا قُتِلَ

[91]  
وَالْدُّهُ صَغِيرًا،

كَمَا دَكَرْتَاهُ قَبْلُ، وَلَمَّا قُتِلَ دُفِنَ بِالرَّفَّةِ. وَكَانَ شَدِيدًا  
الْهَبْبَةَ عَلَى عَسْكَرِهِ وَرَعِيَّتِهِ، عَظِيمُ السُّيَاسَةِ، لَا يَقْدِرُ  
الْقَوِيُّ عَلَى ظُلْمِ الصَّعِيفِ، وَكَانَتِ الْبِلَادُ، قَبْلَ أَنْ  
يَمْلِكَهَا حَرَابًا مِنَ الظُّلْمِ، وَتَنَقَّلَ الْوَلَاةُ، وَمُجَاوِرَةُ  
الْفِرْنِيجِ، فَعَمَّرَهَا، وَامْتَلَأَتْ أَهْلًا وَسُكَّانًا. حَكَى لِي  
وَالْدِي قَالَ: رَأَيْتُ الْمَوْصِلَ وَأَكْثَرَهَا حَرَابٌ، بِحَيْثُ يَقْفُضُ  
الإِنْسَانُ فَرِيبَ مَحَلَّةَ الطَّبَالِبِينَ وَيَرَى الْجَامِعَ الْعَتِيقَ،  
وَالْعَرَصَةَ، وَدَارَ السُّلْطَانِ، لَيْسَ بَيْنَ ذَلِكَ عِمَارَةً؛ وَكَانَ  
الإِنْسَانُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَسْنِيِّ إِلَى الْجَامِعِ الْعَتِيقِ إِلَّا  
وَمَقْعَدُهُ مَنْ يَحْمِيهِ، لِيُعْدِيهِ عَنِ الْعِمَارَةِ، وَهُوَ الْآنُ فِي وَسْطِ  
الْعِمَارَةِ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْبِقَاعِ الْمَذْكُورَةِ كُلُّهَا أَرْضٌ  
يَرَاخُ، وَحَدَّتِنِي أَيْضًا أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي السَّنَاءِ،  
فَدَخَلَ الْأَمِيرُ عَزْ الدِّينَ الْذِيْسِيَّ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ  
أُمَرَائِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ أَفْطَاعِهِ مَدِينَةَ دَفْوَقَا، وَنَزَلَ فِي دَارِ  
إِنْسَانٍ يَهُودِيًّا، فَاسْتَغَاثَ الْيَهُودِيُّ إِلَى أَتَابَكَ، وَأَنَّهُ  
حَالَهُ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَى الْذِيْسِيِّ فَئَأَخَرَ، وَدَخَلَ الْبَلَدَ

وَأَخْرَجَ بَرْكَةً وَحِيَامَةً. قَالَ: فَلَقْدُ رَأَيْتُ عِلْمَانَهُ  
يَنْصِبُونَ حِيَامَهُ فِي الْوَحْلِ، وَقَدْ جَعَلُوا عَلَى الْأَرْضِ يَتَّسِعُ  
يَقِيمُهُ الطَّينُ، وَخَرَجَ فَنَزَلَهَا، وَكَاتَتْ سِيَاسَتَهُ إِلَى هَذَا

[92] وَكَاتَتِ  
الْحَدُّ.

الْمَوْصِلُ مِنْ أَقْلِ بِلَادِ اللَّهِ فَاكِهَهُ، فَصَارَتْ فِي أَيَّامِهِ،  
وَمَا بَعْدَهَا، مَنْ أَكْثَرُ الْبِلَادِ قَوَاكِهَ وَرَبَاحِينَ وَغَيْرَ  
ذَلِكَ. وَكَانَ أَيْضًا شَدِيدَ الْغَيْرَةِ وَلَا سِبَبًا عَلَى نِسَاءِ  
الْأَجْنَادِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تَحْفَظْ نِسَاءَ الْأَجْنَادِ  
بِالْهَيْبَةِ، وَإِلَّا فَسَدْنَ لِكَتْرَهُ عَيْبَهُ أَرْوَاجِهِنَّ فِي  
الْأَسْقَارِ. وَكَانَ أَشْجَعَ خَلْقِ اللَّهِ، أَمَّا قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَ  
فَيَكْفِيهِ اللَّهُ خَصَرَ مَعَ الْأَمْيَرِ مَوْذُودِ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ  
مَدِينَةَ طَبَرِيَّةَ، وَهِيَ لِلْفِرْنِجِ، فَوَصَلَتْ طَعْنَتُهُ بَابَ  
الْبَلَدِ وَأَتَرَ فِيهِ، وَحَمَلَ أَيْضًا عَلَى قَلْعَهُ عُقَرَ  
الْحُمَيْدِيَّةِ، وَهِيَ عَلَى جَبَلٍ عَالٍ، فَوَصَلَتْ طَعْنَتُهُ إِلَى  
شُورِهَا، إِلَى أَسْيَاءَ أُخْرَ، وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ فَقَدْ كَانَ  
الْأَعْدَاءُ مُخْدِقِينَ بِبِلَادِهِ، وَكُلُّهُمْ يَقْصُدُهَا، وَيُرِيدُ  
أَخْدَهَا، وَهُوَ لَا يَقْنَعُ بِحَفْظِهَا، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَنْقَضِي  
عَلَيْهِ عَامٌ إِلَّا وَيَفْتَحُ مِنْ بِلَادِهِمْ. فَقَدْ كَانَ الْخَلِيفَةُ  
الْمُسْتَرِشِدُ بِاللَّهِ مُجَاوِرَهُ فِي تَاهِيَّةِ تَكْرِيَتِ، وَقَصَدَ

الْمَوْصِلَ وَحَصَرَهَا، ثُمَّ إِلَى جَانِبِهِ، مِنْ تَاهِيَةٍ شَهْرَ زُورَ  
وَتِلْكَ التَّاهِيَةِ السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ؛ ثُمَّ ابْنُ سُقْمَانَ صَاحِبُ  
خِلَاطَ؛ ثُمَّ دَاؤُدُّ بْنُ سُقْمَانَ صَاحِبُ حِصْنِ كِيفَا؛ ثُمَّ صَاحِبُ  
آمِدَ وَمَارِدِينَ؛ ثُمَّ الْفِرِنْجُ مِنْ مُجَاوَرَةِ مَارِدِينِ إِلَى  
دِمْشَقَ؛ ثُمَّ أَصْحَابُ دِمْشَقَ، فَهَذِهِ الْوِلَايَاتُ قَدْ أَحَاطَتْ  
بِوَلَائِيهِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا، فَهُوَ يَقْصِدُ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا  
مَرَّةً، وَيَأْخُذُ مِنْ هَذَا وَيُصَانِعُ هَذَا، إِلَى أَنْ مَلَكَ مِنْ كُلِّ  
مِنْ يَلِيهِ طَرَفًا مِنْ يَلَادِهِ، وَقَدْ أَئْتَنَا عَلَى أَحْبَارِهِ فِي

[93]

كِتَابِ "الْبَاهِرِ" فِي تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَدَوْلَةِ أَوْلَادِهِ ،  
فَيُطْلَبُ مِنْ هُنَاكَ.

كان حصار دمشق القصير والفاشل (1148) أبرز ماحدث خلال الحملة الصليبية الثانية التي لم ظهر أي جدارة خاصة وأنها بدأت تحت وهم يقول بسقوط الرها. نرى هنا أن رواية شاهد العيان ابن القلانسي تؤكد رواية ابن الأثير وتكملها، ونجد أيضاً صفحات بلاغية أخرى كتبها مؤرخ متاخر آخر هو الجوزي. كما نقرأ كيف ترمذ ميته الفندلاوي الفقيه الشيخ الكبير شهيداً في سبيل الدين والوطن إلى المقاومة الاسلامية في مظهرها الأنبل والأشد صرامة.

## الحملة

### الثانية وحصار دمشق

(ابن القلانسي 300-297)  
وفي أوائلها (543/1148) توالت الأخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الافرنج المقدم ذكرهم إلى ساحل البحر وحصولهم على سواحل التغور الساحلية صور وعكا واجماعهم مع من كان بها من الافرنج ويقال إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع تقدير مائة ألف عنان وقصدوا بيت المقدس وقضوا مفروض حجهم وعاد بعد ذلك من عاد إلى بلادهم في البحر. وقد هلك منهم

[94]

بالموت والمرض الخلق العظيم وهلك من ملوكهم من هلك وبقي المان  
أكبر

ملوكهم ومن هو دونه واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد  
الإسلامية

والأعمال الشامية إلى أن استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق  
وحذتهم نفوسهم

الخبيثة بملكها وتباعوا ضياعها وجهاتها. وتواصلت الأخبار بذلك وشرع متولى  
أمرها

الأمير معين الدين أثر في التأهب والاستعداد لحربهم ورفع شرهم وتحصين ما  
يخشى من

الجهات وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ وقطع مجاري الميرة إلى  
منازلهم وطم

الآبار وعفى المناهل وصرفوا أعنّتهم إلى ناحية دمشق في حشدتهم وحدهم  
وحذدهم في

الخلق الكثير على ما يقال تقدير الخمسين ألف من الخيال والرجل ومعهم من  
السوداد

والجمال والأبقار ما كثروا به العدد الكثير ودنوا من البلد وقصدوا المنزل  
المعروف

بمنازل العسكري فصادفوا الماء معدوماً فيه مقطوعاً عنه فقصدوا ناحية المزة  
فحيموا

عليها لقربها من الماء وزحفوا إليه بخيتهم ورجلهم. ووقف المسلمون بإزائهم  
في يوم

السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة 43 (24 آب/اغسطس

وتشبت الحرب بين (1148)

**الفريقين واجتمع عليهم من الأجناد والأتراك القتال وأحداث البلد والمطوعة  
والغزاة**

**الجم الغفير واشتجر القتل بينهم واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة  
الأعداد والعدد**

**وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا فيها وقربوا من البلد وحصلوا  
منه**

**بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً ولا حديثاً منه. واستشهد في هذا اليوم**

**[95] الفقيه الامام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب**

**الربوة على الماء لوقفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتباعاً لأوامر الله  
تعالى في**

**[96] كتابه الكريم وكذلك**

**عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.**

**وشرعوا في قطع الأشجار والتحصين**

**بها وهدم القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال وقد لحق الناس من  
الارتفاع لهول**

**ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور  
واباكرروا الظهور**

**إليهم في غد ذلك اليوم وهو يوم الأحد تاليه وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم  
 واستظهر المسلمون عليهم وأكثروا القتل والجرح فيهم. وأبلى الأمير معين  
 الدين في**

**حربهم بلاءً حسناً وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره  
بحيث لا يبني**

في ذيادتهم ولا يُفتهن عن جهادهم ولم تزل رحى الحرب دائرةً بينهم وخيل  
الكفار

محجّمةً عن الحملة المعروفة لهم إلى أن تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت  
الشمس إلى

الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كل منهم إلى مكانه وبات  
الجند

بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم  
بالقرب منهم.

وكان المكاتب قد نفذت إلى ولاة  
الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد وحصلت خيل التركمان تتواصل ورجاله  
الأطراف تتتابع

وباكراً المسلمين وقد قويت نفوسهم وزال روعهم وثبتوا بإزائهم وأطلقوا  
فيهم السهام

ونبل الجرح بحيث تتبع في مخيّمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل.

ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع

وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة وانفصل كل  
فريق إلى

مستقره هذا اليوم وباكرواً من غدِّه يوم الثلاثاء كالبزاة إلى تعاقيب الجبل  
والشواهين إلى مطار الحجل وأحاطوا بهم في مخيّمهم وحول مجثمهم وقد  
تحصنوا بأشجار

البساتين وأفسدوها رشقًا بالنشاب وحذفًا بالأحجار. وقد أحجموا عن البروز  
وخفوا

وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن بهم إنهم يعملون مكيدةً ويدبرون حيلةً ولم  
يظهر منهم

إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المكاردة والمناوشة خوفاً من  
المهاجنة

إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً أو يجدون لفريم احتيالاً وليس بدنو منهم أحد إلا  
صرع

برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجاله الأحداث والضياع، وجعلوا  
يرصدونهم في

المسالك وقد انشتوا فيقتلون من طفروا به ويحضرن رؤوسهم لطلب الجوائز  
عنها وحصل من

رؤوسهم العدد الكبير وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالخفوف إلى  
جهادهم

والمسارعة إلى استئصالهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار واعملوا  
الآراء

أينهم فلم يجدوا لنفسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها والهوة التي  
ألقوا

بنفسهم إليها غير الرحيل سحراً يوم الأربعاء المتالي مجفلين والهرب  
مخذولين مغلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك وبان لهم آثارهم في الرحيل بربوا لهم في بكرة  
هذا اليوم

وسارعوا نحوهم في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال  
والخيول والدواب

العدد الكبير ووجد في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم <sup>[97]</sup> وفاخر  
خيولهم ما لا عدد له ولا حصر يلحقه بحيث لها أرائج من جيفهم تقاد تصريح  
الطيور في

الجو وكانوا قد أحرقوا الريوة والقبة الممدودة في تلك الليلة واستبشر الناس  
بهذه

النعمة التي أسبغها الله عليهم وأكثروا من الشكر له تعالى ما أولاهم من إجابة  
دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فلله على ذلك الحمد والشكر.

### ذكْر حَصْرِ الْفِرْجِ دِمْشَقَ

وَمَا قَعَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِيُّ بْنُ رَتْكَيٍّ

(ابن الأثير 85-11/86)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (543/1148) سَارَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ مِنْ يَلَادِهِ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ وَجَمِيعٍ  
عَظِيمٍ

مِنِ الْفِرْجِ عَازِمًا عَلَى قَصْدِ يَلَادِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ لَا يَشْكُّ  
فِي مُلْكِهَا بِأَيْسَرٍ قِتَالٍ لِكَثْرَةِ جُمُوعِهِ، وَتَوْفُرِ أَمْوَالِهِ  
وَعُدَّدِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى السَّامِ قَصَدَهُ مَنْ يَهُ مِنِ الْفِرْجِ  
وَخَدَمُوهُ، وَامْتَلَأُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، فَأَمَرَهُمْ بِالْمَسِيرِ  
مَعْهُ إِلَى دِمْشَقِ لِيَحْصُرَهَا وَيَمْلِكَهَا بِرَغْمِهِ، فَسَارُوا مَعْهُ  
وَنَازَلُوهَا وَحَصَرُوهَا.

وَكَانَ صَاحِبَهَا مُجِيزٌ

الَّذِينَ أَبْقَيْتُمْ بْنَ بُورِيَّ بْنَ طُعْدَكِينَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنِ الْأَمْرِ  
شَيْءٌ، وَإِنَّمَا الْخُكْمَ فِي الْبَلَدِ لِمُعِينِ الدِّينِ أُنَّرَ، مَمْلُوكٌ  
جَدِّهِ طُعْدَكِينَ، وَهُوَ الَّذِي أَقَامَ مُجِيزَ الدِّينِ؛ وَكَانَ مُعِينُ  
الَّذِينَ عَاقِلًا، وَعَادِلًا، حَيْرًا، حَسَنَ السِّيرَةِ، فَجَمَعَ  
الْعَسَاكِرَ وَحَفِظَ الْبَلَدَ. وَأَقَامَ الْفِرْجَ يُحَاصِرُوهُمْ، ثُمَّ  
إِنَّهُمْ رَحَفُوا سَادِسَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ (24 تموز/يولية)

يَقَارِسُهُمْ وَرَاجِلِهِمْ، فَخَرَحَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْبَلْدِ وَالْعَسْكَرُ  
فَقَاتَلُوْهُمْ، وَصَبَرُوا لَهُمْ، وَفِيمَنْ حَرَّجَ لِلْقِتَالِ الْفَقِيهُ  
خَجَّةُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ دِي تَاسِ الْفَنْدَلَاوِيُّ الْمَغْرِبِيُّ،  
وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَقِيقَهَا عَالِمًا، فَلَمَّا رَأَهُ مُعِينُ الدِّينِ،  
وَهُوَ رَاجِلٌ، قَصَدَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ، أَنْتَ  
مَعْذُورٌ لِكَبِيرِ سِنِّكَ، وَتَحْنُّ تَفْوُمُ بِالذَّبَّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ،  
وَسَأَلَهُ أَنْ يَعُودَ، فَلَمْ يَفْعَلْ وَقَالَ لَهُ: قَدْ يَعْثُ وَاسْتَرَى  
مِنِّي، فَوَاللَّهِ لَا أَقْلِئُهُ وَلَا اسْتَقْلِئُهُ، فَعَنِي قَوْلُ اللَّهِ  
تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ اسْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ  
وَأَمْوَالَهُمْ يَا لَهُمُ الْجَنَّةَ [التوبه 111]

وَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ عِنْدَ الْبَيْرِبِ تَحْوَنْصَفِ فَرْسَخِ  
عَنْ دِمْسَقَ.

وَقَوِيَ الْفِرْنُجُ وَصَعَفَ  
الْمُسْلِمُونَ، فَتَقَدَّمَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ حَتَّى تَزَلَّ بِالْمَيْدَانِ  
الْأَخْضَرِ، فَأَيْقَنَ النَّاسُ بِأَنَّهُ يَمْلِكُ الْبَلْدَ. وَكَانَ مُعِينُ  
الدِّينِ قَدْ أَرْسَلَ إِلَى سَيْفِ الدِّينِ غَازِي بْنِ أَتَابَكَ رَنْكِي  
يَدْعُوهُ إِلَى نُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَفَّ الْعُدُوُّ عَنْهُمْ، فَجَمَعَ  
عَسَاكِرَهُ وَسَارَ إِلَى الشَّامِ، وَاسْتَصَبَ مَعْهُ أَخَاهُ ثُورَ الدِّينِ  
مَحْمُودًا مِنْ حَلَبَ، فَتَرَلُوا بِمَدِينَةِ حِمْصَ، وَأَرْسَلَ إِلَى مُعِينِ  
الدِّينِ يَقُولُ لَهُ: قَدْ حَضَرْتُ وَمَعِي كُلُّ مَنْ يَحْمِلُ السَّلَاحَ فِي

بِلَادِي، فَأَرِيدُ أَنْ يَكُونَ تُوَّابِي بِمَدِينَةِ دِمْشَقِ لِأَحْصَرَ  
وَالْقَى الْفِرْنَجَ، فَإِنِ انْهَرَمْتُ دَخَلْتُ أَنَا وَعَسْكَرِي الْبَلَدَ وَاحْتَمَّتُنَا  
بِهِ، فَإِنْ طَافِرْتُ قَالْبَلَدُ لَكُمْ لَا أَتَازِ عُكْمُ فِيهِ. فَأَرْسَلَ  
إِلَى الْفِرْنَجِ يَتَهَدَّدُهُمْ إِنْ لَمْ يَرْجِلُوا عَنِ الْبَلَدِ، فَكَفَّ  
الْفِرْنَجُ عَنِ الْقِتَالِ حَوْفًا مِنْ كَثْرَةِ الْجِرَاجِ، وَزَبَّما  
اضْطَرَّوْا إِلَى قِتَالِ سَيْفِ الدِّينِ، فَأَبْقَوْا عَلَى نُفُوسِهِمْ،  
فَقَوْيَ أَهْلُ الْبَلَدِ عَلَى حِفْظِهِ، وَاسْتَرَاهُوا مِنْ لُزُومِ  
الْحَرْبِ، وَأَرْسَلَ مُعِينُ الدِّينِ إِلَى الْفِرْنَجِ الْغَرَبَاءِ: إِنَّ  
مَلِكَ الْمَسْرِقِ قَدْ حَصَرَ، فَإِنْ رَحَلْتُمْ، وَإِلَّا سَلَّمْتُ الْبَلَدَ  
إِلَيْهِ، وَجِئْتُمْ تَنَدَّمُونَ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى فِرْنَجِ السَّامِ يَقُولُ  
لَهُمْ: يَا أَيُّ عَقْلٍ تُسَاعِدُونَ هُؤُلَاءِ عَلَيْنَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ  
أَنَّهُمْ إِنْ مَلَكُوا دِمْشَقَ أَخْذُوا مَا يَأْتِيُكُمْ مِنَ الْبِلَادِ  
السَّاحِلِيَّةِ، وَأَمَّا أَنَا فَإِنْ رَأَيْتُ الصَّعْفَ عَنْ حِفْظِ الْبَلَدِ  
سَلَّمْتُهُ إِلَى سَيْفِ الدِّينِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَلِكُ  
دِمْشَقَ لَا يَبْقَى لَكُمْ مَعْهُ مُقَامٌ فِي السَّامِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى  
النَّخْلِيِّ عَنْ مَلِكِ الْأَلْمَانِ، وَبَدَلَ لَهُمْ تَسْلِيمَ حِصْنِ  
بَانِيَاسِ إِلَيْهِمْ. وَاجْتَمَعَ السَّاحِلِيُّ بِمَلِكِ الْأَلْمَانِ،  
وَحَوَّفُوهُ مِنْ سَيْفِ الدِّينِ وَكَثْرَةِ عَسَارِكِرِهِ وَتَنَائِعِ  
الْأَمْدَادِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ زَبَّما أَخَذَ دِمْشَقَ وَصَعْفَ عَنْ  
مُقَامِنِهِ، وَلَمْ يَرْأُوا بِهِ حَتَّى رَجَلَ عَنِ الْبَلَدِ،

وَسَلَّمُوا قَلْعَةَ بَانِيَا سَنَ، وَعَادَ الْفَرِنْجُ الْأَلْمَانِيَّةُ إِلَى  
بِلَادِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ  
شَرَّهُمْ. وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو الْفَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرٍ فِي  
تَارِيخِ دِمْشِقٍ: أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ حَكَىَ لَهُ أَنَّهُ رَأَى  
الْفَنْدَلَوِيَّ فِي الْمَتَامِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ: وَأَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي، وَأَتَاهَا  
فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ عَلَى شُرُرٍ  
[98]  
مُتَقَابِلِينَ.

(سبط ابن الجوزي، 300)  
... وكان زمان الفواكه، فنزل

الفرنج وأكلوا منها شيئاً كثيراً، فأحلت أجوافهم ومات منهم خلق كثير، ومرض  
الباقيون. ولما صاح بأهل دمشق الحال، أخرجوا الصدقات بالأموال، على قدر  
أحوالهم،

واجتمع الناس في الجامع، الرجال والنساء والصبيان، ونشروا مصحف  
[99]  
عثمان وحثوا

الرماد على رؤوسهم وبكوا وتضرعوا، فاستجاب الله لهم. فكان مع الإفرنج  
قسيس كبير

طويل اللحية يقتدون به، فأصبح في اليوم العاشر على نزولهم دمشق، فركب  
حماره وعلق

في عنقه صليباً، وجعل بين يديه صليبين، وعلق في رأس حماره صليباً، وجمع  
بين يديه

الأنجيل والصلبان والكتب، والخيالة والرجال، ولم يختلف من الفرنجية أحد إلا  
من

يحفظ الخيام. وقال لهم القسيس..."قد وعدني المسيح أنني أفتح اليوم". وفتح المسلمين الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا للإسلام وحملوا حملة رجل واحد، وكان يوماً لم يرّ في الجاهلية والإسلام مثله، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس، وهو في أول القوم، فضربه فأبان رأسه وقتل حماره، وحمل الباقون فانهزم الإفرنج. وقتلوا منهم عشرة آلاف وأحرقوا الصليان والخيالة بالنفط، وتبعوهم إلى الخيام حال بينهم الليل، فأصبحوا وقد رحلوا ولم يبق لهم أثر.

بعد مضي ستة أعوام على المقاومة الناجحة التي أبادتها دمشق ضد الصليبيين حقق نور الدين ابن زنكي في عام 1154 حلم أبيه القديم وملك العاصمة السورية دون منازلة ولا حرب. انطلق نور الدين من دمشق وكذلك من حلب- قاعدة أسلافه، وبدأ بتنظيم قوى جديدة يقاوم بها الصليبيين، وقد امتدت هذه المقاومة حوالي عشرين سنة بين نجاح وفشل، ثم إنه مات بعدها عام 1174. لكنه عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة كان نجم صلاح الدين أحد ضباط جيشه المجهولين قد سطع بالفعل لينتشر منذ بعض الوقت في أنحاء مصر ويتوّج قريناً من صراع المسلمين المرير ضد الغزاة الصليبيين. نرى أن ابن الأثير سطر عن نور الدين صفحات خلاة ذلك كما فعل من قبل مع أبيه. ونصيف نحن هنا أن نور الدين كان يتمتع على خلاف زنكي بروحانية أشد صفاء وبقدر أعمق من الإنسانية.

## انتصارات نور الدين وفوزه بدمشق

(ابن القلانسي، 340-342)

[100]

ووصل نور الدين إلى البلد المحروس في يوم الخميس السابع والعشرين من شهر ربيع الأول (552/أيار/مايو 1157) لتقرير الأمر في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرةً ويتوجه في الحال إلى ناحية العساكر المجتمعة من التركمان والعرب للجهاد في الكفرة الأضداد والله يسهل أسباب الادلة منهم ويعجل البوار والهلاك لهم إن شاء الله تعالى. وفي وقت وصوله شرع في إنجاز ما وصل لأجله وأمر بتجهيز ما يحتاج إليه من المناجيق والسلاح إلى العسكر المنصور بالنداء في البلد المحروس في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتقطعة من فتیان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمحاجدة الأفريقي أولى الشرك والالحاد. وبادر بالمسير في الحال إلى عسكره المنصور مغداً غير متلوّم ولا متربّث في يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول، وتبعه بين الأحداث والمتقطعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكبير، الدثر المبااهي في الوفور والكثرة، فالله تعالى يقرن آراءه وعزّ ماته بالنصر المشرق المنار والظفر باخراب المردة الكفار ويعجل لهم أسباب الهلاك والبوار بحيث لا تبقى لهم باقية ولا يرى لهم رائحة ولا غادية، وما ذلك على الله تعالى القادر القاهر بعزيز.

ولما كان يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر (18 أيار/مايو) تالي اليوم المقدم ذكره عقب نزول الملك العادل نور الدين على بانياس في عسكره المنصور ومضايقته لها بالمنجنيقات وال Herb سقط الطائر من العسكر [101]

**المنصور بظاهر بانياس**, يتضمن كتابه الاعلان بورود المبشر من معسكر أسد

[102]

الدين بناحية هونين في التركمان والعرب بأن الافرنج خذلهم الله أنهضوا سريةً من أعيان مقدميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكتائب المذكورين ظناً منهم إنهم في قل ولم يعلموا إنهم في ألف فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب ولم يفلت منهم إلا اليسيير ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعدهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقناريات إلى البلد في اليوم الاثنين تالي اليوم المذكور وطيف بهم فيه، فشرت القلوب بمشاهدتهم وأكثروا الشكر لله على هذه النعمة المسهلة بعد الأولى المتكاملة، والله المأمول لتعجيل هلاكهم وب ovarهم، وما ذلك على الله بعزيز. وتتلوا هذه الموهبة المجددة سقوط الطائر من المعسكر المحروس بانياس في يوم الثلاثاء يتلو المذكور، بذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهراً، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهى النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصرهم بها، وإن أخذهم بمنية الله تعالى لا يبطن والله يسهله ويعجله.

واتفق بعد ذلك للأقضية المقدرة إن الافرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين

[103]

على استنقاذ الهن弗ري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه الافرنج المحصورين بقلعة بانياس وقد أشرفوا على الهلاك وبالغوا في السؤال للأمان للمولى نور الدين ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وما حوتة لينجوا سالمين

[104]

فلم يجدهم إلى ما سألوه ورغبو فيه. فلما وصل ملك الافرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكريين النازلين على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، واقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستحصلوا من كان فيها، فحين شاهدوا ما عم بانياس من خراب سورها ومنازل سكانها، يتسوّا من عمارتها بعد خرابها، وذلك في أيام من العشر الأخير من شهر ربيع الآخر (اوائل حزيران/يونية 1157) وفي يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى (19 حزيران/يونية) سقطت الأطياف بالكتب من المعسكر المحروس النوري تتضمن الأعلام بأن الملك العادل نور الدين، أعز الله نصره، لما عرف إن معسكر الكفرة الافرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب وجّد في السير. فلما شارفهم وهم غازون، وشاهدوا راياته قد أطلّتهم، بادروا بلبس السلاح والركوب وافتربقوا أربع فرق وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجل الملك نور الدين وترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح، فما كان إلا كلا ولا، حتى تزلزلت بهم الأقدام

ودهمهم البوار والحمام، وأنزل الله العزيز القهار نصره على الأولياء الأبرار وخذلانه على المردة الكفار، وتمكنّا من فرسانهم قتلاً وأسراً واستأصلت السيوف الرجال، وهم العدد الكثير والجم الغفير، ولم يفلت منهم على ما حكاها الخبر الصادق غير عشرة نفر ممن ثبّطه الأجل وأطار قلبه الوجل، وقيل إن ملكهم لعنهم الله فيهم وقيل إنه في جملة القتلى ولم يعرف له خبر والطلب مجدّله، والله المعين على الأطفار به، ولم يفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين: أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعةً من شجعان الكفرة، وقتل عند حضور أحله وانتهاء مهله، والآخر غريب لا يُعرف، وكل منهما مضى شهيداً مثاباً ماجوراً رحّمها الله. وامتلأت أيدي العسكرية من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم الشيء الذي لا يحصى كثرةً وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحاً من الله القادر الناصر، عزيزاً ونصرأً مبيناً أعز الله بهما الإسلام وأهله وأذل الشرك وحزبه.

ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق في يوم الأحد تالي يوم الفتح وقد رُبّوا على كل جمل فارسيين من أبطالهم ومعهم راية من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدة، والمقدمون منهم وولاة المعامل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة وفي يده

[105]

راية والرجال من السرجندية والدركيولية كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنسوان والصبيان لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المشرق الأعلام وأكثروا من التسبيح ومواصلة التقديس لله تعالى، مولى النصر لأوليائه ومديفهم من أعدائه، وواصلوا الدعاء الخالص للملك العادل نور الدين المحامي عنهم والمرامي دونهم والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنه ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى وهي:

مثُل يوم الفرج حين عليتهم  
ذلة الأسر والبلا والشقاء  
وبراياتهم على العيس زفوا  
بين ذلٍّ وحسنة وعنة  
بعد عزٍّ لهم وهيبة ذكر  
في مصافٍ الحروب والهيجاء  
هكذا هكذا هلاك الأعداء  
عند شن الاغارة الشعواء  
شئم أخذ الجشار وكان وبالاً  
عمّهم في صباحهم والمساء  
نقضوا هدنة الصلاح بجهلٍ  
بعد تأكيدها بحسن الوفاء

فلقوا بعيمهم بما كان فيه  
من فساد يجلهم واعتداه  
لا حمى الله شملهم من شتاتٍ  
بمواضِع تفوق حدّ المضاء  
فجزاء الكفور قتلُ وأسر  
وجزاء الشكور خير الجزاء  
فلرب العباد حمدُ وشكراً  
دائماً مع تواصل النعماء

## وفاة نور الدين محمود بن زنكي - رحمة الله

(ابن الأثير 267-11/264)

في هذه السنة (569/1174) توفي نور الدين محمود بن زنكي بن أفسنقر، صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر، يوم الأربعاء حادي عشر سووال (15 آيار/مايو)، يعلة الخوانيق، ودفن بقلعة دمشق، وتغل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق، عند شهق الخواصين. ومن عجيب الإنفاق أن ركب ثانية سووال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار، فقال له الأمير: "سبحان من يعلم هل تجتمع هنا في العام المفضل أم لا؟" فقال نور الدين: "لا تغل هكذا بل سبحان من يعلم هل تجتمع بعد شهر أم لا؟" فمات نور الدين - رحمة الله - بعد أحد عشر يوماً، ومات الأمير قبل الحول، فأخذ كل ملهماما بما قاله. وكان قد سرّع [106]

يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب، فإنه رأى فتوراً في غزو الفرينج من تاجيته، وكان يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به، فإنه يوثر كون الفرينج في الطريق ليتمكن بهم على نور الدين، فأرسل إلى المؤصل وديار الجزيرة وديار بكري يتطلب العساكر للغزارة، وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين عازى، صاحب المؤصل بالشام، ويسير هو بعساكريه إلى مصر، فبيتما هو يتجهز لذلك أتاها أمر الله الذي لا مرد له.

حكمي لي طيب يُعرف بالطيب الرحيم وهو كان يخدم نور الدين، وهو من خذاق الأطيائ، قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطيائ، فدخلنا إليه وهو في بيته صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه، وقارب الهاك، فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد، فابتدا به المرض، فلم يستقل عنده، فلما دخلنا ورأينا ما به قل له: "كان ينبغي أن لا تؤخر إخبارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن، وتبغي أن تُعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مصيري، فله أثر في هذا المرض". وسررتنا

في علاجه، وأسرنا بالقصى، ف قال ابن سين: لا يفاصد، وامتنع منه، فعالجناه  
يعيره، فلم يتبع فيه الدواء، وعظم الداء، وما - رحمة الله ورضي عنده  
وكان أسمر، طويل القامة، وليس له لحية إلا في حنكه، وكان واسع  
الجبهة، حسن الصورة، خلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له

[107] بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها سمسن الدولة بن أيوب وملكها ،  
وكان مؤله سنة إحدى عشرة وخمسمائة (1117)، وطبق ذكره الأرض بحسن  
سيرته وعذليه. وقد طالعه سير الملوك المقادمين، فلم أر فيها بعد الخلفاء

[108] الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريراً منه  
[109]

للعدل. وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب "الباهري" من أخبار دولتهم ،  
ولنذكر همنا بهذه مختصرة لقل يقف عليها من له حكم فيقتدي به: فمن ذلك  
زهده وعبادته وعلمه، فإنه كان لا يأكل ولا يلبس [أولاً] يتصرف في الذي يخصه  
إلا من ملك كان له قد استراه من سنه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة  
لمصالح المسلمين، ولقد شكت إليه روجنه من الصائفة، فأعطاه ثلاثة دكاكين  
في جمصة كانت له، منها يحصل له في السنة نحو عشرين ديناراً، فلما  
استقلتها قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما يبدىء أنا فيه خازن للمسلمين لا  
أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك. وكان يصل كثيراً بالليل، وله فيه أوراد  
حسنة، وكان كما قيل:

[110] جمع السجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب  
وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تقضي، وسمع  
الحديث، وأسماعه طليباً للأجر. وأماماً عذلة، فإنه لم يترك في بلاده، علم سمعتها،  
مكسساً ولا عشراً بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصيل،  
وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم،  
فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن شهرزوري يقول: "قد  
جئت محاكمًا، فاسلك معيناً ما تسلك مع الخصوم"، وظهر الحق له، فوجهه  
الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك له ما يدعيه، إنما خفت أن يكون  
الباعث لي على ذلك الكبير والأنفة من الخصور إلى مجلس الشريعة،  
فحضرت، ثم وهنته بما يدعيه". وتبني دار العدل في بلاده، وكان مجلسه هو  
والقاضي فيها ينصف المظلوم، ولو أنه يهودي، من الطالم ولو أنه مؤله أو أكبر  
أمير عنده. وأماماً سجاعته، فاليها التهانية، وكان في الخزب يأخذ قوسين

[111] وتذكر سين ليقاتل بها، ف قال له القطب النساوي الفقيه: "بالله عليك لا  
يخاطر بنفسك ولا بالإسلام والمسلمين، فإن أصبت في مفركة لا يبقى من  
المسلمين أحد إلا أحدها السيف". فقال له نور الدين: "ومن محمود حتى يقال

لَهُ هَذَا؟ مِنْ قِبْلِي مَنْ حَفِظَ الْبِلَادَ وَالإِسْلَامَ؟ ذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ". وَأَمَّا  
مَا فَعَلَهُ مِنَ الْمَصَالِحِ، فَإِنَّهُ بَنَى أَسْوَارَ مُدُّنِ السَّامِ جَمِيعَهَا وَقَلَاعَهَا، فَمِنْهَا  
دِمْشَقُ وَحْمَانَةُ وَحَلْبُ وَسَيْرُ وَيَعْلَبُكُ وَغَيْرُهَا، وَبَنَى الْمَدَارِسَ الْكَثِيرَةَ  
لِلْجَنَّفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ، وَبَنَى الجَامِعَ النُّورِيَّ بِالْمَوْصِلِ، وَبَنَى الْبِيمَارِسَاتِ  
وَالخَانَاتِ فِي الْطَّرِيقِ، وَبَنَى الْخَانَاتِ لِلصُّوفِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ، وَوَقَفَ عَلَى  
الجَمِيعِ الْوُقُوفِ الْكَثِيرَةِ. سَمِعْتُ أَنَّ حَاصِلَ وَفِيهِ كُلُّ شَهْرٍ تِسْعَةً الْأَفِ دِينَارَ  
صُورِيًّا. وَكَانَ يُكْرِمُ الْعُلَمَاءَ وَأَهْلَ الدِّينِ وَيُعَطِّمُهُمْ وَيُعَطِّيَهُمْ وَيَقُولُ إِلَيْهِمْ  
وَيُجْلِسُهُمْ مَعَهُ، وَيَبْسِطُ مَعَهُمْ، وَلَا يَرُدُّ لَهُمْ قَوْلًا، وَيُكَاتِبُهُمْ بِخَطٍّ يَدِهِ، وَكَانَ  
وَفُورًا مَهِيبًا مَعَ تَوَاضِعِهِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَحَسَنَاتُهُ كَثِيرَةٌ وَمَنَاقِبُهُ عَزِيزَةٌ لَا يَحْمِلُهَا هَذَا  
الْكِتَابُ.

يمكن أن نعطي للصفحات التالية عنواناً مثل "مشاهد وعادات افرنجية بمنظور أحد المسلمين"، وكلها عدا واحدة منها مأخوذة من سيرة أسامة بن منقد، أمير شيزر الفارس المثقف الذي عايش تقرباً هذا القرن من الحروب الصليبية. سنجد في هذه المذكرات المشوّشة لكن الغنية بالنواذر والإشارات التاريخية المهمة كثيراً من الأخبار عن العلاقات التي أقامها مع الإفرنج في أزمان الحرب والسلم والتي توحى بمشاعر العداوة والبغض والمحبة التي تظهر حسب اختلاف الظروف. تتعارض هذه المشاهد الملائمة أحياناً بالمقارنات اللطيفة مع رتابة مقارعات السلاح التي تسود في معظم صفحات المؤرخين المحترفين.

### فروسيّة إفرنجية

(اسامة، 48)

والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكمة، وقد حاكمتهم مرة على قطuan غنم أخذها صاحب بانياس من الشّعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق.

[112]

فقلت للملك فلك بن فلك "هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن أتلفها." فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: "قوموا أعملوا له حكماً"، فخرجوا من مجلسه وأعتزلوا وتشاوروا حتى أتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا: "قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم"، فأمره الملك بالغرامة فتوسل إلى وثقل على وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الأفرنج يغيّره ولا ينقضه، فالفارس أمر عظيم عندهم. ولقد قال لي الملك: "يا فلان وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيم. وما كنت اعتقادك أنك فارس".

[113]

قلت: "يا مولاي أنا فارس من جنبي وقومي". وإذا كان الفارس دقيقاً عظيماً كان أعجب لهم.

### قرصنة افرنجية

(اسامة، 26-25)

ثم اتصلت بخدمه الملك العادل نور الدين رحمه الله وكاتب الملك

[114]

الصالح في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر وكان محسناً إليهم. فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج، وكتب إلى يقول "ترجع إلى

[115]

مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدینه أسوان إليك، وأمدك بما تتفقى به على محاربة الحبشة، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين، واسير أهلك وأولادك". ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال "يا فلان، ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنتها، تعود إليها! العمر أقصر من ذلك. أنا انفذ أحد لأهلك الأمان من ملك الإفرنج أسير من يحضرهم"، فانفذ رحمه الله أخذ أمان الملك وصلبيه في البر والبحر. وسيرث الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل

[116]

وكتابي إلى الملك الصالح، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ووصى بهم.

واقلعوا من دمياط في بطيشه من بطن الإفرنج، فلما دنوا من عكار والملك، لا رحمة الله، فيها، نفذ قوماً في مركب صغير كسروا البطيشه بالفؤوس، واصحابي يرونهم، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه. فخرج إليه غلام لي سباحةً والأمان معه وقال له "يا مولاي الملك، ما هذا أمانك"؟ قال "بلى"، ولكن هذا رسم المسلمين إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد. "قال "فتسيينا"؟ قال "لا"، وانزلهم -لعنه الله- في دار، وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم. وقد كان في المركب حلى اودعه النساء وكسوات وجواهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثة ألف دينار، فأخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائه دينار، وقال "توصلوا بهذه إلى بلادكم". وكانوا رجالاً ونساء في خمسين نسمة. و كنت آنذاك مع الملك العادل في بلاد الملك

[117]

مسعود رعيان وكيسون. فهوّن علي سلامه أولادي وأولاد أخي، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزارة في قلبي ما عشت.

## الطب الافرنجي

(أسامي، 97- 98)

[118]

ومن عجيب طبهم أن صاحب المنطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فارسل إليه طبيباً نصراانياً يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: "ما أسرع ما داولت المرضى"! قال "أحضروا عندي فارساً قد طلت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف،

فعملت للفارس لبحة ففتحت الدملة فصلحت، فحميت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم "هذا ما يعرف شيئاً يداويم". وقال للفارس "إيما أحب لك أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين"؟ قال: "أعيش برجل واحدة". قال "أحضروا لي فارساً قوياً وفاساً قاطعاً". حضر الفارس والفالس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس "أضرب رجله بالفالس ضرباً واحداً واقطعها"، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية فسأل مخ الساق، ومات من ساعته. أبصر المرأة فقال "هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقو شعرها"، فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف، فقال "الشيطان قد دخل في رأسها". "فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلح وسطه، حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت من وقتها. فقلت لهم "بقي لكم إلى حاجة"؟ قالوا "لا". فجئت وتعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه".  
[119]

## الفرنجة والغيرة الزوجية

(أسامي، 100-101)

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاء رجل آخر يأخذ المرأة ويعتنزل بها ويتحدث معها، والزوج وافق ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى. وما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابليس أنزل في دار رجل يقال له معز داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق، يقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار، يأخذ في قنيبة من النبيذ  
[120]

وينادي عليه، ويقول فلان الناجر قد فتح بئية من هذا الخمر، من أراد منها شيئاً فهـيـ من موضع كذا وكذا، وأجريه عن بداية النبيذ الذي في تلك القنيبة، فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له "أي شيء أدخلك عند امرأتي"؟ قال "كنت تعيان، دخلت أستريح"، قال "كيف دخلت إلى فراشي"، قال "وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه" قال "والمرأة نائمة معك؟" قال "الفراش لها كنت أقدر أن أمنعها من فراشها؟" قال "وحق ديني إن عدت فعلتها تخاصمت أنا وأنت" فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرفة في حمام لوالدي رحمة الله قال "فتحت حماماً في المعرفة أتعيش فيها، فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام، فمد يده وجذب مئزرى من وسطي، رماه، فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال سالم فتقربت منه، فمد يده على عانتي وقال "سالم، جيد"! وحق ديني أعمل لي كذا واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع، فحلقه فمر به عليه

فاستوطأه، فقال سالم "بحق دينك اعمل للداما" والداما بلسانهم السرت يعني امرأته. وقال لغلام له قل للداما تجيء. فمضى الغلام أحضرها وأدخلها، فاستلقت على ظهرها وقال أعمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني فشكري ووهبني حق خدمتي. فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم ما فيهم الغيرة والنخوة وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحداث.

## فرنج مستشرقون

(أسامي، 103-104)

ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا وعاشرو المسلمين فهم أصلح من القربان العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه. فمن ذلك أنتي نفذت صاحباً إلى [121]

إنطاكيه في شغل، وكان بها الرئيس نادرس بن الصفي وبيني وبينه صدقة، وهو نافذ الحكم في إنطاكيه. فقال لصاحب يوماً: "قد دعاني صديق لي من الإفرنج، تجئه معي حتى ترى زيهم" قال "فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بإنطاكيه ملك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة، ورأني متوقفاً عن الأكل فقال" كل طيب النفس، فأنا ما أكل من طعام الإفرنج وللي طباخات مصربيات لا أكل إلا من [122]

طباخهن، ولا أدخل داري لحم خنزير . فأكلت وأنا محترز وانصرفت. فأنا بعد مجتازاً في السوق وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبرير بلسانهم وما أدرى ما تقول. فاجتمع على خلق من الإفرنج فأيقنت من الهلاك. وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني، فجاء فقال لتلك المرأة "مالك ولهاذ المسلم"؟ قالت "هذا قتل أخي عرس"، وكان هذا عرس فارساً بأفاميّة قتله بعض جند حماة. فصاح عليهم وقال "هذا رجل بر جاسي أي تاجر لا يقاتل ولا يحضر قتال"، وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا وأخذ يدي ومضى، فكان تأثير تلك المواجهة خلاصي من القتل.

## الديوية في القدس

(أسامي، 99)

فمن جفاء أخلاقهم قبهم الله، أنتي إذا زرت بيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه. فدخلت يوماً، كبرت [123] ووقفت في الصلاة، فهجم على

واحداً من الإفرنج مسكنى ورد وجهي إلى الشرق، وقال "كذا صلي" فتبارد إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عنى، وعدت أنا إلى الصلاة، فأغفلهم وعاد هجم على ذلك بعينه ورد وجهي إلى الشرق وقال "كذا صلي"! فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلى وقالوا "هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلى لغير الشرق". فقلت "حسبي من الصلاة"! فخرجت وكانت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من [124]

نظر الصلاة إلى القبلة .

ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله وهو في الصخرة فقال "تريد تبصر الله صغير"؟ قال "نعم". فمشى بين أيدينا حتى أورانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها. فقال "هذا الله صغير" [125]-تعالى الله عما يقول الكافرون علوًّا كبيراً.

## شراء الأسرى

(أسامي، 60-62)

كنت أتردد إلى ملك الأفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج

الملوك رحمه الله ليد كانت للوالد رحمه الله على بدوين الملك والد [126]

الملكة امرأة الملك فلك بن فلك ، فكان الإفرنج يسوقون أسراراهم إلى لأشتريهم، فكنت أشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه. فخرج شيطان منهم يدعى كليام جيبا في موكب له يغزى، فأخذ مركباً فيه حاج من المغاربة نحو أربع مائة نفس رجال ونساء. فكان يجئني أقوام مع مالكم فأشتري منهم من قدرت على شرائهم، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم، فسألت عنه فقيل لي "هو رجل زاهد صاحبه دباغ". فقلت له "بكم تبيعني هذا" ، "قال وحق ديني ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ جملة كما أشتريتهم بثلاثة وأربعين ديناراً" ، فاشتريتهم وأشتريت لي منهم نفراً، واشتريت للأمير معين الدين [127]

رحمه الله منهم نفراً بمائة وعشرين ديناراً وزنت ما كان معي وضمنت علي بالباقي. وجئت إلى دمشق فقلت للأمير معين الدين رحمه الله "لقد اشتريت لك أسرارى اختصك بهم، وما كان معي ثمنهم. والآن قد وصلت إلى بيتي إن أردتهم وزنت ثمنهم ولا وزنته أنا". قال "لا بل أنا أزن والله ثمنهم وأنا أرغب الناس في ثوابهم". وكان رحمه الله أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة وزن ثمنهم. وعدت بعد أيام إلى عكا. وقد بقي من الأسرى عند كليام جيبا ثمانية وثلاثون أسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها، فركبت إلى داره لعنده الله، وقلت

"تبيني منهم عشراً؟" قال "وحق ديني ما أبيع إلا الجميع". قلت "ما معنِي ثمن الجميع، وأنا أشتري بعضهم، والنوبة الأخرى أشتري الباقي." قال "ما أبيعك إلا الجميع". فانصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم وسكن ضياع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير آخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام. وتطلبهم ذلك الملعون بما ظفر منهم بأحد وأحسن الله سبحانه خلاصهم، وأصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت أشتريتها قبل أن تهرب. وألزمني بوزن ثمنها، فوزنته وهان ذلك علي لمسرتني بخلاص أولئك المساكين.

## عرض لإرسال ابن إلى أوربا

(أسامي، 97)

[129] كان في العسكر الملك فُلك بن فُلك فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بي وصار ملازمي ويدعوني أخي وبيننا المودة والعاشرة فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي يا أخي أني سأئر إلى بلادي، وأريدك تنفذ معي أبنك، وكان ابني معنِي وهو ابن أربعة عشر سنة، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل. فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل. فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج. فقلت له "حياتك هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك أن جدته تحبه وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني أن أرده إليها" قال "أمك تعيش؟" قلت "نعم". قال "لا

[130]  
تخالفها".

## باز عكا الكبير

(أسامي، 142-143)

وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى عكا إلى عند ملك الإفرنج فُلك بن فُلك فرأينا رجلاً من الجنوية وقد وصل من بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ومعه كلبة صغيرة إذا أرسل الباز على الكركي عدت تحته، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجنوبيان الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاثة عشر ريشة اصطاد الكركي. فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك. فطلب الأمير معين الدين رحمه الله فأخذته من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين فجاء معه، فرأيته في الطريق يشب على الغزلان كما يشب إلى اللحم، ووصلنا به إلى دمشق، فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات.

## الخشوع الإسلامي والخشوع المسيحي

(أُسَامَةُ، كِتَابُ الْعَصَمَاءِ، 529-528)

[131]

زرت قبر يحيى بن زكريا، عليهما السلام بقرية يقال لها سبسطية من أعمال نابلس، فلما صليت خرجت إلى ساحة بين يدي الموضع الذي فيه القبر، محّوط عليها، وإذا بباب مردود ففتحته ودخلت، وإذا كنيسة فيها نحو من عشرة [132]

شيوخ رؤوسهم مكسوفة لأنها القطن المندوف، وقد استقبلوا الشرق وفي صدورهم عصي في رؤوسها عوارض معوجة على قدر صدر الرجل، وهم [133]

معهدون عليها، ويمنح بين أيديهم بقدار ، فرأيت منظراً يرق له القلب، وساعني وأسفني أني لم أر في المسلمين من هو على مثل اجتهادهم. فمضت على ذلك مدة فقال لي يوماً معين الدين أتر، رحمة الله، وأنا وهو نسير عند [134]

دار الطواويس ، أشتاهي أنزل أزور دور المشايخ، قلت الأمر كذلك، فنزلنا ومشينا إلى منزل عرضي طويل، فدخلنا وأنا أظن أن ما فيه أحدا، وإذا فيه نحو من مائة سجادة رجل من الصوفية، عليهم السكينة، والخشوع عليهم ظاهر. فسرني ما رأيت منهم وحمدت الله عز وجل، ورأيت في المسلمين من هم أكثر اجتهاداً من أولئك القسوس. لم أكن قبل ذلك رأيت الصوفية في دارهم ولا عرفت طريقتهم.

## القسم الثاني: صلاح الدين والحملة الثالثة

أهم المصادر الإسلامية الأساسية التي تتحدث عن شخصية صلاح الدين ومنجزاته هم موظفوه واقرءاؤه أمثال عماد الدين وبهاء الدين. كتب الأول تاريخ فتح القدس (حتى موت السلطان)، لكن التكليف البلاغي يطغى على أسلوب شاهد العيان ذي الأهمية المتزايدة. أما الثاني فقد كتب سيرة البطل بأسلوب سهل بسيط يسوده دفء محب واحلاص لا يصل البتة إلى الافراط في التقرير. هناك مصدر ثالث يشار إليه في معرض الحديث عن صلاح الدين نجده في قسم خصص لهذا الموضوع في "كتاب الحديقتين" لمؤلفه أبو شامة وهو في الحقيقة تصنيف لمقاطع مقتبسة من عماد الدين (بعد تجريدها من أسلوبها الزاهي) وبهاء الدين وابن الأثير، هذا مع وجود مقاطع ذات قيمة معينة انقذها المؤلف من الصياغ بعد أن اقتبسها من مصادر مفقودة (ابن أبي الطyi) فضلاً عن فصول ووثائق ديوان السلطان. أما ابن الأثير فرغم تحيزه الواضح ضد صلاح الدين بسبب ارتباطه المحلي فإن اعماله تحتفظ بقيمتها المعتادة التي تعكس الأحداث بطريقة صافية وتستعمل المصادر الأولية ببرؤية حيادية.

أما أفضل صورة شاملة لبطل الإسلام الكبير فهي تلك التي يفتح بها بهاء الدين سيرته والتي نقدمها الآن كاملة.

## صورة صلاح الدين الأخلاقية

(بهاء الدين، 41-7)

ذكر ما شاهدناه من مواظبه على القواعد الدينية وملاحظاته للأمور الشرعية.

[135] ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام. وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قوله حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه. غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه جارية على نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء، وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب. وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه.

وأما الصلاة فإنه كان رحمة الله تعالى شديدة المواظبة عليها بالجماعة حتى أنه ذكر يوماً أن له سنتين ما صلى إلا جماعة. وكان إن مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلِّي جماعة. وكان يواطِب على السنن الرواتب، [136]

وكان له صلوات يصلِّيها إذا استيقظ في الليل     إلا أتى بها قبل صلاة الصبح ولم يكن يترك الصلاة ما دام عقله عليه. ولقد رأيته قدس الله روحه يصلِّي في مرضه الذي مات فيه قائماً وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه. وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلَّى. وأما الزكاة فإنه مات رحمة الله تعالى ولم يحفظ ما يجب عليه به الزكاة وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال فإنه ملك ما لم يخلف في خزانته [137]

من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصية     وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستانًا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه منه فوائد بسبب أمراض تواترت عليه [138]

في رمضانات متعددة وكان القاضي الفاضل     قد تولى ثبت تلك الأيام وشرع رحمة الله في قضاء تلك الفوائد بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها وقد واطَّب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائد رمضانين شغلته الأمراض ولازمه الجهاد عن قضائهما ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائد فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها لأن القاضي كان غائباً وكان الطبيب يلوم وهو لا يسمع ويقول "لا أعلم ما يكون" فكان ملهمًا ما يراد به رحمة الله تعالى.

وأما الحج فإنه كان لم ينزل عازماً عليه وناوياً له سيماء في العام الذي توفي فيه فإنه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملنا الرفادة ولم يبق إلا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد مما يليق بأمثاله فأخر إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى وهذا شيء اشتراك في العلم به الخاص والعام. وكان رحمة الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقدماً لحفظه. وكان يستقرئ من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع. وكان يستقرئ وهو في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءاته فقربه وجعل له حطاً من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزاً من مزرعة.

وكان رحمة الله تعالى خاشع القلب رقيقة غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته. وكان رحمة الله شديد الرغبة في سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذي روایة عالية وسماع كثير فإن كان ممن

حضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافي عن [139]

الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه. تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية حرسها الله تعالى وروى عنه أحاديث كثيرة. كان رحمة الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث ويقرؤها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه.

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين يقول ببعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار مصدقاً بجميع ما وردت به الشرائع من شرعاً بذلك صدره مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الطاهر عز الله أنصاره بقتل شاب نشأ

[140]

يقال له السهوردي قيل عنه أنه كان معانداً للشريعة مبطلاً وكان قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمره بقتله فطلبه أياماً فقتله.

كان قدس الله روحه حسن الطن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه. ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه. وذلك أن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببيت نوبة وهو موضع قريب من القدس الشريف حرسها الله تعالى بينهما بعض مرحلة وكان السلطان بالقدس وقد أقام يزكاً على العدو محيطاً به وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته وتركيب القنابل عليه واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم في الإقامة بالقدس فأتوا بمحاجلة باطنها غير ظاهرها وأصر الجميع على أن لا مصلحة في إقامته بنفسه فإنها مخاطرة بالإسلام وذروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو رحمة الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا ويكون هو ومن معه بصدر منع ميرتهم أو التضييق عليهم ويكونون هم بصدر حفظ البلد والدفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علمًا منه أنه إن لم يقم لم يقم أحد فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم خبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأترون بأمره فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته، ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاً وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ونحن نقسم أنفساماً ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذني

الإشفاق عليه والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليقين فتشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة فقال رحمة الله لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلني معه الصبح في معظم الأوقات فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال ما أخذني النوم أصلاً فقلت قد علمت فقال من أين قلت لأنني ما نمت وما بقي وقت للنوم ثم اشتغلنا بالصلاوة وجلسنا على ما كنا عليه فقلت له قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى فقال وما هو فقلت له الإخلاص إلى الله تعالى والإنابة إليه. والاعتماد في كشف الغمة عليه. فقال: وكيف نصنع فقلت اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الروح ويصلني على العادة بالأقصى موضع مسرى النبي صلى الله عليه وسلم ويقدم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ويصلني المولى ركعتين بين الآذان والإقامة ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك: إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاص إليك والاعتصام بحبك والاعتماد على فضلك أنت حسيبي ونعم الوكيل. فإن الله أكرم من أن يخيب فصدقك فعل ذلك كله وصليت إلى جانيه على العادة وصلني الركعتين بين الآذان والإقامة ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج مخبطون وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك. ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسية إلى أنهم لا بد لهم من محاصرة القدس وذهب الأنكتار وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه أنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشارون للحرب على ظهور الخيول وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموا عليهم فأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم ولما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة فهذا ما شهدته من آثار استباطه وإخلاصه إلى الله تعالى رحمة الله.

## ذكر عدله رحمة الله تعالى

[141]
**روى أبو بكر الصديق** رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الوالي العادل ظل الله في أرضه فمن نصحه في نفسه أو في عباده أظلله الله تحت عرشه يوم لا ظله إلا ظله ومن خانه في نفسه أو في عباده خذله الله يوم القيمة، يرفع للوالى العادل في كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه.

ولقد كان رحمة الله عادلاً رؤوفاً رحيمًا ناصراً للضعيف على القوي. وكان مجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضوراً.

على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات. وكان مجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ويوضع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً أو متنحلاً ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه. ولقد كان رؤوفاً بالرعاية ناصراً للدين مواظباً على تلاوة القرآن العزيز عالماً بما فيه عاماً به لا يعوده أبداً رحمة الله عليه. وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته. ولقد رأيته واستغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكن لم يحابه في الحق.

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطي وذلك أنني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال "خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعنا أنك لا تحابي أحد" قلت "وفي أي قضية هو خصمك" فقال "إن سنقر الخلاطي كان مملوكاً ولم يزل على ملكي إلى أن مات وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالب به" فقلت له "يا شيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية" فقال "الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكمي ينطبق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات". فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط إلى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل "لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم وأنا أعرّفه وأعْرِفُك ما عنده في ذلك"، فرضي الرجل بذلك واندفع. فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال "كنت نظرت في الكتاب" فقلت "نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون" فقال مبارك "نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية ما يقضيه الشرع". ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة فقلت له: "هذا الخصم يتتردد ولا بد أن نسمع دعواه" فقال "أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى ثم تقيم الشهود شهادتهم وأخْرِرْ فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل ها

هنا" ، ففعلت ذلك ثم أحضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه و كنت إلى جانبها ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال "إن كان لك دعوى فاذكرها" فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً، فأجابه السلطان أن سنقر هذا كان مملوكي ولم ينزل على ملكي حتى اعتقته وتوفي وخلف ما خلفه لورثته، فقال الرجل "لي بینة تشهد بما ادعیته" ثم سأله فتح كتابه فوجده كما شرحه، فلما سمع السلطان التاريخ قال لي "عندى من يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم ينزل في يدي وملكى إلى أن اعتقته" ، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه، فابلس الرجل فقلت له "يا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائب القصد" فقال: "هذا باب آخر" ، وتقدم له بخلعة ونفقة باللغة قد شذ عني مقدارها. فانتظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة، رحمة الله تعالى رحمة واسعة.

### ذكر طرف من كرمه رحمة الله

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَثَرَ الْكَرِيمُ فِي أَنَّ اللَّهَ أَخْذَ يَدَهُ وَفِي الْكَرِيمِ أَحَادِيثٌ، وَكَرْمٌ قَدْسَ اللَّهُ رُوحَهُ، كَانَ أَظْهَرَ مِنْ أَنْ يَسْطُرَ، وَأَشْهَرَ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ لَكُنْ نِيَّهَتْ عَلَيْهِ حَمْلَةً، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَلِكُ مَا مَلَكَ وَمَا لَمْ يَوْجُدْ فِي خَزَانَتِهِ مِنَ الْفَضْلِ إِلَّا سَبْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ درهماً نَاصِرِيَّةٍ وَمِنَ الْذَّهَبِ إِلَّا جَرْمٌ وَاحِدٌ صُورِيٌّ

<sup>[142]</sup>

ما علمت وزنه، وكان رحمة الله يهب الأقاليم وفتح آمد<sup>[143]</sup> وطلبتها منه ابن

قره أرسلان

فأعطاه إياه.

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطي للوفود، فلم أزل أخاطبه في معناهم، حتى باع أشياء من بيت المال، وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد. وكان رحمة الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة. وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم بهم لعلهم بأنه متى علم به أخرجه، وسمعته يقول في معرض حديث جري: "يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب" فكانه بذلك أراد نفسه، رحمة الله تعالى.

وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب مما سمعته فقط يقول أعطينا لفلان. وكان يعطي الكثير ويسقط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً. وكان

رحمه الله يعطي ويكرم أكثر مما يعطى وكان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه في كل وقت وما سمعته فقط يقول قد زدت مراراً فكم أزيد.

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لسانه ويدى و كنت أخجل منه من كثرة ما يطلبوه ولا أخجل منه من كثرة ما أطلب له لم علمي بعدم مؤاخذته في ذلك، وما خدمه أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره.

أما تعداد عطایاہ و تعداد صنوفها فلا تطبع فيها حقيقة أصلًا وقد سمعت من صاحب دیوانہ یقول لی قد تجربنا عطایاہ فحصرنا عدد ما وہب من الخیل بمرج عکا فکان عشرة آلے فرس. ومن شاهد مواہبہ یستقل هذا القدر. اللهم إنك ألهمنے الكرم وأنت أکرم منه فتکرم عليه برحمتك ورضوانک يا أرحم الراحمنین.

### ذكر شجاعته قدس الله روحه

روي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ  
عَلَى قَتْلِ حَيَّةٍ.

ولقد كان رحمه الله تعالى من عظاماء الشجعان قوي النفس شديد البأس  
عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيته يعطي دستوراً في أوائل الشتاء ويبقى [144]

في شرذمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير وقد سالت باليان بن بارزان  
وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه، رحمه الله، يوم انعقاد الصلح  
عن عدتهم، فقال الترجمان عنه أنه يقول "كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضًا  
من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تجاوزناه  
فحزرتهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك"  
قلت "فكم هلك منهم" فقال "أما بالقتل فقرب من مائة ألف وأما بالموت  
والفرق فلا نعلم وما راجع من هذا العالم إلا الأقل".

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا  
قربياً منهم. وكان رحمه الله تعالى إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه  
صبي واحد على يده جنيب ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب  
الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها. وكان يشارف العدو  
ويجاوره رحمه الله. ولقد قرئ عليه جزان من الحديث بين الصفين وذلك أنني  
قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين  
الصفين فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً فأذن في ذلك فأحضر  
جزءه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين  
الصفين نمشي تارة ونقف أخرى.

وما رأيته استكثر العدو أصلًا ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في  
حال التفكير والتدبر تذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم  
بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه. ولقد انهزم المسلمون في يوم

[145]

المصاف الأكبر بمرج عكا، حتى القلب ورجاله، ووقع الكؤوس والعلم، وهو رضي الله عنه - ثابت القدم في نفر يسير، حتى انحاز إلى الجبل بجميع الناس ويردهم ويخلجمهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس، ولم يزل رحمة الله مصايرًا لهم وهم في العدة الواافرة، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين، فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في

<sup>[146]</sup> الصلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما في مكنونها . وكان حمه الله يمدحه، ويعصّم وتعتدي به أحواله، معمولة وهو مصاب بـ ايط، ومتاءع.

[148]

**[١٤٧]** الناران ونسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الأذان إلى أن انقضت الوجع على أحسن حال وأيسره، قدس الله روحه ونور ضريحه.

## ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

**قال الله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع**

[149]

المحسنين} ونصوص الجهاد كثيرة. ولقد كان رحمة الله شديد المواطبة عليه عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه. ولقد كان جبه للجهاد والشفف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آله ولا كان له اهتمام إلا برجاته ولا ميل إلا إلى من يذكره ويبحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميسنة وميسرة. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على منج عكا فلو لم يكن في البرج لقتله ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتمامًا. كان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روی في فضله وشرحت غرائبها.

وكان رحمة الله كثيراً ما يطالعه، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز

[150]

نصره، ولأحكيَّ عنه ما سمعته منه، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة (كانون ثاني/يناير 1189) وأعطى العسكر

[151]

<sup>[151]</sup> دستوراً، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمها أخاه الملك

[152]

الشريف حرسه الله تعالى وسرنا في خدمته. ولما صلى العيد في القدس وقع له أن يمضي إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن يفعل فإن العساكر إذا فارقنا نبقى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت رحمه الله، وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبي عكا. وكان الزمان شتاءً والبحر هائجاً شديداً،

[153]

وموجه كالجبال ، كما قال تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أني لو قال لي: إن جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل، واستسخطت رأي من ركب البحر رجاء دينار أو درهم،

[154]

واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر ، هذا كله خطر لي لعظم الهرول الذي شاهدته من حركة البحر، فبينا أنا في ذلك إذ التفت إلى رحمة الله، وقال "أما أحكى لك شيئاً في نفسك أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت" فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطر لي وقلت له "ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى منه نية في نصرة دين الله تعالى". فقال "فكيف" فقلت "أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهو له. وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تظهر جميع الأرض منهم" ، واستأذنت أن أحكى له ما كان خطر لي فحكيت له ثم قلت "ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الإسلام ومنعه فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه" ، فقال "أنا أستفتوك ما أشرف الميتات"؟ فقلت "الموت في سبيل الله" فقال "غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات". فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها، رحمة الله عليه. اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك، وجاهد رجاء رحمتك، فارحمه.

### صبره واحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى: {ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور

[155]

رحيم} . ولقدرأيته رحمه الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون منكباً على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرق على الناس. وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو وقد رتب الناس ميمونة وميسرة، وقلباً تعبيبة القتال، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب،

يطوف على الأطلاب، صابراً على شدة الألم، وقوة ضربان الدمامل، وأنا أتعجب من ذلك فيقول "إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل" وهذه عنابة ربانية.

[156]

ولقد مرض -رحمه الله- ونحن على الخرنوبة وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الإفرنج فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيئاً من المسلمين، وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة الآبار التي تحت التل. فأمر

[157]

رحمه الله بالثقل حتى يتجهز بالرحبيل والتأخر عن جهة الناصرة. وكان عماد الدين صاحب سنجار متمراضاً أيضاً فاذن له أن يتاخر مع الثقل، وأقام هو، ثم رحل العدو في اليوم الثاني بطلبنا، فركب على مضض ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب، وجعل طرف الميمنة الملك العادل وطرف الميسرة تقي الدين وجعل ولده الملك الظاهر والملك الأفضل -عز نصرهما- في القلب ونزل هو وراء القوم يطلبيهم. وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه أفرنجي قد أسر من القوم، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة، ثم ينزل يستريح ويتظل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً. ولم ينزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم، إلى أن دخل الليل. ثم أمر العساكر المنصورة إن عادت إلى محل المصايرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو ونحن في خدمته إلى قمة الجبل، فضربت له خيمة لطيفة، ويتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر، وأحدقت بالعدو ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقوهم المسلمون في ذلك اليوم مضائقه شنيعة. وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم، ولم ينزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبیارق لا غير، فيطن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقاً عظيماً. ولم ينزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم وكلما قتل منهم شخص دفنه وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بهم من يعلم قتله وجرحه وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الأمر، ونزلوا عند الجسر، وكان الإفرنج متى نزلوا إلى الأرض آيس المسلمين من بلوغ غرض منهم لأنهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة. ويفي رحمه الله في موضعه، العساكر على ظهور الخيول قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم. وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية وعاد العسكر في الصباح إلى ما كان عليه بالأمس من مضائقه العدو، ورحل العدو، وسار على ما مضى من

القتل والقتال حتى دنا إلى خيامه وخرج إليه منها من أ Jingde حتى وصلوا إلى خيامهم. فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل. اللهم إنك ألمتني الصبر والاحتساب ووفقاً لفلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين.

ولقد رأيته رحمة الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى إسماعيل فوق على الكتاب ولم يعرف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه. ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق، ورتب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه، وكنا طول الليل في خدمته، قدس الله روحه - في أذن مفاكهه وأرغم عيش، والرسل تتواصل تخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني كذا، حتى أتي الصباح وقد فرغ منها ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها، وكانت من أطول الليالي وأشدتها بردًا ومطرًا. ورأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ونحن في مقابلة الإفرنج جريدة على الرملة وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير، فأحضر الملك العادل وعلم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين، وأمر الناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكي بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب، ثم قال - رحمة الله - والعبرة تخنقه، "توفي تقي الدين" فاشتد بكاؤه و بكاء الجماعة ثم عدت إلى نفسي فقلت "استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانتظروا أين وفيما أنتم وأعرضوا عما سواه" فقال رحمة الله "نعم أستغفر الله"، وأخذ يكررها ثم قال "لا يعلم أحد" واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ثم أشخاص الطعام وحضر الناس ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا وعدنا نحن إلى النطرون وهو مقر ثقلنا.

وكان رحمة الله شديد الشغف والشقة بأولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم، وكان صابراً على مر العيش وخشوونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى. اللهم إن ترك ذلك ابتلاء مرضاتك فارض عنه وارحمه.

### ذكر نبذ من حلمه وعفوه رحمة الله

[158] قال الله سبحانه وتعالى: {والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} .  
لقد كان متباوزاً قليلاً الغضب ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكا - يسر الله فتحها - وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمتد الطعام وأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويصلبي ويجلس خلوة وأنا في خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه، ولقد قرأ على كتاباً مختصراً تصنيف الرازي يشتمل على الأربع الأربع من الفقه. ونزل يوماً على عادته ومد الطعام بين يديه ثم

عزم على النهوض فقيل له أن "وقت الصلاة قد قرب" فعاد إلى الجلوس وقال "نصلِي وننام" ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلا المكان إلا ممن لزم. فتقىد إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال "هل أنا الآن ضجران آخرها ساعة"، فلم يفعل، وقدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرأها فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه، فقال "رجل مستحق" فقال "يوقع المولى له" فقال "ليست

[159]

الدواة حاضرة الآن" وكان - رحمه الله - جالساً في باب الخركا<sup>هـ</sup> بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدرها والخركا<sup>هـ</sup> كبيرة، فقال له المخاطب "هذه الدواة في صدر الخركا<sup>هـ</sup>", وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت - رحمه الله - فرأى الدواة فقال "والله لقد صدق" ثم امتد على يده اليسرى ومد يده اليمنى فأحضرها ووقع لها. فقلت قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم {وانك لعلى خلق

[160]

عظيم} . وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق فقال "ما ضرنا شيئاً قضينا حاجته وحصل الثواب" ، ولو وقعت هذه المواقعة لأحد الناس وأفرادهم لقام وقعد ومن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك وهذا

[161]

غاية الإحسان والحلم {والله لا يضيع أجر المحسنين}.

ولقد كانت طراحته تداش عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثر بذلك. ولقد نفرت يوماً بغلتي من الجمال، وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى ألمته، وهو يتسم - رحمه الله. ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس الشريف، وهو كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين، حتى أتلفت جميع ما كان عليه، وهو يتسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني.

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتطلعين أغبط ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول. وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها: وذلك أنه كان قد اتجه أخو ملك الإفرنج (خذلهم الله) إلى يافا، فإن العسكر كان قد رحل عنهم، وبعد وتراءج إلى النطرون، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجدد وثلاث معتادة، وجمع - رحمه الله - العسكر ومضى إلى قيسارية يلتقي نجدهم عساه يبلغ منهم غرضاً، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك وكان بها

[162]

الأنكتار ومعه جماعة، فجهز معظم من كان عنده في المراكب إلى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر، وبقي الأنكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده - رحمه الله - عنهم، وبعد العسكر، ولما وصل - رحمه الله - إلى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به وعلم أنه لا ينال منهم غرضه، سرى من ليلته في أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً. والأنكتار

في سبعة عشر فارساً وثلاثمائة راجل، نازل خارج البلد في خيمة له، فصبه العسکر صباحاً. فركب الملعون، وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب، وثبت بين يدي العسکر ولم يدخل البلد. فاستدار العسکر الإسلامي بهم إلا من جهة البحر، وتبعى العسکر تعبيه القتال. وأمر السلطان العسکر بالحملة انتهازاً للفرصة، فأجابه بعض الأكراد بكلام فيه خشونة حاصلة، فعتب لعدم التوفير في إقطاعه. فعطف -رحمه الله- عنان فرسه كالمغضب، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً، وتركهم وانصرف راجعاً، وأمر بخيته التي كانت منصوبة أن قلعت. وانقضوا متيقنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة. ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر (أعز الله أنصاره) أنه خاف منه في ذلك اليوم، حتى أنه لم يتجرس أن يقع في عينيه مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغلاً، إلى أن منعه -رحمه الله-. ولم يزل سائراً حتى نزل بيazor، وهي مرحلة لطيفة، فضررت له خيمة لطيفة هناك، ونزل بها ونزل العسکر في منازلهم تحت صوارنيات لطيفة، كما جرت العادة في مثل ذلك. وما من أمراء إلا من يرعد خيفة منه ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه. قال "ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه، حتى استدعاني، قال "فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة، فقال "اطلبو الأمراء حتى يأكلوا شيئاً" قال "فسري عنى ما كنت أجده وطلبت الأمراء فحضروا لهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور، وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلاً. فانتظر إلى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ولا يحکى عمن تقدم من الملوك.

### ذكر محافظته على أسباب المروءة

قال النبي ﷺ الله عليه وسلم: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وكان صلى الله عليه وسلم إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك. ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياة مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه، وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً. ولقد وفد عليه البرنس، صاحب إنطاكيه، فما أحسن به إلا وهو واقف على باب خيمته، بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة (تشرين الثاني/نوفمبر 1192) عند منصرفه من القدس إلى دمشق، عرض له في الطريق وطلب منه شيئاً، فأعطاه العمق، وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل وهو سنة أربع وثمانين (1189-1188). ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحتزمه وأكرمه وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام، فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه.

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار.

[163]

وكان يوصينا بأن لا نغفل عنمن يجتاز بالخيام من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه.

ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتتصوف وكان من ذوي الأقدار وأبواه صاحب تبريز فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحاج ووصل زائرًا لبيت الله المقدس، ولما قضى لبانته منه ورأى آثار السلطان رحمه الله فيه وقع له زيارته، فوصل إلينا إلى المعسكر المنصور، فما أحست به إلا وقد دخل على في الخيمة، فلقيته ورحت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله فأخبرني بذلك، وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة. فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره، وروى عنه حديثاً، ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة، فلما صليت الصبح أخذ يودعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان، فلم يلتفت ولم يلو على ذلك، وقال "قد قضيت حاجتي منه ولا عرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته"، وانصرف من ساعته. ومضى على ذلك ليال فسائل السلطان عنه فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه، وقال "كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا"، وشدد النكير على في ذلك. فما وجدت بداً من أن أكتب كتاباً إلى محبي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وإيصال رقعة كتبتها إليه طي كتابي، أخبره فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به، وحسنلت له فيها العود، وكان بيني وبينه صدقة تقتضي مثل ذلك، فما أحست به إلا وقد عاد إلى، فرحب به السلطان، وانبسط معه وأمسكه أيامًا، ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركباً لائقاً وثياباً كثيرة يحملها إلى بنيه وأتباعه وجيرانه، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاءً لأيامه.

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي قد أصابه كرب، بحيث أنه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع. فقال للترجمان "من أي شيء يخاف"، فأجرى الله على لسانه أن قال "كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه وبعد رؤيتي له وحضوره بين يديه أيقنت أنه ما أرى إلا الخير". فرق له، ومن عليه، وأطلقه. ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليزكية، ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها. قال اليزكي "إن هذه خرجت من عند الإفرنج، فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها"، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها، فقالت "اللصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتي وبيت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار"، فقال لي المملوك "السلطان هو أرحم ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه"، فآخر جوني إليك وما أعرف ابنتي إلا منك". فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن

الصغيرة، من اشتراها، ويدفع له ثمنها ويحضرها، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه. فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها وهي ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها إليها، وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم.

وكان لا يرى الإساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الخيانة ولقد أبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم لا غير.

[164]

ولقد دخل البرنس أرنات صاحب الكرك مع ملك الإفرنج بالساحل لما أسرهما في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (1187)

[165]

والواقعة مشهورة تجيء مشرورة في موضعها إن شاء الله تعالى. وكان قد أمر بإحضارهما، وكان أرنات هذا اللعين كافراً عظيماً جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر، حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة، فغدرها وأخذها ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة، وذكروا له حديث الهدنة فقال "قولوا لمحمدكم يخلصكم"، فلما بلغه -رحمه الله- ذلك عنه نذر أنه متى أطفره الله به قتلته بنفسه. فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوى عزمه على قتله وفأء بنذرها. فأحضره مع الملك، فشكى الملك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه ثم ناوله أرنات، فقال السلطان للترجمان "قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسيقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي"، فقصد -رحمه الله- أن من أكل من طعامي فالمرؤة تقتضي أن لا أؤذيه، ثم ضرب عنقه بيده وفأء بنذرها. وأخذ عكا، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسرا، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير، وأعطي كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله. هكذا بلغني على السنة جماعة، لأنني لم أحضر هذه الواقعة.

وكان حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لأنساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوارتها بحيث كان يستفيد معاشره منه ما لا يسمع من غيره. وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشريه وتقلبات أحواله. وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بخير السمع، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير، وطاهر اللسان بما رأيته ولع بشتم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحّم على مخلفيه وجبر قلبه

[166]

وأعطاه خبز أبيه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إياه، وإن أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها. وكان

لا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحمته ومكان رضوانه.

فهذه نبذة من محسناته ومكارم شيمه، اقتصرت عليها خوف الإطالة والسامة وما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني الثقة به وحققته وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له وهو يسير فيما اطلع عليه غيري ومن طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الأديب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال.

من المعروف أن 583/1187 كان عام النصر الذي توج الحملات الإسلامية  
التي قادها صلاح الدين. فبعد انتصارات

حطين المدوية، والتي بدا أنها حطمت قوى الصليبيين في الأرضي المقدسة،  
بدأت تساقط

كثير من مراكزهم الساحلية، ثم حدثت الخسارة الكبيرة التي أصابت العالم  
المسيحي

برجوع القدس لل المسلمين واستسلامها بطريقة سطعـت فيها إنسانية السلطان  
الإيوبي وحكمة

تدبره. سيرشدنا في رواية هذه الأحداث كل من عماد الدين وابن الأثير (أما  
بهاء

الدين فقد كان شاهد عيان منذ عام 1188 فقط): وسنستشهد بالمصدرين  
السابقين لرواية وقائع حطين واستسلام القدس، على أنه من

المفيد مقارنتهما ببعضهما من نواحي الشكل والمضمون، إذ أن اعتدال ابن  
الأثير ووضوح

روايته ورصانتها جعلتنا نقدمها على الرواية المطرزة المتبعة التي كتبها عماد  
الدين، مع أن هذا هو شاهد أقوى لأنه عاش عن قرب الواقع المرويـة.

## وقائع

حطين

(ابن الأثير، 347-11/351)  
**ذكـر اختلاف الفـرـيق**

بِالشَّامِ، وَأَنْجَيَارِ الْقُمْصُ صَاحِبُ طَرَابُلْسَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ

كَانَ الْقُمْصُ، صَاحِبُ

[167] طَرَابُلْسَ، وَاسْمُهُ رِيمَنْدُ بْنُ رِيمَنْدَ الصَّنْجِيلِيُّ ،

[168] قَدْ تَرَقَّ بِالْفُوْقَمَصَةِ، صَاحِبَةِ طَبَرِيَّةِ ،  
وَاتَّقَلَ إِلَيْهَا، وَأَقَامَ عِنْدَهَا بِطَبَرِيَّةِ. وَمَاتَ مَلِكُ

[169] الْفِرِيجِ بِالشَّامِ، وَكَانَ مَجْدُومًا ،

[170] وَأَوْصَى بِالْمُلْكِ إِلَى ابْنِ أُخْتِ لَهُ، وَكَانَ صَغِيرًا ،  
فَكَفَلَهُ الْقُمْصُ، وَقَامَ بِسِيَاسَةِ الْمُلْكِ وَتَدْبِيرِهِ لِأَنَّهُ  
لَمْ يَكُنْ لِلْفِرِيجِ ذِلْكَ الْوَقْتَ أَكْبَرُ مِنْهُ شَأْنًا، وَلَا  
أَسْبَعَ رَأْيًا مِنْهُ، فَطَمِعَ فِي الْمُلْكِ بِسَبَبِ هَذَا الصَّغِيرِ ،  
فَأَثْفَقَ أَنَّ الصَّغِيرَ ثُوْقَيْ، فَاتَّقَلَ الْمُلْكُ إِلَى أُمِّهِ ،  
فَبَطَلَ مَا كَانَ الْقُمْصُ يُحَدِّثُ تَفْسِهُ [بِهِ]. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ

[171] الْمَلِكَةُ هَوَيْتُ  
رَجُلًا مِنَ الْفِرِيجِ الَّذِينَ قَدِمُوا الشَّامَ مِنَ الْغَربِ اسْمُهُ  
كِي، فَتَرَوْجَنْهُ، وَتَقَلَّتِ الْمُلْكَ إِلَيْهِ، وَجَعَلَتِ النَّاجَ عَلَى  
رَأْسِهِ، وَأَخْصَرَتِ الْبَطْرَكَ، وَالْقُسُوسَ، وَالرُّهْبَانَ ،  
وَالإِسْتَارِيَّةَ، وَالدَّاوَيَّةَ، وَالبَازُونِيَّةَ، وَأَعْلَمَنْهُمْ  
أَنَّهَا قَدْ رَدَّتِ الْمُلْكَ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدَنْهُمْ عَلَيْهَا بِذِلِّكَ ،

فَأَطَاغُوهُ، وَدَأْنُوا لَهُ. فَعَظَمَ ذِلْكَ عَلَى الْقُمْصِ، وَسُقطَ فِي  
يَدِيهِ، وَطُولَبَ بِحِسَابِ مَا جَبَى مِنِ الْأَمْوَالِ مُدَّهُ وَلَا يَهِ  
ذِلْكَ الصَّبِيِّ، فَادْعَى اللَّهَ أَنْفَقَهُ عَلَيْهِ، وَرَادَهُ ذِلْكَ  
نُفُورًا، وَجَاهَرَ بِالْمُسَافَةِ وَالْمُبَايَةِ، وَرَاسَلَ صَلَاحَ  
الَّذِينَ، وَاتَّقَى إِلَيْهِ، وَاعْتَصَمَ بِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمُسَاعَدَةَ  
عَلَى بُلُوغِ عَرْضِهِ مِنِ الْفِرِنْجِ. فَفَرَّخَ صَلَاحُ الدِّينِ  
وَالْمُسْلِمُونَ بِذِلْكَ، وَوَعَدَهُ النُّصْرَةُ، وَالسَّعْيُ لَهُ فِي كُلِّ  
مَا يُرِيدُ، وَصَمِنَ لَهُ اللَّهُ يَجْعَلُهُ مَلِكًا مُسْتَقْلًا لِلْفِرِنْجِ  
فَاطِبَةً، وَكَانَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ فُرْسَانِ الْقُمْصِ أَسْرَى فَأَطْلَقُهُمْ.  
فَحَلَّ ذِلْكَ عِنْدَهُ أَعْظَمَ مَحَلٍ، وَأَظْهَرَ طَاعَةَ صَلَاحِ الدِّينِ،  
وَوَاقَفَهُ عَلَى مَا فَعَلَ جَمَاعَةُ مِنِ الْفِرِنْجِ، فَاخْتَلَفَتْ  
كَلِمَتُهُمْ وَتَقَرَّقَ شَمْلُهُمْ، وَكَانَ ذِلْكَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ  
الْمُوجِبَةِ لِفَتْحِ بِلَادِهِمْ، وَاسْتِنْقَادِ الْبَيْتِ الْمُقدَّسِ  
مِنْهُمْ، عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَسَيَرَ صَلَاحُ الدِّينِ  
السَّرَّاً بِأَجْهَةِ طَبِيرِيَّةِ، فَشَتَّتَ الْغَارَاتِ عَلَى بِلَادِ  
الْفِرِنْجِ، وَخَرَجَتْ سَالِمَةً غَائِمَةً، فَوَهَنَ الْفِرِنْجُ بِذِلْكَ،  
وَصَعَفُوا وَتَجَرَّأُوا الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ، وَطَمِيعُوا فِيهِمْ.  
ذِكْرٌ

غَدْرِ الْبِرِّينْسِ أَزْتَاطَ  
كَانَ الْبِرِّينْسُ أَزْتَاطُ،

[172] صَاحِبُ الْكَرَكَ

مِنْ أَعْظَامِ الْفِرِنْجِ وَأَحْبَبِهِمْ، وَأَشَدّهِمْ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ،  
وَأَعْظَمِهِمْ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَى صَلَاحُ الدِّينَ ذَلِكَ  
مِنْهُ قَصَدَهُ بِالْحَضْرِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَبِالْغَارَةِ عَلَى  
بِلَادِهِ كَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَذَلِكَ، وَخَصْنَعَ، وَطَلَبَ الصُّلُحَ مِنْ  
صَلَاحِ الدِّينِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَهَادَتْهُ وَتَحَالَّفَا،  
وَتَرَدَّدَتِ الْقَوَافِلُ مِنَ السَّامِ إِلَى مِصْرَ، وَمِنْ مِصْرَ إِلَى  
السَّامِ.

فَلَمَّا كَانَ هَذِهِ السَّنَةُ (1186-582) اجْتَازَ يَهُ قَافِلَةً عَظِيمَةً غَزِيرَةً  
الْأَمْوَالِ، كَثِيرَةً الرِّجَالِ،  
وَمَعَهَا جَمَاعَةً صَالِحَةً مِنَ الْأَجْنَادِ، فَقَدَرَ اللَّهُ عَيْنُهُمْ،  
وَأَخْدَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَغَنِمَ أَمْوَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ  
وَسِلَاحَهُمْ، وَأَوْدَعَ السُّجُونَ مَنْ أَسْرَهُ مِنْهُمْ. فَأَرْسَلَ  
إِلَيْهِ صَلَاحُ الدِّينِ يَلْوُمُهُ، وَيُقْبِحُ فِعْلَةَ وَعْدَرَهُ،  
وَيَتَهَدِّدُهُ إِنْ لَمْ يُطْلِقِ الْأَسْرَى وَالْأَمْوَالَ، فَلَمْ يُحِبْ  
إِلَى ذَلِكَ، وَأَصَرَّ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ، فَنَدَرَ صَلَاحُ الدِّينِ تَدْرَأً  
أَنْ يَقْتَلَهُ إِنْ طَقَرَ [بِهِ]، فَكَانَ مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
تَعَالَى.

ذِكْرٌ

حَصْرِ صَلَاحِ الدِّينِ الْكَرَكَ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (583/1187) كَتَبَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ يَسْتَغْفِرُ النَّاسَ  
لِلْجِهَادِ، وَكَتَبَ إِلَى الْمُؤْصِلِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَإِرْبَلِ  
وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ السَّرْقَةِ، وَإِلَى مِصْرَ وَسَائِرِ بِلَادِ الشَّامِ،  
يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجِهَادِ، وَيَخْتَهِمْ عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُهُمْ  
بِالْتَّجَهُزِ لَهُ بِعَايَةِ الْإِمْكَانِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دِمْشَقَ،  
أَوَاخِرَ الْمُحَرَّمِ (نيسان/ابريل

1187)، فِي عَسْكَرِهَا

الْحَاصِّ، فَسَارَ إِلَى رَأْسِ الْمَاءِ، وَلَاحَقَتْ بِهِ الْعَسَاكِرُ  
الشَّامِيَّةُ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَعَلَ عَلَيْهِمْ وَلَدَهُ الْمَلِكُ  
الْأَفْضَلُ عَلَيْهَا لِيَجْتَمِعَ إِلَيْهِ مَنْ يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْهَا،  
وَسَارَ هُوَ إِلَى بُصْرَى، جَرِيَّدَةً. وَكَانَ سَبَبُ مَسِيرِهِ وَقَصْدِهِ  
إِلَيْهَا أَنَّهُ أَتَهُ الْأَخْبَارُ أَنَّ الْبِرِّيْسَنَ أَرْتَاطَ، صَاحِبَ  
الْكَرِكِ، يُرِيدُ أَنْ يَقْصِدَ الْخُجَاجَ لِيَأْخُذَهُمْ مِنْ طَرِيقِهِمْ،  
وَأَطْهَرَ أَنَّهُ إِذَا قَرَعَ مِنْ أَخْذِ الْخُجَاجِ يَرْجِعُ إِلَى طَرِيقِ  
الْعَسْكَرِ الْمُصْرِيِّ يَصْدُهُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ،  
فَسَارَ إِلَى بُصْرَى لِيَمْنَعَ الْبِرِّيْسَنَ أَرْتَاطَ مِنْ طَلَبِ الْخُجَاجِ،  
وَيَلْزَمَ بَلَدَهُ حَوْفًا عَلَيْهِ.

وَكَانَ مِنْ الْخُجَاجِ

جَمَاعَةٌ مِنْ أَقَارِبِهِ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ لَاجِينَ، وَهُوَ ابْنُ  
أَخْتِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَغَيْرُهُ، فَلَمَّا سَمِعَ أَرْتَاطَ يُقْرِبُ صَلَاحِ

الدّينِ مِنْ بَلَدِهِ لَمْ يُقَارِفْهُ، وَانْقَطَعَ عَمَّا طَمِيعَ فِيهِ،  
فَوَصَلَ الْحُجَّاجُ سَالِمِينَ. فَلَمَّا وَصَلُوا وَقَرَعَ سِرْرَهُ مِنْ  
جَهَتِهِمْ سَارَ إِلَى الْكَرَكِ فَحَصَرَهُ وَصَبَقَ عَلَيْهِ وَانتَظَرَ  
وُصُولَ الْعَسْكَرِ الْمِصْرِيِّ، فَوَصَلُوا إِلَيْهِ عَلَى الْكَرَكِ، وَبَثَّ  
سَرَايَاهُ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وِلَايَةِ الْكَرَكِ وَالشَّوَّافِكِ وَغَيْرِهِمَا،  
فَنَهَبُوا وَخَرَبُوا وَأَخْرَفُوا، وَالْبَرِّئُسُ مَحْضُورٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى  
الْمَنْعِ عَنْ بَلَدِهِ.

وَسَائِرُ الْفِرْجِ فَذُ  
لَزِمُوا طَرَفَ بِلَادِهِمْ، حَوْفًا مِنْ الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ وَلَدِهِ  
الْأَفْصَلِ، فَتَمَكَّنَ مِنْ الْحَصْرِ وَالتَّهْبِ وَالثَّحْرِيقِ  
وَالثَّحْرِيبِ، هَذَا فِعْلُ صَلَاحِ الدّينِ.

ذِكْرٌ

الْعَارِهُ عَلَى بَلَدِ عَكَّا  
أَرْسَلَ صَلَاحَ الدّينِ إِلَى  
وَلَدِهِ الْأَفْصَلِ يَأْمُرُهُ أَنْ يُرْسِلَ قِطْعَهُ صَالِحَهُ مِنْ الْجَيْشِ  
إِلَى بَلَدِ عَكَّا يَنْهَبُونَهُ وَيُخَرِّبُونَهُ، فَسَيَّرَ مُظَفَّرَ  
الدّينِ كَوْكَبِرِيَّ بْنَ رَيْنِ الدّينِ، وَهُوَ صَاحِبُ حَرَانَ  
وَالرُّهَا، وَأَصَافَ إِلَيْهِ قَائِمَاتُ التَّجْمِيَّ وَدِلْدِرَمَ  
الْيَازِوْقِيَّ - وَهُمَا مِنْ أَكَابِرِ الْأُمَرَاءِ - وَغَيْرُهُمَا فَسَازُوا  
لَيْلًا، وَصَبَّخُوا صَفُورِيَّهُ أَوَاخِرَ صَفَرِ (1) أَيَارِ/مَايُو

إِلَيْهِمُ الْفِرْنَجُ فِي جَمِيعِ مِنَ الدَّاوِيَةِ وَالإِسْبِيَّةِ  
وَغَيْرِهِمَا، قَاتَلُوكُمْ هُنَاكَ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ تَشَبَّهُ لَهَا  
الْمَقَارِقُ السُّودُ.

ئُمَّمٌ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى

تَصْرَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، قَاتَلُوكُمْ الْفِرْنَجُ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ

[173] جَمَاعَةٌ، وَأُسْرَ الْبَاقُونَ، وَفِيمَنْ قُتِلَ مُقَدَّمُ الْإِسْبِيَّةِ  
وَكَانَ مِنْ فُرْسَانِ الْفِرْنَجِ الْمَشْهُورِينَ، وَلَهُ الْكِتَابُ  
الْعَظِيمُ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَتَهَبُ الْمُسْلِمُونَ مَا جَاءَرُهُمْ مِنَ  
الْبِلَادِ، وَعَنِمُوا وَسَبَّوا، وَعَادُوا سَالِمِينَ، وَكَانَ عَوْدُهُمْ  
عَلَى طَبَرِيَّةَ، وَبِهَا الْقُمْصُنُ، قَلْمَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ، فَكَانَ فَتَحًا  
كَثِيرًا، فَإِنَّ الدَّاوِيَةَ وَالإِسْبِيَّةَ هُمْ جَمْرَهُ الْفِرْنَجِ،  
وَسُيُّرَتِ الْبَشَائِرُ إِلَى الْبِلَادِ بِذَلِكَ.

### ذِكْرٌ

عَوْدٌ صَلَاحٌ الدِّينِ إِلَى عَسْكَرِهِ وَدُخُولِهِ إِلَى الْفِرْنَجِ  
لَمَّا أَتَهُ صَلَاحُ الدِّينِ  
الْبِسَارَهُ يَهْزِمُهُ الْإِسْبِيَّةَ وَالدَّاوِيَةَ، وَقُتِلَ مِنْ  
قُتِلَ مِنْهُمْ، وَأُسْرِ مَنْ أُسْرَ، عَادَ عَنِ الْكَرَكِ إِلَى الْعَسْكَرِ  
الَّذِي مَعَ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْأَفْصَلِ، وَقَدْ تَلَاقَتْ سَائِرُ

الْأَمْدَادِ وَالْعَسَاكِرِ، وَاجْتَمَعُوا بِهِمْ، وَسَاوُرُوا جَمِيعًا. وَعَرَضَ  
الْعَسْكَرَ، فَبَلَقَتْ عِدَّتُهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَارِسٍ مِّمَّنْ لَهُ

[174]      **الْأَقْطَاعُ وَالْجَامِكَيَّةُ** ،

سِوَى الْمُنْطَوِّعَةِ، فَعَبَّا عَسْكَرَهُ قَلْبًا وَجَنَاحَيْنِ،  
وَمِيمَنَهُ وَمِيسَرَهُ وَجَالِسِيَّةَ وَسَاقَهُ، وَعَرَفَ كُلُّ مِنْهُمْ  
مَوْضِعَهُ وَمَوْقِفَهُ، وَأَمَرَهُ بِمُلَازَمَتِهِ. وَسَارَ عَلَى تَعْيَّةِ  
فَنَزَلَ بِالْأَقْحَوَانِ يُقْرِبُ طَبَرِيَّةَ، وَكَانَ الْفُمْصُنُ قَدْ  
اِتَّمَى إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَكُتُبُهُ مُنَصِّلَةٌ إِلَيْهِ  
يَعْدُهُ النُّصْرَةُ، وَيُمْنِيَهُ الْمُعَاصِدَةُ، وَمَا يَعْدُهُمْ

[175]      السَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا.      فَلَمَّا

رَأَى الْفِرِيقُ اجْتِمَاعَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَضَمِيمَ  
الْعَزْمِ عَلَى قَصْدِ يَلَادِهِمْ، أَرْسَلُوا إِلَى الْفُمْصِ الْبَطْرَكَ  
وَالْقُسُوسَ وَالرُّهْبَانَ، وَكَثِيرًا مِنَ الْفُرْسَانِ، فَأَنْكَرُوا  
عَلَيْهِ اِتِّيَاءَهُ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، وَقَالُوا لَهُ: لَا شَكَّ أَنَّكَ  
أَسْلَمْتَ، وَإِلَّا لِمَ تَصْبِرُ عَلَى مَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ أَمْسَنَ  
بِالْفِرِيقِ، يُقْتَلُونَ الدَّاوِيَّةَ وَالْاسْبِيَّارِيَّةَ،  
وَيَأْسِرُوْهُمْ، وَيَجْتَازُونَ بِهِمْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ لَا تُنِكِّرُ ذَلِكَ  
وَلَا تَمْنَعْ عَنْهُ. وَوَافَقُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ عَسْكَرٍ  
طَبَرِيَّةَ وَطَرَابُلْسَيَّ، وَتَهَدَّدَهُ الْبَطْرَكُ أَنَّهُ يُحَرِّمُهُ،

وَيَفْسُحْ نِكَاحَ رَوْجَيْهِ، إِلَى عَبْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّهْدِيدِ. فَلَمَّا  
 رَأَى الْقُمْصُ شِدَّةَ الْأَمْرِ عَلَيْهِ حَافَ، فَاعْتَدَرَ وَتَنَصَّلَ  
 وَتَابَ، فَقِيلُوا عُذْرَهُ، وَغَفَرُوا رَلَلَهُ، وَطَلَبُوا مِنْهُ  
 الْمُوَافَقَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُؤَازَرَةَ عَلَى حِفْظِ بِلَادِهِمْ،  
 فَأَبْجَابُهُمْ إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالإِنْضِمامِ إِلَيْهِمْ، وَالإِجْتِمَاعِ  
 مَعْهُمْ. وَسَارَ مَعَهُمْ إِلَى مَلِكِ الْفِرْنِيْجِ، وَاجْتَمَعُتْ كَلِمَتُهُمْ  
 بَعْدَ فُرْقَتِهِمْ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَجَمَعُوا  
 فَارِسَهُمْ وَرَاجِلَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا مَنْ عَكَّا إِلَى صَفُورِيَّةَ،  
 وَهُمْ يُقَدِّمُونَ رِجَالًا وَيُؤَخِّرُونَ أُخْرَى، فَذُمِّلَتْ فُلُوْبُهُمْ  
 زُعْبَانًا.

## معركة

حطين

(ابن الأثير، 355-11/351)

**ذِكْرٌ فَتْحِ صَلَاحِ الدِّينِ**

طَبَرِيَّةَ

**لَمَّا اجْتَمَعَ الْفِرْنِيْجُ**  
 وَسَارُوا إِلَى صَفُورِيَّةَ، جَمَعَ صَلَاحُ الدِّينِ أُمَرَاءَهُ  
 وَوُزَرَاءَهُ وَاسْتَسَارُهُمْ، فَأَسَارَ أَكْثَرُهُمْ عَلَيْهِ بِتْرِكِ  
 الْلَّقَاءِ وَأَنْ يُصْعِفَ الْفِرْنِيْجَ يَشَّنَ الْغَارَاتِ، وَإِخْرَابِ

الولايات مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةً. فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَمْرَائِهِ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّا نَجْوَسُ بِلَادَهُمْ، وَتَنْهَبُ، وَتُخْرِبُ،

وَتُحْرِقُ، وَتُسْبِي، فَإِنْ وَقَفَ أَحَدٌ مِنَ الْعَسْكَرِ الْفِرِيجِ بَيْنَ أَيْدِينَا لَقِيتَاهُ، فَإِنَّ النَّاسَ بِالْمَسْرِقِ يَلْعَنُونَا وَيَقُولُونَ تَرَكَ قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَأَفْبَلُ ثِرِيدُ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ، الرَّأْيُ أَنْ تَفْعَلَ فِعْلًا تُعَذَّرُ فِيهِ وَتَكُفُّ الْأَلْسِنَةَ عَنَّا. فَقَالَ صَلَاحُ الدِّينِ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تَلْقَى بِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ جَمْعَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ لَا تَجْرِي بِحُكْمِ الْإِنْسَانِ، وَلَا تَعْلَمُ قَدْرَ الْبَاقِي مِنْ أَعْمَارِنَا، وَلَا يَتَبَغِي أَنْ تُفَرِّقَ هَذَا الْجَمْعُ إِلَّا بَعْدَ الْجِهَادِ. ثُمَّ رَحَلَ مِنَ الْأَفْحَوَاةِ الْيَوْمَ الْخَامِسَ مِنْ تُرْزُولِهِ بِهَا، وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ لِسَبِيعِ بَقِينَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ (2) تموز يوليه 1187)، فَسَارَ حَتَّى

خَلَفَ طَبَرِيَّةَ وَرَاءَ طَهْرِيَّةَ، وَصَعَدَ جَبَلَهَا، وَتَقَدَّمَ حَتَّى قَارَبَ الْفِرِيجَ، فَلَمْ يَرِ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَا فَارَقُوا خِيَامَهُمْ، فَنَزَلَ وَأَمَرَ الْعَسْكَرَ بِالتُّرْزُولِ.

فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ جَعَلَ فِي مُقَابِلِ الْفِرِيجِ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْقِتَالِ، وَنَزَلَ حَرِيدَةَ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَقَاتَلَهَا، وَتَقَبَ بَعْضَ أَبْرَاجِهَا، وَأَحَدَ الْمَدِينَةَ عَنْوَةَ فِي لَيْلَةِ، وَلَجَأَ مَنْ يَهَا إِلَى الْقَلْعَةِ

الَّتِي لَهَا، فَامْتَنَعُوا يَهَا، وَفِيهَا صَاحِبُهَا، وَمَعَهَا  
أَوْلَادُهَا، فَنَهَبَ الْمَدِينَةَ وَأَخْرَقَهَا.

### فَلَمَّا سَمِعَ الْفِرْنُجُ

نَزَولَ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَمُلْكَةَ الْمَدِينَةِ، وَأَحْدَ  
مَا فِيهَا، وَإِخْرَاقَ مَا تَخَلَّفَ مِمَّا لَا يُحْمَلُ،  
اجْتَمَعُوا لِلْمَسْوَرَةِ، فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِالنَّقْدِ إِلَى  
الْمُسْلِمِينَ وَقَاتَالِهِمْ، وَمَنْعِهِمْ عَنْ طَبَرِيَّةِ . فَقَالَ  
الْقُمْصُ: إِنَّ طَبَرِيَّةَ لِي وَلَرْوَجَتِي، وَقَدْ فَعَلَ صَلَاحُ الدِّينِ  
بِالْمَدِينَةِ مَا فَعَلَ، وَبِقِيَ الْقُلْعَةِ، وَفِيهَا رَوْجَتِي، وَقَدْ  
رَضِيَتِ أَنْ يَأْخُذَ الْقُلْعَةَ وَرَوْجَتِي وَمَا لَنَا بِهَا وَيَعْوَدُ،  
فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَسَاكِرَ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مَا  
رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ كَثِيرًا  
وَفُؤُوهُ، وَإِذَا أَخَذَ طَبَرِيَّةَ لَا يُمْكِنُهُ الْمُقَامُ بِهَا، فَمَتَّى  
فَارَقَهَا وَعَادَ عَنْهَا أَخْدُنَاهَا، وَإِنْ أَقامَ بِهَا لَا يَقْدِرُ  
عَلَى الْمُقَامِ بِهَا إِلَّا يَجْمِعُ عَسَاكِرِهِ، وَلَا يَفْدُرُونَ عَلَى  
الصَّبِيرِ طُولَ الزَّمَانِ عَنْ أَوْطَانِهِمْ وَأَهْلِهِمْ فَيُضْطَرُ إِلَى  
تَرْكِهَا، وَتَفْتَكُ مَنْ أُسِرَّ مِنَّا. فَقَالَ لَهُ بِرِئْسُ أَرْتَاطِ  
صَاحِبِ الْكَرِكِ: قَدْ أَطْلَتِ فِي النَّحْوِيفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا  
شَكَّ أَنَّكَ تُرِيدُهُمْ، وَتَمْيلُ إِلَيْهِمْ، وَإِلَّا مَا كُنْتَ تَقُولُ  
هَذَا، وَإِمَّا قَوْلُكَ: إِنَّهُمْ كَثِيرُونَ، فَإِنَّ النَّارَ لَا يَصْرُّهَا

كثرةُ الْحَطَبِ. فَقَالَ: أَنَا وَاحِدٌ مِنْكُمْ إِنْ تَقْدَمْتُمْ  
 تَقْدَمْتُ، وَإِنْ تَأْخُرْتُمْ تَأْخُرْتُ، وَسَتَرُونَ مَا يَكُونُ.  
 فَقَوْيَ عَزْمُهُمْ عَلَى التَّقْدُمِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَقِتَالِهِمْ،  
 فَرَحُلُوا مِنْ مُعْسَكِرِهِمُ الَّذِي لَزِمُوهُ، وَقَرُبُوا مِنْ عَسَاكِرِ  
 الْإِسْلَامِ، قَلَّمَا سَمِعَ صَلَاحَ الدِّينِ بِذِلِكَ عَادَ عَنْ طَبَرِيَّةِ  
 إِلَى عَسْكَرِهِ، وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ قَصْدُهُ  
 بِمُحاصرَةِ طَبَرِيَّةِ أَنْ يُفَارِقَ الْفِرْنَجَ مَكَانَهُمْ لِيَتَمَكَّنُ  
 مِنْ قِتَالِهِمْ. وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ تَرَلُوا عَلَى الْمَاءِ،  
 وَالرَّمَانُ قَيْظُ سَدِيدُ الْحَرَّ، فَوَجَدَ الْفِرْنَجُ الْعَطَشَ، وَلَمْ  
 يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْوُضُولِ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،  
 وَكَانُوا قَدْ أَفْتَوْا مَا هُنَاكَ مِنْ مَاءِ الصَّهَارِيجِ وَلَمْ  
 يَتَمَكَّنُوا مِنَ الرُّجُوعِ حَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَبَقُوا عَلَى  
 حَالِهِمْ إِلَى الْغَدِ، وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَقَدْ أَخَذَ الْعَطَشُ  
 مِنْهُمْ. وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُمْ فِيهِمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ  
 يَخَافُونَهُمْ، فَبَاتُوا يُحَرِّضُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، وَقَدْ وَجَدُوا رِيحَ  
 النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَكُلُّمَا رَأُوا حَالَ الْفِرْنَجِ خِلَافَ عَادِتِهِمْ  
 مِمَّا رَكِبُوهُمْ مِنَ الْخِدْلَانِ، رَادَ طَمَعُهُمْ وَجُرْأَتِهِمْ،  
 فَأَكْثَرُوا النَّكِيرَ وَالنَّهْلِيلَ طُولَ لَيَالِيهِمْ، وَرَبَّ  
 السُّلْطَانُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْجَالِيَشِيَّةَ

[176]

السُّلْطَانُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْجَالِيَشِيَّةَ

وَقَرْقَ فِيهِمُ النَّسَابُ.

## ذِكْرٌ

إِهْزَامِ الْفِرْنِيجِ بِحِطَّينَ  
أَصْبَحَ صَلَاحُ الدِّينِ

وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمَ السَّبْتِ لِحَمْسٍ بَعْدَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ (4 تموذج يوليه 1187)، فَرَكِبُوا

وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْفِرْنِيجِ، وَدَتَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، إِلَّا أَنَّ

الْفِرْنِيجَ قَدِ اسْتَدَّ بِهِمُ الْعَطَشُ وَانْحَذَلُوا، فَاقْتَلُوا،

وَاسْتَدَّ الْقِتَالُ، وَصَبَرَ الْقَرِيقَانِ، وَرَمَى جَالِيَشِيَّةُ

الْمُسْلِمِينَ مِنَ النَّسَابِ مَا كَانَ كَالْجَرَادُ الْمُسْتَشِيرُ،

فَقَتَلُوا مِنْ خُيُولِ الْفِرْنِيجِ كَثِيرًا. هَذَا الْقِتَالُ بَيْنَهُمْ،

وَالْفِرْنِيجُ قَدْ جَمَعُوا نُفُوسَهُمْ بِرَاجِلِهِمْ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ

سَائِرِينَ، تَحْوِ طَبَرِيَّةَ، لَعَلَّهُمْ يَرِدُونَ الْمَاءَ. فَلِمَا عَلِمَ صَلَاحُ

الدِّينَ مَقْصِدَهُمْ صَدَهُمْ عَنْ مَرَادِهِمْ، وَوَقَفَ بِالْعَسْكَرِ فِي وِجْهِهِمْ، وَطَتَّفَ

يَحْرِّضُهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِمَا يَصْلِحُهُمْ وَبِنَهَا هُمْ عَما يَضِرُّهُمْ، وَالنَّاسُ يَاتِمُرُونَ لِقولِهِ

وَيَقْفَوْنَ عَنْهُ

نَهِيَّهُ، فَحَمَلَ مَمْلُوكُ مِنْ مَمَالِيكِ الصَّبِيَّانِ حَمْلَةً مُنْكَرَةً عَلَى صَفِ الْفَرْنِيجِ،

فَقَاتَلَ قَتَالًا عَجَبَ

مِنْهُ النَّاسُ، ثُمَّ تَكَاثَرَ الْفَرْنِيجُ عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ. فَجَبَنَ قُتْلُ حَمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ حَمْلَةً

مُنْكَرَةً

ضعضعوا الكفار، وقتل منهم كثيراً، فلما رأى القمح شدة الامر، علم انهم  
لاطافة لهم

بالمسلمين، فاتفق هو وجماعنة وحملوا على من يليهم، وكان  
المقدّم من المسلمين، في تلك الناحية، تقيي الدين  
عمر ابن أخي صلاح الدين، فلما رأى حملة الفريج  
حملة مكرر، علّم أنه لا سبيل إلى الوفوف في وجوههم.  
فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه.

وكان بعض المتطوعة  
من المسلمين قد ألقى في تلك الأرض ناراً، وكان  
الخشيش كثيراً فاحتراق، وكانت الرّيح على الفريج فحملت  
حرّ النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش،  
وحرّ الزمان، وحرّ النار، والدخان، وحرّ القتال. فلما  
انهزم القمح سقط في أيديهم وكادوا يسلّمون، ثم  
علّموا أنّهم لا ينجيهم من الموت إلا الأقدام عليه،  
فحملوا حملات مداركةً كادوا يزيلون [بها] المسلمين،  
على كثريهم، عن مواقيفهم لولا لطف الله بهم. إلا  
أن الفريج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قتل  
منهم، فوهنوا لذلك وهنّا عظيماً، فاحتاط بهم المسلمون  
إحاطة الدائرة بقطريها، فازتفع من يقي من الفريج  
إلى تلٌ بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبووا خيامهم،

وَيَحْمُوا نُفُوسَهُمْ بِهِ، فَاسْتَدَّ الْقِتَالُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِ  
الْجِهَاتِ، وَمَنْعِوهُمْ عَمَّا أَرَادُوا، وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ تَصْبِ  
خَيْمَةٍ عَيْنِ خَيْمَةٍ مَلِكِهِمْ. وَأَحَدُ الْمُسْلِمُونَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
الْأَعْظَمُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ صَلِيبَ الصَّلَبُوتِ، وَيَدْكُرُونَ أَنَّ

[177] - فِيهِ قِطْعَةً مِنَ الْخَشَبَةِ الَّتِي صُلِّبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِرَغْمِهِمْ، فَكَانَ أَخْدُهُ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ  
الْمَصَائِبِ عَلَيْهِمْ، وَأَيَّقَنُوا بَعْدَهُ بِالْقَتْلِ وَالْهَلَاكِ. هَذَا  
وَالْقَتْلُ وَالْأَسْرُ يَعْمَلَانِ فِي فُرْسَانِهِمْ وَرِجَالِهِمْ، فَبَقِيَ  
الْمَلِكُ عَلَى التَّلِّ فِي مِقْدَارٍ مَا تَرِكَ وَحْمَسِينَ فَارِسًا مِنَ  
الْفُرْسَانِ الْمَشْهُورِينَ وَالسُّبْحَانِ الْمَذْكُورِينَ.

فَحَكِيَ لِي عَنِ الْمَلِكِ  
الْأَفْضَلِ - وَلَدِ صَلَاحِ الدِّينِ - قَالَ: "كُنْتُ إِلَى جَانِبِ أَبِي  
فِي ذَلِكَ الْمَصَافِ، وَهُوَ أَوْلُ مَصَافٍ شَاهِدُهُ، فَلَمَّا صَارَ  
مَلِكُ الْفِرِنْجِ عَلَى التَّلِّ فِي تِلْكَ الْجَمَاعَةِ حَمَلُوا حَمْلَهُ  
مُنْكَرَةً عَلَى مَنْ يَرَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَلْحَقُوهُمْ  
بِوَالِيدِي". قَالَ: "فَنَطَرْتُ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلَّهُ كَابَةً،  
وَارْبَدَ لَوْنَهُ، وَأَمْسَكَ بِلْحِيَتِهِ، وَتَقَدَّمَ، وَهُوَ يَصِيحُ: كَذَبَ الشَّيْطَانُ"، قَالَ: "فَعَادَ

الْفِرِنْجُ، فَرَجَعُوا إِلَى التَّلِّ، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْفِرِنْجَ قَدْ  
عَادُوا، وَالْمُسْلِمُونَ يَتَبَعَوْهُمْ، صِحْثٌ مِنْ فَرِحَى: هَرَمَنَاهُمْ !

فَعَادَ الْفِرْنَجُ فَحَمَلُوا حَمْلَهُ تَانِيَّةً مِثْلَ الْأَوَّلِ حَتَّى  
 أَلْحَقُوا الْمُسْلِمِينَ بِوَالِدِي، وَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ أَوَّلًا. وَعَطَافَ  
 الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ قَالْحَقُوهُمْ بِاللَّهِ، فَصِحْتُ أَنَا أَيْضًا: هَرَمَنَاهُمْ! فَالْتَّفَتَ وَالِدِي  
 إِلَيَّ وَقَالَ: "اسْكُنْ! مَا  
 تَهْزِمُهُمْ حَتَّى تَسْقُطَ تِلْكَ الْخِيمَةُ". قَالَ: "فَهُوَ  
 يَقُولُ لِي، وَإِذَا الْخِيمَةُ قَدْ سَقَطَتْ، فَتَرَلُ السُّلْطَانُ وَسَجَدَ  
 شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَبَكَى مِنْ فَرَحِهِ". وَكَانَ سَبَبُ  
 شُقُوطِهَا أَنَّ الْفِرْنَجَ لَمَّا حَمَلُوا تِلْكَ الْحَمَلَاتِ ازْدَادُوا  
 عَطَشًا، وَقَدْ كَانُوا يَرْجُونَ الْخَلاصَ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْحَمَلَاتِ  
 مِمَّا هُمْ فِيهِ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوا إِلَى الْخَلاصِ طَرِيقًا، تَرَلُوا  
 عَنْ دَوَابِهِمْ وَجَلَسُوا عَلَى الْأَرْضِ، فَصَاعَدَ الْمُسْلِمُونَ  
 إِلَيْهِمْ، قَالُوا خَيْمَةُ الْمَلِكِ، وَأَسْرُوهُمْ عَلَى بَكْرَةِ  
 [178] أَيِّهِمْ، وَفِيهِمُ الْمَلِكُ وَأَخُوهُ،  
 وَالْبِرِّئُسُ أَرْتَاطُ، صَاحِبُ الْكَرَكِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْفِرْنَجِ أَشَدُ  
 مِنْهُ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ.  
 وَأَسْرُوا أَيْضًا صَاحِبَ  
 [179] جُبِيلٍ، وَابْنَ هَنْقَرِي، وَمُقَدَّمَ الدَّاوِيَةِ ،  
 وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرْنَجِ شَائِئًا، وَأَسْرُوا أَيْضًا جَمَاعَةً مِنَ  
 الدَّاوِيَةِ، وَجَمَاعَةً مِنَ الْإِسْبِيَارِيَّةِ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ

وَالْأَسْرُ فِيهِمْ، فَكَانَ مَنْ يَرَى الْقَتْلَى لَا يَظْلَمُ أَنَّهُمْ  
أَسْرُوا وَاحِدًا، وَمَنْ يَرَى الْأَسْرَى لَا يَظْلَمُ أَنَّهُمْ قَتَلُوا  
أَحَدًا، وَمَا أُصِيبَ الْفِرِنْجُ، مُنْذُ خَرَجُوا إِلَى السَّاحِلِ، وَهُوَ  
سَنَةٌ إِحدَى وَتِسْعَينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (1098) إِلَى الْآنَ، يُمْثِلُ هَذِهِ الْوَقْعَةِ.

### فَلَمَّا قَرَعَ الْمُسْلِمُونَ

مِنْهُمْ نَزَلَ صَلَاحُ الدِّينِ فِي حَيْمَتِهِ، وَأَخْضَرَ مَلِكُ الْفِرِنْجِ  
عِنْدَهُ، وَبِرِئْسِنَ صَاحِبُ الْكَرَكِ، وَأَجْلَسَ الْمَلِكَ إِلَى جَانِبِهِ  
وَقَدْ أَهْلَكَهُ الْعَطَشُ، فَسَقَاهُ مَاءً مَتْلُوْجًا، فَشَرِبَ، وَأَعْطَى  
فَصْلَةً بِرِئْسَنَ صَاحِبَ الْكَرَكِ، فَشَرِبَ. فَقَالَ صَلَاحُ الدِّينِ: "إِنَّ  
هَذَا الْمَلْعُونَ لَمْ يَشْرِبْ الْمَاءَ بِإِذْنِي فَيَتَالَ أَمَانِي"،  
ثُمَّ كَلَمَ الْبِرِئْسَنَ، وَقَرَعَهُ بِذُنُوبِهِ، وَعَدَّدَ عَلَيْهِ  
غَدَرَاتِهِ، وَقَامَ إِلَيْهِ يَنْفُسِيهِ فَصَرَبَ رَقْبَتَهُ، وَقَالَ: "كُنْتُ  
تَذَرُّثُ دُفَعَيْنِ أَنْ أُفْتَلَهُ إِنْ طَقْرُثُ بِهِ: إِحْدَاهُمَا لَمَّا  
أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَالثَّانِيَةُ لَمَّا أَخَذَ  
الْقَفلَ غَدَرًا"، فَلَمَّا قَتَلَهُ وَسُجِّنَ وَأُخْرِجَ ارْتَعَدَ  
فَرَائِصُ الْمَلِكِ، فَسَكَنَ جَاسِهُ وَأَمْتَهُ. وَأَمَّا الْقُمْصُنُ،  
صَاحِبُ طَرَابُلْسَنَ، فَإِنَّهُ لَمَّا تَجَأَ مِنَ الْمَغْرِكَةِ، كَمَا  
ذَكَرْتَاهُ، وَصَلَّى إِلَى صُورَ، ثُمَّ قَصَدَ طَرَابُلْسَنَ، وَلَمْ يَلْبَثْ  
إِلَّا أَيَّامًا قَلَيلًا حَتَّى مَاتَ عَيْظَانِي وَحَتَّى مِمَّا جَرَى عَلَى  
الْفِرِنْجِ خَاصَّةً، وَعَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ عَامَّةً.

## ذکر

عُود صَلَاح الدِّين إِلَى طَبَرِيَّة، وَمُلْك قُلْعَتِهَا مَعَ

الْمَدِينَة

لَمَّا فَرَغَ صَلَاح الدِّين

مِنْ كَزِيمَةِ الْفِرْنِيجِ أَقَامَ بِمَوْضِعِهِ بَاقِيَ يَوْمِهِ، وَأَصْبَحَ

يَوْمَ الْأَخِدِ، فَعَادَ إِلَى طَبَرِيَّةِ وَنَازَلَهَا، فَأَزْسَلَتْ

صَاحِبَتِهَا تَطْلُبُ الْأَمَانَ لَهَا وَلَا وَلَدِهَا وَأَصْحَابِهَا

وَمَالِهَا، فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، فَخَرَجَتْ بِالْجَمِيعِ، فَوَفَّى لَهَا،

فَسَارَتْ آمِنَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِالْمَلِكِ وَجَمَاعَةِ مِنْ أَعْيَانِ

الْأَسْرَى فَأَزْسَلُوا إِلَى دِمْسَقَ، وَأَمَرَ بِمَنْ أُسْرَ مِنَ

الدَّاوِيَةِ وَالإِسْبَارِيَّةِ أَنْ يُجْمِعُوا لِيُقْتَلُهُمْ. ثُمَّ عَلِمَ

أَنَّ مَنْ عِنْدَهُ أَسِيرٌ لَا يَسْمَحُ بِهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ فِدَائِهِ،

فَبَدَلَ فِي كُلِّ أَسِيرٍ مِنْ هَذِينَ الصِّنْفَيْنِ خَمْسِينَ دِينَارًا

مِضْرِيَّةً، فَأَخْضِرَ عِنْدَهُ فِي الْحَالِ مَا تَأْتَى أَسِيرٍ مِنْهُمْ،

فَأَمَرَ بِهِمْ فَصَرَبَتْ أَعْنَاقَهُمْ. وَإِنَّمَا حَصَّ هُؤُلَاءِ

بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ سُوكَةً مِنْ جَمِيعِ الْفِرْنِيجِ، فَأَرَاجَ

النَّاسَ مِنْ شَرِّهِمْ، وَكَتَبَ إِلَى تَائِيهِ بِدِمْسَقَ لِيُقْتَلَ مَنْ

دَخَلَ الْبَلَدَ مِنْهُمْ سَوَاءً كَانَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ،

وَلَقِدْ اجْتَزَتْ بِمَوْضِعِ الْوَقْعَةِ بَعْدَهَا بِنَحْوِ سَنَةٍ، فَرَأَيْتَ

الْأَرْضَ مَلَأَتْ مِنْ عِطَامِهِمْ تَبَيَّنَ عَلَيِ الْبَعْدِ، مِنْهَا

الْمُجَتَمِعُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهَا الْمُفْتَرِقُ، هَذَا سَوَى مَا  
جَحَقَتْهُ السُّيُولُ، وَأَخْدَثَهُ السَّبَاعُ فِي تِلْكَ الْأَكَامِ  
وَالْوِهَادِ

## دخول

السلطان صلاح الدين بالعسكر الى ديار الفرنج

(عماد الدين، 18-29)  
أصبح بالمخيم عارضاً من العسكر،

عارض ثجاج، ويحر بالعجاج عجاج، ويخضم بالصواهل السوابح والمناصل  
والصفائح ذي

أمواج. وقد رتب أبطاله وإطلابه، وسحب على وجه الأرض سحابة، ونقل به من  
الثيرى إلى

الثيرى ترابه، وإطار إلى النسر الواقع من الغبار غرابه. وقد قضى الفضاء خاتماً  
القتاب، وشدّت للشدائد كتب الكبت على حمام الجمام، وحنت ضلوع الحنايا  
على

أجنة السهام، وتكفلت العوجاء بالمعتدلة، وضمت المنفلة إلى المنفلة،  
ووفت

الأوتار بالأوتار، وثار كل طلب لطلب الثأر. ووقف السلطان يوم العرض يرتب  
العسكر ترتيباً، وبيوبيه تبوبياً، ويعينه بعيداً وقريباً. وقرر لكل أمير أمراً،  
ولكل مقدام مقاماً، ولكل موفق موقفاً، ولكل كمين مكاناً، ولكل قرن قرناً،  
ولكل جمر مطفئاً، ولكل جمع مُكفناً، ولكل زند مُوريأً، ولكل حد مُمهياً، ولكل  
قضية حكماً، ولكل حنية سهماً، ولكل يمين مِقْضِيًّا، ولكل يمان مَقْبِضاً، ولكل

ضامر مضمراً، ولكل مغوار مغاراً، ولكل رامٍ مُرتمى، ولكل نامٍ منتمنى، ولكل سامٍ

مسمنى، ولكل اسم مُسمى. وعُيْنَ لـكـلـ أـمـيرـ مـوـقـفـاـ فيـ المـيـمـنـةـ وـالـمـيـسـرـةـ لاـ يـنـتـقـلـ

عـنـهـ،ـ وـلاـ يـغـيـبـ جـمـعـهـ وـلـاـ يـبـرـحـ أـحـدـ مـنـهـ.

### وأخرج الجالبيشية الرُّماة الْكُمَاة

من كل طلب، ووَضَى كل حِزْبٍ يَقْرِبُهُ من حزب. وقال: "إذا دخلنا بلد العدو، فهذه

هيأة عساكرنا، وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواقع أطلاينا، ومطالع أبطالنا، ومصارع

أسنّتنا، وشوارع أعنّتنا، وميادين جُرْدنَا، وبساتين وَزْدَنَا، وما قف صروفنا، ومصارف

وقوفنا، ومرامي مرمانا، ومجالى مجالنا". وقوى الآمال بما بذله من الأموال،

وحقّق في إنجاز المواعيد وإنجاح المقاصد رجاء الرجال. وجمع العدد، وفرق العدد،

ووهب الجياد وأجاد المواهب، ورغب في العطايا وأعطى الرغائب، ونشر الخزائن، ونثر

الكنائن، وأنفق الذخائر، واستنفذ كرائمها والأخاير، وقسم أحمال النشّاب، فتفرق

الناس منه بأكثر من ملء الجِعَاب. وأجرى الجُرد وأجنى الأجناد، وأذكى المذاكي

وأشهد الإشهاد، وأذال مناقب المناقب، واستعمال معاطف المعاطب، وقوى القواطع، ورُقِيَّ

الروائع. وعاد إلى المخيّم مسروراً محبوراً، مقبولاً مبروراً، موفوراً مشكوراً وقد

رِّبْ وَرِّبْتُ وَقَنْبُ وَكَنْبُ وَثَبَتُ وَنَبَتُ، قَدْ بَرَّ عَمَلَهُ، وَأَبَرَّ أَمْلَهُ، وَفَلَحَ نَشْرَهُ، وَلَاحَ

[180]  
يَشْرَهُ، وَتَأْلِجَ رِّيَاهُ ،

وَتَبْلِحَ مَحِيَّاهُ، وَأَيْقَنَ بِالظَّفَرِ وَظَفِيرِ الْيَقِينِ، وَأَمِنَ إِلَى الدُّعَوَةِ الْمُسْتَدْعِيَةِ إِلَى  
الْتَّامِينِ، وَتَيَّمَ بِاَوْضَاحِ عِرَابِهِ الْمِيَامِينِ، وَإِيْضَاحِ إِعْرَابِهِ فِي إِقْتِصَادِ دِينِ الدِّينِ.

وَأَنِسَ بِبِهَجَةِ الْخَيْلِ وَلِهَجَةِ الْخَيْرِ، وَسُرَّ سِرَّهُ بِمَا سُرَّيَ لَهُ مِنْ وَجْهِ السَّيْرِ، وَشَدَّ  
خُزْمَ الْحَزْمِ، وَجَدَّ فِي الْعَزْمِ الْجَزْمِ، وَقَدَّمَ الْإِسْرَاجَ لِلْإِسْرَاءِ، وَأَلْجَمَ الْعِرَابَ  
لِلْعَرَاءِ، وَرَحَلَ يَوْمَ الْجُمُوعَةِ سَابِعَ عَشَرَ شَهْرَ رَبِيعِ الْآخِرِ (27 حَزَبْرَانَ/بُونِيهَ

1187) التَّوْفِيقُ مَسَايِّرُهُ ،

وَالْتَّأْبِيدُ مَوَازِرُهُ، وَالْتَّمْكِينُ مَضَافِرُهُ، وَالسَّعْدُ مَظَاهِرُهُ، وَالْجَدُّ مَكَاثِرُهُ، وَالْيُمْنُ  
مَحَاضِرُهُ،

وَالْعَزُّ مَسَامِرُهُ، وَالظَّفَرُ مَجاوِرُهُ، وَالإِسْلَامُ شَاكِرُهُ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَاصِرُهُ .  
وَسَارَ عَلَى الْهَيَاةِ

الَّتِي قَدَّمَنَا ذَكْرَهَا مِنَ الْمَنَاقِبِ الْمُقْنِبَةِ، وَالْكَتَائِبِ الْمَكْتُبَةِ، وَالْمَرَاتِبِ الْمَرْتَبَةِ،  
وَالْمَذَاهِبِ الْمَهْذَبَةِ، وَالسَّلاَهِبِ الْمَجْتَبَةِ، وَالصَّوَائِبِ الْمَجْعَبَةِ، وَالْقَوَاضِبِ  
الْمَقْرَبَةِ،

وَالْثَّعَالَبِ الْمُدَرَّبَةِ، وَاللَّهَادِمِ الْهَاذِمَةِ، وَالصَّلَادِمِ الْلَّادِمَةِ، وَالضَّرَاغِمِ الْضَّاغِمَةِ .  
وَخَيْمَ

عَلَى حِسَفِينِ وَقَدْ أَدَى اللَّهُ الْخَسْفَ بِالْعَدُوِّ وَخَسْوَفَهُ، وَكَسْفَ الْكَفَرِ وَكُسْوَفَهُ،  
وَبَاتَ

وَالْوَجْوَهِ سَافِرَةِ، وَالْعَيْوَنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَاهِرَةِ، وَالْأَيْدِي لَسْيَوْفَ الْأَيْدِي  
سَاهِرَةِ، وَالْأَلْسَنِ

لأنعم الله شاكرة، والقلوب بالإخلاص عامرة، والأنفس للأنس مسامرة،  
والأقدام

بالأقدار متظافرة متظاهرة. ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة،  
بعزم

الصيال وعز الصيانة، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط  
خيامه ذلك

البسيط. وبرزت الأرض في قُشْب أثوابها، وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من  
أبوابها،

ورست سفن المضارب على تلك الأثابح، وطممت الأطلاب أمواجاً على أمواج،  
وانعقدت

سماء العجاج، وطلعت فيها أنجم الخرصان والزجاج، وأعاد الأقحوانة رياضاً  
تضرة،

وحدائق مزهرة، من فرس وَرْد، وفارس كالأسد الْوَرْد، ومشرفيات كطاقيات  
الرياحين، يَزَّنِيات كأشجار البساتين، ورایات صفر تحقق بعذبات الياسمين،  
وألوية

حمر كشقائق النعمان، وموضونة رَعْف كالغدران، ومصقوله بيض كالخلجان،  
ومَرِيشة

زرق كالإطيار ومَحْنِيَّة عوج كالأفنان، وبَيْض تلمع كثبور الأقحوان، وحَبَّب ترائك  
على بجور الدارعين، وعِقبانِ صواهلَ تروق وتروع الناظرين والسامعين.

والفرنج قد صَفُّوا رایاتهم

بصَفَّوريَّة، ولَوْفَا الألوية، ومَدُّوا على مدد الضوامر الرواخر قناطر  
الفنطاريات،

وأوقدوا في ظلام القتام الثائر سُرُج السُّرِيجيَّات، وصوتوا إلى صوب قرا  
الأقران

نَيَّاتِ الْبَرِزَنِيَّاتِ، وَاحاطُوا حَوْلَ مَرَاكِزِهِمْ بِدَوَائِرِهِمْ، وَحاطُوا بِوَانِزِهِمْ بِوَانِزِهِمْ،  
وَجَمَعُوا الْأَوْشَابِ وَالْأَوْبَاشِ، وَرَبَّوُا الْجَيْشَ وَثَبَّتُوا الْجَاشَ، وَحَشَدُوا الْفَارَسَ  
وَالرَّاجِلَ،  
وَالرَّامِحَ وَالنَّابِلَ، وَنَشَرُوا دَوَائِبَ الدَّوَابِلَ، وَحَشَرُوا أَبْطَالَ الْبَاطِلَ. وَرَفَعُوا  
صَلَبَ

الصَّابُوتَ، فَأَجْمَعَ إِلَيْهِ عَبْدَ الطَّاغُوتَ، وَضَلَالُ النَّاسُوتَ وَاللَّاهُوتَ، وَنَادَوْا فِي  
نَوَادِي

اقَالِيمَ أَهْلَ الْأَقَانِيمَ [181] ،

وَصَلَّبُوا الصَّلَبَ الْأَعْظَمَ بِالتَّعْظِيمِ.

وَمَا عَصَاهُمْ مِنْ لِهِ عَصَمَا، وَخَرَجُوا عَنِ  
الْعَدُوِّ وَالإِحْصَا، وَكَانُوا عَدْدُ الْحُصَى، وَصَارُوا فِي زُهَاءِ خَمْسِينَ أَلْفًا أَوْ يَزِيدُونَ،  
وَيَكِيدُونَ  
مَا يَكِيدُونَ، قَدْ تَوَاقَوْا عَلَى صَعِيدٍ، وَوَاقَوْا مِنْ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، وَهُمْ هُنَاكَ مُقِيمُونَ،  
لَا

يَرُومُونَ حَرْكَةً وَلَا يَرِيمُونَ. وَالسُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ يَسِيرُ إِلَيْهِمْ،  
وَيُشَرِّفُ

عَلَيْهِمْ، وَيَرَاهُمْ، وَيَنْكِي فِيهِمْ، وَيَتَعَرَّضُ لَهُمْ لِيَتَعَرَّضُوا لَهُ، وَيَرْدُّوا عَنْ رَقَابِهِمْ  
سَيِّوفَهُ

وَعَنْ شِعَابِهِمْ سُيُولَهُ، فَرِيضُوا وَمَا نَهَضُوا، وَقَعَدُوا وَمَا نَهَضُوا، فَلَوْا بَرَزُوا لِبَرْزَ  
إِلَيْهِمْ

الْقَتْلَ فِي مَصَاجِعِهِمْ، وَعَانَوْا مَقَامَ صَارِعِهِمْ فِي سَوْقِهِمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ،  
وَقَرَزُوا مَمْا فِيهِ

وَقَعُوا، وَجَبَّنُوا عَمْمًا لِهِ تَشَجَّعُوا، فَرَأَى السُّلْطَانُ أَنْ يَطِيبَ رَبِّهِ، مِنْ طَبْرِيَّةِ،  
وَيُشَرِّفُ

..

على خطّتها بالخطيّة والمشريّة، ويحوز حوزتها، ويمكّن مملكتها، فجرّ على الأردن

أرдан الرّدينات، وأطّل العنق المثار من البحر بحوافر الأغويّات... واستسهّل  
عليّها ولم يستؤّر بيّات العَربّيات، فأمر عساكره، وأمراء جيشه وأكابرها، أن  
يقيموا قُبالة الفرنج، وينصيّقوا عليهم واسع النهج، فإن خرجوا للمصاف، بادروا  
إلى الإنقاص منهم والانتصار، وإن تحرّكوا إلى بعض الجوانب، وثبوا بهم وئب  
الأسود  
بالأرانب، وإن قصدوا طبرية لصّونها، وأن يكونوا في عَوْنَها، عجلوا الإعلام،  
ليُعجلُ عليهم الإقدام.

## فتح

طبرية

ونزل على طبرية في خواصّه، وذوي استخلاصه، وأحضر الجاندارية والنّقابين، والخراسانية والحجّارين، وأطاف بشورها، وشرع في هدم معمورها، وصدقها القتال، وما صدف عنها النزال.  
وكان ذلك يوم الخميس وهو يؤمّ الخميس. وأخذ النقابون النقب في برج فهدّوه وهدموه، وتسلّقوا فيه وتسليموه، ودخل الليل وصباح الفتح مُسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وإمتنعت

القلعة بمن فيها، من القوميّة سِتٌ طبرية وبنوها. ولما سمع القومص بفتح طبرية وأخذ بلده، سقط في يده، وخرج عن جلد جلده وسمح للفرنج بسبّده ولَبَده.

وقال لهم: "لا قعود بعد

اليوم، ولا بدّ لنا من وقム القوم، فإذا أخذت طبریة أخذت البلاد، وذهبت  
الطیراف

[182] والتلاد وما بقي لي صبر، وما بعد هذا الكسر لي جبر".

وكان الملك قد حالفه، فما خالفه، ووافقه فما نافقه، وما حضه فما ماذقه،  
ووادده فما

رادده، وواعده فما عاوده، ورحل بجمعه، وبصره وسمعه، وتعابينه وشياطينه،  
وسراجيه

وسراحينه، وأئباع غيّه، وأشیاع بغيه. فماتت الأرض بحركته، وغامت السماء  
من

عترته. ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا، وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا، وعَبُوا  
وعُبُوا، ودُبُوا حتى يدُبُوا، وشُبُوا النار، ولَبُوا الثأر، وقدّموا المنزول  
بالدار اليدار، وذلك في يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر. فما كذب  
السلطان

الخبر حتى صدق عزمه، بما سبق به حكمه، وسُرّ حين أحاط بمسيرهم علمه،  
وقال: "قد حصل المطلوب، وكمل المخطوط، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله  
الجدّ

الجديد، والحدّ الحديد، والأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صحت كسرتهم،  
وُفِتلت

وأسرت أسرتهم، فطبریة وجميع الساحل ما دونها مانع، ولا عن فتحها وازع".

واستخار الله وسار، وعدم القرار،

وجاء يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبرية  
يَقْصُّهم

وَقَضَيْضُهُمْ، وَكَانُوهُمْ عَلَى الْبَيْفَاعِ فِي حَضِيرَتِهِمْ، وَقَدْ مَاجَتْ حَصَارِمُهُمْ، وَهَا جَتْ  
ضَرَاغُهُمْ،

وَطَارَتْ قَشَاعِعُهُمْ، وَثَارَتْ غَمَائِعُهُمْ، وَسَدَّتْ الْآفَاقُ غَمَائِعُهُمْ، وَشَاقَتْ  
ضَارِبَيْهَا جَمَاجِعُهُمْ، وَهُمْ

كَالْجَيْالُ السَّائِرَةُ، وَكَالْبَحَارُ الْزَّاَخِرَةُ، أَمْوَاجُهَا مُلْتَطِمَةُ، وَأَفْوَاجُهَا مُزْدَحِمةُ،  
وَفِجَاجُهَا

مُحْتَمَدةُ، وَأَعْلاَجُهَا مُصْطَلَمَةُ. وَقَدْ جَوَى الْجَوُّ، وَدَوَى الدَّوْ، وَالْفَضَاءُ مُنْفَضٌ،  
وَالْقُضَاءُ

مُنْفَضٌ، وَالثَّرِيَا قد اسْتَرَّ الْثَّرِيَا، وَجَرَّ ذِيلِ الْخَيْلِ قد بَرَى الْبَرِّيَا، وَالْحَوَافِرُ  
الْحَوَافِرُ لِلأَرْضِ حَوَافِرُ، وَالْفَوَارِسُ الْلَّوَابِسُ فِي الْبَيْضِ سَوَافِرُ. وَذَئَابُ الذِّيَادِ  
وَاجْلَادُ

الْجِلَادُ قد حَمَلُوا كُلَّ عَدَدٍ، وَكَمَلُوا كُلَّ عِدَّهُ. فَرِّيْبُ السُّلْطَانِ فِي مُقَابِلَتِهِمْ  
أَطْلَابِيهِ،

وَقَصَرَ عَلَى مُقاَلَتِهَا آرَابِيهِ، وَحَصَلَ بِعَسْكِرِهِ قَدَّامِهِمْ، وَرَقَبَ عَلَى الْحَمْلَةِ  
إِقْدَامِهِمْ. وَحَجَزَ

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ، وَمَنْعِذَمَاهُمْ عَلَى الدَّمَاءِ، وَحَلَّاهُمْ عَنِ الْوِزْدِ، وَصَدَّعَهُمْ  
بِالصَّدَّ.

ذَاكُ وَالْيَوْمُ قَيْظٌ، وَلِلْقَوْمِ غَيْظٌ، وَقَدْ وَقَدَتِ الْهَاجِرَةُ، فَوَقْدَتِهَا غَيْرُ هَاجِرَهُ،  
وَشَرِيكٌ

مَا كَانَ فِي إِداَوَتِهَا فَهِيَ عَلَى الظَّمَاءِ غَيْرُ صَابِرَهُ. وَحَجَزَ اللَّيلُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ،  
وَحَجَرَتْ

الْخَيْلُ عَلَى الطَّرِيقَيْنِ، وَبَاتِ الإِسْلَامُ لِلْكُفَّارِ مُقَابِلًاً، وَالتَّوْحِيدُ لِلتَّلْثِيلِ مُقَاتِلًاً،  
وَالْهَدِيَّ لِلضَّلَالِ مُرَاقِبًاً، وَالْإِيمَانُ لِلشَّرِكِ مُحَارِبًاً. وَهَيَّئَتْ دَرَكَاتِ النَّيْرَانِ، وَهَنَّئَتْ  
دَرَجَاتِ الْجَنَانِ، وَأَنْتَظَرَ مَالِكَ وَاسْتَبَشَرَ رَضْوَانَ. حَتَّى إِذَا أَسْفَرَ الصَّبَاحَ، وَسَفَرَ  
الصَّبَاحَ،

وَفِجْرُ الْفَجْرِ أَنْهَارُ النَّهَارِ، وَنَقْرُ النَّفِيرِ عَرَابُ الْغَبَارِ، وَانْتَهِتُ فِي الْجَفُونِ  
الصَّوَارِمُ، وَالْتَّهْبَتُ الصَّوَامِرُ الصَّوَارِمُ، وَتَيَقْطَطُ الْأَوْتَارُ، وَتَغْيِطُ النَّارُ، وَسُلْلُ  
الْغَرَارِ، وَسُلْبُ الْقَرَارِ. خَرَجَ الْجَالِيشِيَّةُ تَحْرُقَ بَنِيرَانَ النَّصَالِ أَهْلَ النَّارِ، وَرَنَتْ  
الْقِيسِيَّةُ وَغَنَّتْ الْأَوْتَارِ، وَرَقَصَتْ مُرَّانَ الْمُرَّادِ، لِجَلَاءِ عِرَائِسِ الْجِلَادِ. وَبَرَزَتْ  
الْبَيْضُ مِنْ مُلَائِهَا فِي الْمَلَأِ عَارِيَةً، وَرَتَعَتْ السَّمَرُ لِكَلَائِهَا مِنَ الْكُلَّ رَاعِيَةً، فَرَجَأَ  
الْفَرْنَجَ فَرَجَا، وَطَلَبَ طُلُبَهُمُ الْمُحَرَّجَ مَخْرَجاً، فَكُلُّمَا خَرَجُوا جُرِحُوا، وَبَرَحُ بَهُمْ  
حَرًّا

الْحَرْبُ فَمَا تَرِحُوا، وَحَمَلُوا وَهُمْ طُمَاءُ، وَمَا لَهُمْ سُوَى مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ مَاءِ الْفِرِنْدِ  
مَاءً، فَتَشِوَّتْهُمْ نَارُ السَّهَامِ وَأَشْوَتْهُمْ، وَصَمَّمْتُ عَلَيْهِمْ قُلُوبَ الْقَسِيَّةِ الْقَاسِيَّةِ  
وَأَضْمَنْتُهُمْ،

وَأَعْجَزُوا وَأَرْجَوا، وَأَرْجَوا وَأَرْجَوا، وَكُلُّمَا حَمَلُوا رَدْدَوا وَأَرْدَداً، وَكُلُّمَا سَارُوا  
وَسَدَّداً أَسْرَوا وَسَدَّداً، وَمَا دَبَّتْ مِنْهُمْ نَمْلَةٌ، وَلَا دَبَّتْ عَنْهُمْ حَمْلَةٌ، وَإِاضْطَرَبُوا،  
وَالْتَّهْفَوا وَالْتَّهْبَوا، وَنَاشِبُهُمُ النُّسَابُ فَعَادَتْ أَسْوَدُهُمْ قَنَافِذُ، وَضَايِقُهُمْ السَّهَامُ  
فَوَسَّعَتْ

فِيهِمُ الْخَرَقُ النَّافِذُ. فَأَوْفُوا إِلَى جَبَلِ حَطَّينِ يَعْصِمُهُمْ مِنْ طُوفَانِ الدَّمَارِ، حَاطَتْ  
بَحْطِينَ بُوارِقَ الْبَوَارِ، وَرَشَقُتْهُمُ الظَّبَا، وَفَرَشَتْهُمْ عَلَى الزَّبَا وَرَشَقُتْهُمُ الْحَنَايَا،  
وَقَشَرُتْهُمْ

الْمَنَايَا، وَقَرَشَتْهُمُ الْبَلَايَا، وَرَشَقُتْهُمُ الرَّزَايَا وَصَارُوا لِلرَّدَى دَرَايَا، وَلِلْقَضَايَا  
رَمَايَا. وَلَمْ أَحْسَنْ الْقَوْمَصَ بِالْكَسْرَةِ حَسْرَ عنْ ذِرَاعِ الْحَسْرَةِ، وَاقْتَالَ مِنْ  
الْعَزِيمَةِ، وَاحْتَالَ

فِي الْهَزِيمَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ اضْطِرَابِ الْجَمْعِ وَإِضْطِرَابِ الْجَمَرِ، وَاحْتِدَادِ الْحَرْبِ  
وَاحْتِدَادِ

الحرّ، فخرج بطلّبه يطلب الخروج، واعوج إلى الوادي وما ودّ أن يعوج ومضى  
كَوْمِص

البرق، ووَسَعَ خُطاً خُرْقَه قبل اسْسَاعِ الْخَرْقِ، وأفلت في عِدَّة معدودة، ولم  
يُلْتَفِتْ إِلَى

رِدَّة مَرْدُودَة، وغاب حالة حضور الوعي وناب الرعب الذي نوى الهزيمة به وما  
وَتَنِي، ثم

استجرت الحرب واشتجرت الطعن والضرب، وأحيط بالفرنج من حوليهم بما  
حَوْفَا إِلَيْهِمْ،

ودارت دائرة الدوائر عليهم، وشرعوا في ضرب خيامهم، وضمّ نظامهم.  
فحطّوا على حطّين

مَصَارِبِهِمْ، وَقَلَّتْ حدود الزّمامَةِ الْكُمَامَةِ مَصَارِبِهِمْ، وأَعْجَلُوا عن نصب الخِيمِ  
ورفعها، وشُغَلُوا عن أصل الحياة وفروعها، وترجّلوا خيراً فترجّلوا عن الخيل،  
وتجلّدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل، وأحاط بهم العسكر احاطة  
النار بأهلها.

ولجأوا إلى حرم الأرض فبلغ حِزَامِهِمْ الطِّبِيعِيْنِ من سهلها [183].

وأَسِرَ الشَّيْطَانُ وَجَنُودُهُ، وَمُلِكُ

الْمَلِكُ وَكُنُودُهُ، وجلس السلطان لعرض اكابر الأسرى، وهم يتهدّون في القيود  
تهادِيَ

السُّكَارَى، فَقَدَّمْ بَدَائِهِ مَقْدَمَ الدَّاوِيَّةِ، وَمَعَهُ عِدَّةً كَثِيرَةً مِنْهُمْ وَمِنْ الْإِسْبَارِيَّةِ،  
وأحضر الملك كي واخوه جُفري، وأوك صاحب جُبِيل وَهَنْقَرِي، والابرنس أرنات  
صاحب

الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأجلنْ  
عند

وِجْدَانِهِ عَدْمِهِ، فَلِمَّا حَضَرَ بَيْنَ يَدِيهِ أَجْلَسَهُ إِلَى جَنْبِ الْمَلْكِ وَالْمَلِكِ بِجَنْبِهِ،  
وَقَرَّعَهُ عَلَى

غَدَرِهِ وَذَكْرِهِ بِذَنْبِهِ، وَقَالَ لَهُ كَمْ تَحْلِفُ وَتَحْتَثُ، وَتَعْهِدُ وَتَنْكِثُ، وَتَبْرِمُ الْمِيثَاقَ  
وَتَنْفَضُ، وَتَقْبِلُ عَلَى الْوَفَاقِ ثُمَّ تُعْرَضُ، فَقَالَ التَّرْجُمَانُ عَنْهُ إِنَّهُ يَقُولُ قَدْ جَرَتْ  
بِذَلِكَ

عَادَةُ الْمُلُوكِ وَمَا سَلَكَثُ غَيْرُ السَّنَنِ الْمُسْلُوكِ، وَكَانَ الْمَلِكُ يَلْهُثُ ظَمِيَّاً، وَيَمْبَلُ  
مِنْ

سَكْرَةُ الرُّعْبِ مُنْتَشِياً، فَآنَسَهُ السُّلْطَانُ وَحَاوِرَهُ، وَقَتَّأَ سَوْرَةَ الْوَجْلِ الَّذِي  
سَاوَرَهُ،

وَسَكَنَ رَعْبَهُ، وَأَمْنَ قَلْبَهُ، وَأُتْيَ بِمَاءِ مَثْلُوجٍ أَزَالَ لَهُنَّهُ، وَأَزَاحَ مِنَ الْعَطْشِ مَا  
كَرَّهُ، وَنَاوَلَهُ الْأَبْرَنْسَ لِيُخْمِدَ أَيْضًاً لَهُبَهُ، فَأَخْذَهُ مِنْ يَدِهِ وَشَرَبَهُ، فَقَالَ السُّلْطَانُ  
لِلْمَلِكِ "لَمْ تَأْخُذْ مِنِّي فِي سَقِيَهِ إِذْنًا، فَلَا يَوْجِبُ ذَلِكَ لِهِ مِنِّي أَمْنًا"، ثُمَّ  
رَكَبَ وَخَلَاهُمَا، وَبَنَارَ الْوَهْلَ أَصْلَاهُمَا، وَلَمْ يَنْزَلْ إِلَى أَنْ صَرَبَ شَرَادِقَهُ، وَرَكَزَتْ  
أَعْلَامَهُ وَبِيَارُقَهُ، وَعَادَتْ عَنِ الْحَوْمَةِ إِلَى الْحَمْىِ فِيَالْقُهُ، فَلِمَّا دَخَلَ سَرَادِقَهُ،  
اسْتَحْضَرَ

الْأَبْرَنْسَ فَقَامَ إِلَيْهِ وَتَلَقَّاهُ بِالسَّيْفِ فَحَلَّ عَاتِقَهُ، وَحِينَ صَرَعَ، أَمْرَ بِرَأْسِهِ فَفُقطَعَ،  
وَجَرَّ

بِرْجَلِهِ قَدَّامَ الْمَلِكِ حِينَ أُخْرِجَ، فَارْتَاعَ وَانْزَعَ، فَعَرَفَ السُّلْطَانُ أَنَّهُ خَامِرٌ  
الْفَزْعِ،

وَسَاوَرَهُ الْهَلَعُ وَسَامَرَهُ الْجَرَعُ، فَاسْتَدِعَاهُ وَاسْتَدَنَاهُ وَأَمْنَهُ وَطَمِّنَهُ، وَمَكَّنَهُ مِنْ  
قَرْبِهِ

وَسَكَنَهُ، وَقَالَ لَهُ "ذَاكَ رَدَاءُ لِهِ أَرْدَتَهُ، وَعَذْرَتَهُ كَمَا تَرَاهُ غَادِرَتَهُ، وَقَدْ هَلَكَ  
بَغِيِّهِ وَبَعِيِّهِ، وَنَبَأَ رَئْدَ حَيَاتِهِ وَوَرْدُهَا عَنْ وَرْبِهِ وَرَبِّهِ".

وصَحَّتْ هذه الكسرة وَتَمَّتْ هذه النصرة  
يُومَ السُّبْتِ وَصُرِبَتْ ذِلْلَة أَهْلِ السُّبْتِ عَلَى أَهْلِ الْأَحَدِ، وَكَانُوا أَسْوَادًا فَعَادُوا مِنْ  
النَّقْدِ<sup>[184]</sup> ،

فَمَا أَفْلَتْ مِنْ تِلْكَ الْآلَافِ إِلَّا آحَادٌ، وَمَا نَجَا مِنْ أُولَئِكَ الْأَعْدَاءِ إِلَّا إِعْدَادٌ، وَامْتَلَأَ  
الْمَلَأُ بِالْأَسْرِيِّ وَالْقَتْلِيِّ. وَانْجَلَى الْغَبَارُ عَنْهُمْ بِالنَّصْرِ الَّذِي تَجَلَّى، وَقِيدَتْ  
الْأَسْرِيِّ فِي

الْجَبَابِلِ وَاجْبَةِ الْقُلُوبِ، وَفَرَشَتِ الْقَتْلَى فِي الْوِهَادِ وَالْجَبَابِلِ وَاجْبَةِ الْجَنُوبِ،  
وَحَطَّتْ

حَطَّينَ تِلْكَ الْجِيفِ عَنْ مَتْنَهَا، وَطَابَ نَشَرُ النَّصْرِ بِنَتْنَهَا، وَعَبَرَتْ بِهَا فَلَقِيَتْ  
أَشْلَاءَ

الْمَشْلُولِينَ فِي الْمُلْتَقَى مُلْقَاهُ، بِالْعَرَاءِ عُرَاهُ، مُمَرَّقَةً بِالْمَازِقِ، مَفْصِّلَةً  
الْمَفَاصِلِ

مَفْرَقَةَ الْمَرَافِقِ، مَفْلَقَةَ الْمَفَارِقِ، مَحْذُوفَةَ الرِّقَابِ، مَقْصُوفَةَ الْأَصْلَابِ، مَقْطَعَةً  
الْهَامِ،

مَوْزِعَةَ الْأَقْدَامِ، مَجْدُوعَةَ الْأَنَافِ، مَنْزُوعَةَ الْأَطْرَافِ، مُعَصَّبَةَ الْأَعْصَاءِ، مَجْزَأَةَ  
الْأَجْزَاءِ،

مَفْقُوعَةَ الْعَيُونِ، مَبْعَوْجَةَ الْبَطُونِ، مَخْضُوبَةَ الصَّفَائِرِ، مَعْضُوبَةَ الْمَرَائِرِ، مَبْرِيَّةَ  
الْبَنَانِ،

مَفْرِيَّةَ الْلَّبَانِ، مَقْصُومَةَ الْأَضَالِعِ، مَفْصُومَةَ الْأَشْاجِعِ، مَرْضُوضَةَ الصَّدُورِ،  
مَفْضُوضَةَ النَّحُورِ،

مَنْصُفَةَ الْأَجْسَادِ، مَقْصُفَةَ الْأَعْصَادِ، مَقْلُصَةَ الشَّفَاهِ، مَخْلُصَةَ الْجَيَاهِ، قَانِيَةَ  
الْذَّوَائِبِ،

دَامِيَةَ التَّرَائِبِ، مَشْكُوكَةَ الْأَضَالِعِ، مَفْكُوكَةَ الْأَذْرَعِ، مَكْسُورَةَ الْعَطَامِ، مَحْسُورَةَ  
اللَّثَامِ،

بائدة الوجوه، بادية المكروه، مبشرة الأبشـار، مبشرة الأعـشار، منـشورـة  
الـشـعـورـ،

مـقـشـورـةـ الـظـهـورـ، مـهـدوـمةـ الـبـنـيـانـ، مـهـتـوـمـةـ الـأـسـنـانـ، مـهـرـقـةـ الـدـمـاءـ، مـرـهـقـةـ  
الـدـمـاءـ،

هاـوـيـةـ الـذـرـىـ، وـاهـيـةـ الـغـرـىـ، سـائـلـةـ الـأـحـدـاقـ، مـائـلـةـ الـأـعـنـاقـ، مـفـتوـنـةـ الـأـفـلـاذـ،  
مـبـتوـنـةـ الـأـفـخـادـ، مـشـدـوـخـةـ الـهـامـاتـ، مـسـلـوـخـةـ الـلـبـّـاتـ، عـدـيـمـةـ الـأـرـوـاحـ، هـشـيمـةـ  
الـأـشـبـاحـ،

كـالـأـحـجـارـ بـيـنـ الـأـحـجـارـ، عـبـرـةـ لـأـولـيـ الـأـبـصـارـ . [185]

وـصـارـتـ تـلـكـ الـمـعرـكـةـ بـالـدـمـاءـ دـأـمـاءـ،  
وـعـادـتـ الـغـبـرـاءـ حـمـراءـ، وـجـرـتـ نـهـارـ الدـمـ المـُـتـهـرـ، وـسـقـرـ بـتـلـكـ الـخـبـائـثـ الـمـُـظـلـمـةـ  
وـجـهـ

الـدـينـ الـمـطـهـرـ. فـمـاـ أـطـيـبـ نـفـحـاتـ الـظـفـرـ مـنـ ذـلـكـ الـخـبـثـ، وـمـاـ أـلـهـبـ عـذـبـاتـ  
الـعـذـابـ فـيـ

تـلـكـ الجـثـثـ، وـمـاـ أـحـسـنـ ِعـمـارـاتـ الـقـلـوبـ بـقـبـحـ ذـلـكـ السـعـتـ، وـمـاـ أـجـزـاـ صـلـوـاتـ  
الـبـشـائـرـ

بـوقـوعـ ذـلـكـ الحـدـثـ، هـذـاـ حـسـابـ مـنـ قـتـلـ فـقـدـ حـصـرـتـ أـلـسـنـةـ الـأـمـمـ عنـ حـصـرـهـ  
وـعـدـّـهـ،

وـأـمـّـاـ مـنـ أـسـرـ فـلـمـ تـكـفـ أـطـنـابـ الـخـيـّـمـ لـقـيـدـهـ وـشـدـّـهـ، وـلـقـدـ رـأـيـتـ فـيـ حـبـلـ وـاحـدـ  
ثـلـثـيـنـ

وـأـربعـينـ يـقـودـهـمـ فـارـسـ، وـهـنـالـكـ الـغـتـاهـ غـنـاهـ، وـالـغـدـاهـ عـراـهـ، وـذـوـوـ الـأـسـرـةـ  
أـسـرـىـ،

وـأـولـواـ الـأـثـرـةـ عـنـرـىـ، وـالـقـوـامـصـ قـنـائـصـ، وـالـفـوـارـسـ فـرـائـسـ، وـغـوـالـيـ الـأـرـوـاحـ  
رـخـائـصـ

**وجوه الداوىَة الداوىَة عوايس، والرؤوس تحت الأخامص، ومطالع الأجسام  
ذوات المقاطع**

والمحالص. فكم أضيَد صيد، وقائد قيَد وقيَد، ومشرك مكثُر، وكافر مفكِّر،  
ومثلث منصَّف، ومكَبِّفٌ مُكَنَّفٌ، وجارٌ مجرح، وقارح مقرح، وملك مملوك،  
وهاتك

مهتوك، ومتبرٌ مبتور، ومحسَّر محسور، وكابٍ في الكُلُّ، ومغتال في الغلول،  
وخرٌ

في الرقٌّ، ومبطل في يد المُحقِّ.

## الصليب

**الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف**

لم يؤسر الملك حتى أخذ صليب

الصلبوت، وأهلك دونه أهل الطاغوت. وهو الذي إذا نصب وأقيم ورُفع، سجد له  
كل

نصرانيٌّ ورِكع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صليب عليها  
معبودهم،

فهو معبودهم ومسجدهم وقد غلَّفوه بالذهب الأحمر، وكُلُّوه بالدر والجوهر،  
وأعدُّوه

ليوم الرَّوع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته الفسوس،  
وحملته الرؤوس،

تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولا يسع لأحدتهم عنه التخلُّف، ولا يسوغ للمتخلف  
عن

أتياه في نفسه التصرُّف، وأخذُه أعظم عندهم من أسر الملك، وهو أشدّ  
مُصاب لهم في

ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ما له عوض، ولا لهم في سواه غرض،  
والتأله له

عليهم مفترض، فهو إلّهم، وتعفّر له جباههم، وتسبّح له أفواههم، يتغاشون  
عند

احضاره، ويتغاشون لإيصاله، ويتشاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه،  
ويتواجدون

إذا وجدوه، وبيذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثاله  
صلبانا

يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها. فلما أخذ هذا الصليب الأعظم  
عظم

مُصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيماً، والموقف المنصور  
كريماً،

فكأنّهم لمّا عرفوا اخراج هذا الصليب، لم يختلف أحد من يومهم العصي،  
فهلكوا قتلا

وأسرا، وملِكوا قهرا وقسرا، ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد  
المُصرح، والقمر

المُبدر.

## ذكر

فتح حصن طبرية

وندب إلى حصنها من تسلّمه أمانا،

وأسكنه بعد الكفر إيماناً، وكانت السّت صاحبة طبرية قد حمته، ونقلت إليه كل  
ما

ملكته وحوته، فأمّنها على أصحابها وأموالها، وخرجت بنسائها ورجالها ورحالتها،  
وسارت

إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها. وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الإيمان، وعُيّن لولايتها صارم الدين قايماز النجمي وهو من الأكابر الأعيان، هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره طبق البرية.

## ذكر

ما اعتمد في الأسرى الداوية والأسبتارية

[186]

من ضرب رقابهم وإعطاء يشر الوجه بإعطائهم

فلما أصبح يوم الاثنين سبع عشرى

شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين، طلب الأسرى من الداوية والأسبتارية وقال "أنا أظهر الأرض من الجنسين النجسين". وجعل لكل من يحضر منها أسيرا خمسين، فأحضر العسكر في الحال مئين، وأمر بضرب أعناقهم، واختار قتلهم على

استرقاهم، وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف، وعدة من ذوي التعفف

والتعييف، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس،

ووجه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السياطين وقوف، فمنهم من فرى

وبرى وشكرا، ومنهم من أبى ونبا وغذر، ومنهم من يضحك منه، وينوب سواه عنه.

وشاهدت هناك الصحوة القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعد أجزه، وحمد

أحرزه، وأجر استدامه بدم أجراه، ويرأس عنق إليه بعنق براه، ونصل خصبه، لنصر

خطبه، وأسل اعتقدله، لأسد عَقْله، وداء دواه، لداويٌّ أدواه، وقوّة أهداها لهداه  
قوّاهـا، ولواء نشره للأـواء طواهاـ، وكفر أماته لاسلام أحـيـاهـ، وشرك هـدمـهـ  
لتوحـيدـ

بنـاهـ، وعزـمةـ أمـضاـهاـ، لأـمةـ أـرـضاـهاـ، وعـدوـ قـصـمـهـ، لـولـيـ عـصـمـهـ، وـسـيرـ مـلـكـ  
الـفـرنـجـ

وأـخـاهـ وهـنـفـريـ وـصـاحـبـ ثـبـيلـ ومـقـدـمـ الدـاـوـيـةـ وـجـمـيـعـ أـكـابـرـهـ المـأـسـورـينـ إـلـىـ  
دـمـشـقـ

لـيـوـدـعـواـ السـجـونـ وـتـسـبـدـلـ حـرـكـائـهـمـ السـكـونـ، وـتـفـرـقـتـ العـسـاـكـرـ بـمـاـ حـوـتهـ  
أـيـديـهـمـ منـ

الـسـبـيـ أـيـديـ سـبـاـ، وـخـمـدـ جـمـرـ جـمـعـ الـكـفـرـ وـخـبـاـ.

## ذكـرـ

### فـتـحـ الـبـيـتـ الـمـقـدـسـ

(ابن الأثير، 361-11/366)  
لـمـاـ فـرـغـ صـلـاخـ الـدـيـنـ

مـنـ أـمـرـ عـسـقـلـانـ وـمـاـ يـجـاـوـرـهـاـ مـنـ الـبـلـادـ، عـلـىـ مـاـ  
تـقـدـمـ، وـكـانـ قـدـ أـرـسـلـ إـلـىـ مـصـرـ أـخـرـجـ الـأـسـطـولـ الـذـيـ  
يـهـاـ فـيـ جـمـعـ مـنـ الـمـقـاتـلـةـ، وـمـقـدـمـهـمـ خـسـامـ الـدـيـنـ لـوـلـوـ  
الـحـاجـبـ، وـهـوـ مـعـرـوفـ بـالـسـجـاعـةـ، وـالـسـهـامـةـ، وـيـمـنـ  
الـنـقـيـبـةـ. فـأـقـامـواـ فـيـ الـبـحـرـ يـقـطـعـونـ الـطـرـيقـ عـلـىـ  
الـفـرـنـجـ، كـلـمـاـ رـأـواـ لـهـمـ مـرـكـبـاـ عـنـمـوـهـ، وـسـانـيـاـ أـخـذـوـهـ.  
فـحـيـنـ وـصـلـ الـأـسـطـولـ وـخـلـاـ سـرـرـهـ مـنـ تـلـكـ الـتـاـحـيـةـ سـارـ عـنـ

عَسْقَلَانَ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَكَانَ بِهِ الْبَطْرُكُ<sup>[187]</sup> الْمُعْظَمُ  
عِنْهُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ شَأْنًا مِنْ مُلْكِهِمْ، وَبِهِ أَيْضًا<sup>[188]</sup> بِالْيَانِ بْنِ بِرْزَانَ، صَاحِبِ  
الرَّمْلَةِ،

وَكَانَتْ مَرْتَبَتُهُ عِنْهُمْ تَقَارِبُ مَرْتَبَةِ الْمَلَكِ، وَبِهِ أَيْضًا مِنْ خَلْصِ فَرْسَانِهِمْ  
مِنْ حَطَّيْنِ، وَقَدْ

جَمَعُوا وَحْشَدُوا. وَاجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ النَّوَاحِي عَسْقَلَانَ وَغَيْرِهَا، فَاجْتَمَعَ يَهُودٌ  
كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ، كُلُّهُمْ يَرَى الْمَوْتَ أَيْسَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ  
يَمْلِكَ الْمُسْلِمُونَ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ وَيَأْخُذُوهُ مِنْهُمْ، وَيَرَى  
أَنَّ بَذْلَ تَفْسِيهِ وَمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ بَعْضُ مَا يَحِبُّ عَلَيْهِ مِنْ  
حِفْظِهِ، وَحَصَّنُوهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ بِمَا وَجَدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا،  
وَصَعَدُوا عَلَى سُورِهِ بِحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِمْ، مُجْمِعِينَ عَلَى حِفْظِهِ  
وَالذَّبَّ عَنْهُ بِجُهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، مُظْهِرِينَ الْعَزْمَ عَلَى  
الْمُنَاضَلَةِ دُوَّنَهُ بِخَسَبٍ اسْتِطَاعُهُمْ، وَتَصَبُّوا الْمَجَانِيقَ  
عَلَى أَسْوَارِهِ لِيَمْنَعُوا مَنْ يُرِيدُ الدُّخُولَ مِنْهُ وَالثُّرُولَ  
عَلَيْهِ.

وَلَمَّا قَرُبَ صَلَاحُ الدِّينِ  
مِنْهُ تَقَدَّمَ أَمِيرُ فِي جَمَاعَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ، غَيْرَ مُخَاطِطٍ وَلَا  
حَذِيرٍ، فَلَقِيَهُ جَمْعٌ مِنَ الْفِرِيجِ قَدْ حَرَجُوا مِنَ الْقُدْسِ  
لِيَكُونُوا يَزَّاكًا، فَقَاتَلُوهُ وَقَاتَلُوهُمْ، فَقَاتَلُوهُ وَقَاتَلُوا  
جَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَهُ، فَأَهَمَّ الْمُسْلِمِينَ قَتْلُهُ، وَفُجِّعُوا

يَقْفِدُهُ، وَسَارُوا حَتَّىٰ تَرَلُوا عَلَى الْقُدْسِ مُنْتَصِفَ رَجَبٍ (ايلول/سبتمبر

1187). فَلَمَّا تَرَلُوا

عَلَيْهِ رَأَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى سُورِهِ مِنَ الرِّجَالِ مَا هَالُهُمْ،  
وَسَمِعُوا لِأَهْلِهِ مِنَ الْجَلَبَةِ، وَالصَّحِيفَ مِنْ وَسْطِ الْمَدِينَةِ  
مَا اسْتَدَلُوا بِهِ عَلَى كَثْرَةِ الْجَمْعِ، وَبِقِيَ صَلَاحُ الدِّينِ  
خَمْسَةَ أَيَّامٍ يَطُوفُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ لِيَنْتَظِرَ مِنْ أَيْنَ  
يُقَاتِلُهُ، لِأَنَّهُ فِي غَايَةِ الْحَصَانَةِ وَالْإِمْتِنَاعِ، فَلَمْ يَجِدْ  
عَلَيْهِ مَوْضِعَ قِتَالٍ إِلَّا مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ، تَحْوِي بَابِ عَمُودًا،  
وَكَنِيسَةَ صَهْيُونَ. فَأَتَّقَلَ إِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ فِي الْعِشْرِينَ  
مِنْ رَجَبٍ وَتَرَلَهَا، وَنَصَبَ تِلْكَ الْلَّيْلَةَ الْمَجَانِيقَ، فَأَصْبَحَ  
مِنْ الْغَدِ وَقْدَ فَرَغَ مِنْ تَصْبِيهَا، وَرَمَى بِهَا. وَنَصَبَ الْفِرْنَجُ  
عَلَى سُورِ الْبَلَدِ مَجَانِيقَ وَرَمَوا بِهَا، وَفُوتُلُوا أَسْدَ قِتَالٍ  
رَآهُ أَحَدُ مِنَ النَّاسِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَرَى ذَلِكَ  
دِينًا، وَحْنَمَا وَاجِبًا، فَلَا يَخْتَارُ فِيهِ إِلَى بَاعِثِ سُلْطَانِيٌّ  
بَلْ كَانُوا يَمْتَعُونَ وَلَا يَمْتَنِعُونَ وَيَزْجُرُونَ وَلَا يَنْزَجُرُونَ.  
وَكَانَ حَيَّالَهُ الْفِرْنَجُ كُلُّ يَوْمٍ يَخْرُجُونَ إِلَى طَاهِرِ الْبَلَدِ  
يُقَاتِلُونَ وَيُبَارِزُونَ، فَيُقْتَلُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَمِمَّنِ  
اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَمِيرُ عُزُّ الدِّينِ عِيسَى بْنُ مَالِكٍ،  
وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الْأَمَراءِ وَكَانَ أَبُوهُ صَاحِبَ قَلْعَةِ جَعْبِيرِ،  
وَكَانَ يَصْطَلِي الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ كُلُّ يَوْمٍ، فَقُتِلَ إِلَى رَحْمَةٍ

اللَّهُ تَعَالَى. وَكَانَ مَحْبُوبًا إِلَى الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، فَلَمَّا  
رَأَى الْمُسْلِمُونَ مَصْرَعَةً عَظِيمَةً عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَأَحَدٌ مِنْ  
فُلُوِيهِمْ، فَحَمَلُوا حَمْلَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَرَأُوا الْفِرِنْجَ عَنْ  
مَوَاقِفِهِمْ قَادِحِلُوهُمْ بَلَدَهُمْ، وَوَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى  
الْخَندَقِ، فَجَاءُوهُ وَالْتَّصَفُوا إِلَى السُّورِ تَقْبُوْهُ، وَرَحَفَ  
الرُّمَاهُ يَحْمُوْهُمْ، وَالْمَجَانِيقُ ثُوَالِي الرَّمْمَى لِتَكْشِيفِ  
الْفِرِنْجَ عَنِ الْأَسْوَارِ لِيَتَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ النَّقْبِ،

[189] فَلَمَّا تَقْبُوْهُ حَشَوْهُ بِمَا جَرَثَ بِهِ الْعَادَةُ .

فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجَ  
شِدَّدَهُ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَحَكَّمَ الْمَجَانِيقُ بِالرَّمْمِيِّ  
الْمُنَدَّارِيِّ، وَتَمَكَّنَ التَّقَائِيْنَ مِنَ النَّقْبِ، وَأَنْتَهُمْ قَذَ  
أَسْرَفُوا عَلَى الْهَلَاكِ، اجْتَمَعَ مُقَدَّمُوهُمْ يَتَشَاؤِرُونَ فِيمَا  
يَأْئُونَ وَيَدْرُونَ، فَانْقَاقَ رَأْيُهُمْ عَلَى طَلَبِ الْأَمَانِ،  
وَتَسْلِيمِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ. فَأَرْسَلُوا  
جَمَاعَةً مِنْ كُبَراً إِنْهُمْ وَأَعْيَانِهِمْ فِي طَلَبِ الْأَمَانِ، فَلَمَّا  
ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلشَّرْطُوْنِ امْتَنَعَ مِنْ إِجَابَتِهِمْ، وَقَالَ: لَا  
أَفْعَلُ بِكُمْ إِلَّا كَمَا فَعَلْتُمْ بِأَهْلِهِ حِينَ مَلَكْتُمُوهُ سَنَةً

[190] إِحدَى [اثنتين] وَتِسْعِينَ  
وَأَرْبَعِمَائِيَّةِ (1099)،

مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبِيْ وَجَرَاءُ السَّيْئَةِ يِعْتَلُهَا. فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ خَاتِمُ الْمُحْمَدِ مُحْرِمِينَ، أَرْسَلَ بَالْيَانَ بْنَ يِبْرَازَ وَطَلَّبَ لِتَفْسِيهِ لِيَخْصُّرَ عِنْدَ صَلَاحِ الدِّينِ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَتَحْرِيرِهِ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ، وَخَصَّرَ عِنْدَهُ، وَرَغَبَ فِي الْأَمَانِ، وَسَأَلَ فِيهِ، فَلَمْ يُجِبْ إِلَى ذَلِكَ، وَاسْتَعْطَافَةُ فَلَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ، وَاسْتَرْحَمَهُ فَلَمْ يَرْحَمْهُ. فَلَمَّا أَيْسَنَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ لَهُ: أَيْهَا السُّلْطَانُ أَعْلَمُ أَنَا فِي هَذِهِ الْمَدِيْنَةِ فِي حَلْقٍ كَثِيرٍ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَقْتُلُونَ عَنِ الْفِتَالِ رِجَاءً الْأَمَانِ، طَنَّا مِنْهُمْ أَنْكَ ثِيَّبُهُمْ إِلَيْهِ كَمَا أَجْبَتْ عَيْرَهُمْ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ الْمَوْتَ وَيَرْعَبُونَ فِي الْحَيَاةِ. فَإِذَا رَأَيْنَا أَنَّ الْمَوْتَ لَبْدَ مِنْهُ، فَوَاللَّهِ لَتُقْتَلَنَّ أَبْنَائَنَا وَنِسَاءَنَا وَنُحَرِّقُ أَمْوَالَنَا وَأَمْتَعَنَا، وَلَا تُنْزِلُكُمْ تَعْنَمُونَ مِنْهَا دِينَارًا وَاحِدًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا تَسْبُونَ وَتَأْسِرُونَ رَجُلًا وَلَا امْرَأَةً. فَإِذَا فَرَغْنَا مِنْ ذَلِكَ أَحْرَبْنَا الصَّخْرَةَ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى وَعَيْرَهُمَا مِنَ الْمَوَاضِعِ، ثُمَّ تَقْتُلُ مَنْ عِنْدَنَا مِنْ أَسَارِي الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ خَمْسَةُ آلَافٍ أَسِيرٍ، وَلَا تُنْزِلُكُ لَنَا دَابَّةً وَلَا حَيَّوًا إِلَّا قَتَلْنَاهُ، ثُمَّ حَرَجْنَا إِلَيْكُمْ كُلُّنَا فَقَاتَلْنَاكُمْ قِتَالَ مَنْ يُرِيدُ [أَنْ] يَحْمِيَ دَمَهُ وَتَفْسُهُ، وَحِيَّنَدِ لَا يُقْتَلُ الرَّجُلُ حَتَّى يُقْتَلَ أَمْتَالُهُ، وَتَمُوتُ

اعِزَّاءٍ أَوْ تَطْقُرُ كِرَاماً.

### اسْتِشَارَ صَلَاحُ الدِّينِ

أَصْحَابَةُ. فَأَجْمَعُوا عَلَى إِجَابَتِهِمْ إِلَى الْأَمَانِ، وَأَنْ لَا  
يَخْرُجُوا وَيَحْمِلُوا عَلَى رُكُوبِ مَا لَا يُدْرِى عَاقِبَةُ الْأَمْرِ فِيهِ  
عَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَنْجِلِي، وَتَحْسَبُ أَنَّهُمْ أَسَارِى بِأَيْدِيتَا،  
فَتَبَعُّهُمْ نُفُوسُهُمْ بِمَا يَسْتَقِرُّ بِيَنْتَا وَبِيَنْهُمْ، فَأَجَابَ  
صَلَاحُ الدِّينِ حِبَّتِهِ إِلَى بَذْلِ الْأَمَانِ لِلْفَرِنجِ.

فَاسْتَقَرَّ أَنْ يَزِنَ

الرَّجُلُ عَشَرَةَ دَنَارِيَّ يَسْتَوِي فِيهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَيَزِنَ  
الطَّفْلُ مِنَ الْذُكُورِ وَالْبَنَاتِ دِينَارِيْنِ، وَيَزِنَ الْمَرْأَةُ  
خَمْسَةَ دَنَارِيَّ، فَمَنْ أَدْى ذَلِكَ إِلَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَقَدْ  
تَجَا، وَمَنْ انْقَصَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا عَنْهُ وَلَمْ يُؤَدِّ مَا عَلَيْهِ  
فَقَدْ صَارَ مَمْلُوكًا، فَبَذَلَ بِالْيَانُ بْنُ يَبْرَازَانَ عَنِ الْفُقَرَاءِ  
ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ. وَسَلَّمَتِ الْمَدِينَةُ  
يَوْمَ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ وَالْعُشْرِينَ مِنْ رَجَبِ (2 تشرين أول / أكتوبر  
1187)، وَكَانَ يَوْمًا

مَسْهُودًا، وَرُفِعَتِ الْأَعْلَامُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَلَى أَسْوَارِهَا. وَرَتَبَ  
صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى أَبْوَابِ الْبَلَدِ، فِي كُلِّ بَابٍ، أَمِينًا مِنْ  
الْأَمْرَاءِ لِيَأْخُذُوا مِنْ أَهْلِهِ مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِمْ،  
فَإِسْتَعْمَلُوا الْخِيَانَةَ، وَلَمْ يُؤَدِّوا فِيهِ أَمَانَةً، وَأَفْتَسَمُ

الْأَمَانَةُ الْأُمُوَالَ، وَتَفَرَّقَتِ الْأَيْدِي سَبَّا، وَلَوْ أَدْبَثْ فِيهِ  
الْأَمَانَةَ لَمَّا الْخَرَائِنَ، وَعَمَّ النَّاسَ. فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِ  
عَلَى الصَّبْطِ سِئُونَ الْفَرَجِلِ مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ سِوَى مَنْ  
يَتَبَعُهُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ، وَلَا يَغْبُبُ السَّامِعُ مِنْ  
ذِلِّكَ، فَإِنَّ الْبَلَدَ كَيْنَ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ التَّوَاحِي  
مِنْ عَسْقَلَانَ وَغَيْرِهَا، وَالدَّازُومِ، وَالرَّمْلَةِ، وَغَرَّةَ  
وَغَيْرِهَا مِنَ الْفَرَى، بِحِينَ امْتَلَأَتِ الطُّرُقُ وَالْكَنَائِسُ،  
وَكَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَمْشِي. وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى  
كَثْرَةِ الْخُلُقِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ وَرَزَنَ مَا اسْتَقَرَّ مِنَ الْقَطِيعَةِ،  
وَأَطْلَقَ بِالْيَانُ بْنُ بِيرْزَانَ تَمَانِيَةَ عَسْرَ الْفَرَجِلِ وَرَزَنَ  
عَنْهُمْ ثَلَاثَيْنَ الْفَرَجِلِ، وَبَقِيَ بَعْدَ هَذَا جَمِيعَهُ مَنْ لَمْ  
يَكُنْ مَعْهُ مَا يُعْطِي، وَأَخَذَ أَسِيرًا سِتَّةَ عَسْرَ الْفَرَجِلِ مَا  
بَيْنَ رَجْلِ وَامْرَأَةِ وَصِبَّىٰ، هَذَا بِالصَّبْطِ وَالْيَقِينِ.

ثُمَّ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ  
الْأُمَرَاءِ ادَّعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ رَعَيَّةَ  
إِفْطَاعِهِ مُقِيمُونَ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَيُطْلِقُهُمْ وَيَأْخُذُهُمْ  
فَطِيعَتْهُمْ، وَكَانَ جَمَاعَةً مِنَ الْأُمَرَاءِ يُلْبِسُونَ الْفِرْنَجَ  
زِيَّ الْجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُخْرِجُوهُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ  
فَطِيعَةً قَرَّرُوهَا، وَاسْتَوْهَبَ جَمَاعَةً مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ عَدَّا  
مِنَ الْفِرْنَجِ، فَوَهَبُوهُمْ لَهُمْ، فَأَخَذُوا قَطِيعَتْهُمْ،

وِبِالْجُمْلَةِ قَلْمٌ يَصِلُ إِلَى حَرَائِنِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ.

وَكَانَ بِالْقُدْسِ بَعْضُ

نِسَاءُ الْمُلُوكِ مِنَ الرُّومِ قَدْ تَرَهَبَتْ [191]  
وَأَقَامَتْ  
بِهِ، وَمَعَهَا مِنَ الْحَسْمِ وَالْعَيْدِ وَالْجَوَارِيِّ خَلْقٌ كَثِيرٌ،  
وَلَهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ،  
فَطَلَبَتِ الْأَمَانَ لِتَفْسِيهَا وَمَنْ مَعَهَا، فَأَمَّنَهَا وَسَيَّرَهَا. وَكَذَلِكَ

أَيْضًا أَطْلَقَ مَلِكَةُ الْقُدْسِ [192] الَّتِي  
كَانَ رَوْجُهَا الَّذِي أَسْتَرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ مَلَكَ الْفِرْنَجَ  
بِسَبَبِهَا، وَبِتَابَةً عَنْهَا كَانَ يَقُومُ بِالْمُلْكِ، وَأَطْلَقَ مَالَهَا  
وَحَشْمَهَا، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْمَصِيرِ إِلَى رَوْجِهَا، وَكَانَ  
جِبَيْذٌ مَحْبُوسًا بِقَلْعَةِ تَابُلُسَ، فَأَدِنَ لَهَا، فَأَتَتْهُ  
وَأَقَامَتْ عِنْدَهُ. وَأَتَتْهُ أَيْضًا امْرَأً لِلْبِرِّينِسِ أَزْتَاطَ  
صَاحِبِ الْكَرَكِ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَهُ صَلَاحُ الدِّينِ بِيَدِهِ يَوْمَ

الْمَصَافِ بِحَطَّينَ، فَشَقَقَتْ فِي وَلَدِ لَهَا مَأْسُورٌ [193]  
فَقَالَ لَهَا صَلَاحُ الدِّينِ: إِنْ سَلَمْتِ الْكَرَكَ أَطْلَقْتُهُ،  
فَسَارَتِ إِلَى الْكَرَكِ، قَلْمٌ يَسْمَعُ مِنْهَا الْفِرْنَجُ الَّذِي فِيهِ،  
وَلَمْ يُسَلِّمُوهُ، قَلْمٌ يُطْلَقُ وَلَدُهَا، وَلَكِنَّهُ أَطْلَقَ مَا لَهَا  
وَمَنْ تَبِعَهَا. وَخَرَجَ الْبَطْرَكُ الْكَبِيرُ الَّذِي لِلْفِرْنَجِ،  
وَمَعْهُ مِنْ أَمْوَالِ الْبَيْعِ مِنْهَا: الصَّحِيرَةُ وَالْأَقْصَى،

وَقُمَامَهُ وَعَيْرَهَا، مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ  
لَهُ مِنَ الْمَالِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَلَمْ يَغْرِضْ لَهُ صَلَاحُ الدِّينِ،  
فَقِيلَ لَهُ لِيَأْخُذَ مَا مَعَهُ يُقَوِّي بِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: لَا  
أَعْدِرُ بِهِ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ غَيْرَ عَشَرَةِ دَتَانِيرَ، وَسَيَرَ  
الْجَمِيعَ وَمَعْهُمْ مَنْ يَحْمِيهِمْ إِلَى مَدِينَةِ صُورَ.  
وَكَانَ عَلَى رَأْسِ قُبَّةِ

الصَّحْرَاءِ صَلِيبٌ كَبِيرٌ مُذَهَّبٌ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْبَلَدَ  
يَوْمَ الْجُمُعَةِ تَسَلَّقَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ إِلَى أَعْلَى الْقُبَّةِ  
لِيَقْلُعُوا الصَّلِيبَ، فَلَمَّا فَعَلُوا وَسَقَطَ صَاحَ النَّاسُ كُلُّهُمْ  
صَوْغًا وَاحِدًا مِنَ الْبَلَدِ وَمِنْ طَاهِرِهِ الْمُسْلِمُونَ وَالْفِرِنْجُ: أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَكَبَرُوا  
فَرَحًا، وَأَمَّا الْفِرِنْجُ فَصَاحُوا  
تَفْجُعًا وَتَوْجُعًا، فَسَمِعَ النَّاسُ صَبَّجَةً كَادَتِ الْأَرْضُ أَنْ  
تَمِيدَ بِهِمْ لِعَطِيمَهَا وَشِدَّتِهَا.

فَلَمَّا مُلِكَ الْبَلَدُ  
وَفَارَقَهُ الْكُفَّارُ أَمَرَ صَلَاحُ الدِّينِ بِإِعَادَةِ الْأَبْيَانِ إِلَى  
حَالِهَا الْقَدِيمِ، فَإِنَّ الدَّاوِيَةَ بَنَوْا عَزِيزًا الْأَقْصَى  
أَبْيَانَهُ لِيَسْكُنُوهَا، وَعَمِلُوا فِيهَا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ  
هُرْبٍ وَمُسْتَرَاحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَدْخَلُوا بَعْضَ الْأَقْصَى فِي  
أَبْيَانِهِمْ فَأُعْيَدَ إِلَى الْأَوَّلِ، وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِ الْمَسْجِدِ  
وَالصَّحْرَاءِ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَنْجَاسِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ أَجْمَعَ، وَلَمَّا

كَانَ الْجُمْعَةُ الْآخِرَى، رَابِعَ سَعْبَانَ (9 تِشْرِينُ اُولَى/اكتوبر)،  
صَلَّى الْمُسْلِمُونَ فِيهِ الْجُمْعَةَ، وَمَعَهُمْ صَلَّى الدِّينِ، وَصَلَّى

[194]  
فِي قُبَّةِ الصَّحْرَةِ ،

وَكَانَ الْخَطِيبُ وَالْإِمَامُ مُحِبِّي الدِّينِ بْنُ الرَّكِيٍّ، قَاضِي  
دِمْشَقَ، ثُمَّ رَبِّ فِيهِ صَلَّى الدِّينِ خَطِيبًا وَإِمَامًا بِرَسْمِ  
الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ. وَأَمَرَ أَنْ يُعْمَلَ لَهُ مِنْبُرٌ، فَقَبِيلَ لَهُ: إِنَّ ثُورَ الدِّينِ مَحْمُودًا كَانَ  
فَذْ عَمِيلَ بِحَلَبِ مِنْبَرًا أَمَرَ  
الصُّنَاعَ بِالْمُبَايَلَةِ فِي تَحْسِينِهِ وَإِنْقَانِهِ، وَقَالَ: هَذَا قَدْ  
عَمِلْنَاهُ لِيُنْصَبَ بِالْبَيْتِ الْمَقْدَسِ، فَعَمِلَهُ التَّجَازُونَ فِي  
عَدَّةِ سِنِينَ لَمْ يُعْمَلْ فِي الْإِسْلَامِ مِثْلُهُ، فَأَمَرَ  
بِإِحْصَارِهِ، فَعُمِيلَ مِنْ حَلَبَ وَنُصَبَ بِالْقُدْسِ، وَكَانَ بَيْنَ عَمَلِ  
الْمِنْبَرِ وَحْمَلِهِ مَا يَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ

[195]  
ثُورِ الدِّينِ، وَخُسْنِ مَقَاصِدِهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ. وَلَمَّا

فَرَغَ صَلَّى الدِّينِ مِنْ صَلَاةِ الْجُمْعَةِ تَقَدَّمَ بِعِمَارَةِ  
الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَاسْتِنْقَادَ الْوُسْعِ فِي تَحْسِينِهِ وَرَزْصِيفِهِ،  
وَتَدْقِيقِ نُقوشِهِ، فَأَخْضَرُوا مِنَ الرُّخَامِ الَّذِي لَا يُوجَدُ  
مِثْلُهُ، وَمِنَ الْفَصَنِ الْمَذَهَبِ الْفَسْطَاطِيَّنِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ  
مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، قَدِ اذْخَرَ عَلَى طُولِ السِّنِينِ. فَشَرَّعُوا  
فِي عِمَارَتِهِ، وَمَحُوا مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْأَبْنِيَةِ مِنَ الصُّورِ،

وَكَانَ الْفِرْنَجُ قَرْسُوا الرُّحَامَ فَوْقَ الصَّحْرَةِ وَعَيْبُوهَا،  
فَأَمَرَ بِكَسْفِهَا. وَكَانَ سَبَبُ تَعْطِيلِهَا بِالْفُرْشِ أَنَّ  
الْقِسِّيسِينَ بَاعُوا كَثِيرًا مِنْهَا لِلْفِرْنَجِ الْوَارِدِينَ إِلَيْهِمْ  
مِنْ دَاخِلِ الْبَحْرِ لِلرِّيَارَةِ، فَكَانُوا يَسْتَرُونَهُ يَوْزِنِهِ  
ذَهَبًا رَجَاءً بَرْكَتِهَا، وَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا دَخَلَ بِلَادَهُ  
بِالْيَسِيرِ مِنْهَا بَنَى لَهُ الْكِنِيسَةَ، وَيُجْعَلُ فِي مَذْبِحَهَا،  
فَخَافَ بَعْضُ مُلُوكِهِمْ أَنْ تَفْتَنَى، فَأَمَرَ بِهَا قَفْرِشَ فَوْقَهَا  
حِفْظًا لَهَا. فَلَمَّا كُشِّفَتْ تَقَلَ إِلَيْهَا صَلَاحُ الدِّينِ الْمَصَاحِفُ  
الْحَسَنَةُ، وَالرَّبَعَاتُ الْجَيِّدَةُ، وَرَتِيبُ الْقُرْآنِ، وَأَدَرَّ  
عَلَيْهِمُ الْوَطَائِفُ الْكَثِيرَةُ، فَعَادَ الْإِسْلَامُ هُنَاكَ عَصَّا  
طَرِيًّا، وَهَذِهِ الْمَكْرُمَةُ مِنْ فَتْحِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَمْ

[196] يَفْعَلُهَا بَعْدَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ،

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَيْرَ صَلَاحُ الدِّينِ، رَحْمَةُ اللَّهِ، وَكَفَاهُ  
ذَلِكَ فَحْرًا وَشَرَفًا.

وَأَمَّا الْفِرْنَجُ مِنْ  
أَهْلِهِ فَإِنَّهُمْ أَقَامُوا، وَسَرَعُوا فِي بَيْعِ مَا لَا يُمْكِنُهُمْ  
حَمْلُهُ مِنْ أَمْتَعَتِهِمْ وَدَخَائِرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَمَا لَا  
يُطِيقُونَ حَمْلَهُ، وَبَاعُوا ذَلِكَ بِأَرْخَصِ الثَّمَنِ، فَاسْتَرَاهُ  
الْتَّجَارُ مِنْ أَهْلِ الْعَسْكَرِ، وَاسْتَرَاهُ النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ

الْقُدُّسِ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنَ الْفِرِّيجِ، فَإِنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْ  
صَلَاحِ الدِّينِ أَنْ يُمَكِّنُهُمْ مِنَ الْمُقَامِ فِي مَسَاكِينِهِمْ،  
وَيَأْخُذُ مِنْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَأَجَابُهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاسْتَرْوْا  
حِبَّئِنِ مِنْ أَمْوَالِ الْفِرِّيجِ. وَتَرَكَ الْفِرِّيجُ أَيْضًا أُسْيَاءَ  
كَثِيرًا لَمْ يُمْكِنُهُمْ بَيْعُهَا مِنَ الْأَسِرَةِ وَالصَّنَادِيقِ  
وَالْبَيْتَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَتَرَكُوا أَيْضًا مِنَ الرُّحَامِ الَّذِي  
لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ، مِنَ الْأَسَاطِينِ وَالْأَلْوَاحِ وَالْفَصَّ وَغَيْرِهِ،  
شَيْئًا كَثِيرًا ثُمَّ سَارُوا.

(عماد الدين، 47-69)

ثم رحل من عسقلان للقدس طالباً

و بالعزم غالباً، وللنصر مصاحباً، ولذيل العز ساحباً، قد أصبح ريش مناه،  
و أخصب

روض غناه، وأصبح رائح الرجاء، أرج الأرجاء، سيب العزف، طيب العزف،  
ظاهر

اليد، قاهر الآيد. سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملا الملا فأفاض الآلاء.

وقد بسط عييز فيلقه ملائته على القلق، وكأنما أعاد العجاج رأد

الضحى جنح الغسق. فالأرض شاكية من إجحاف الجحافل، والسماء حاطية  
بأقساط

القساطل. وسار سارا بالأحوال الحوالى، مروية أحاديث فتوحه العوالى من  
العوالى،

مطوية مدار مناجمه على ما تنشره الآمال من الأمالى، وقد حللت وعلت من  
مغارس النصر

ومطالعه المُجاني والمُجاني، والإسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر

نفوساً، ويحمل إليها نُعْنَى ليحمل عنها بُؤْسَى، ويهدي بشرأً ليذهب عبوساً،  
ويُسِّمِّح صرخة الصخرة المستدعاة المستعدية لِإعدائِها على أعدائِها، وإجابة  
دعائِها،

وتلبية ندائِها، وإطلاع رُهْر المصابيح في سمائِها، وإعادة الإيمان الغريب منها  
إلى

وطنه، ورُدُّه إلى سكونه وسكنه، وإقصاء الذين أقصاهُم الله بلعنته من  
الأقصى، وجذب

قياد فتحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطلاق الأذان، وكف كفّ  
الكفر عنه

بأيْمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وإدناس أدنى الناس،  
وإفحام

الأفهام بِإِخْرَاسِ الْأَجْرَاسِ. وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به ربعاً  
وطاشت،

وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشت، وتمتّت الفرج لِمَا شاعت  
الأخبار أنها

ما عاشت، وكان به من مقدّمي الإفرنج باليان بن باززان والبطرك الأعظم،  
ومن كِلَا

الطائفتين الأسبتارِيَّة والداوِيَّة المقدَّم. فاشتغل باليان، واشتعل بالنيران،  
وخدمت نار بَطَرَ البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم فكان كل دار منها شِرِك  
للْمُشْرِك.

وقاموا بالتدبير في مقام الإدبار، وتقسّمت أفكار الكُفَّار، وأيس الفرنج من  
الفرح،

وأجمعوا على بذل المهج.

## ذكر

[197] كنيسة قمامنة

وقالوا ه هنا نطرح الرؤوس، ونسبك  
النفوس، ويسفك الدماء، وتهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح الفروج واجتراح  
الجروح،

ونسمح بالأرواح شحّا بمحلّ الروح، فهذه قمامتنا، فيها مقامتنا، ومنها تقوم  
قيامتنا، وتصبح هاماتنا، وتصحّ ندامتنا، وتسيح علامتنا، وتُسخّ غمامتنا، وبها  
غرامنا، وعليها غرامتنا، وبأكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها  
استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإن تخلينا عنها لزمن لآمنا، ووجبت  
لامتنا، وفيها المصطَب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد،  
والمهِيط

والمَصْدَع، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والممْوضه والمذقُب،  
والمطلع والمقطع،  
والمربي والمربي، والمرحّم والمرحّم، والمحلّل والمحرّم، والصّور والأشكال،  
والأنطارات والأمثال، والأساد والأشبال، والأشباء والأشباح، والأعمدة والألوان،  
والأجسام والأرواح، وفيها صور الحواريّين في حوارهم، والأحاديث في أخبارهم،

[198] والرهابين في صوامعهم، والأقسىء في مجتمعهم، والسحر وحبالها ،  
والكهنة وخاليها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت،

[199] والمنعوت والمنحوت، والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم ،

وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار، والنواقيس والنوميس. قالوا وفيها  
صلب

المسيح، وفُرِّب الذبح، وتجسد اللاهوت، وتَأْلَهَ الناسوت، واستقام التركيب،  
وقام

الصليب، ونزل النور، وزلَّ الديجور، وازدواجت الطبيعة بالأقْنوم، وامتزج  
الموجود

[200] بالمعدوم، وعُمِّدت معموديَّة المعبد، ومَحَضَت البُثُول بالمولود .

وأضافوا إلى متعبدِهم من هذه

الصلالات، ما ضلُّوا فيه بالشَّبه عن نهج الدلالات، وقالوا: "دون مقبرة رَبَّنا  
نموت، وعلى خوف فَوْتها مُّنَا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع، وما لنا لا  
نقاتل،

وكيف لا ننزع ولا ننازل، ولأيِّ معنى نتركهم حتى يأخذوا، وندعهم حتى  
يستخلصوا ما

استخلصناه منهم ويستنقذوا". وتأهَّبوا وتباهُوا، وما أنتهَوا بل تناهُوا.

ونصبوا المناجيق أُمَّات الأسواء

على الأسوار، وسترُوا بظلمات الستائر وجوه الأنوار. واستشاطت شياطينهم،  
وسُرِّحت

سراحينهم، وطفت طواغيتهم، وأصلت مصاليلهم، ونشرت طواميرهم،  
وتسرقَت مساعيرهم.

وهاج هائجهم، وماج مائجهم، ودعت دواعيهم، وعدت عواديهم، وسعت  
أفاعيهم، وحصَّتهم قسوسهم،

وحرَّضتهم رؤوسهم، وحرَّكthem نفوسهم، وجائتهم بجَوَى السُّوء جواسيسهم،  
وأخبرتهم

[201] **بِإِقْبَالِ الْعُسَارِكِ النَّاصِرِيَّةِ** مِنْصُورَة

الجنود، منشورة البنود، موصولة القواطع بالأشاعج مهجورة الغمود، مشهورة القواصب،

مشهودة الكتائب، مَفْوَدَة الصوامر إلى ثار العدى، مُؤَقَّدة الضماير بثار الهدى،  
مشبوبة العزائم، مجنبة الصدام، مسلولة الطبا، مطلولة الزبا، مجنبة أجنة  
أغمادها، مسنونة أستة صعادها، مطلقة أعنية جيادها، محققة مظنة طرادها. قد  
سالت الوهاد بآكامها، وجالت الأعلام في أعلامها، وسدّت الفجاج أفواجها،  
ومدّت

الجاج أمواجها، وحجبت الغزالَة عقباًها، وألهبت الذبالة خرضاًها. وجرت  
بالجبال رياحها، وجّرت كالجبال رماحها، واشتمل على الضراغم غيلها، وأقبل  
بالعطائم قبليها، ووافي كل وافي بعهد ربّه، كاف لكفّ خطبه، شافي لهم قلبه،  
صافي

بفيض شربه، خافي في لبوسه، نافي لبوسه، باسل بباسه، عاسل بأمراسه،  
ناسل

ينت الغمد من جفنه، غاسل تبت الحدّ بدم قرنه، واصل يرض الهند بسواعده،  
فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده، حاذ بجده. وكل شاب لثار الحرب  
شاب، ورَبٌ

دين الدين رب راتب، وكل جيش كالبحر عباب، وكل سال ذي ذباب عن الهدى  
ذات،

وكل قائل بالأخرة للحياة الدنيا قال، سائل من الله الشهادة عن حب البقاء  
سال،

مائل في سبيل الله إلى انفاق مال. وأقبل السلطان بإقبال سلطانه، وابطال  
شجعانه،

**وأقیال أولاده وإخوانه، وإشبال ممالیکه وغلمانه، وكرام أمرائه، وعظام أوليائه. في**

**مقابر بالمناقب مقتبّه، وكتائب بالمواكب مكتبّة، وذوابل بالكواكب منصلّه، وجحافل**

## **بمقتضاء المضارب محفلة، وألوية صفر للأواء ببني [202]**

[203] الأصفر

ويبيض وسمر ترُّزق زُرْق العدى من الموت الأحمر، وقباب وقبائل، وقَنَا وقنابل،  
وصوافن وصواهل، وعوامل وعوايل، وفوارس فوارس، وكلّ من يِبْدُل للشّيخ  
بدينه النفوس  
والنفاسين. وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقه الأدنى، وفريقه الأسنى، ويذكر  
ما يفتح الله

وصف

البيت المقدّس

وقال: "إن أسعدنا من الله على  
احراج أعدائه من بيته المقدّس فما أَسْعَدَنَا، وأيّ يدٍ له عندنا إذا أَيَّدَنَا، فإنه  
مكت في يد الكفر إحدى وتسعين سنة ،  
[204]  
لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة، ودامت همم الملوك دونه مُتَوَسِّنة، وخلت  
القرون عنه متخلية، وحلت الفرج به متولية. فما ادْخَرَ الله فضيلة فتحه إلَّا لآل  
أَيُوب، ليجمع لهم بالقبول القلوب، وخصّ به عصر الإمام الناصر لدين الله  
ليفصله

به على الاعصار، ولتفخر به مصر وعسکرها على سائر الأمصار. وكيف لا يهتم  
بافتتاح

البيت المقدس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام  
الأنبياء،

وموقف الأولياء، ومعبد الأنبياء، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه  
المحشر

والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعاشر المعاشر، وفيه الصخرة التي  
صيّنت

جِدَّة إبهاجها من الإنهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبة السماوية التي على

رأسها كالنار، وفيه ومض البارق ومضى الْبُرَاق [205] .

وأضاءات ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق. ومن أبوابه باب

[206]  
الرحمة الذي

يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول الخلود، وفيه كرسى سليمان ومحراب  
داود، وله عين

سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود. وهو أول القبلتين [207] .

وثاني البيتين، وثالث الحرمين. وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر  
النبيّ

أنها تشد إليها الرحال، ويعقد الرجاء بها الرجال. ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن

صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سوره، وقال عز من قائل  
[سبحان الذي

[208]  
أسرى بعبداً ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى] .

وله فضائل ومناقب لا تحصى، وإليه ومنه كان الإسراء، ولأرضه فتحت السماء،  
وعنه

نؤر أرباب الأنبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات  
العلماء. وفيه مبارك المبارك، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، القبلة  
الأولى، ومنها تعلالت القدم النبوية، وتتوالت البركة الغلوية، وعندها صلّى  
نبيّنا صلعم بالنبيين، وصاحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى علّيin، وفيه

[209] محراب مريم عم الذي قال الله فيه [كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا رَكِيرَا].

ولنهاهه التعبد وللليله المحياء، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان،  
ولأجل

[210] إجلاله أنزل الله سبحانه، وهو الذي افتحه الفاروق وافتتحت  
به سورة الفرقان، فما أجلّه وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلاته،  
وأسماه وأسناه،

وأيمان بركتاته وأبرك مياماته، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزيز مباحثاته  
وأبهج

[211] مزاينه. وقد أظهر الله طوله، بقوله [الذى بازكتا حواله] وكم  
فيه من الآيات التي أراها الله نبيّه، وجعل مسموعنا من فضائله مرئية.

ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه،

ما وثق على استعادة آلاته مواثيقه وألياه، وأقسم لا يربح حتى يتر قسمه،  
ويُرفع بأعلاه علمه وتخطوا إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، ويصغي إلى  
صرخة

[212] الصخرة، ويبغي بالبشرى يسر أسرة الأسره وسار

واثقاً بكمال النصرة وزوال العسرة، وحسن الفرج قناع الحسرة، ونزل على  
غربيّ القدس

يوم الأحد الخامس عشر رجب (20 أيلول/سبتمبر)

وقلب الكفر قد وجب، وحزب الشرك قد شارف الشَّجَى والشَّجَب، والقدر قد  
أظهر العجب.

وكان في القدس حينئذٍ من الفرج سُّـئـون ألف مقاتل، من سائِف ونـاـيلـ، وبطلـ  
لـلـبـاطـلـ،

وعـاسـٍ عـاـسـلـ بـالـعـاـسـلـ، قد وـقـفـوا دـوـنـ الـبـلـدـ يـبـارـزـوـنـ وـيـحـاـزـوـنـ، وـيـعـاجـزـوـنـ،  
وـيـنـاجـزـوـنـ،

وـيـرـمـوـنـ وـيـدـمـوـنـ، وـيـحـمـوـنـ وـيـحـمـوـنـ، وـيـحـتـدـوـنـ وـيـحـتـدـمـوـنـ، وـيـضـطـرـبـوـنـ  
وـيـضـطـرـمـوـنـ،

وـيـذـوـدـوـنـ وـيـذـبـبـوـنـ، وـيـشـبـبـوـنـ وـيـسـبـبـوـنـ، وـيـصـرـخـوـنـ وـيـحـرـّضـوـنـ، وـيـلـهـثـوـنـ وـيـتـغـوـثـوـنـ،

وـيـلـوـذـوـنـ وـيـلـوـبـوـنـ، وـيـجـوـلـوـنـ وـيـجـوـبـوـنـ، وـيـقـدـمـوـنـ وـيـحـجـمـوـنـ، وـيـتـمـلـمـلـوـنـ  
وـيـأـلـمـوـنـ

وـيـتـعـاـوـنـ، وـيـتـضـاعـوـنـ، وـيـحـتـرـقـوـنـ لـلـبـلـاـيـاـ، وـيـقـتـرـحـوـنـ الـمـنـاـيـاـ. وـقـاتـلـوـاـ أـشـدـ قـتـالـ،  
وـنـاـضـلـوـاـ أـحـدـ نـضـالـ، وـنـازـلـوـاـ أـجـدـ نـزـالـ، وـطـافـوـاـ بـصـحـافـ الصـفـاحـ، لـإـرـوـاءـ الـطـبـاـ  
الـظـلـمـاءـ مـنـ مـاءـ الـأـرـوـاحـ، وـجـالـوـاـ بـالـأـوـجـالـ، وـأـجـالـوـاـ قـدـاحـ الـأـجـالـ، وـصـالـوـاـ لـقـطـعـ  
الـأـوـصـالـ. وـالـتـهـمـوـاـ وـالـتـهـبـوـاـ، وـتـأـشـبـبـوـاـ وـتـأـشـبـبـوـاـ، وـاستـهـدـفـوـاـ لـلـسـهـامـ، وـاستـوـقـفـوـاـ  
لـلـحـمـامـ. وـقـالـوـاـ "ـكـلـ وـاحـدـ مـثـاـ بـعـشـرـيـنـ، وـكـلـ عـشـرـةـ بـمـئـيـنـ، وـدـوـنـ الـقـيـامـةـ تـقـومـ  
الـقـيـامـةـ، وـلـحـبـ سـلـامـتـهاـ تـقـلـيـ السـلـامـةـ"ـ وـدـامـتـ الـحـربـ، وـاسـتـمـرـ الطـعـنـ  
وـالـصـرـبـ.

فـانـتـقـلـ السـلـطـانـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ الـعـشـرـيـنـ

مـنـ رـجـبـ (ـ25ـ أـيـلـوـلـ/ـسـبـتـمـبـرـ)

إلى الجانب الشماليّ وخِيم هنالك، وضيق على الفرج المسالك، ووَسَعَ عليهم المهالك.

ونصب المجانق، ومَرَى من آفاتها الأفوايق، وأصرخ الصخرة بالصخور، وحشر حُسْنَر

**السوء منهم وراء السور، فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس، إلا ويلقُون البوس،**

التهاب، إذا الوجوه لفَبِل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة، والأيدي

**على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة، والنفوس لاستبطاء الهمم في  
الاهتمام مهمومة،**

**وقاعد السور ونواخذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفّات مهدومة  
مهتموه، فكأنّ**

المجانيق مجانين يُرَامُون، وَمَنْأَجِيد لَا يُرَامُون، وجَال تجذبها حِبَال، ورجال  
تندَّهَا

رجال، وأمّات الدواهي والمنايا، وحوامل تلد البلايا، لا حجر عليها في حجر، ولا  
أمن عندها من حذر، ولا تخطر سهامها إلا بالخطر، ولا يفطر مروّتها إلا  
مرارات

[213] ذوي الفطرة .

فَكُمْ نَجْمٌ مِّنْ سَمَايَهَا يَنْقُضُّ، وَصَخْرٌ مِّنْ أَرْضَهَا يَرْفَضُّ، وَجَمْرٌ مِّنْ شَرَارِهَا  
يَنْفَضُّ. وَمَا شَيْءٌ

كآفات كفاتها، وآيات نكاياتها، ودركات ادراكاتها، ولفتات فلتاتها، وجذبات  
عَذَّباتها. فما زالت تقلع بمعالعها، وتقرع بمقارعها، وتمتحن بأشطانها، وتمرح في  
أرْسانها، وتصدم وتهدم، وتصرع وتصدع، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتحلّ  
تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها وتُفْلِّ شمل المباني بتفرقها وتبديدها،  
وتقوّض

القواعد بضربيها من أساسها، وتنقض المقاعد بجذبها في أمراسها، وتشقّه  
الموارد

بشرتها من كأسها، حتى تركت السُّور سُوراً، وجعلت الذَّابُّ عنه محسوراً،  
وعاد العدوّ

من نظمه المبتور مبتوراً. وخرق الخندق وخفر الزحف. وظهر للإسلام الفتح  
وللكرف

الحشف، وأخذ النقب، وسهل الصعب. وبذل المجهود، وحصل المقصود، وكمَّل  
المراد،

وكَلِمَ المُرَّاد، وَثَغَرَ الثغر، وأَمَرَ الأَمر، وأَرَبَّ الْأَرْبَ، وَاسْتَبَّ السَّبَبُ، وَخَافَ  
الْقَوْمُ الْوَقْمُ، وَاسْتَعَاضُوا مِنَ الصَّحَّةِ الشُّفْمُ وَأَسْلَمُ الْبَلَدُ وَقَطَعَ زُنْتَارَ خَنْدَقَهُ،  
وَبَرَزَ

ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه، وطلب الامان لقومه، وتمّنّ السلطان  
وتسامي في

سومه، وقال "لا أمن لكم ولا أمان، وما هو أنا إلّا أن نديم لكم الهوان، وغدا  
نملككم قسراً، ونوسعكم قتلاً وأسراً. ونسفك من الرجال الدماء، ونسلّط على  
الذُّرّية

والنساء السباء." وأبى في تأمينهم إلّا الإياء، فتعرّضوا للتضّرّع، وتخوّفوا  
وخوّفوا عاقبة التسّرّع، وقالوا: "إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سلطانكم،  
وخبنا

من احسانكم، وأيقنا أنه لا نجاة ولا صلاح، ولا سِلْمٌ ولا سلامَةَ،  
ولا نعمة ولا كرامة، فأنّا نستقتل فنقاتل قتال الدم، ونقابل الوجوه بالعدم،  
ونُقدِّم إقدام المستشري بالشّرِّ، ونقتحم اقتحام المستضرِي من الضّرِّ، وتُلْقِي  
أنفسنا على النار، ولا تُلْقِي بآيدينا إلى التهلكة والعار، ولا يُجرح واحد مّا حتّى  
يُجرح عشرة، ولا تضمّننا يد الفتاك حتّى تُرَى آيدينا بالفتاك منتشرة، وأنّا نحرق  
الدُّور ونخرب القبةَ، ونترك عليكم في سُبْينا السُّبْيَه، ونقلع الصخرة، ونوجدكم  
عليها الحسِّرَه. ونقتل كل من عندنا من أسرى المسلمين وهم أُلوف، وقد  
عُرف أنَّ كلاً  
مّا من الذلّ عزوف وللعزّ ألواف، وإنما الأموال فأنّا نُعطيها ولا نعطيها، وإنما  
الذراري فأنّا نسارع إلى إعدامها ولا نستطيعها. فأية فائدة لكم في هذا الشّح؟  
وكل  
خُسْر لكم في هذا الرِّيح، ورُبَّ خيبة جاءت من رجاء النُّجُح، ولا يُصلح السُّوءَ  
سوَيَ  
الصلح، ورُبَّ مُدلِّج أضلَّه طلام الليل قبل أسفار الصبح".  
فعقد السلطان مُحْضراً للمَشْورةَ،  
وأحضر كبراء عساكره المنصوره، وشاورهم في الأمر، وحاورهم في السرّ  
والجهر، واستطلع  
خبايا ضمائرهم، واستكشف خفايا سرائرهم، واستورى زندهم، واستعلم ما  
عندhem، ورأوا ضمائمهم  
على المصلحة المترجحه، وفأوضحهم في المصلحة المُرِبِّحه، وقال: "إن  
الفرصة قد

أمكنت فنَحرص في انتهازها، وإن الحصّة قد حصلت ونستخير الله في إحرازها، وإن فاتت

لا تُستدرك، وإن أفلتت لا تُمْلَك" فقالوا: "قد خصّك الله بالسعادة،

وأخلصك لهذه العبادة، ورأيك راشد، وعزّتك لضالّة النصر ناشد، وأمرك لأشتات المنائن

وأسباب المناجح حاشد، وكلّنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد".

واستقرّ بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراءات من القوم وشفاعات، على

قطيعة تكمل بها الغبطة، وتحصل منها الحّوطه، اشتروا بها مّا أنفسهم وأموالهم،

وخلّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم. على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عمّا لزمه،

أو أمعن منه وما سلّمه، ضرب عليه الرِّقّ، وثبت في تملّكه لنا الحقّ، وهو عن كل

رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة ديناران. ودخل ابن بارزان

والبطرك ومقدّما الداوية والإسبtar في الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار

عن الفقراء، وقام بالأداء ولم يتكلّل عن الوفاء. فمن سلّم خرج من بيته آمناً، ولم

يعد إليه ساكناً.

وسلموا البلد يوم الجمعة السابعة

والعشرين من رجب (2 تشرين أول / أكتوبر)

على هذه القطيعة، ورددوه بالرغم رد الغضب لا الوديعة. وكان فيه أكثر من  
مائة ألف

إنسان، من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم  
 واستخراج ما

يلزمهم النواب، ووكل بكل بابٍ أمير، ومقدم كبير، يحصر الخارجين، ويحصي  
الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم  
الفرج. ولو

حفظ هذا المال حق حفظه، لفاز منه بيت المال بأوفر حظه لكثما تم التفريط،  
وعمّ

إللخلط، فكل من رشا مشى، وتنكب الأماء نهج الرشد بالرضا، فمنهم من  
أدلى

من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخفياً في الرحال، ومنهم من غيرت  
لبسته فخرج

بريء الجسد، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد.

وكانت في القدس ملكة رومية

متربّه، في عبادة الصليب متصلّبه، وعلى مصابها به متلهبه، وفي التمسك  
بعلتها

متصعبّة متعصّبه. أنفاسها متصاعدة للحزن، وعباراتها متحدّرة تحذر القطرات  
من

المُزن. ولها حال ومال وأشياء وأشياع، ومتاع وأتباع، فمن علىها السلطان  
وعلى

كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كل مالها في الأكياس والأخرج.  
فراحـت

فـزـحـىـ. وـانـ كـانـتـ منـ شـجـنـهاـ قـرـحـىـ.

وكانت زوجة الملك المأسور إبنة

[214] الملك أماري ،

مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدام والخول والجواري، فخلصت هي  
بمن معها

ومن تبعها، ومن ادعى أنه ممّن صحبها وشيعها. وكذلك الإبرنساسة إبنة فيليب  
أمّ

[215] هنفري أُعفيت

من الورز، وتوفّر مالها عليها في الخزن. واستطلق صاحب البيره زهاء  
خمسة

أرمني ذكر أنهم من بلده، وإن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده، وطلب  
مظفر

الدين بن علي كُوچك زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الزها، فأجرأه السلطان  
من

إطلاقهم له على ما إشتهر. وكان السلطان قد رتب عدّة دواوين، في كل  
ديوان منها

عدّة من النواب المصريين ومنهم من الشاميّين، فمن أخذ من أحد الدواوين  
خطاً بالأداء

انطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطّه على من بالباب من الأمناء والوكلاء. فذكر  
لي من

لا يشكّ في مقاله، أنه كان يحضر في الديوان ويطلّع على حاله. فربما كتبوا  
خطاً

لمن نقدّه في كيسهم، ويليس أمر تلبسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه،

وكانوا على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضرّ غناه، ومع ذلك حصل  
لبيت المال ما

يقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رقّ وإسار، يُنتظر به انقضاء المدّة  
المضروبة، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

## ذكر

يوم الفتح وهو سابع عشرى ربى

وافتّق فتح البيت المقدّس في يوم

كان في مثل ليلته منه المعرّاج، وتمّ بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وزاد  
من

الألسنة بالدعاء والابتهاج. وجلس السلطان للهنّساء، للقاء الأكابر  
والأمراء والمتصّفة والعلماء، وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار، بين  
الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشّر سافر، وأمله بعْز النجح  
ظافر. وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه  
مُقِيل،

وبساطه منسّل، ومُحياه يلوح، وريّاه يفوح، ومحبّته تروق ومهابته تروع، وأفاقه  
وأخلاقه تضوع، ويده لفيض أمواه السخاء. وفضّ أفواه العطاء، ظاهرها قِبلة  
[216] ،

وباطنها كعبة الأمل، قد حلّت له حالة الظفر، وكان دسته به حالة القمر،  
والقراء

جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون وينشدون، والأعلام تبزّر  
لنشر، والأقلام تزفير لثبّر، والعيون من فرط المسّرة تَدمَع، والقلوب للفرح

بالنصر تخشع، والألسنة بالإبهال إلى الله تصرع. والكاتب ينشي ويُوشّي  
ويُوسّع.

والبلغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع، فما شبهت قلمي إلا بسائلٍ أُرِي  
[217] البسائر، ولا وجهت

كِلْمِي إلا لطائف وحْيَ اللَّطَائِفِ، وما أرسلت بِرَاعِي إِلا لِبُرَاعِي الرسائلِ،  
وينشئ الفضائل، وينشئ الفواضل، ويشبع القول، ويسع الطَّوْلِ، ويطول  
بالحجّة

وإن كان في حجمه قَصَرٌ، ويصل باللهجة وإن كان في هَجْمه حَصْرٌ، ويسمّن  
الملك به

وهو نحيف، ويشغل الجيش به وهو خفيف، ويبدي بياض الغُرّة من سواد الْدُّهْمِهِ،  
ويجلو

بهجة الضياء من محجّة الظلمة، ويجري بالأجال والأرزاق، والمنع والاطلاق،  
والخلف

والوفاق، والإِرْقَاقُ والإِعْتَاقُ، والعِدَّةُ والإِنْجَازُ، والجِدَّةُ والإِعْوَازُ، والفتق  
والرُّتقُ، والرُّقُعُ والخرقُ. وهو الذي يجمع الجيوش، ويرفع العروش، ويوحش  
المستأنس ويؤنس

المستوحش، وينعش العاثر وينثر المتعش، يجري بالأعداء، وبالإيلاء للأولىاء.

فبِشِّرت بأقلامِي أقاليم البشر، وعبرت بإعاجيبِي عن عجائبِ العبر، ومُلأت  
[218] البروج بالدراري

[219] والدُّرُوجُ بالدُّرُورِ، ورُبِّتْ تلك البشري حتى أطابت رِبَا الرِّيِّ وسَمَرَ قند  
وأطربت وحلت حتى فاقت الْقِنْدِيدَ والقَنْدَ، وغُلِّقت بفتح القدس بلاد الإسلام  
وزينت، وشرحت فضيلتها وبيّنت، وأدّيت فريضة زيارتها وتعيّنت.

## ذكر

ما جرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس  
وشرع الإفرنج في بيع الأمتעה،  
واستخراج ذخائرهم المودعه، وباعوها بالعجّان في سوق الهوان، وتقاعد  
الناس بهم  
فابتاعوها بأرخص الأثمان، وباعوا بأقلّ من دينار كل ما يساوي أكثر من  
عشرين، وجّدوا [220]  
في ضمّ ما وجدوا من أمور لهم منتشرة، وكنسوا كنائسهم ،  
وأخذوا منها نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضيّات، من الأواني والقناديل،  
والحريريات والمذهبّات، من السُّتُور والمناديل. ونقضوا من الكنائس الكنائس،  
واستخرجوا من الخزائن الدفائن. وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر،  
من صفائح  
التبّر، ومصوغات العسجد ومصنوعات اللُّجَين، وجمع ما كان في قمامه من  
الجنسين  
والتسجيّن. فقلت للسلطان: "هذه أموال وافره، وأحوال ظاهره، تبلغ مائتي  
ألف  
دينار، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار، فلا تتركها في أيدي  
هؤلاء  
الفجّار". فقال: "إذا تأولنا عليهم نسبونا إلى الغدر، وهم جاهلون بسرّ  
هذا الأمر، فنحن نُجرِّبهم على ظاهر الأمان، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان  
بنكث  
الأيمان، بل يتحدّثون بما أفضناه من الإحسان". فتركوا ما ثقل وحملوا ما عزّ

وخفّ، ونفروا من تراب ثراثهم، وفمامه فمامتهم<sup>[221]</sup> الكفّ.

وانقل معظمهم إلى صور، وكثروا بالديجور الديجور وبقي منهم زهاء خمسة عشر

ألفا امتنعوا من مشروع الحقّ، فاختصوا بمشروع الرقّ. فأما الرجال وكانوا في تقدير

سبعة آلاف، فإنهم ألفوا ذللاً لم يكونوا له بآلاف، فاقتسمتهم أيدي السبلي أيدي سبا، وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والزبا. وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمة، عادت بيننا مقتسمة، وأصبحت بيكاتها وجوه الدولة مبتسمة. فكم مبتسمة.

محبوبة هتك، ومالكة ملكت، وعزباء تكحت، وعزيزة منحت، وبخيلة تسّمحت، وخبيثة

نوفحت، ومجدّة مزاحت، ومصونة ابذلت، وفارغة شغلت، وعقيلة امتهنت، وجميلة

امتهنت، وعذراء افترعت، وشماء فُرعت، ولقماء رُشفت، وظمياء فُرشت، وريضة

أصحابت، ورضية أصبحت. فكم تسّرى منها سريّ، وتجراً عليهن جريّ، وقضى وطراه

عَزَب، ونفي تهمه سَغِب، وفثأً سَوْرَتْه سَغِب. وكم غانية استخلصت، وغالبة استُرخصت، ووالية اعتزلت، وعالية استنزلت، ووحشية صيدت، وعَرْشية قيدت.

ولمّا تقدّس القدس من رجس الفرج أهل الرجز، وخلع لباس الذلّ وليس خلع العزّ،

أبى النصارى بعد أداء القطيعة إن يخرجوا، وتضرّعوا في أن يسكنوا ولا يزعجوا،

وبذلوا خدماً وخدموا ببذل، وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول، [وأعطوا

الجزية عن يَدِ وَهُمْ صَاغِرُونَ].<sup>[222]</sup> وسَحَتْ

أفواهم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون، ودخلوا في الذمّة، وخرجوا  
إلى العصمة،

وُشَغَلُوا بالخدمة، واستعملوا في المِهْنَةِ، وعَدُّوا المِنْحَةَ في تلك المِهْنَةِ.

## ذكر

ما أظهره السلطان في القدس  
من الحسنات ومحاه من السَّيّرات

ولِمَّا تسلّم السلطان القدس أمر

بإظهار المحراب ،<sup>[223]</sup>

وحِلَّ به أمر الإِيجاب. وكان الداوِيَّة قد بنوا في وجهه جداراً وتركوه للغلة  
هُرْئَا، وقيل كانوا اتخذوه مُسْتَرَاحاً عدواً وبيغاً. وكانوا قد بنوا من غربِيِّ الْقِبْلَةِ  
داراً وسِيعَةً، وكنيسة رفيعه. فأُوْغَزَ برفع ذلك الحجاب. وكشف النقاب عن  
عروس المحراب،

وهدم ما قَدَّامَه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأفنيَّةِ، بحيث يجتمع الناس  
في

الجمعه، في العَرْصَةِ المُتَسْعَهِ. وُتَصَبَّ المنبر، وأُظْهِرَ المحراب المطهر. وُتَفَضَّلَ  
ما

أحدثوه بين السواري وفرشووا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الخصر  
والبواري،

وعلقت القناديل، وتلي التنزيل، وحقَّ الحقُّ وبطلت الأباطيل، وتولَّى الفرقان  
وغضَلَ

الإنجيل، وصُفت السجادات، وصَفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات،

وتجلى البركات، وانجلت الكربات، وانجابت العيادات، وانتابت الهدایات، وتليت

[224] الآيات، وأعليت الرایات. ونطق الأذان وحرس

الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القوس، وزال العبوس والبوس، وطابت الأنفاس

والنفوس، وأقبلت السعد وأدبرت النحوس. وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنها، وطلب

الفضل من معدنه، وورد القراء وقرىء الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والأبدال

[225] والأوتاد وعبد

الواحد ووحد العابد، وتواجد الراکع والساجد، والخاشع والواجد، والزاھي والزاھد،

والحاکم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتھجّد الساھد، والزائر

والوافاد. وصدع المدّکر، وانبعث المعاشر، وذكر البعث والمحشر، وأملی الحفاظ،

وأسلى الوعاظ، وتذكر العلماء، وتناطر الفقهاء. وتحدث الرواية وروى المحدثون،

وتحتفظ الهداة وهدى المحتفون، وأخلص الداعون ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة

المترخصون، وللّھن المفسرون وفسر الملّھنون، وانتدب الفضلاء، وانتدب الخطباء،

وكثر المترشحون للخطابة، المتتوشحون بالإصابه، المعروفون بالفصاهه،  
الموصوفون

بالحصافه، فما فيهم إلّا من خطب الرتبه، ورتب الخطبه، وانشاً معنّى شائقاً،  
ووشّي

لفظا رائقاً، وسوّي كلاما بالموضع لائقاً، وروى مبتكرًا من البلاغة فائقاً. وفيهم  
من

[226] عرض عليّ خطبته ،

وطلب متنّي تصبّته، وتمتّي أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلة، وتسبق مُنْتَهٍ فيها  
أُمنِيَّة، وكلّهم طال إلى الإلتهاب بها عنقه، وسائل من الإلتهاب عليها عرقه، وما  
منهم إلّا من يتأهّب ويترقب ويتوسل ويتقرّب، وفيهم من يتعرّض ويتضرّع،  
ويتشوّف

ويتشقّع. وكل قد لبس وقاره ووّرق لباسه، وضرب في أخمامه أسداسه، ورفع  
لهذه الرياسة

رأسه. والسلطان لا يعيّن، ولا يبيّن، ولا يخصّ، ولا ينصّ و منهم من يقول  
"ليتنى خطبت في الجمعة الأولى، وفزت باليد الطولى، وإذا ظفرت بطالع  
سعدي،

فما أبالي بمن يخطب بعدي". فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، أصبح الناس  
يسألون في تعين الخطيب السلطان، وإمتلاء الجامع، وإحتفلت المjamع،  
وتوجّست الأ بصار

والمسامع، وفاضت لرقة القلوب المدامع، وراعت لحلة تلك الحالة وبهاء تلك  
البهجة

الروائع، وشاعت من سرّ السرور بلبس جبر الحبور الشوابع، وغضّت  
بالسابقين إليها الموضع،

وتوسّمت العيون، وتقسّمت الظنون. وقال الناس "هذا يوم كريم وفضل عظيم، وهو موسم

عظيم. هذا يوم تجاح فيه الدعوات، وتصبّ البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات،

ويتیقظ الغافلون، ويُنْعَذ العاملون، وطوبى لمن عاش، حتى حضر هذا اليوم الذي فيه

انتعش الإسلام وارتاش. وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الظاهرية، والأمة

الظاهرية، وما أكرم هذه النصرة الناصريّة، والأسرة الإماميّة، والدعوة [227]  
العيّاسية ،

والملكة الأيوبية، والدولة الصلاحيّة، وهل في بلاد الإسلام أشرف من هذه الجماعة،

التي شرّفها الله تعالى بال توفيق لهذه الطاعة". وتكلّموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، وتفاوضوا في التفوّض، وتحذّثوا بالتصريح والتعرّض. والأعلام تعلّى،

والمنبر يكسى ويجلّى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، والأمواج

تلطم، وللعارفين من الضجيج، ما في عرفات للحجّيج، حتى حان الزوال، وزال الإعتدال، وجعل الداعي، وأجل الساعي. فنصب السلطان الخطيب

بنصّه، وأبان عن اختياره بعد فحصه. وأوزع إلى القاضي محبي الدين أبي المعالي محمد

بن زكى الدين علي الفرشى بأن يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقيين بتقديمه

عَرْقَى. فَأَعْرَتَهُ مِنْ عَنْدِي أَهْبَةً سُوداءً مِنْ تَشْرِيفِ الْخَلَافَةِ، حَتَّى تَكَمَّلَ لَهُ  
شَرْفُ

الإِفَاضَةُ وَالإِضَافَةُ، فَرَقِيَ الْعُودُ، وَلَقِيَ السَّعُودُ، وَاهْتَرَّتْ اعْطَافُ الْمَنْبَرِ،  
وَاعْتَرَّتْ

أَطْرَافُ الْمَعْشَرِ، وَخَطْبَ وَأَنْصَتاً، وَنَطَقَ وَسَكَتاً، وَأَفْصَحَ وَأَعْرَبَ، وَأَبْدَعَ  
وَأَغْرَبَ، وَأَعْجَزَ وَأَعْجَبَ،

وَأَوْجَزَ وَأَسْهَبَ، وَوَعَظَ فِي خَطْبَتِيهِ، وَخَطَبَ بِمَوْعِظَتِيهِ، وَأَبَانَ عَنْ فَضْلِ الْبَيْتِ  
الْمَقْدَسِ وَتَقْدِيسِهِ،

وَالْمَسْجَدُ الْأَقْصَى مِنْ أَوْلَى تَأْسِيسِهِ، وَتَطْهِيرِهِ بَعْدِ تَنْجِيَسِهِ، وَإِخْرَاسِ نَاقَوْسِهِ  
وَإِخْرَاجِ قَسَّيْسِهِ،

وَدُعَا لِلْخَلِيفَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَخَتَمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ]،

[229] وَنُزِلَ وَصَلِيَ فِي الْمَحْرَابِ، وَافْتَحَ بِسْمِ اللَّهِ مِنْ أَمْكَنِ الْكِتَابِ ،  
فَأَئْتَمْ بِتَلْكَ الْأَمْمَهُ، وَثُمَّ نَزَولَ الرَّحْمَهُ، وَكَمْلَ وَصْوَلَ النَّعْمَهُ. وَلِمَّا قَضَيْتِ الصَّلَاةَ

[230] انتَشَرَ النَّاسُ، وَاشْتَهَرَ الْإِنْسَانُ، وَانْعَدَ الْإِجْمَاعُ وَأَطْرَدَ الْقِيَاسَ .

وَكَانَ قَدْ نُصِبَ لِلْوَعْظِ ثُجَاهَ الْقَبْلَهِ سَرِيرًا، لِيَفْرَعَهُ كَبِيرٌ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ زَينُ الدِّينَ  
أَبُو

الْحَسَنُ عَلِيُّ بْنُ نَجَاهُ، فَذَكَرَ مِنْ خَافَ وَمِنْ رَجَا، وَمِنْ سَعَدَ وَمِنْ شَقِيَّ وَمِنْ  
هَلَكَ وَمِنْ نَجَا، وَخَوْفَ

بِالْحَجَّةِ ذُويِ الْحِجَّا، وَجَلَّا بِنُورِ عِظَاتِهِ مِنْ ظَلَمَاتِ الشُّبُّهَاتِ مَا دَجَا، وَأَتَى بِكُلِّ  
عِظَمِهِ، لِلراقيِّينَ مُوقَظَهُ، وَلِلظَّالِمِينَ مُحِفَظَهُ، وَلِأُولَيَّاءِ اللَّهِ مَرْفُقَهُ وَلِأَعْدَاءِ اللَّهِ  
مَغْلُظَهُ. وَضَعَّ الْمُتَبَاكِونَ، وَعَجَّ الْمُتَشَارِكُونَ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ، وَخَفَّتِ الْكُرُوبُ،  
وَتَصَادَعَتْ

الْتَّغَرَاتُ، وَتَحَدَّرَتِ الْعَبَرَاتُ، وَتَابَ الْمُذَنبُونَ، أَنَابَ الْمُتَحَوِّبُونَ، وَصَاحَ التَّوَّابُونَ،

وناح الأوابون. وجرت جالات جلت، وجلوات حللت، ودعوات علت، وصراعات قبلت، وفرص من الولية الإلهية انهزت، وحصل من العناية الربانية أحرزت. وصلّى السلطان في قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصلة، والأمة إلى الله بدوام نصره مبتلة، والوجوه الموجّهة إلى القبلة عليه مقبلة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة. ثم رتب في المسجد الأقصى خطيبا استمررت خطبته، واستقررت نصبه.

## وصف

الصخرة المعظمة عمرها الله وأما الصخرة فقد كان الفرج قد

<sup>[231]</sup> بنوا عليها كنيسة ومذبحا، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحها، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعینوا بها مواضع الرهبان ومحطّ الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتجليل. وأفردوا فيها لموقع القدم قبة صغيرة مذهبة، بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محلّ قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكانت فيها صور الأنعام، مثبتة في الرخام. ورأيت في

<sup>[232]</sup> تلك التصاوير، أشباه الخنازير ،

والصخرة المقصودة المُزوره، بما عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة  
المعمورة

مغموره. فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها، وحَسْر لثامها، وَقْسْر  
رخامها،

وكسر رِجامها، ونَقْض بنائها، وفض غطائها، وإبرازها للزائرين، واظهارها  
للنازرين،

ونزع لبوسَهَا، وزفاف عروسها، وإخراج دُرّها من الصدف، وإطلاع بدرها من  
السَّدف،

وهدم سجنها، وفك رهنها، وإراءة حسنها، وإضاءة يُمْنَها، وإبداء وجهها الصبيح،

وجلاء شرفها الصريح، ورُدّها إلى الحالة الحالية، والقيمة الغالية، والرتبة  
العلية. وهي التي حلّيْها عَطَلٌ وعطلها حُلْيٌ، وغَزِيْها كُسوة وكسوتها غَزِيْ،  
فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشَهِدت حين شوهدت بحسبها الكريم  
وسيِّم بهاء

حسنها الوسيم. وما كان يظهر منها قبل الفتح إلّا قطعة من تحتها، قد أساء  
أهل الكفر

في نحتها، وظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت ايمن سفور، وأشرقت  
القناديل من فوقها نورا

على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والإعتناء بها إلى الآن كل  
يوم في

مزيد. ورَتَب السلطان في قبة الصخرة إماماً من أحسن القراء طَلَّاوه، وأزيزِنْهم  
طَلَّاوه، وأندَاهُم صوتاً، وأسماهم في الديانة صِيَّتاً، وأعرَفُهم بالقراءات السبع بل

[233]  
العاشر ،

وأطيبهم في العَرْف والنشر، وأغنَاه وأقناه، وأولاه لِمَا ولَاه، ووقف عليه دارا

وأرضاً وستاناً، وأسدٍ إليه معروفاً داراً وإنساناً. وحمل إليها وإلى محراب المسجد

الأقصى مصاحف وخطّمات، وربّعات معظمات، لا تزال بين أيدي الزائرين على كراسٍ فيها

مرفوعة، وعلى أسرّتها موضوعه. ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدّس عاصماً،

قومٌ لشمل مصالحها ضامنٌ، فما ترتب إلا العارفون العاكفون، القائمون بالعبادة

الواقفون. فما أبهج ليلة وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع، ودان

الخضوع، ودررت من المتقين الدموع، واستعرت من العارفين الضلوع. وهناك كل ولِيٌّ

يعبد ربّه ويأمل بِرّه، وكل أشعث أغبر لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأبْرَه.

وهناك من يحيي الليل ويقومه، ويسموا بالحق ويسمونه، وهناك كل من يختتم القرآن

ويرتّله، ويطرد الشيطان وبطشه، ومن عرفه لمعرفته الأسحار، ومن ألهنه لتهجّده

الأوراد والأذكار.

وما أسعده نهارها حين تستقبل

الملائكة زوارها، وتلحف الشمسُ انوارها أنوارها، وتحمل القلوب إليها أسرارها،

وتضع الجنّة عندها أوزارها، وتستهدي صبيحة كل يوم منها إسفارها. وما أظهرَ من

توّلّ إظهارها، وأطهَرَ من باشر إظهارها، وأطهَرَ من باشر إظهارها.

وكان الفرج قد قطعوا من الصخرة

قطعاً وحملوا منها إلى فُسْطَنْطِينِيَّه، ونقلوا منها إلى صَقْلِيَّه، وقيل باعوها بوزنها ذهبا، وإنْجذبوا ذلك مكسبا، ولما ظهرت ظهرت مواضعها، وقطعَت القلوب لِمَا

بانت مقاطعها، فهي الآن مُبْرَز للعيون بحَرَزها، باقيَة على الأَيَّام بعَزَّها، مصونة للإسلام في خَدْرها وجَرْزها. وهذا كله ثُمَّ بعد انفصال السلطان، والشروع في

[234] **الْعُمَرَانَ. وَأَمْرَ بِتَرْمِيمِ مَحَرَابِ الْأَقْصَى، وَإِنْ يُبَالَغَ فِيهِ وَيُسْتَقْصَى ،**

وتناقض ملوك بنى أَيُّوب فيما يؤثر بها من الآثار الحَسَنَه، وفيما يجمع لهم وَدّ القلوب ويشكر الألسنة، فما منهم من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجَلَّى وَبِّينَ، وَحَلَّى

وزَّينَ، وأشْفَقَ وَأَنْفَقَ، وَأَغْنَى، وَأَقْنَى، وَأَعْتَنَى، وَبَتَنَى، وَوَقَى وَأَوْفَى، وَأَصْفَى وَأَضْفَى.

[235] **وَأَتَى الْمَلِكُ الْعَادِلُ سَيفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ ،**

موجب لكل شُكْر، وكل فعل جميل، ورُفْد جزيل، ومَنْ جَلَّى ومنح جليل، ومكْرُمة حميده،

ومَحْمِدَة كريمه، وفضيلة بها ترجح، ووسيلة بها تتحقق. وأتى الملك المظفر تقى

[236] **الْدِينِ عَمِرَ ،**

بكل ما عَمَّ به الغَرْفُ وَغَمَرُ، ونهى وأمر، وبنى وعمر. ومن جملة أفعاله المشكورة،

ومكرماته المشهوره، أنه حضر يوما في قبة الصخره، مع جماعة من السّراة الأسره،

ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال، فانتهز فرصة هذه  
الفضيلة التي

ابتكرها بالافتراض، وتولّى بيده كنس تلك الساحات والعراض، ثم غسلها بالماء  
مرارا

حتى تطّهرت، ثم أتيع الماء بماء الورد صبّا حتى تعطّرت، وكذلك ظهّر حيطانها،  
وعَسْل

جدرانها، ثم أتى ي GAMER الطيب فتبخّرت، وتصوّعت وتعزّفت، وفُغمت مناشق  
أهل الهدى،

وأرغمت آناف العدى، وما زال مع قومه، في تطهير البقعة المباركة طوال  
يومه، حتى

بيقّنت طهاراتها، وبيّنت عمارتها، وراقت نضارتها، ووقفت عليها الاستحسان  
نظاراتها. ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر بأنّ فاق الكرام

[237] ،  
بالإنفاق. وجاء الملك الأفضل نور الدين عليّ

بكل نور جليّ، وكرم مليّ، وإحسان سنيّ، وإنعام هنيّ، وعَزْف زكيّ، وعَزْف  
ذكيّ،

وعطاء مبتدع، وسخاء مخترع، وجود مبتكر، ورفد معتبر، وأتى بكل ما خلّد الأثر  
الحسن، وأنطق بحمده الألسن، وبسط بها الصنيعه، وفرش فيها البسط  
الرفيعه، وهدى

وأهدى، وأعاد بعد ما أبدى، وأنار وأسدى، وأفاض الندى، وفضّ الجدا، ونفض  
الأكياس،

حتى حلنا به الإنفاض والإفلاس. وسيأتي ذكر ما اعتمدته من بناء أسوار القدس  
وحرف

خنادقه، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفة ولواحقه، ما لم يُشْقَ أحد فيه  
غباره، ولا

[238] ملك ساِيق فيه مضماره. وأمّا الملك العزيز عثمان ،

فإنَّه أتى بالإحسان الذي استظهر به الإيمان، وذلك أنه لِمَا عاد إلى مصر، وقد شاهد

الفتح والنصر، ترك خزانة سلاحه بالقدس كُلَّها، ولم ير بعد حصولها به نقلها. وكانت

أحاماً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافيه، وعُدداً واقيه، ودروعاً سوايع،  
ونصولاً

[239] دوافع وخُوذًا وترائق، ورماحاً ونَيَازِك، وقَنَاءً وقنابلَ ،

[240] وصوافل وذوابل وجُرُوخاً وقسٍّ، وبمانياً وهندِيًّا ويزنيًّا، ورُدينيًّا ومشرفيًّا ،  
وجفائي وجَنْوِيَّات، وطوارق وفُنطاريَّات، ورانات حديد وزانات، وآلات وزَبَارات  
وزَرَّاقات، ونَقَاطَات وقطَّاعات، وعُدد النقوب. وجميع أدوات الحروب،  
[241] فاستهظرت بها

المدينة، وتوقّت بها غراها المتينة. وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن  
يتركوا

لنا خيلهم وعُدّتهم، ويخرجوا قبل أن يستوفي الباقيون في أداء القطيعة مدّتهم،  
فتوقّرت بذلك عُدد البلد، واستغنى بذلك عمّا يصل من المدد.

## ذكر

محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام  
وتبطيل الكنائس وإنشاء المدارس

وأمّا محراب داود (عم) خارج المسجد

الأقصى فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عالٍ رفيع، وهو الحصن الذي يقيم

به الوالي، فاعتنى السلطان بأحواله الحوالى، ورتب له إماماً، ومؤذنين، وفُوّاماً،

وهو مثاب الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجده، ونهج لقصد، جدده.

وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد، وإنجاح المقاصد، وإصفاء الموارد للقصد

والوارد. وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما

فيها الأنام. وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون، وأجناده على بابها مخيمون،

وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء

[242] ، الشافعية

ورباط لصلاح الصوفية. فعيّن للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حنة [243] عند

باب أسباط، وعيّن دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً،

وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، وإرتاد أيضاً مدارس للطوائف، ليضيّفها إلى ما

أولاد من العوارف. وأمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامه، وحرّم على النصارى زيارتها ولا

الإلمامه، وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها، وتعفيه آثارها،

وتعمية نهج مزارها، وإزالة تماثيلها، وإزاحة أباطيلها، وإطفاء قناديلها، وإعفاء  
أناجيلها، وإذاب نساوبلها، وإكذاب أقاوبلها. وقالوا: "إذا هدمت مبانيها،  
والحقت بأسافلها أعلىها، ونبشت المقبرة وعُفّيت، وأحمدت نيرانها وأطفيت،  
ومحيت رسومها ونفيت، وخررت أرضاها، ودمر طولها وعرضها، انقطعت عنها  
المدار

الزوّار، وانحسمت عن قصدها موادّ أطماء أهل النار. ومهما استمرّت العمارة،  
استمرّت

الزيارة". وقال أكثر الناس: "لا فائدة في هدمها ولا هدّها، ولا يؤذن  
بصدّ أبواب الزيارة عن الكفرة. وسدّها، فإن متعبدّهم موضع الصليب والقبر لا  
ما

يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصارى ولو نسفت أرضاها في  
السماء،

ولمّا فتح أمير المؤمنين عمر (رضه) القدس في صدر الإسلام أقرّهم على هذا  
المكان،

ولم يأمرهم بهدم البنيان".

كانت صورة كونراد، (ريدا فرنس) الذي أنقذ صور وحّرك من الناحية الفعلية الحملة الصليبية الثالثة، إلى جانب صورة ريتشارد ملك إنكلترا من أكثر الصور التي ترسخت في ذهان المؤرخين المسلمين في ذلك الوقت. يروي ابن الأثير فيما يلي وقائع مغامرة ذهابه إلى صور ويعيب على صلاح الدين - وهو في هذا محق - أنه لم ي عمل على حصارها بما يكفي من الاستعداد والجهد: خاصة وأن إنقاذ صور كان أساساً ومقدمة لحصار المسيحيين لعكا ثم أخذهم لها حرباً.

### ذِكْرُ

#### خُرُوجُ الْمَرْكِيسِ إِلَى صُورَ

(ابن الأثير، 359-366/11358) لَمَّا اتَّهَمَ الْقُمَصُونَ  
صَاحِبُ طَرَابلُسَ مِنْ جِطْنَيْنِ إِلَى مَدِينَةِ صُورَ أَقَامَ بِهَا وَهِيَ  
أَعْظَمُ بِلَادِ السَّاحِلِ حَصَانَةً، وَأَسْدُهَا امْتِنَاعًا عَلَى مَنْ  
رَاهَهَا، قَلَمَّا رَأَى السُّلْطَانَ قَدْ مَلَكَ تِبْيَانَ وَصِيدَا  
وَبَيْرُوتَ، خَافَ أَنْ يَقْصِدَ صَلَاحُ الدِّينِ صُورَ وَهِيَ قَارِغَةٌ مِمَّنْ  
يُقَاتِلُ فِيهَا وَيَحْمِيهَا وَيَمْتَعُهَا فَلَا يَقُوَى عَلَى حِفْظِهَا،  
وَتَرَكَهَا وَسَارَ إِلَى مَدِينَةِ طَرَابلُسَ. فَبَقِيَتْ صُورُ سَاغِرَةً لَا

مَانِعٌ لَهَا وَلَا عَاصِمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَوْ بَدَا يَهَا صَلَاحٌ  
 الدِّينِ قَبْلَ تَبْيَنِيهَا لَأَخْذَهَا بِعَيْرِ مَشْفَعَةٍ، لَكِنَّهُ  
 اسْتَغْطَمَهَا لِحَصَائِتِهَا فَأَرَادَ أَنْ يُفْرِغَ بَالَّهُ مِمَّا  
 يُجَاوِرُهَا مِنْ تَوَاحِيهَا لِيَسْهُلَ أَخْذُهَا، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ  
 حِفْظِهَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا. وَأَتَفَقَ أَنَّ  
 إِنْسَانًا مِنَ الْفِرْنِيجِ الَّذِينَ دَاهِلُوا الْبَحْرَ يُقَالُ لَهُ

[244] ،  
الْمَرْكِيسُ

لَعْنَةُ اللَّهِ، خَرَجَ فِي الْبَحْرِ يَمَالِي كَثِيرٌ لِلزِّيَارَةِ  
 وَالْتِجَارَةِ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِمَا كَانَ مِنَ الْفِرْنِيجِ فَأَزْسَى  
 يَعْكَاً، وَقَدْ رَأَيْهُ مَا رَأَى مِنْ تَرْكِ عَوَادِ الْفِرْنِيجِ عِنْدَ  
 ظُضُولِ الْمَرَاكِبِ مِنَ الْفِرْنِيجِ، وَصَرْبِ الْأَجْرَاسِ وَعَيْرِ ذَلِكَ،  
 وَمَا رَأَى أَيْصَانَا مِنْ زِيَّ أَهْلِ الْبَلْدِ، فَوَقَفَ وَلَمْ يَدْرِ مَا  
 الْحَبْرُ، وَكَانَتِ الرِّيحُ قَدْ رَكَدَتْ. أَرْسَلَ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ  
 إِلَيْهِ بَعْضَ أَصْحَابِهِ فِي سَفِيَّةٍ يُبَصِّرُ مِنْ هُوَ وَمَا يُرِيدُ،  
 فَأَتَاهُ الْقَاصِدُ فَسَأَلَهُ الْمَرْكِيسُ عَنِ الْأَخْبَارِ لِمَا  
 أَنْكَرَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِكَسْرَةِ الْفِرْنِيجِ وَأَخْذَ عَكَّا وَعَيْرَهَا،  
 وَأَعْلَمَهُ أَنَّ صُورَ يَبْدِ الْفِرْنِيجِ وَعَسْقَلَانَ وَعَيْرَهَا، وَحَكَى  
 الْأَمْرَ لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ يُمْكِنْهُ الْحَرَكَةُ لِعَدَمِ الرِّيحِ،  
 فَرَدَّ الرَّسُولَ يَطْلُبُ الْأَمَانَ لِيَدْخُلَ الْبَلْدَ بِمَا مَعَهُ مِنْ

مَتَاعٍ وَمَالٍ، فَأَجِيبَ إِلَى ذَلِكَ.

فَرَدَّدَهُ مِرَاً كُلَّا

مَرَّةٍ يَطْلُبُ سَيِّنًا لَمْ يَطْلُبْهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، وَهُوَ  
يَقْعُلُ ذَلِكَ اِنْتِظَارًا لِهُبُوبِ الْهَوَاءِ لِيُسِيرَ بِهِ، فَبَيْنَمَا  
هُوَ فِي مُرَاجِعَاتِهِ إِذْ هَبَّتِ الرِّيحُ فَسَارَ تَحْوَ صُورَ، وَسَيَّرَ  
الْمَلِكُ الْأَفْصَلُ السَّوَانِيَّ فِي طَلَيِّهِ قَلْمَ يُدْرِكُوهُ. فَأَتَى  
صُورَ وَقَدِ اجْتَمَعَ بِهَا مِنَ الْفِرِنْجِ حَلْقٌ كَثِيرٌ لِأَنَّ صَلَاحَ  
الدِّينِ كَانَ كُلَّمَا فَتَحَ مَدِينَةَ عَكَّا وَبَيْرُوتَ وَغَيْرَهُمَا  
مِمَّا ذَكَرْنَا أَعْطَى أَهْلَهَا الْأَمَانَ، فَسَارُوا كُلُّهُمْ إِلَى صُورَ،  
وَكَثُرَ الْجَمْعُ بِهَا إِلَّا أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ رَأْسٌ يَجْمَعُهُمْ،  
وَلَا مُقَدَّمٌ يُقَاتِلُ بِهِمْ، وَلَيْسُوا أَهْلَ الْحَزْبِ، وَهُمْ  
عَازِمُونَ عَلَى مُرَاسَلَةِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَطَلَبِ الْأَمَانِ وَتَسْلِيمِ  
الْبَلَدِ إِلَيْهِ.

فَأَتَاهُمُ الْمَرْكِيسُ وَهُمْ  
عَلَى ذَلِكَ الْعَزْمِ، فَرَدَّهُمْ عَنْهُ وَقَوَّى نُفُوسَهُمْ وَصَمَنَ لَهُمْ  
حِفْظَ الْمَدِينَةِ وَبَدَلَ مَا مَعَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَسَرَطَ عَلَيْهِمْ  
أَنْ تَكُونَ الْمَدِينَةُ وَأَعْمَالُهَا لَهُ دُونَ عَيْرِهِ، فَأَجَابُوهُ  
إِلَى ذَلِكَ فَأَخَذَ أَيْمَانَهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَدَبَّرَ  
أَخْوَالَهُمْ، وَكَانَ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ حَسَنَ التَّذَبِيرِ  
وَالْحِفْظِ، وَلَهُ شَجَاعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَسَرَعَ فِي تَحْصِينَهَا فَجَدَّدَ

حَفِرَ حَتَادِيقَهَا وَعَمِلَ أَسْوَارَهَا، وَزَادَ فِي حَصَائِنِهَا وَأَنْفَقَ  
مَنْ يَهَا عَلَى الْجِفْطِ وَالْقِتَالِ دُونَهَا.

ذِكْرٌ

رَحِيلٌ صَلَاحٌ الدِّينِ إِلَى صُورَ وَمُحَاصَرَتِهَا  
لَمَّا فَتَحَ صَلَاحُ الدِّينِ

الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ أَقَامَ يَظَاهِرِهِ إِلَى الْخَامِسِ وَالْعُسْرِينَ مِنْ  
سَعْبَانَ يُرَتِّبُ أُمُورَ الْبَلَدِ وَأَخْوَالَهُ، وَتَقْدَمَ يَعْمَلُ  
الرُّبَطَ وَالْمَدَارِسِ، فَجَعَلَ دَارَ الْإِسْبِيَّارِ مَدْرَسَةً  
لِلشَّافِعِيَّةِ، وَهِيَ فِي غَایَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْنِ. فَلَمَّا  
فَرَغَ مِنْ أَمْرِ الْبَلَدِ سَارَ إِلَى مَدِينَةِ صُورَ، وَكَاتَبَ قَدِ  
اجْتَمَعَ فِيهَا مِنَ الْفِرْنِجِ عَالَمٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ صَارَ الْمَرْكِيسُ  
صَاحِبَهَا وَالْحَاكِمُ فِيهَا، وَقَدْ سَاسُهُمْ أَحْسَنَ سِيَاسَةً، وَبَالَّغَ  
فِي تَحْصِينِ الْبَلَدِ. وَوَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى عَكَّا، وَأَقَامَ  
يَهَا أَيَّامًا، فَلَمَّا سَمِعَ الْمَرْكِيسُ بِوُصُولِهِ إِلَيْهَا جَدَّ فِي  
عَمَلِ سُورِ صُورَ وَحَتَادِيقَهَا وَتَعْمِيقَهَا، وَوَصَلَهَا مِنَ الْبَحْرِ  
إِلَى الْبَحْرِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، فَصَارَتِ الْمَدِينَةُ كَالْجَزِيرَةِ  
فِي وَسْطِ الْمَاءِ لَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا وَلَا الدُّنْوُ مِنْهَا.

لُمَّا رَحَلَ صَلَاحُ الدِّينِ

مِنْ عَكَّا، فَوَصَلَ إِلَى صُورَ تَاسِعَ شَهْرِ رَمَضَانَ (13 تشرين ثاني/نوفمبر 1187)، فَنَزَلَ عَلَيْ

نَهَرٍ قَرِيبٍ [مِن] الْبَلْدِ يَحْيُّثُ يَرَاهُ، حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ  
وَتَلَاحَقُوا، وَسَارَ فِي النَّاسِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ. فَتَرَلَ  
عَلَى ئَلَّا يُقَارِبُ سُورَ الْبَلْدِ، يَحْيُّثُ يَرَى الْقِتَالَ، وَقَسَّمَ  
الْقِتَالَ عَلَى الْعَسْكَرِ كُلَّ جَمِيعٍ مِنْهُمْ لَهُ وَفْتُ مَعْلُومٌ  
يُقَاتِلُونَ فِيهِ، يَحْيُّثُ يَتَصِلُ الْقِتَالُ عَلَى أَهْلِ الْبَلْدِ، عَلَى  
أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي يُقَاتِلُونَ فِيهِ قَرِيبُ الْمَسَافَةِ، يَكْفِيهِ  
الْجَمَاعَةُ الْيَسِيرَةُ مِنْ أَهْلِ الْبَلْدِ لِحَفْظِهِ، وَعَلَيْهِ  
الْخَنَادِقُ الَّتِي قَدْ وَصَلَتْ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، فَلَا  
يَكَادُ الطَّيْرُ يَطِيرُ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْمَدِينَةَ كَالْكَفِّ فِي  
الْبَحْرِ، وَالسَّاعِدَ مُتَصِلٌ بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ جَانِبِي السَّاعِدِ،  
وَالْقِتَالُ إِنَّمَا هُوَ فِي السَّاعِدِ.  
فَرَحَقَ الْمُسْلِمُونَ مَرَّةً  
بِالْمَجَانِيقِ، وَالْعَرَادَاتِ، وَالْجُزُوخِ، وَالدَّبَابَاتِ. وَكَانَ  
أَهْلُ صَلَاحِ الدِّينِ يَتَنَاوِلُونَ الْقِتَالَ مِثْلَهُ، وَلَدِهِ الْأَفْصَلِ،  
وَوَلَدِهِ الظَّاهِرِ غَازِي، وَأَخِيهِ الْعَادِلِ بْنِ أَيُوبَ، وَابْنِ  
أَخِيهِ تَقِيِّ الدِّينِ، وَكَذِلِكَ سَائِرُ الْأُمَرَاءِ. وَكَانَ لِلْفِرْجِ  
سَوَانِ وَحَرَّاقَاتٍ يَرْكَبُونَ فِيهَا فِي الْبَحْرِ، وَيَقْفُونَ مِنْ  
جَانِبِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَاتِلُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُ أَهْلُ الْبَلْدِ،  
فَيَرْمُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَانِبِهِمْ بِالْجُزُوخِ، وَيُقَاتِلُوْهُمْ.  
وَكَانَ ذَلِكَ يَعْظُمُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ أَهْلَ الْبَلْدِ يُقَاتِلُوْهُمْ

مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَأَصْحَابَ السُّوَانِيْ يُقَاتِلُوْهُمْ مِنْ  
جَانِبِهِمْ، فَكَائِنْ سِهَامُهُمْ تَنْفُذُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ إِلَى  
الْجَانِبِ الْآخِرِ لِصِيقِ الْمَوْضِعِ، فَكَثُرَتِ الْجِرَاحَاتِ فِي  
الْمُسْلِمِيْنَ وَالْقَتْلُ. وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الدُّخُولِ إِلَى الْبَلَدِ.

فَأَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينَ إِلَى

**السُّوَانِي الَّتِي جَاءَتْهُ مِنْ مِصْرَ، وَهِيَ عَشْرُ قِطْعٍ، وَكَانَتْ  
يُعَكَّا، فَأَخْضَرَهَا بِرْجَالِهَا وَمُقَابِلَتِهَا وَعِدَّتِهَا، وَكَانَتْ**

**فِي الْبَحْرِ تَمْنَعُ شَوَّانِي أَهْلٌ صُورَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى قَتَالٍ**  
**الْمُسْلِمِينَ، فَتَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ حِينَئِذٍ مِنَ الْقُرْبِ مِنَ**

**الْبَلْدِ، وَمِنْ قِتَالِهِ، فَقَاتَلُوهُ بَرَا وَبَخْرًا وَصَائِفُوهُ حَتَّىٰ**

كادوا يظفرُونَ. فَجَاءَتِ الْأَقْدَارُ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحِسَابِ،

وَذَلِكَ أَنَّ خَمْسَ قِطْعٍ مِنْ شَوَّانِي الْمُسْلِمِينَ بَايَتْ، فِي بَعْضِ

**تِلْكَ الَّتِي أَلِمَّنِي، مُقَابِلَ مِبَاءِ صُورٍ لِيُمْتَعُوا مِنَ الْخُرُوجِ**

**مِنْهُ وَالذُّخُولِ إِلَيْهِ، فَبَايُوا لِيَلَّتْهُمْ يَخْرُشُونَ، وَكَانَ**

## **مُقَدَّمَهُمْ عَبْدُ السَّلَامِ الْمَعْرِيَّ الْمَوْضُوفَ بِالْحَدَّاقِ فِي**

**صَنَاعَتِهِ. فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ السَّحْرِ أَمْتَوْا فَتَاهُوا، فَمَا شَعَرُوا**

**إِلَّا يَشْوَانِي الْفِرْجُ قَدْ تَأْرَلَنُهُمْ وَصَايَقَتْهُمْ، فَأَوْقَعْتُ**

**يٰهُمْ، فَقَتَلُوا مَنْ أَرَادُوا قُتْلَةً، وَأَخْذُوا الْبَاقِينَ**

**يَمْرَأٍ كِبِيرٍ، وَأَذْخِلُوا مِيَنَاءَ صَوْرَ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي الْبَرِّ**

**يَنْتَظِرُونَ إِلَيْهِمْ، وَرَمَى جَمَاعَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنفُسَهُمْ مِنْ**

السُّوَانِي فِي الْبَحْرِ، فَمِنْهُمْ مَنْ سَبَحَ فَنَجَا، وَمِنْهُمْ مَنْ  
غَرِقَ. وَتَقَدَّمَ السُّلْطَانُ إِلَى السُّوَانِي الْبَاقِيَةِ بِالْمَسِيرِ  
إِلَى بَيْرُوتِ لِعَدَمِ اِتِّفَاعِهِ بِهَا لِقُلْتِهَا، فَسَارَتْ،  
فَتَبَعَّهَا سَوَانِي الْفِرِيْجِ، فَجِئَ رَأَى مَنْ فِي سَوَانِي  
الْمُسْلِمِينَ الْفِرِيْجَ مُجَدِّيَنَ فِي طَلَبِهِمْ أَلْقَوْا نُفُوسَهُمْ فِي  
سَوَانِيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَنَجَوْا وَتَرَكُوهَا، فَأَخَذَهَا صَلَاحُ  
الدِّينِ، وَنَفَضَّهَا وَعَادَ إِلَى مُقاَلَةِ صُورَ فِي الْبَرِّ، وَكَانَ  
ذَلِكَ قَلِيلًا الْجَدُودِيَّ لِصَبِيقِ الْمَجَالِ.

وَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ حَرَجَ  
الْفِرِيْجُ فَقَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ خَنَادِقِهِمْ، فَاسْتَدَّ  
الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَدَامَ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، كَانَ  
خُرُوجُهُمْ قَبْلَ الْعَصْرِ، وَأَسِرَّ مِنْهُمْ فَارِسٌ كَبِيرٌ مَشْهُورٌ،  
بَعْدَ أَنْ كَثُرَ الْقِتَالُ وَالْقَتْلُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، لَمَّا  
سَقَطَ، قَلَّمَا أَسِرَّ قُتِلَ، وَتَقَوْا كَذَلِكَ عِدَّةً أَيَّامٍ.

### ذِكْرٌ

الرَّجِيلُ عَنْ صُورَ إِلَى عَكَّا وَتَفْرِيقِ الْعَسَاكِيرِ  
لَمَّا رَأَى صَلَاحَ الدِّينِ  
أَنَّ أَمْرَ صُورَ يَطْلُوْ رَحْلَ عَنْهَا. وَهَذِهِ كَائِنَةُ عَادَةُ، مَتَّى تَبَكَّ  
الْبَلَدُ بَيْنَ يَدِيهِ صَبَرَ مِنْهُ وَمِنْ جِصَارِهِ فَرَحَلَ عَنْهُ،  
وَكَانَ هَذِهِ الْسِّنَةُ لَمْ يَطْلُبْ مُقَامَهُ عَلَى مَدِينَةِ بَلْ فَتَحَ

الْجَمِيعُ فِي الْأَيَّامِ الْقَرِيبَةِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، يَعْبِرُ تَعْبٍ  
وَلَا مَسْعَفَةً. قَلَمَّا رَأَى هُوَ وَأَصْحَابُهُ شِدَّةً أَمْرِ صُورَ  
مَلُوْهَا، وَطَلَبُوا الِائْتِقَالَ عَنْهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ ذَنْبٌ فِي  
أَمْرِهَا غَيْرَ صَلَاحِ الدِّينِ، فَإِنَّهُ هُوَ جَهَنَّمُ إِلَيْهَا جُنُودٌ  
الْفِرِنْجُ، وَأَمْدَهَا بِالرِّجَالِ وَالْأُمْوَالِ مِنْ أَهْلِ عَكَّا  
وَعَسْقَلَانَ وَالْقُدْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ. كَانَ  
يُعْطِيهِمُ الْأَمَانَ وَيُرْسِلُهُمْ إِلَى صُورَ، فَصَارَ فِيهَا مَنْ سَلِيمٌ  
مِنْ فُرْسَانِ الْفِرِنْجِ بِالسَّاحِلِ، يَأْمُوْلُهُمْ وَأَمْوَالِ  
الْتُّجَارِ وَغَيْرِهِمْ، فَحَفِظُوا الْمَدِينَةَ وَرَاسَلُوا الْفِرِنْجَ  
دَاخِلَ الْبَحْرِ يَسْتَمِدُوْهُمْ، فَأَجَابُوهُمْ بِالثَّلِيْبَةِ  
لِدَعْوَتِهِمْ، وَوَعْدُهُمْ بِالنُّصْرَةِ، وَأَمْرُوهُمْ بِحِفْظِ صُورَ  
لِتَكُونَ دَارَ هِجْرَتِهِمْ يَحْتَمُونَ بِهَا وَيَلْجَأُونَ إِلَيْهَا،  
فَرَادُهُمْ ذَلِكَ حِرْصًا عَلَى حِفْظِهَا وَالذَّبْ بَ عَنْهَا.

وَسَنَذْكُرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
مَا صَارَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَلِكَ لَا  
يَبْغِي أَنْ يَنْزَكَ الْحَرْمَ، وَإِنْ سَاعَدَهُ الْأَقْدَارُ، فَلَأَنْ يَعْجِزَ  
حَازِمًا حَيْرَ لَهُ مِنْ أَنْ يَطْفَرَ مُقَرّ طَأْ مُصَيْعًا لِلْحَرْمِ،

[245]  
وَأَعْذَرَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ.  
وَلَمَّا أَرَادَ الرَّجِيلَ

اسْتَسْأَرْ أَمْرَاءُهُ، فَأَخْتَلُفُوا، فَجَمَاعَةٌ يَقُولُونَ: الرَّأْيُ أَنْ  
تَرْحَلَ، فَقَدْ جُرِحَ الرِّجَالُ، وَقُتِلُوا، وَمَلُوا، وَقَبَيْتَ  
النَّفَقَاتِ، وَهَذَا الشَّاءُ قَدْ حَصَرَ، وَالسُّوْطُ بِطِينِ، فَنُرِيَخُ  
وَتَسْتَرِيَخُ فِي هَذَا الْبَزْدِ، فَإِذَا جَاءَ الرَّبِيعَ اجْتَمَعْنَا  
وَعَاقُدْنَاهَا وَغَيْرَهَا. وَكَانَ هَذَا قَوْلُ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ،  
وَكَانُوكُمْ خَافُوا أَنَّ السُّلْطَانَ يَقْتَرِضُ مِنْهُمْ مَا يُنْفِقُهُ فِي  
الْعَسْكَرِ إِذَا أَقَامَ لِخُلُوُّ الْخَرَائِنِ وَبُيُوتِ الْأَمْوَالِ مِنْ  
الْدُّرْهُمِ وَالْدِينَارِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُخْرِجُ كُلَّ مَا خُلِمَ إِلَيْهِ  
مِنْهَا. وَقَالَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى: الرَّأْيُ أَنْ نُصَابِرَ الْبَلَدَ  
وَنُصَابِقَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ مِنْ حُصُونِهِمْ، وَمَتَى  
أَخْذَتَهُ مِنْهُمْ انْقَطَعَ طَمَعُ مَنْ دَاهِلَ الْبَحْرِ مِنْ هَذَا  
الْجَانِبِ وَأَخْذَتَا بَاقِيَ الْبِلَادِ صَفْوًا عَفْوًا. فَبَقِيَ صَلَاحُ  
الْدِينِ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّحِيلِ وَالْإِقَامَةِ، فَلَمَّا رَأَى مَنْ  
يَرَى الرَّحِيلَ إِقَامَتِهِ أَخْلَى بِمَا رَدَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُحَارَبَةِ  
وَالرَّمْيِ بِالْمُنْجَنِيقِ، وَاعْتَدْرُوا بِجِرَاحِ رِجَالِهِمْ، وَأَنْهُمْ  
قَدْ أَرْسَلُوا بَعْضَهُمْ لِيُخْصِرُوا تَفَقَّاتِهِمْ وَالْغُلُوقَاتِ  
لِدَوَابِهِمْ وَالْأَقْوَاتِ لَهُمْ، إِلَى عَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ،  
فَصَارُوا مُقِيمِينَ بِعَيْرِ قِتَالٍ، فَاصْطُرَّ إِلَى الرَّحِيلِ، فَرَحَلَ  
عَنْهَا آخِرَ شَوَّالٍ. كَانَ أَوَّلَ كَاثُونَ الْأَوَّلِ (ديسمبر)، إِلَى  
عَكَّا، فَأَذِنَ لِلْعِسَاكِرِ جَمِيعَهَا بِالْعَوْدِ إِلَى أَوْطَانِهِمْ وَالِاسْتِرَاخَةِ

فِي السَّنَاءِ، وَالْعَوْدِ فِي الرَّبِيعِ، فَعَادُثْ عَسَاكِرُ الشَّرْقِ  
وَالْمَوْصِلِ وَغَيْرِهَا، وَعَسَاكِرُ السَّامِ، وَعَسَاكِرُ مِصْرَ، وَبَقِيَ  
حِلْقَةُ الْحَاصِّ مُقِيمًا بِعَكَّا، فَنَزَلَ بِقَلْعَتِهَا، وَرَدَّ أَمْرَ  
الْبَلَدِ إِلَى عِزِّ الدِّينِ جُوْزِدِيكَ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الْمَمَالِكِ  
الشُّورِيَّةِ، جَمَعَ الدِّيَانَةِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَخُسْنَ السَّيَرَةِ.

## كان ضياع القدس والمقاومة الباسلة

التي ابداها المركيز كونراد<sup>[246]</sup> في

صور عاملان رئيسيان في تحريك الحملة الصليبية الثالثة. لكن الفصل الرئيسي في هذا

الشأن كان الحصار الطويل لعكا الذي امتد بين 1189 و1191 والذي بدأ قبل وصول

كل من فيليب اوغست وريتشارد انكلترا ليشدوا ويجنبا ثمار الحصار الإفرنجي الصارم

على ذلك المرفأ الفلسطيني الذي كان قد سقط عام 1187 في يد صلاح الدين. ومن المعروف أن حصاراً مزدوجاً قد حدث وقتها إذ حاصر الإفرنج

الساحة في الوقت الذي ضرب فيه صلاح الدين حصاراً حولهم، لكن الصعوبات العملية

منعته من التواصل مع أهل عكا المحاصرين ليقف وكأنه مكتوف الأيدي أمام احتضار

المدينة البطيء. صاحبت وقائع هذا الحصار محاولات شرسه لفكه مليئة بصور فريدة أخاذة

حملتنا على الاستشهاد بكل من بهاء الدين وعماد الدين وابن الأثير، على حد سواء.

ذكُرْ

مسير الفرج إلى عكا ومحاضرتها

(ابن الآثير، 20/12/2026) لَمَّا كَتَرَ جَمْعُ الْفِرِنْجِ  
يَصُورُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ كَانَ كُلُّمَا فَتَحَ  
مَدِينَةً أَوْ قَلْعَةً أَعْطَى أَهْلَهَا الْأَمَانَ، وَسَيَرُهُمْ إِلَيْهَا  
يَأْمُوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، اجْتَمَعَ بِهَا مِنْهُمْ عَالَمٌ  
كَثِيرٌ لَا يُعْدُ وَلَا يُخْصَى، وَمِنَ الْأُمُوَالِ مَا لَا يَقْنَى عَلَى  
كَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِي السَّنِينِ الْكَثِيرَةِ.  
لَمَّا إِنَّ الرُّهْبَانَ

وَالْقُسُوسَ وَخَلْقًا كَثِيرًا مِنْ مَشْهُورِهِمْ، وَفُرْسَانِهِمْ لَيُسُوا  
السَّوَادَ، وَأَطْهَرُوا الْخُرْنَ عَلَى خُرُوجِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ مِنِ  
أَيْدِيهِمْ، وَأَخْدَهُمُ الْبَطْرُكُ الَّذِي كَانَ بِالْقُدْسِ، وَدَخَلَ  
بِهِمْ بِلَادَ الْفِرِنْجِ يَطْلُوفُهَا بِهِمْ جَمِيعًا، وَيَسْتَبِحُونَ  
أَهْلَهَا، وَيَسْتَعِيْرُونَ بِهِمْ، وَيَخْتَوِهِمْ عَلَى الْأَخْذِ بِتَأْرِ  
الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ. وَصَوَّرُوا الْمَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -  
وَجَعَلُوهُ مَعَ صُورَةِ عَرَبِيٍّ يَصْرِيْهُ، وَقَدْ جَعَلُوا الدَّمَاءَ عَلَى  
صُورَةِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَالُوا لَهُمْ: هَذَا الْمَسِيحُ  
يَصْرِيْهُ مُحَمَّدٌ تَبَّيْنُ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ جَرَحَهُ وَقَتَلَهُ. فَعَطَمُ  
ذَلِكَ عَلَى الْفِرِنْجِ فَخَسَرُوا وَحَسَدُوا حَتَّى النِّسَاءَ، فَلِأَنَّهُمْ  
كَانُوا مَعَهُمْ عَلَى عَكَّا عِدَّهُ مِنَ النِّسَاءِ يُتَارِزُنَ الْأَفْرَانَ  
عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.  
وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ الْخُرُوجَ

اسْتَأْجَرَ مَنْ يَخْرُجُ عِوْصَهُ أَوْ يُعْطِيهِمْ مَا لَا عَلَى قَدْرِ  
حَالِهِمْ. فَاجْتَمَعَ لَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالْأُمَوَالِ مَا لَا  
يَنْطَرِقُ إِلَيْهِ الْإِحْصَاءُ.

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ

الْمُسْلِمِينَ الْمُقِيمِينَ بِحِصْنِ الْأَكْرَادِ، وَهُوَ مِنْ أَجْنَادِ  
أَصْحَابِهِ الَّذِينَ سَلَّمُوا إِلَى الْفِرْنِيجِ قَدِيمًا، وَكَانَ هَذَا  
الرَّجُلُ قَدْ تَدَمَّرَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ [مِنْ] مُوَافَقَةِ الْفِرْنِيجِ فِي  
الْعَارَةِ عَلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ، وَالسَّعْيِ  
مَعَهُمْ، وَكَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِ مَا أَذْكُرُهُ سَنَةِ تِسْعِينَ  
وَحَمْسِيَّةٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. قَالَ لِي هَذَا الرَّجُلُ إِنَّهُ  
دَخَلَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْفِرْنِيجِ مِنْ حِصْنِ الْأَكْرَادِ إِلَى  
الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي لِلْفِرْنِيجِ وَالرُّومِ فِي أَرْبَعِ شَوَّاْنِ،  
يَسْتَنْجِدُونَ قَالَ: فَأَنْتَهُمْ بِنَا التَّطْوِافُ إِلَى رُومِيَّةِ  
الْكُبُرَى، فَخَرَجْنَا مِنْهَا وَقَدْ مَلَأْنَا الشَّوَّاْنَ نُقْرَةً.

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الْأَسْرَى

مِنْهُمْ أَنَّهُ لَهُ وَالِدَهُ لَيْسَ لَهَا وَلْدٌ سِوَاهُ، وَلَا يَمْلِكُونَ  
مِنَ الدُّنْيَا عَيْرَ بَيْتٍ بَاعْنَهُ وَجَهَرَهُ بِتَمْنِيهِ، وَسَيِّرَتْهُ  
لَا سِنْقَادٌ بَيْتٍ وَاحِدٍ فَأُخِذَ أَسِيرًا. وَكَانَ عِنْدَ الْفِرْنِيجِ  
مِنَ الْبَاعِثِ الدِّينِيِّ وَالنَّفْسَانِيِّ مَا هَذَا حَدْهُ، فَخَرَجُوا  
عَلَى الْصَّعْبِ وَالذَّلْوِلِ، بَرَّا وَبَحْرًا، مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ،

وَلَوْلَا [أَنَّ] اللَّهُ تَعَالَى لَطَافٌ بِالْمُسْلِمِينَ، وَأَهْلَكَ مَلِكَ  
الْأَلْمَانِ لَمَّا حَرَجَ عَلَى مَا نَذْكُرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى  
السَّامِ، وَإِلَّا كَانَ يُقَالُ: إِنَّ السَّامَ وَمِصْرَ كَاتِنَ  
لِلْمُسْلِمِينَ.

فَهَذَا كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِمْ  
فَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِصُورَ تَمَوَّحَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَمَعْهُمْ  
الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ، وَالْبَحْرُ يَمْدُدُهُمْ بِالْأَقْوَاتِ  
وَالدُّخَانِ، وَالْعَدِيدُ وَالرِّجَالُ مِنْ بَلَادِهِمْ. فَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ  
صُورُ بَاطِنِهَا وَظَاهِرِهَا فَأَرَادُوا فَصْدَ صَيْداً وَكَانَ مَا

[247] ذَكَرْنَاهُ. فَعَادُوا

وَأَنْقُفُوا عَلَى فَصِدِّ عَكَّا وَمُحَاصِرَتِهَا وَمُصَابِرَتِهَا، فَسَارُوا  
إِلَيْهَا بِفَارِسِهِمْ وَرَاجِلِهِمْ، وَقَصِّهِمْ وَقَصِيبِصِهِمْ، وَلَزَمُوا  
الْبَحْرَ فِي مَسِيرِهِمْ لَا يُقَارِفُونَهُ فِي السَّهْلِ وَالْوَغْرِ،  
وَالصِّيقِ وَالسَّعْةِ، وَمَرَاكِيْبِهِمْ تَسِيرُ مُقَابِلَهُمْ فِي الْبَحْرِ  
فِيهَا سِلَاحُهُمْ وَذَخَائِرُهُمْ، وَلَئِنْكُونَ عَدَّةً لَهُمْ، إِنْ جَاءَهُمْ  
مَا لَا قَبْلَ لَهُمْ يُوَرِّكُونَ فِيهَا وَعَادُوا.

وَكَانَ رَحِيلُهُمْ تَأْمِنَ

رَجَبٌ (585/22 أَب / أوغست 1189)،

وَنُزُولُهُمْ عَلَى عَكَّا فِي مُنْتَصِفِهِ، وَلَمَّا كَانُوا سَائِرِينَ كَانَ

يَرْكَ الْمُسْلِمِينَ يَسْخَطُوْهُمْ، وَيَاخُذُونَ الْمُنْفَرِدَ مِنْهُمْ.

## وَلَمَّا رَحُلُوا جَاءَ الْبَرْ

إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ يَرْجِلُهُمْ، فَسَارَ حَتَّى قَارَبُوهُمْ، ثُمَّ جَمَعَ أُمَّرَاءَهُ وَاسْتَشَارُوهُمْ: هَلْ يَكُونُ الْمَسِيرُ مُحَاذَاةً لِلْفِرْنَجِ وَمُقَاتَلَتَهُمْ وَهُمْ سَائِرُونَ أَوْ يَكُونُ فِي عَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكُوهَا؟ فَقَالُوا: "لَا حَاجَةٌ بِنَا إِلَى احْتِمَالِ الْمَسْعَةِ فِي مُسَايِرَتِهِمْ، فَإِنَّ الطَّرِيقَ وَعِزْ وَصَيْقٌ وَلَا يَتَهَيَّأُ لَنَا مَا نُرِيدُهُ مِنْهُمْ، وَالرَّأْيُ أَنَّا تَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ الْمَهْبِعِ، وَجَمِيعُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ عَكَّا، فَنُقْرِفُهُمْ وَنُمَرِّفُهُمْ". فَعَلِمَ مِنْهُمْ إِلَى الرَّاحِةِ الْمُعَجَّلَةِ، فَوَافَقُهُمْ، وَكَانَ رَأْيُهُ مُسَايِرَتَهُمْ وَمُقَاتَلَتَهُمْ وَهُمْ سَائِرُونَ، وَقَالَ: "إِنَّ الْفِرْنَجَ إِذَا تَرَلُوا لَصَفُوا بِالْأَرْضِ، فَلَا يَتَهَيَّأُ لَنَا إِزْعَاجُهُمْ، وَلَا تَبْلُغُ الْعَرَضِ مِنْهُمْ، وَالرَّأْيُ قِتَالُهُمْ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى عَكَّا"، فَخَالَفُوهُ فَتَبَعَهُمْ، وَسَارُوا عَلَى طَرِيقِ كَفْرِ كُنَّا فَسَبَقَهُمُ الْفِرْنَجُ. وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ جَعَلَ فِي مُقَابِلِ الْفِرْنَجِ جَمَاعَةً مِنَ الْأُمَّرَاءِ يُسَايِرُوهُمْ، وَبُنَا وَشُوَّهُمُ الْقِتَالُ، وَسَخَطُوْهُمْ، وَلَمْ يَقْدِمْ الْفِرْنَجُ عَلَيْهِمْ مَعَ قَلْيَهُمْ، قَلْوَ أَنَّ الْعَسَاكِرَ اتَّبَعَتْ رَأْيَ صَلَاحِ الدِّينِ فِي مُسَايِرَتِهِمْ وَمُقَاتَلَتِهِمْ قَبْلَ تُرْزُولِهِمْ عَلَى عَكَّا لِكَانَ

بَلَغَ عَرْصَهُ وَصَدَّهُمْ عَنْهَا، وَلِكُنْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا  
هَيَّاً أَسْبَابَهُ.

وَلَمَّا وَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ  
إِلَى عَكَّا رَأَى الْفِرِنْجَ قَدْ تَرَلُوا عَلَيْهَا مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ،  
مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا طَرِيقٌ،  
فَنَزَلَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَيْهِمْ وَصَرَبَ حَيْمَةَ عَلَى تَلٍّ كَيْسَانَ،  
وَامْتَدَّتْ مَيْمَنَتُهُ إِلَى تَلٍّ الْعِيَاضِيَّةِ وَمَيْسَرَتُهُ إِلَى  
النَّهْرِ الْجَارِيِّ، وَتَرَلَتِ الْأَنْقَالُ بِصَفُورِيَّةِ وَسَيْرِ  
الْكُنْتَ إِلَى الْأَطْرَافِ بِاسْتِدْعَاءِ الْعَسَاكِيرِ، فَأَتَاهُ عَسْكَرُ  
الْمَوْصِلِ، وَدِيَازُ بَكْرٍ وَسِنجَارَ وَغَيْرِهَا مِنْ يَلَادِ  
الْجَزِيرَةِ، وَأَتَاهُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ أَخِيهِ، وَأَتَاهُ مُظَفَّرُ  
الدِّينِ بْنُ رَيْنِ الدِّينِ، وَهُوَ صَاحِبُ حَرَّانَ وَالرُّثَّا. وَكَانَتِ  
الْأَمْدَادُ تَأْتِي الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ وَتَأْتِي الْفِرِنْجَ فِي  
الْبَحْرِ، وَكَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مُدَّهُ مَقَامِهِمْ عَلَى عَكَّا  
خُرُوفُ كَثِيرَهُ مَا بَيْنَ صَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ، مِنْهَا الْتَّوْمُ  
الْمَسْهُورُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ دُونَ ذِلِّكَ، وَأَتَاهُ أَذْكُرُ الْأَيَّامِ  
الْكِبَارِ لِئَلَّا يَطُولَ ذِلِّكَ، وَلِأَنَّ مَا عَدَاهَا كَانَ قِتَالًا  
يَسِيرًا مِنْ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ، فَلَا حَاجَةٌ إِلَى ذِكْرِهِ.

وَلَمَّا تَرَلَ السُّلْطَانُ  
عَلَيْهِمْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ، وَلَا إِلَى عَكَّا حَتَّى

اِنْسَلَاحَ رَجَبُ ثُمَّ قَاتَلُوكُمْ مُسْتَهْلِكٌ سَعْيَاً (منتصف ايلول/سبتمبر) فَلَمْ يَتَلَّ مِنْهُمْ  
مَا يُرِيدُ وَبَاتِ النَّاسُ عَلَى تَعْيَّةٍ. فَلَمَّا

كَانَ الْغُدُ بِأَكْرَهُمُ الْقِتَالِ بِحَدِّهِ وَحَدِيدِهِ، وَاسْتَدَارَ  
عَلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِ جَهَاتِهِمْ مِنْ بَكْرَةٍ إِلَى الطُّهْرِ، وَصَبَرَ  
الْفَرِيقَانِ صَبْرًا حَارَ لَهُ مَنْ رَآهُ. فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الطُّهْرِ  
حَمَلَ عَلَيْهِمْ تَقْيِيَ الدِّينِ حَمْلَةً مُنْكَرَةً مِنَ الْمَيْمَنَةِ عَلَى  
مَنْ يَلِيهِ مِنْهُمْ، فَأَزَّا خَاهِمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ يَرْكُبُ بَعْضُهُمْ  
بَعْضًا لَا يَلْوِي أَخْ عَلَى أَخٍ، وَالْتَّجَاؤُوا إِلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ  
أَصْحَابِهِمْ، وَاجْتَمَعُوا بِهِمْ، وَاحْتَمَمُوا بِهِمْ، وَأَخْلَوُا نِصْفَ  
الْبَلَدِ، وَمَلَكَ تَقْيِيَ الدِّينِ مَكَانَهُمْ، وَالْتَّصْقِي بِالْبَلَدِ،  
وَصَارَ مَا أَخْلَوْهُ يَبْدِي وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْبَلَدَ وَخَرَجُوا  
مِنْهُ وَاتَّصَلَتِ الطُّرُقُ وَزَالَ الْحَصْرُ عَمَّنْ فِيهِ، وَأَدْخَلَ  
صَلَاحَ الدِّينِ إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ مِنَ الرِّجَالِ، وَمَا أَرَادَ مِنَ  
الْذَّحَائِرِ وَالْأَمْوَالِ وَالسَّلَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَلَوْ أَنَّ  
الْمُسْلِمِينَ لَرِمُوا قِتَالَهُمْ إِلَى اللَّيْلِ لَبَلَغُوا مَا أَرَادُوهُ،  
فَإِنَّ لِلصَّدْمَةِ الْأُولَى رَوْعَةً، لَكِنَّهُمْ لَمَّا تَالُوا مِنْهُمْ  
هَذَا الْقُدْرَ أَخْلَدُوا إِلَى الرَّاحِةِ، وَتَرَكُوا الْقِتَالَ وَقَالُوا: نُبَاكِرُهُمْ عَدَا، وَتَقْطَعُ  
دَائِرَهُمْ. وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ  
أَدْخَلَهُ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى عَكَّا مِنْ جُمْلَةِ الْأُمَرَاءِ خُسَامُ  
الدِّينِ أَبُو الْهَيْجَاءِ السَّمِينِ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ أُمَرَاءِ  
عَسْكَرِهِ، وَهُوَ مِنْ الْأَكْرَادِ الْحَكَمِيَّةِ مِنْ بَلَدِ إِرِيزِلِ،

وَقَلَّ مِنَ الْفِرِنجِ هَذَا الْيَوْمَ جَمَاعَةً كَبِيرَةً.

## ذِكْرٌ

وَقُعْدَةٌ أُخْرَى وَوَقْعَةُ الْعَرَبِ

لِمَ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ

تَهَضُوا إِلَى الْفِرِنجِ مِنَ الْعَدِ وَهُوَ سَادِسُ شَعْبَانَ (19 أَيُّولُو/سَبْتمْبَر) عَازِرِيْنَ، عَلَى بَذْلِ جُهْدِهِمْ وَاسْتِنْقَادِ وُسْعِهِمْ فِي اسْتِئْصَالِهِمْ. فَتَقَدَّمُوا عَلَى تَعْبِتِهِمْ، فَرَأُوا الْفِرِنجَ حَذِيرَيْنَ مُحْتَاطِيْنَ، قَدْ تَدَمُوا عَلَى مَا فَرَّطُوا فِيهِ يَا لَأْمَسِ، وَهُمْ قَدْ حَفِظُوا أَطْرَاقَهُمْ وَتَوَاهِيْهُمْ، وَسَرَعُوا فِي حَفْرٍ خَنْدَقٍ يَمْنَعُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ فَالْأَجَّ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يَتَقَدَّمُ الْفِرِنجُ إِلَيْهِمْ، وَلَا فَارَقُوا مَرَابِصَهُمْ، قَلَّمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ عَادُوا عَنْهُمْ.

لِمَ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ

الْعَرَبِ بَلَغُهُمْ أَنَّ الْفِرِنجَ تَخْرُجُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى إِلَى الْإِخْتِطَابِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَسْعَالِهِمْ. فَكَمْنُوا لَهُمْ فِي مَعَاطِفِ النَّهَرِ وَتَوَاهِيْهِ سَادِسَ شَعْبَانَ (29 أَيُّولُو/سَبْتمْبَر) فَلَمَّا خَرَجَ جَمْعٌ مِنَ الْفِرِنجِ عَلَى عَادِهِمْ حَمَلَتْ عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ، فَقَتَلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَغَنِمُوا مَا كَانَ مَعَهُمْ. وَحَمَلُوا الرُّؤْسَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، فَأَخْسَنَ إِلَيْهِمْ وَأَعْطَاهُمُ الْخِلَعَ.

## ذکر

الْوَقْعَةُ الْكُبْرَى عَلَى عَكَّا

لَمَّا كَانَ بَعْدَ هَذِهِ

الْوَقْعَةُ الْمَذْكُورَةُ بَقِيَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْعِشْرِينَ مِنْ

شَعْبَانَ (3 نُوشْرِينَ أَوْلَى أَكْتوُبْرِ)،

كُلَّ يَوْمٍ يُعَاذُونَ الْقِتَالَ مَعَ الْفِرِنْجِ وَبُرَّا وَخُوتَةَ

وَالْفِرِنْجُ لَا يَطْهَرُونَ مِنْ مُعْسَكَرِهِمْ وَلَا يُقَارِفُونَهُ، ثُمَّ

إِنَّ الْفِرِنْجَ احْتَمَلُوا لِلْمَسْوَرَةَ، فَقَالُوا: إِنَّ عَسْكَرَ مِصْرَ

لَمْ يَخْصُرْ وَالْحَالُ مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ هَكَذَا، فَكَيْفَ يَكُونُ إِذَا

خَصَرَ؟ وَالرَّأْيُ أَنَّا تَلَقَّى الْمُسْلِمِينَ عَدَا لَعْلَّا تَظْلَمُ

بِهِمْ قَبْلَ اجْتِمَاعِ الْعَسَاكِرِ وَالْأَمْدَادِ إِلَيْهِمْ. وَكَانَ

كَثِيرٌ مِنْ عَسْكَرِ صَلَاحِ الدِّينِ غَائِبًا عَنْهُ، بَغْضُهَا مُقَابِلَ

أَنْطَاكِيَّةَ لِيَرْدُوا عَادِيَّةَ بِيمْنَدَ صَاحِبِهَا عَنْ أَعْمَالِ

خَلَبَ، وَبَغْضُهَا فِي حِمْصَ مُقَابِلَ طَرَابُلُسَ لِتَحْفَظَ ذَلِكَ

النَّعْرَ أَيْضًا، وَعَسْكَرٌ فِي مُقَابِلِ صُورَ لِحِمَايَةِ ذَلِكَ الْبَلَدِ.

وَعَسْكَرٌ بِمِصْرَ يَكُونُ يَنْتَهِ دِمْيَاطَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ

وَغَيْرِهِمَا، وَالَّذِي بَقِيَ مِنْ عَسْكَرِ مِصْرَ كَانُوا لَمْ يَصِلُوا

لِطُولِ بِيَكَارِهِمْ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ، وَكَانَ هَذَا مِمَّا أَطْمَعَ الْفِرِنْجَ

فِي الظُّهُورِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى

عَادُتِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ يَنْقَدِمُ إِلَى الْقِتَالِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي  
حَيْمَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ تَوَجَّهَ فِي حَاجَتِهِ مِنْ زِيَارَةِ  
صَدِيقٍ، وَتَحْصِيلِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَدَوَابَّهُ،  
إِلَى عَيْرِ دَلَكَ، فَخَرَجَ الْفِرِنْجُ مِنْ مُعْسَكِرِهِمْ كَأَنَّهُمْ  
الْجَرَادُ الْمُشْتَثِرُ، يَدْبُونَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَدْ مَلَأُوهَا  
طُولًا وَعَرْضًا، وَطَلَبُوا مَيْمَنَةَ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهَا تَقْيَّ  
الَّذِينَ عُمِرُوا بِأَبْنِ أَخِي صَلَاحِ الدِّينِ قَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجَ  
تَحْوَهُ قَاصِدِينَ حَذَرَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَنَقَدَّمُوا إِلَيْهِ، قَلَمَّا  
قَرُبُوا مِنْهُ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ.

فَلَمَّا رَأَى صَلَاحُ الدِّينَ  
الْحَالَ وَهُوَ فِي الْقَلْبِ، أَمَدَّ تَقْيَّ الدِّينِ بِرِجَالٍ مِنْ عِنْدِهِ  
لِيَتَقَوَّى بِهِمْ، وَكَانَ عَسْكَرُ دِيَارِ بَكْرٍ وَبَعْضُ السَّرْقَيْنَ  
فِي جَنَاحِ الْقَلْبِ، فَلَمَّا رَأَى الْفِرِنْجَ قِلَّةً الرِّجَالِ فِي  
الْقَلْبِ، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ قَدْ سَارَ تَحْوَهُ الْمَيْمَنَةَ مَدَّا  
لَهُمْ عَطَافُوا عَلَى الْقَلْبِ، فَحَمَلُوا حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ.  
فَانْدَفَعَتِ الْعَسَاكِرُ بَيْنَ

أَيْدِيهِمْ مُنْهَزِمِينَ، وَتَبَتَّ بَعْصُهُمْ، فَاسْتُشْهِدَ جَمَاعَةُ  
مِنْهُمْ كَالْأَمِيرِ مَجْلِيِّ بْنِ مَرْوَانَ، وَالظَّاهِيرِ أَخِي الْقَفِيفِيِّ  
عِيسَى، وَكَانَ وَالِيَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ السَّجَاغَةِ  
وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَكَالْحَاجِبِ خَلِيلِ الْهَكَارِيِّ، وَغَيْرِهِمْ

مِنَ السُّجْعَانِ الصَّابِرِينَ فِي مُواطِنِ الْحَزْبِ.

وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

فِي الْقَلْبِ مَنْ يَرْدُهُمْ، فَقَصَدُوا اللَّهَ الَّذِي عَلَيْهِ حِيمَةٌ  
صَلَاحِ الدِّينِ، فَقَتَلُوا مَنْ مَرُوا بِهِ، وَتَهْبُوا، وَقَتَلُوا عِنْدَ  
حِيمَةِ صَلَاحِ الدِّينِ جَمَاعَةً، مِنْهُمْ شَيْخُنَا جَمَالُ الدِّينِ أَبُو  
عَلَيٍّ بْنِ رَوَاحَةَ الْحَمْوَى، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَهُ  
شِعْرٌ حَسَنٌ، وَمَا وَرَثَ السُّهَادَةَ مِنْ بَعِيدٍ، فَإِنَّ جَدَّهُ عَبْدَ  
اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ، صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

[248]  
وَسَلَّمَ، قَتَلَهُ الرُّومُ يَوْمَ مُؤْتَهَ ،

وَهَذَا قَتَلَهُ الْفِرِنْجُ يَوْمَ عَكَّا، وَقَتَلُوا عَيْرَةً. وَانْحَدَرُوا  
إِلَى الْجَانِبِ الْأَخْرِيِّ مِنَ اللَّلَّ، فَوَضَعُوا السَّيْفَ فِيمَنْ لَقِوَهُ،  
وَكَانَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْفِرِنْجَ لَمْ  
يُلْقِوْا حِيمَةَ صَلَاحِ الدِّينِ، وَلَوْ لَفُوهَا لَعِلْمَ النَّاسِ  
وَصُولُهُمْ إِلَيْهَا، وَانْهَرَّا مَعْسَاكِرِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَكَانُوا  
انْهَرُّمُوا أَجْمَعِينَ.

ثُمَّ إِنَّ الْفِرِنْجَ تَطَرَّزا  
وَرَاءَهُمْ، فَرَأُوا أَمْدَادَهُمْ قَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ، فَرَجَعُوا  
حَوْفًا أَنْ يَنْقَطِعُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ، وَكَانَ سَبَبُ انْقِطَاعِهِمْ  
أَنَّ الْمَيْمَنَةَ وَقَفَتْ مُقَابِلَهُمْ، فَاخْتَاجَ بَعْضُهُمْ [أَنْ]

يَقْفَ مُقَايِلَهَا، وَحَمَلَتْ مَيْسَرَهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْفِرْنِجِ،  
 فَاسْتَغَلَ الْمَدُودُ بِقِتَالٍ مَنْ بِهَا عَنِ الاتِّصَالِ بِأَصْحَابِهِمْ،  
 وَعَادُوا إِلَى طَرَفِ خَنَادِيقِهِمْ، فَحَمَلَتِ الْمَيْسَرَهُ عَلَى  
 الْفِرْنِجِ الْوَاصِلِينَ إِلَى حَيْمَهُ صَلَاحِ الدِّينِ، فَصَادَفُوهُمْ  
 وَهُمْ رَاجِعُونَ، فَقَاتَلُوهُمْ، وَتَارُوهُمْ غَلْمَانُ الْعَسْكَرِ. وَكَانَ  
 صَلَاحُ الدِّينِ لَمَّا انْهَرَمَ الْقَلْبُ قَدْ تَبَعَهُمْ يُتَابِيَهُمْ،  
 وَيَأْمُرُهُمْ بِالْكَرَّةِ، وَمُعَاوِدَهُ الْقِتَالِ، فَاجْتَمَعَ مَعْهُ  
 مِنْهُمْ جَمَاعَهُ صَالِحَهُ، فَحَمَلَ بِهِمْ عَلَى الْفِرْنِجِ مَنْ وَرَاءَ  
 ظُهُورِهِمْ وَهُمْ مَسْعُولُونَ بِقِتَالِ الْمَيْسَرَهِ، فَأَخَذَتِهِمْ سُيُوفُ  
 اللَّهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَمْ يَقُلْ ثُمَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ، بَلْ قُتِلَ  
 أَكْثَرُهُمْ، وَأَخَذَ الْبَافُونَ أَسْرَى، وَفِي جُمْلَهُ مِنْ أَسْرَى  
 مُقَدَّمُ الدَّاوِيَهُ الَّذِي كَانَ قَدْ أَسْرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ

[249]  
وَأَطْلَقَهُ ،

فَلَمَّا طَافَرَ بِهِ الْآنَ قَتَلَهُ.

وَكَاتَهُ عِدَّهُ الْقَتْلَى،

سَوَى مَنْ كَانَ إِلَى جَانِبِ الْبَعْرِ، فِي عَشَرَهُ آلَافِ قَتِيلٍ، فَأَمَرَ  
 بِهِمْ، فَأَلْفُوا فِي النَّهَرِ الَّذِي يَسْرِبُ الْفِرْنِجَ مِنْهُ وَكَانَ  
 عَامَهُ الْقَتْلَى مِنْ فُرْسَانِ الْفِرْنِجِ، فَإِنَّ الرَّجَالَهُ لَمْ  
 يَلْحَفُوهُمْ، وَكَانَ فِي جُمْلَهُ الْأَسْرَى تَلَاثُ نِسْوَهُ فِرْنِجَيَاتٍ

كَنْ يُقَاتِلُنَّ عَلَى الْخَيْلِ، فَلَمَّا أَسْرَنَ، وَأَلْقَى عَنْهُنَّ  
السَّلَاحُ غَرِفْنَ أَنْهَنَ نِسَاءً. وَأَمَّا الْمُنْهَزِمُونَ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ مِنْ طَبَرِيَّةَ وَمِنْهُمْ مَنْ جَازَ  
الْأَرْدُنَّ وَعَادَ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَلَغَ دِمْسُقَ، وَلَوْلَا أَنَّ  
الْعَسَاكِرَ تَفَرَّقَتِ فِي الْهَزِيمَةِ لَكَانُوا بَلَغُوا مِنَ الْفِرِنْجِ  
[مِنْ] إِلَاسْتِنْصَالِ وَالْإِهْلَاكِ مُرَادُهُمْ، عَلَى أَنَّ الْبَاقِينَ  
بَذَلُوا جُهْدَهُمْ وَجَدُّوا فِي الْقِتَالِ، وَصَمَمُوا عَلَى الدُّخُولِ مَعَ  
الْفِرِنْجِ إِلَى مُعْسَكِرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَفْرَغُونَ مِنْهُمْ، فَجَاءَهُمْ  
الصَّرِيخُ يَأْنَ رِحَالَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ قَدْ نُهِبَتْ. وَكَانَ سَبَبُ  
هَذَا النَّهَبِ أَنَّ النَّاسَ لَمَّا رَأَوْا الْهَزِيمَةَ حَمَلُوا  
أَنْقَالَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ، فَتَارَ يَهُمْ أَوْتَاشُ الْعَسْكَرِ وَغُلْمَانُهُ  
فَنَهَبُوهُ وَأَتَوْا عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي عَزْمِ صَلَاحِ الدِّينِ أَنْ  
يُبَاكِرُهُمُ الْقِتَالُ وَالرَّحْفَ، فَرَأَى اسْتِغَالَ النَّاسِ بِمَا ذَهَبَ  
مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَهُمْ يَسْعَوْنَ فِي جَمِيعِهَا وَتَحْصِيلِهَا. فَأَمَرَ  
بِالنَّدَاءِ بِإِخْضَارِ مَا أُخْدَ، فَأَخْضَرَ مِنْهُ مَا مَلَأَ الْأَرْضَ  
مِنَ الْمَقَارِشِ وَالْعَيْبِ الْمَمْلُوَةِ وَالثَّيَابِ وَالسَّلَاحِ وَغَيْرِ  
ذَلِكَ فَرَدَّ الْجَمِيعَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَاتَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَا  
أَرَادَ، فَسَكَنَ رُؤُغُ الْفِرِنْجِ، وَأَصْلَحُوا شَأنَ الْبَاقِينَ مِنْهُمْ.

ذِكْرٌ

رَجِيلٌ صَلَاحُ الدِّينِ عَنِ الْفِرِنْجِ وَمَكِّنُهُمْ مِنْ حَضْرِ عَكَّا

لَمَّا قُتِلَ مِنَ الْفِرِّيجِ

ذِلِكَ الْعَدُوُ الْكَثِيرُ، جَاقَتِ الْأَرْضُ مِنْ تَنِ رِيحِهِمْ، وَقَسَدَ  
الْهَوَاءُ وَالْجَوُ، وَحَدَّتِ لِلْأَمْزِجَةِ فَسَادُ، وَانْحَرَفَ مِرَاجُ  
صَلَاحِ الدِّينِ، وَحَدَّتِ لَهُ قُولِّجٌ مُبَرْخٌ كَانَ يَعْنَادُهُ، فَحَضَرَ  
عِنْدَهُ الْأَمْرَاءُ وَأَسَارُوا عَلَيْهِ بِالِاتِّقَالِ مِنْ ذِلِكَ  
الْمَوْضِعِ وَتَرَكُ مُصَابِقَةَ الْفِرِّيجِ، وَحَسَّنُوهُ لَهُ.  
وَقَالُوا: "قَدْ صَيَّفْنَا

عَلَى الْفِرِّيجِ، وَلَوْ أَرَادُوا الِاتِّفَاصَالَ عَنْ مَكَانِهِمْ لَمْ  
يَقْدِرُوا، وَالرَّأْيُ أَنَّهَا تَبْعُدُ عَنْهُمْ بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُونَ مِنَ  
الرَّجِيلِ وَالْعَوْدِ فَإِنْ رَحُلُوا، وَهُوَ طَاهِرُ الْأَمْرِ، فَقَدْ  
كُفِيتَا شَرَّهُمْ وَكُفِّوْا شَرَّنَا، وَإِنْ أَقَامُوا عَوْدَنَا الْقِتَالَ  
وَرَجَعْنَا مَعَهُمْ إِلَى مَا تَحْنُ فِيهِ، ثُمَّ إِنَّ مِرَاجِكَ مُنْحَرِفٌ  
وَالْأَلْمَ سَدِيدٌ، وَلَوْ وَقَعَ إِرْجَافٌ لَهَلْكَ النَّاسُ، وَالرَّأْيُ  
عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ الْبُعْدُ عَنْهُمْ".

وَوَاقَفُهُمُ الْأَطْيَاءُ عَلَى

ذِلِكَ، فَأَجَابُهُمْ إِلَيْهِ إِلَى مَا يُرِيدُ اللَّهُ يَفْعَلُهُ (وَإِذَا  
أَرَادَ اللَّهُ يَقُومٌ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ

[250]

مِنْ وَالِّ[ ،

فَرَحُلُوا إِلَى الْخَرْوَةِ رَاعِيَ شَهْرِ رَمَضَانَ (16 تشرين أول/اكتوبر) وَأَمَرَ مَنْ يُعْكَأَ  
مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِحِفْظِهَا، وَإِغْلَاقِ

أبواهَا، وَالْأَخْيَاطِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِسَبَبِ رَحِيلِهِ.

فَلَمَّا رَحَلَ هُوَ

وَعَسَاكِرُهُ أَمِنَ الْفِرْنُجَ وَانْسَطُوا فِي تِلْكَ الْأَرْضِ، وَعَادُوا  
فَحَصَرُوا عَكَّا، وَأَحَاطُوا بِهَا مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ  
وَمَرَا كِبَرُهُمْ أَيْضًا فِي الْبَحْرِ تَحْمِزُهَا، وَسَرَغُوا فِي حَقْرِ  
الْخَنْدِيقِ، وَعَمَلُ السُّورِ مِنَ التُّرَابِ الَّذِي يُخْرِجُونَهُ مِنَ  
الْخَنْدِيقِ، وَجَاءُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْجِسَابِ.

وَكَانَ الْيَزْكُ كُلَّ يَوْمٍ

يُوَافِقُهُمْ، وَهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ، وَلَا يَتَحَرَّكُونَ، إِنَّمَا هُمْ  
مُهَمِّمُونَ بِعَمَلِ الْخَنْدِيقِ وَالسُّورِ عَلَيْهِمْ لِيَتَحَصَّنُوا بِهِ  
مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ، إِنْ عَادَ إِلَى قِتَالِهِمْ، فَجِئْنَاهُ ظَاهِرًا  
الْمُشَيرِينَ بِالرَّحِيلِ. وَكَانَ الْيَزْكُ كُلَّ يَوْمٍ يُخْبِرُونَ صَلَاحَ  
الدِّينِ بِمَا يَصْنَعُ الْفِرْنُجُ، وَيُعَظِّمُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ وَهُوَ  
مَشْغُولٌ بِالْمَرْضِ، لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّهْوِضِ لِلْحَرْبِ، وَأَشَارَ  
عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِأَنْ يُرْسِلَ الْعَسَاكِرَ حَمِيعَهَا إِلَيْهِمْ  
لِيَمْنَعُهُمْ مِنَ الْخَنْدِيقِ وَالسُّورِ، وَيُقَاتِلُوهُمْ، وَيَتَحَلَّفُ  
هُوَ عَنْهُمْ، فَقَالَ: "إِذَا لَمْ أَخْضُرْ مَعْهُمْ لَا يَقْعُلُونَ  
شَيْئًا، وَرُبَّمَا كَانَ مِنَ السُّرُّ أَصْعَافُ مَا تَرْجُوهُ مِنَ الْخَيْرِ"،  
فَتَأَخَّرَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ عُوفِيَ، فَتَمَكَّنَ الْفِرْنُجَ وَعَمِلُوا  
مَا أَرَادُوا، وَأَخْكَمُوا أُمُورَهُمْ، وَحَصَّنُوا نُفُوسَهُمْ بِمَا وَجَدُوا

إِلَيْهِ السَّبِيلُ، وَكَانَ مَنْ يَعْكَا يَحْرُجُونَ إِلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ،

وَيُقَاتِلُوْهُمْ، وَيَتَأْلُوْنَ مِنْهُمْ يَطَاهِرُ الْبَلَدُ.

### ذِكْرٌ

وَصُولِ عَسْكَرِ مِصْرَ وَالْأَسْطُولِ الْمِصْرِيِّ فِي الْبَحْرِ

فِي مُنْتَصِفِ شَوَّالٍ (أواخر

تشرين أول/اكتوبر) وَصَلَتِ الْعَسَاكِرُ الْمِصْرِيَّةُ، وَمُقَدَّمُهَا الْمَلِكُ الْعَادِلُ

سَيِّفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَيُوبَ، فَلَمَّا وَصَلَ قَوْيَثُ نُفُوسُ

النَّاسِ بِهِ وَيَمْنَ مَعَهُ، وَاسْتَدَّ طُهُورُهُمْ، وَأَخْصَرَ مَعَهُ مِنْ

آلَاتِ الْحِصَارِ مِنَ الدَّرَقِ وَالْطَّارِقَيَّاتِ وَالشَّسَابِ

وَالْأَقْوَاسِ، سَيِّئًا كَثِيرًا. وَمَعَهُمْ مِنَ الرَّجَالِيَّةِ الْجَمُّ

الْغَفِيرُ، وَجَمَعَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنَ الْبِلَادِ السَّامِيَّةِ رَاجِلًا

كَثِيرًا، وَهُوَ عَلَى عَزْمِ الرَّحْفِ إِلَيْهِمْ بِالْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ. وَوَصَلَ

بَعْدَهُ الْأَسْطُولُ الْمِصْرِيُّ، وَمُقَدَّمُهُ الْأَمِيرُ لُؤْلُؤُ، وَكَانَ

شَهْمًا، شَجَاعًا، مِفْدَامًا، حَبِيرًا بِالْبَحْرِ وَالْقِتَالِ فِيهِ،

مَيْمُونَ النَّقِيبَةِ، فَوَصَلَ بَعْنَةً فَوَقَعَ عَلَى بَسْطَةٍ كَبِيرَةٍ

لِلْفِرِنِيجِ فَغَنِمَهَا، وَأَخَذَ مِنْهَا أَمْوَالًا كَثِيرَةً، وَمِيرَةً

عَظِيمَةً، فَأَدْخَلَهَا إِلَى عَكَّا، فَسَكَنَتْ نُفُوسُ مَنْ يَهَا بِوَصُولِ

الْأَسْطُولِ وَقُويَ جَنَانُهُمْ.

### ذكر

المصاف الأعظم على عكا

(بهاه الدين، 140-147) وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء

الحادي والعشرون (شعبان/4 تشرين اول/اكتوبر

1189) تحركت عساكر الإفرنج

حركة لم تكن لهم بمثاباً عادة فارسهم ورجالهم وكبيرهم وصغيرهم،  
فاصطفوا خارج خيمهم

قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمولاً مستوراً  
بثوب

أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسيرون بين يدي  
الملك، وامتدت

الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها، وكذلك  
ميسرة

العدو في مقابلة ميمتنا إلى آخرها. وملدوا رؤوس التلال. وكان طرف  
ميمنتهم إلى

النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر. وأما العسكر الإسلامي المنصور فإن  
السلطان أمر

الجاوش أن نادى في الناس "يا للإسلام، وعساكر الموحدين" فركب الناس  
وقد

باعوا أنفسهم بالجنة ووقفوا بين أيدي خيامهم. وامتدت الميمنة إلى البحر  
وميسرة

إلى النهر كذلك أيضاً. وكان رحمة الله قد أنزل الناس في الخيام ميمنة  
وميسرة قلباً

تعبيه الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب، وكان هو في  
القلب، وفي

مِيمَنَةُ الْقَلْبِ وَلَدُهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ، ثُمَّ عَسْكَرُ الْمَوَالِيَةِ يَقْدِمُهُمْ ظَهَرُ الدِّينُ بْنُ الْبَلْنَكَرِيِّ، ثُمَّ

عَسْكَرُ دِيَارِ بَكْرٍ فِي خَدْمَةِ قَطْبِ الدِّينِ بْنِ نُورِ الدِّينِ صَاحِبِ الْحَصْنِ، ثُمَّ حَسَامُ الدِّينِ بْنِ لَاجِنِ

صَاحِبِ نَابِلِسِ، ثُمَّ الطَّوَاشِيُّ قَائِمَازُ النَّجْمِيُّ وَجَمْعُ عَظِيمٍ مُتَصَلِّيْنَ بِطَرْفِ الْمِيمَنَةِ، وَكَانَ فِي

طَرْفَهَا الْمَلِكُ الْمَظْفُرُ تَقِيُّ الدِّينِ بِجَحْفَلِهِ وَعَسْكَرِهِ وَهُوَ مُطَلٌ عَلَى الْبَحْرِ، وَأَمَّا أَوَّلَ

الْمِيسَرَةُ فَكَانَ مَمَّا يَلِي الْقَلْبُ سَيْفُ الدِّينِ عَلَيُّ الْمَشْطُوبُ وَعَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ مِنْ كَبَارِ مَلُوكِ

الْأَكْرَادِ وَمَقْدِمِيهِمْ وَالْأَمْيَرُ عَلِيُّ وَجَمَاعَةُ الْمَهْرَانِيَّةِ وَالْهَكَارِيَّةِ [251] وَمَجَاهِدُ

الْدِينِ بِرْتَقْشُ مَقْدِمُ عَسْكَرِ سَنجَارِ وَجَمَاعَةُ مُمَالِيْكِ ثُمَّ مَظْفُرُ الدِّينِ بْنُ زَيْنِ الدِّينِ

بِجَحْفَلِهِ وَعَسْكَرِهِ، وَأَوَّلَ الْمِيسَرَةُ كَبَارُ الْمُمَالِيْكِ الْأَسْدِيَّةِ كَسِيفُ الدِّينِ يَازِكِّجُ وَرَسْلَانُ بَغَا

وَجَمَاعَةُ الْأَسْدِيَّةِ [252] الَّذِينَ

يَضْرِبُ بَيْنَهُمُ الْمُثَلُ، وَمَقْدِمُ الْقَلْبِ الْفَقِيْهُ عَيْسَى وَجَمِيعُهُ، هَذَا وَالسُّلْطَانُ يَطْوِفُ عَلَى الْأَطْلَابِ

بِنَفْسِهِ يَحْتَمِمُ عَلَى الْقَتَالِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّزَالِ، وَيَرْغِبُهُمْ فِي نَصْرِ دِينِ اللَّهِ وَلَمْ يَزِلْ

الْقَوْمُ يَتَقدِّمُونَ، وَالْمُسْلِمُونَ يَقْدِمُونَ حَتَّى عَلَى النَّهَارِ وَمُضِيَ فِيهِ مَقْدَارُ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ. وَعِنْدَ

ذَلِكَ تَحْرِكَتْ مِيسَرَةُ الْعَدُوِّ عَلَى مِيمَنَةِ الْمُسْلِمِينَ فَأَخْرَجَ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَظْفُرُ الْجَالِيشُ وَجَرِي

بینهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر وكان في طرف الميمنة على البحر

فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فبنال منهم غرضاً  
فلما رأى

السلطان ذلك ظن به ضعفاً وأمدّ بأطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه  
وتراجعت ميسرة

العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر. ولما رأى الذين في مقابلة القلب  
ضعف القلب

ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا  
حملة الرجل

الواحد راجلهم وفارسهم. ولقد رأيت الرجال تسير سير الخيالة وهم يسبقون  
حينما.

وجاءت الحملة على الديار البكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غرة عن  
الحرب فتحركوا

بين العدو وانكسرت كسرة عظيمة وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة  
واتبع العدو

المنهزمين إلى العياضية فإنهم استداروا حول التل، وصعد طائفة من العدو  
إلى خيمة

السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد إسماعيل  
المكبس وابن رواحة

رحمهما الله، وأما الميسرة فإنها ثبت لأن الحملة لم تصادفها وأما السلطان  
فأخذ

يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد  
وينادي فيهم "يا

للإسلام" ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الأطلاب ويخرق  
الصفوف ويأوي

إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما المنهزون من العسكر فإنهم  
بلغتهم

هزيمتهم إلى الفخوانة قاطع جسر طبرية. وتمّ منهم قوم إلى محروسة  
دمشق، وأما خيل

العدو فتبعوه إلى العياضية، فلما راوهם قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم،  
وجاءوا عайдين

إلى عسكرهم، فلقيهم جماعة من الغلمان والخزينية والساسة منهزمين على  
بغال الحمل، فقتلوا

منهم جماعة ثم جاءوا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة،  
فإن السوق كان

عظيماً ولهم سلاح، وأما الذين صعدوا إلى الخيام السلطانية فإنهم لم يلتمسوا  
فيها

شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرنا وهم ثلاثة نفر رأوا ميسرة الإسلام ثابتة  
فعلموا

أن الكسرة لا تتم، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان  
فإنه كان

واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا إلى المحلة على  
العدو، فلما

رأوا الإفرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولو  
ظهورهم

واشتدوا يطلبون أصحابهم. فصاح في الناس فحملوا عليهم فطرحوا منهم  
جماعه، فاشتد

الطمع فيهم وتکاثر الناس وراءهم، حتى لقوا أصحابهم والطرد وراءهم، فلما  
رأوه

منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل  
ولأنهم إنما نجا

منهم هذا النفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة، وتحركت

الميسرة عليهم. وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال وتداعت وتراجع

الناس من كل جانب. وكذب الله الشيطان ونصر الإيمان. وظل الناس في قتل وطرح وضرب

وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكرهم، فهجم عليهم في الخيام. فخرج منهم

أطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الأمر، فردو المسلمين وكان التعب قد أخذ من

الناس والعرق قد ألمتهم فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم

إلى خيامهم فرحين مسرورين. وعاد السلطان إلى مخيمه، وجلس فيه والأمراء بين يديه

يتذاكرون من فقد منهم، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفراً

ومن المعروفين استشهد ظهر الدين أخو الفقيه عيسى، ولقد رأيته وهو جالس يضحك الناس

يعزونه، وهو ينكر عليهم، ويقول "هذا يوم ال�باء لا يوم العزاء". وكان هو

قد وقع عن فرسه وركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل في ذلك اليوم الأمير

مجلى، هذا الذي قتل من المسلمين، وأما من العدو المخذول فحضر قتلامهم سبعة آلاف نفر،

ورأيتم وقد حملوهم إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه، فحضرتهم بدون سبعة آلاف.

ولما تم على المسلمين من الهزيمة

ما تم، ورأى الغلمان خلو الخيام عن يعترض عليهم، فإن العسكر انقسم إلى  
قسمين

منهزمين ومقاتلين. فلم يبق في الخيام أحد وراءنا فظنوا أن الكسرة تم وأن  
العدو

ينهب جميع ما في الخيام، فوضعوا أيديهم في الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها.  
وذهب

من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً. ولما عاد  
السلطان إلى الخيم

ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة، سارع إلى الكتب  
والرسل في رد

المنهزمين، وتبع من شذ من العسكر والرسل تابع في هذا المعنى، حتى  
بلغت عقبة فيق،

وأخذوهم: "يالكرة يالعكرة المسلمين"، فعادوا وأمر بجمع الأقمصة من أكف  
الغلمان إلى خيمته، حتى جلالات الخيل والمحالبي بين يديه في خيمته، وهو  
جالس ونحن

حوله، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئاً، وحلف عليه يسلم إليه، وهو يلقى  
هذه الأحوال

بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأى مستقيم غير مختبط. واحتساب  
للله تعالى وقوه

عزم في نصرة دين الله، وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمته وقد قتل  
شجاعتهم

وطرحت ابطالهم.

فأمر السلطان أن خرج من عكا عجل

يسحبون (تُنْقلُ) عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليلاقوا فيه، ولقد حكى لي  
بعض من

ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً وكان كلما أخذ قتيلاً عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة

**أربعة آلاف ومائة وكسور، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم، فإنه ولـي أمرهم**

غيره. وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيّمهم لم يكترثوا بِحِفَاظِهِ.

ال المسلمين وعساكرهم، وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فإنه ما راجع

منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه والباقيون هربوا في حال سبيلهم.

## وأخذ السلطان في جمع الأموال

المنهوبة وعادتها إلى أصحابها، ولقد حضرت يوم تفرقت الأقمصة على أربابها، فرأيت

**الثالث** سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة

والعشرين من شعبان (6 تشرين أول/أكتوبر).

وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثأرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال

له الخروبة خشية على العسكر من أرائج القتل و هو موضع قريب من مكان الواقعة، إلا

أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضررت له خيمة عند الثقل، وأمر

البزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، وذلك في التاسع والعشرين.

واستحضر الأماء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ثم أمرهم بالإصغاء إلى  
كلامه وكتن من

جملة الحاضرين ثم قال "بسم الله والحمد لله والصلوة على رسول الله.  
اعلموا أن

هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطأ أرض الإسلام. وقد لاحت لوائح  
النصر

عليه وإن شاء الله تعالى وقد بقي في هذا الجمع البسيط ولا بد من الاهتمام  
بقلعه

والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة  
ننتظرها سوى

الملك العادل وهو واصل وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر  
جائاه مدد

عظيم والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك،  
وكان

ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية وامتحنت الآراء وجرى  
تجاذب في أطراف

الكلام وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة، وأن  
يبقى العسكر

أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع النفوس إليهم، فقد أخذ التعب منهم  
واستولى

على نفوسهم الضجر وتکلیفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوي لا تؤمن غالاته  
والناس

لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخييل، والخييل قد ضجرت من عرك  
اللجم وسئمت نفوسها

ذلك. وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل  
ويشاركونا في

الرأي والعمل، وسنعيد من شذ من العساكر، ونجمع الرجال ليقفوا في مقابلة  
رجال

العدو. وكان السلطان قد التاث التياثاً كثيراً من كثرة ما حمل على قلبه، وما عاناه

من نقل السلاح ومداومة لمسه، فرأى المصلحة فيما قالوا وأشاروا به. وكان انتقال

العسكر إلى الثقل ثالث رمضان وانتقل السلطان تلك الليلة وأقام يصلح مزاجه ويجمع

العساكر وينتظر أخاه الملك العادل إلىعاشر رمضان (22 تشرين أول / [253] أكتوبر).

### ذِكْرٌ

إِحْرَاقُ الْأَبْرَاجِ وَوَقْعَةُ الْأَسْطُولِ

(ابن الأثير، 28-12/30) كَانَ الْفِرْنُخُ، فِي مُدَّةٍ

مَقَامِهِمْ عَلَى عَكَّا، قَدْ عَمِلُوا تَلَانَةَ أَبْرَاجٍ مِنَ الْحَسَبِ  
عَالِيَّةٍ جِدًا، طُولُ كُلِّ بُرجٍ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ سِئُونَ ذِرَاعًا،  
وَعَمِلُوا كُلَّ بُرجٍ مِنْهَا خَمْسَ طَبَقَاتٍ، كُلُّ طَبَقَةٍ مَمْلُوَةٌ  
مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَقَدْ جَمَعُوا أَحْشَابَهَا مِنَ الْجَرَائِيرِ فَإِنَّ  
مِثْلَ هَذِهِ الْأَبْرَاجِ الْعَظِيمَةِ لَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ الْحَسَبِ  
إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ، وَغَسَّوْهَا بِالْجُلُودِ وَالْخَلِّ وَالْطَّينِ  
وَالْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَمْنَعُ النَّارَ مِنْ إِحْرَاقِهَا، وَأَصْلَحُوا  
الْطُّرُقَ لَهَا، وَقَدَّمُوهَا تَحْوَى مَدِينَةَ عَكَّا مِنْ تَلَاثِ جَهَاتٍ،  
وَرَحَفُوا بِهَا فِي الْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ (27/586 نيسان / ابريل 1190)، فَأَسْرَفَتْ عَلَى

السَّوْرِ، وَقَاتَلَ مَنْ يَهَا مَنْ عَلَيْهِ فَانْكَسَفُوا، وَسَرَعُوا فِي طَمٌّ حَنْدِقَهَا، فَأَسْرَفَ الْبَلْدُ عَلَى أَنْ يُمْلِكَ عَنْوَةً وَقَهْرًا.

فَأَزْسَلَ أَهْلَهُ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ إِنْسَانًا سَبَحَ فِي الْبَحْرِ، فَأَعْلَمَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الصِّيقِ، وَمَا قَدْ أَسْرَفُوا عَلَيْهِ مِنْ أَخْذِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، فَرَكِبَ هُوَ وَعَسَاكِرُهُ وَتَقدَّمُوا إِلَى الْفِرِنْجِ وَقَاتَلُوهُمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ قِتَالًا عَظِيمًا دَائِمًا يَسْغُلُهُمْ عَنْ مُكَافَرَةِ الْبَلْدِ. فَأَفْتَرَقَ الْفِرِنْجُ فِرْقَتَيْنِ: فُرْقَةٌ تُقَاتِلُ صَلَاحَ الدِّينِ وَفِرْقَةٌ تُقَاتِلُ أَهْلَ عَكَّا، إِلَّا أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ حَفَّ عَمَّنْ يَالْبَلْدِ، وَدَامَ الْقِتَالُ ثَمَانِيَةً

أَيَّامٍ مُتَتَابِعَةً، آخِرُهَا الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونُ مِنَ الشَّهْرِ (5 ايار/مايو)، وَسَيِّئَمُ الْقَرِيقَانِ الْقِتَالَ، وَمَلُوا مِنْهُ لِمَلَارَمَيَهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ تَيَقَّنُوا اسْتِيلَاءِ الْفِرِنْجِ عَلَى الْبَلْدِ، لِمَا رَأُوا مِنْ عَجْزٍ مَنْ فِيهِ عَنْ دَفعِ الْأَبْرَاجِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْرُكُوا حِيلَةً إِلَّا وَعَمِلُوهَا، قَلَمْ يُفِدُّ ذَلِكَ، وَلَمْ يُعْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَتَابُعُوا رَمْيَ النَّفْطِ الطَّيَّابِ عَلَيْهَا، قَلَمْ يُؤَتَّرُ فِيهَا، فَأَيَّقَنُوا بِالْبَوَارِ وَالْهَلَاكِ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِنْصِيرٍ مِنْ عِنْدِهِ وَإِذْنِ فِي إِخْرَاقِ الْأَبْرَاجِ.

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ، أَنَّ إِنْسَانًا مِنْ أَهْلِ دَمْشَقَ كَانَ مُولَعًا بِجَمِيعِ آلَاتِ النَّفَاطِينَ، وَتَحْصِيلِ عَقَاقِيرَ ثُقُوقِي عَمَلَ التَّارِ فَكَانَ مَنْ يَعْرِفُهُ يَلْوُمُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيُنْكِرُهُ عَلَيْهِ وَهُوَ

يَقُولُ: "هَذِهِ حَالَةٌ لَا أَبَاشِرُهَا بِنَفْسِي إِنَّمَا أَسْتَهِي  
مَعْرِفَتَهَا"، وَكَانَ يَعْكَا لِأَمْرٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ . فَلَمَّا  
رَأَى الْأَبْرَاجَ قَدْ نُصِبَتْ عَلَى عَكَّا شَرَعَ فِي عَمَلٍ مَا يَعْرِفُهُ  
مِنَ الْأَذْوَى الْمُفَوِّيَةِ لِلنَّارِ، يَحْيِيُّ لَا يَمْتَعُهَا شَيْءٌ  
مِنَ الطَّينِ وَالْحَلَّ وَغَيْرِهِمَا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا حَضَرَ عِنْدَ  
الْأَمْيَرِ قَرَافُوشَ، وَهُوَ مُتَوَلِّ الْأُمُورِ يَعْكَا وَالْحَاكِمُ  
فِيهَا، وَقَالَ لَهُ: تَأْمُرُ الْمَنْجِنِيقَىَّ أَنْ يَزْرِمَ فِي الْمَنْجِنِيقِ  
الْمَحَادِي لِبْرِيجٍ مِنْ هَذِهِ الْأَبْرَاجِ مَا أُعْطِيَهُ حَتَّى أُخْرِقَهُ . وَكَانَ  
عِنْدَ قَرَافُوشَ مِنَ الْغَيْظِ وَالْخُوفِ عَلَى الْبَلْدِ وَمَا فِيهِ مَا  
يَكَادُ يَقْتُلُهُ، فَازْدَادَ غَيْظًا يَقُولُهُ وَحْرِدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ  
لَهُ: "قَدْ بَالَّغَ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الرَّمْمِي بِالْتَّقْفِ  
وَغَيْرِهِ فَلَمْ يُفْلِحُوا" فَقَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَ: "لَعَلَّ  
اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ الْفَرَجَ عَلَى يَدِ هَذَا، وَلَا يَصْرُّنَا أَنْ  
نُوَافِقَهُ عَلَى قَوْلِهِ"، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَمَرَ  
الْمَنْجِنِيقَىَّ يَامِتَالِ أَمْرِهِ . فَرَمَى عَدَّةً فُدُورٍ نَفْطًا  
وَأَذْوَى لَيْسَ فِيهَا تَأْرِ، فَكَانَ الْفِرْجُ إِذَا رَأَوْا الْقِدْرَ  
لَا يُخْرِقُ شَيْئًا يَصِيْحُونَ، وَيَزْفَصُونَ، وَيَلْعَبُونَ عَلَى سَطْحِ  
الْبَرْجِ حَتَّى إِذَا عَلِمَ أَنَّ الَّذِي أَلْقَاهُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنَ  
الْبَرْجِ، الْأَلْقَى قِدْرًا مَمْلُوَةً وَجَعَلَ فِيهَا النَّارَ فَاسْتَقَلَ  
الْبَرْجُ، وَالْأَلْقَى قِدْرًا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، فَاصْطَرَّمَتِ النَّارُ فِي

تَوَاحِي الْبُرْجِ، وَأَعْجَلَتْ مَنْ فِي طَبَقَاتِهِ الْخَمْسِ عَنِ  
الْمَهْرَبِ وَالْخَلاصِ، فَاهْتَرَقَ هُوَ وَمَنْ فِيهِ، وَكَانَ فِيهِ مِنَ  
الرِّزْدَيَاتِ وَالسَّلَاحِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. وَكَانَ طَمَعُ الْفِرْجِ بِمَا  
رَأَوَا أَنَّ الْفُدُورَ الْأُولَى لَا تَعْمَلُ شَيْئًا يَحْمِلُهُمْ عَلَى  
الظُّلْمَانِيَّةِ وَتَرْكِ السَّعْيِ فِي الْخَلاصِ، حَتَّى عَجَّلَ اللَّهُ  
لَهُمُ النَّارَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، فَلَمَّا أَخْرَقَ الْبُرْجَ  
الْأَوَّلَ اتَّهَلَ إِلَى الثَّانِي، وَقَدْ هَرَبَ مَنْ فِيهِ لِحَوْفِهِمْ،  
فَأَخْرَقَهُ، وَكَذِلِكَ التَّالِثُ. وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا لَمْ يَرِ  
النَّاسُ مِثْلَهُ، وَالْمُسْلِمُونَ يُتَظَرُّونَ وَيَقْرُّحُونَ، وَقَدْ  
أَسْفَرَتْ وُجُوهُهُمْ بَعْدَ الْكَابَةِ فَرْحَةً بِالنَّصْرِ وَخَلاصِ  
الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفَتْلِ لَا يَهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ  
فِي الْبَلْدِ إِمَّا تَسِيبُ وَإِمَّا صَدِيقٌ. وَخِيلَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى  
صَلَاحِ الدِّينِ قَبَدَلَ لَهُ الْأَمْوَالُ الْجَزِيلَةُ وَالْأَفْطَاعُ  
الْكَثِيرُ قَلِمَ يَقْبَلُ مِنْهُ الْحَبَّةُ الْقَرْدَ، وَقَالَ: "إِنَّمَا  
عَمِلْتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا أُرِيدُ الْجَرَاءَ إِلَّا مِنْهُ". وَسَيِّرَتْ  
الْكُتُبُ إِلَى الْبِلَادِ بِالْبَشَائِرِ، وَأَرْسَلَ يَطْلُبُ الْعَسَاكِرُ  
الشَّرْقِيَّةِ. قَأَوْلُ مَنْ أَتَاهُ عِمَادُ الدِّينِ زِنْكِيُّ بْنُ  
مَوْدُودِ بْنِ زِنْكِيٍّ، وَهُوَ صَاحِبُ سِنْجَارَ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ،  
أُمَّ أَتَاهُ عَلَاءُ الدِّينِ وَلَدُ عَزَّ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ  
مَوْدُودِ بْنِ زِنْكِيٍّ، سَيِّرَهُ أَبُوهُ مُقَدَّمًا عَلَى عَسْكَرِهِ

وَهُوَ صَاحِبُ الْمَوْصِلِ. ثُمَّ وَصَلَ رَيْنُ الدِّينِ يُوسُفُ صَاحِبُ إِرْبَلَ  
وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ إِذَا وَصَلَ يَتَقدَّمُ إِلَى الْفِرِنْجِ يَعْسُكِرُهُ  
وَيَنْصَمُ إِلَيْهِ عَيْرُهُمْ، وَيُقَاتِلُوْهُمْ، ثُمَّ يَنْزِلُونَ.

## ذكر

الحيلة وإدخال بطسة بيروت الى البلد

(بهاء الدين، 178-179، 201-203)

(211)

وكان الإفرنج خذلهم الله قد أداروا

مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين. وكانت قد  
اشتدت حاجة من

فيها إلى الطعام والميرة فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين،  
وأودعواها أربع

مائة غرارة قمح، ووضعوا فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة،  
وتزيروا

بزي الإفرنج، حتى حلقو لحاهم ووضعوا الخنازير على [254]  
سطح البطسة، بحيث ترى من بعد، وعلقوا الصليان، وجاءوا قاصدين البلد من  
البعد حتى

خالطوا مراكب العدو فخرجوا إليهم واعتراضوهم في الحراقات والشوانى  
وقالوا لهم "نراكم

قادسين البلد"، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا "أولم تكونوا قد أخذتم البلد"  
قالوا "لم نأخذ البلد بعد" فقالوا "نحن نرد القلوع إلى العسكر"

وقد أتي بطسة أخرى في هؤلئنا فأنذروهم حتى يدخلوا البلد. وكان وراءهم  
بطسة إفرنجية

قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها ينذرونها،  
فاشتدت

البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد،  
وسلمت ولله

الحمد. وكان فرحاً عظيماً فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان ذلك  
في العشر

الأول من رجب (586/آب-أيلول/أغسطس-سبتمبر

.(1190)

## ذكر

قصة العوام عيسى

ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها أن

عواماً مسلماً يقال له عيسى وصل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسسه ليلاً  
على

غرة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو. وكان  
ذات ليلة شد

على وسسه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب للعسكر وعام في البحر،  
فجرى عليه أمر

أهلكه وأبطأ خبره عنا. وكانت عادته إذا دخل البلد أطار طيراً عرّفنا بوصوله،  
فأبطأ

الطير فاستشعرنا هلاكه. ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في  
البلد، إذا

هو قد قذف شيئاً غريقاً فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه  
الذهب وشمع

الكتب. وكان الذهب نفقة للمجاهدين. مما رؤي من أدى الأمانة في حال حياته  
وقد ردّها  
في مماته إلا هذا الرجل وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضاً.

## ذكر

### وقعة الكمين

وفي الثاني والعشرين من شوال (586/22 تشرين ثاني/نوفمبر  
1190) رأى السلطان أن يضع

للعدو كميناً وقوى عزمه على ذلك، فأخرج جمعاً من كمامة العسكر وشجعانه  
وأبطاله

وفرسانه، وانتخبهم من خلق كثير وأمرهم أن يسيراً في الليل ويكتمنوا في  
سفح تل هو

شمالي عكا بعيداً من عسكر العدو، عنده بانت منزلة الملك العادل حين وقعت  
الواقعة

المنسوبة إليه، وأن يظهر منهم للعدو نفر يسير وأن يقصدوه في خيامه  
ويحرکوه، حتى

إذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين. ففعلوا ذلك وساروا حتى أتوا التل  
المذكور

ليلاً فكتمنوا فيه. ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهم يسير على جياد  
من

الخيل وساروا حتى أتوا مخيم العدو ورمواهم بالنشاب، وحركوا حميتهم  
بالضرب المتواتر،

فانتخي لهم مقدار مائتي فارس وخرجوا إليهم شاكي السلاح، على خيل جياد  
بعدة تامة

وأسلحة كاملة، وقصدوهم وليس معهم أحد راجل. وداخلهم الطمع فيهم لقلة  
عدتهم، فانهزموا

بين أيديهم وهم يقاتلون ويقتلوا، حتى أتوا الكمرين فثارت عند وصولهم  
الأبطال، وصاحوا

صيحة الرجل الواحد، وهجموا عليهم هجمة الأسود على فرائسها، فثبتوا  
وصبروا وقاتلوا

قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فتمكن أولياء الله منهم وأوقعوا فيهم ضرباً  
بالسيف، حتى أفنوا منهم جمعاً عظيماً واستسلم الباقيون للأسر فأسروه،  
وأخذوا خيالهم

وعددهم. وجاء البشير إلى العسكر الإسلامي فارتفع الأصوات بالتهليل،  
وركب السلطان

يتلقى المجاهدين، وسار و كنت في خدمته، حتى أتى تل كيسان فلقينا أوائل  
ال القوم. فوقف

هناك يتلقى العائدين من المجاهدين والناس يتبركون بهم ويشكرونهم على  
حسن صنيعهم، وهو

يعتبر الأسرى وينصفح أحوالهم. وكان ممن أسر مقدم عسكر الإفرنسيس فإنه  
كان قد أنفذ

نجة قبل وصوله وأسر خازن الملك أيضاً. وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة  
إلى مخيمه

فرحاً مسروراً، وأحضر الأسرى عنده وأمر منادياً ينادي من أسر أسيراً فليحضر  
الناس

أسراهم و كنت حاضراً ذلك المجلس. ولقد أكرم المقدمين منهم وخلع عليهم  
وعلى مقدم

عسكر الإفرنج فروة خاصة وأمر لكل واحد من الباقيين بفروة جرخية، فإن  
البرد كان

شديداً وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاماً فأكلوه وأمر لهم بخيمة تضرب  
قربياً من

خيمه وكان يكرامهم في كل وقت ويحضر المقدم على الخوان في بعض  
الأوقات وأمن

بتتنفيذهم وحملهم إلى دمشق، حملوا مكرمين وأذن لهم في أن يراسلوا  
 أصحابهم وأن يحضر لهم

من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها ففعلوا ذلك وساروا إلى  
دمشق.

## رقّة

قلب السلطان وإنسانيته

... فإنه وصل في أثناءه خمسة

وأربعون نفراً من الإفرنج كانوا قد أخذوا في بيروت وسيروا إلى السلطان  
ووصلوا في

ذلك اليوم إلى ذلك المكان .<sup>[255]</sup>

ولقد شاهدت منه رقة قلب لم ير أعظم منها. وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير  
طاعن في السن

لم يبق في فمه ضرس ولم تبق له قوة إلا مقدار تحرك لا غير، فقال للترجمان  
قل له "ما

الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن وكم من ههنا إلى بلادك" فقال  
"بلادي"

يبني وبينها عدة أشهر. وأما مجئي فإنما كان للحج إلى القمامه"، فرق له

السلطان ومنْ عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو. ولقد طلب أولاده

الصغرى أن يأذن لهم في قتل أسير، فلم يفعل. فسألته عن سبب المنع و كنت حاجبهم بما

طلبوه فقال "لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك وهم الآن لا

يفرقون بين المسلم والكافر". فانتظر إلى رحمة هذا الملك وتحرجه

[256]

وتحرزه ...

## نساء

[257]  
لذة ونساء حرب بين الأفرنج

(عماد الدين، 230-228) وصلت في مركب ثلاثة إمرأة

فرنجية مستحسنها، متحلية بشبابها وحسنها متزيّنه. وقد اجتمعن من الجزائر، وانتدين الجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهّلن لإسعاد الأشقياء، وترافدن على

الإرفاقي والإرفادي وتلهّبن على السفاح والسفاد. من كل زانية نازيه، زاهية هازية،

عاطية متعاطيه، خاطيبة خاطيه، متغنية متغّنجه، متبرّزة متبرّجه، ناريه متلهّبه، متنهّشة متخصّبيه، تائقة شائقه، فائقة رائقه، راتقة فاتقه، رافعة خارقه، مارقة

رامقه، قاسرة سارقه، فارجة فاجره، فاتنة فاتره، مشتهاة متشهّيه، ملهاة متلهّيه،

متفتّنة متفيّيه، ناشية منتسيه، منتثوة متسوّقه، مقتربة محترقه، متحبّبة متعثّيقه،

حمراء مرحاء، نجلاء كحلاع، عجزاء هيفاء، غناء لقاء، زرقاء ورقاء، متخرّفة  
خرقاء. تسحب غفارتها، وتسحر بتضارتها، وتتشّى كأنّها حصن، وتميس كأنّها  
قضيب، وتزيّف وعلى لبّتها صليب، وهي بائعة شِكْرها بشّكرها، باغية كسرها  
في سُكْرها. فوصلن وقد سبّلن أنفسهنّ، وقد من للتبدّل أصونهنّ وأنفسهنّ، وذكرن  
أئّهنّ قصدن بخروجهنّ، تسبيل فروجهن، وأئّهنّ لا يمتنعن من الغُزبان، ورأين أئّهنّ لا  
يتقرّبن بأفضلّ من هذا القُربان، وتفرّدن بما ضربته من الخَيَم والقباب.  
وانضمّت إليهنّ أترايّهنّ من الحسان الشَّوابّ، وفتحن أبواب الملاّد، وسبّلن ما بين  
الأفخاذ، وبُخْن بالإباحة، ورُخْن إلى الراحة، وأزحن علّة السماحة، ونفّقن سوق  
الفسوق، ولفّقن رتوق الفتوّق، وتُفّجرن بِيتابع الفُجور، وتحجّرن بِتزوّ الفحول  
منهنّ على الخُجُور، وعرّضن الإمتاع بالمقتاع، ودعون الِّوّقاح إلى الِّوّقاح، ورگّبن  
الضُّدُور على الأعجاز، وسمّحن بالسِّلعة لذوى الإعواز، ودُمن على تقرّيب  
خلالِهِنّ من الأقراط، ورُمِّن فرشهنّ على بساط النشاط، وتهدّفن للسهام، وتحلّلن  
للحرام، وتعرّضن للطِّيعان، وتضرّعن للأخدان، ومددن الرواق، وحلّلن حين عَقدن  
النِّطاق، وصِرْن مصارِب للأوتاد، استدعين التّصوّل منهنّ إلى الأغماد، وسوّين أراضيَّهنّ  
للغِراس، واستنهضن الجِراب إلى التِّراس، واستنفرن المحاريث إلى الحُرث،  
ومكّنْ

المناقير من البحث، وأذن للرؤوس في دخول الدهاليز، وجرين تحت راكبيهِ<sup>٣</sup>  
على ضرب

المَهَامِيزْ، وَقَرْبَنَ الْأَسْطَانَ مِنَ الرَّكَايَا، وَفَوْقَنَ النِّبَالَ فِي أَعْجَاسِ الْحَنَابَا،  
وَقَطَعُنَ

الْتِكَثْ، وَطَبَعُنَ السِّكَكْ، وَضَمَمُنَ الْأَطْيَارَ فِي أَوْكَارِ الْأَوْرَاكْ، وَجَمَعُنَ قَرَوْنَ  
كِبَاشْ

النِّطَاحَ فِي الشِّبَاكْ، وَرَفَعُنَ الْحَجْرَ عَنِ الْمَصْوَنَ، وَتَرَفَّعُنَ عَنِ سَتَرِ الْمَكْنُونَ.  
وَلَقَعُنَ

الساقَ بِالساقِ، وَشَفَينَ غَلِيلَ الْعَشَاقِ، وَكَتْرَنَ الصِّبَابَ فِي الْوِجَارِ، وَأَطْلَعُنَ  
الْأَسْرَارَ

عَلَى الْأَسْرَارِ. وَطَرَّقُنَ الْأَقْلَامَ إِلَى الْأَدْوِيَهِ، وَالسِّيُولَ إِلَى الْأَوْدِيَهِ، وَالْجَدَاوِلَ إِلَى  
الْغُدْرَانِ، وَالْمَنَاصِلَ إِلَى الْأَجْفَانِ، وَالسَّبَائِكَ إِلَى الْبَوَاتِقِ، وَالْزَنَانِيرَ إِلَى  
الْمَنَاطِقِ،

وَالْأَحْطَابَ إِلَى التَّنَانِيرِ، وَذُوِي الْأَجْرَامِ إِلَى الْمَطَامِيرِ، وَالصِّيَارَفَ إِلَى الدَّنَانِيرِ،  
وَالْأَعْنَاقَ إِلَى الْبَطُونِ، وَالْأَقْذَاءَ إِلَى الْعَيُونِ. وَتَشَاجَرُنَ عَلَى الْأَشْجَارِ،  
وَتَسَاقَطُنَ عَلَى

الثِّمَارِ. وَزَعْمَنَ أَنَّ هَذِهِ قُرْبَةَ مَا فَوْقَهَا قُرْبَهُ، لَا سِيمَا فِيمَنْ اجْتَمَعَتْ عَنْهُ عُزْبَةٌ

وَعُزْبَهُ. وَسَقَيَنَ الْخَمْرَ، وَطَلَبَنَ بَعْنَ الْوِزَرَ الأَجْرَ .<sup>[258]</sup>

وَتَسَامَعَ أَهْلُ عَسْكَرَنَا بِهَذِهِ الْقَضِيَّهِ، وَعَجَبُوا كَيْفَ تَعَبَّدُوا بِتَرْكِ النَّخْوَهُ وَالْحَمِيَّهِ.  
وَأَبْقَى

مِنَ الْمَمَالِيكِ الْأَغْبَيَاءِ، وَالْمَدَابِيرِ الْجَهَلَاءِ، جَمَاعَهُ جَدًّا بِهِمُ الْهُوَى، وَأَتَّبَعُوا مِنْ  
غَوِيِّهِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ رَضِيَ لِلَّهِ بِاللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَدَمَ عَلَى الرَّلَهِ فَتَحَيَّلَ فِي النُّفَلَهِ، فَإِنَّ

يد من لا يزدد لا تمتد، وأمر الها رب إليهم لإتهامه بشتّى، وباب الهوى عليه  
بشتّى. وما عند الفرنج على العرباء إذاً أمكنث منها الأعزب حرج، وما أرکاها  
عند القُسُس إذا كان للعربان المُضيقين من فرجها فرج.

ووصلت أيضا في البحر إمرأة كبيرة  
القدر، وافرة الوفير، وهي في بلدها مالكة الأمر. وفي جملتها خمسمائة فارس  
بخيلهم  
وأتبعهم، وغلمانهم وأشياعهم. وهي كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤونه،  
زائدة

بما تنفقه فيهم على المعونه، وهم يركبون برگباتها، ويحملون بحمالاتها،  
ويتشبون لؤباتها، وثبتن ثباتها لثباتها.

وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع  
وقوايس، وكُنَّ في زي الرجال، ويُرْزَن في حومة القتال، ويعملن عمل أرباب  
الجِجا وهن ربات الرجال.

وكل هذا يعتقدنه عباده، ويَخْلُن  
أَنْهُن يَعْقِدُنْ به سعاده، ويجعلنه لهن عادة، فسبحان الذي أصلَهُنْ، وعن نهج  
النَّهَى أَرْلَهُنْ. وفي يوم الواقعه قلعت منهن نسوه، لهن بالفُرسان أُسْوه،  
وفيهن

مع لينهن قسُوه، وليس لهن سوى السوابغ كيسُوه. فما غرُون حتى سُلِّبن

[259]  
وعَرَّين .

ومنهن عدّة أستَّين وإشْتَرين. وأمّا العجائز، فقد إمتلأت بهن المراكز، وهن  
يشدّدن تارة وپُرِخْيَن، ويحرّضن وپُتَّخْيَن. ويقلن إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء،

وأنه لا بقاء له إلّا بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء. فإنظر إلى  
الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء. فهنّ للغيره على المِلْهَة مَلِلنَّ  
العَيْرَه، وللنّجاة من الحيرة ناجين الحَيْرَه، ولعدم الجَلَد عن طلب الثأر تجلّدن،  
ولما صامهُنّ من الأمر تبلّهن وتبلّدن.

انتهت حملة فرديريك بارباروسا في مياه الأنهر الأرمنية وأوينه شمال سوريا، لكن حملة أخرى أشد نجاحاً تبعتها بقيادة ملكي فرنسا وإنكلترا. ورغم كل الجهود التي بذلها صلاح الدين من أجل توحيد القوى الإسلامية في مجابهة الحملة الصليبية (ونسوق هنا نقلًا عن أبي شامة دعوته المؤثرة للجهاد) فإن عكا مالبث أن سقطت في تموز/لوبيه سنة 1191 بعد أن انهارت تلك القوى وانتشر الجوع. يصف بهاء الدين وصفاً حياً أحزان الاستسلام وساعاته العصيبة خاصة تلك التي وسمت النهاية الدموية غير المشرفية التي فرضها قلب الأسد حينما نفذ بقلب بارد مجزرة الأسرى المسلمين.

## المركيز كونراد والحملة الثانية

(بهاء الدين، 181)

... المركيز صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدتهم بأساً، وهو الأصل في تهيج الجموع من وراء البحر. وذلك أنه صور القدس في ورقه، وصور فيه صورة القمامنة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها وفيه قبة قبر [260]

المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو [261]

الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في كل عيد من أعيادهم ، وصور على القبر فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطئ قبر المسيح وبالفرس على القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقصوس يحملونها ورؤوسهم مكسوقة وعليهم المسوخ وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم، فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلق لا يحصي عددهم إلا الله، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده.

**ذِكْرُ وُصُولِ مَلِكِ الْأَلْمَانِ (فيديريك بارباروسَا)  
إِلَى الشَّامِ وَمَوْتِهِ**

(ابن الأثير، 30/12/32)

في هذه السنة (586/1190) خرج ملك الألمان من بلاده، وهم تقع من الغرب، من أكثرهم عدداً، وأشدّهم بايضاً، وكان قد أزعجه ملك الإسلام البيت المقدس فجتمع عساكره، وأزاح علتهم، وسار عن بلاده وطريقه على القدس، فأرسل ملك الروم بها إلى صلاح الدين يعرّفه الخبر، ويُبعد الله لا يُمكنه من العبور في بلاده. فلما وصل ملك الألمان إلى القدس عجز ملكها عن منعه من العبور لكثره جموعه، لكنه متى عثّم الميرة، ولم يُمكن

أَحَدًا مِنْ رَعَيْتِهِ مِنْ حَمْلٍ مَا يُرِيدُونَهُ إِلَيْهِمْ، فَصَاقُتْ بِهِمُ الْأَرْقَادُ وَالْأَفْوَاثُ،  
وَسَارُوا حَتَّى عَبَرُوا خَلِيجَ الْفَسْطَانِطِينِيَّةِ، وَصَارُوا عَلَى أَرْضِ يَلَادِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ  
[262]

مَمْلَكَةُ الْمَلِكِ قَلْجَ أَرْسَلَانَ بْنَ مَسْعُودَ بْنَ سَلْيَمَانَ بْنَ قَتْلِمِشَ بْنَ سَلْجُوقْ .  
فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى أَوَّلِهَا نَارِ يَهُمُ التُّرْكُمَانُ الْأَوْجُ، فَمَا رَأَوْا إِلَيْهِمْ وَيَقْتُلُونَ  
مِنْ اِنْفَرَادٍ وَيَسْرُقُونَ مَا قَدْرُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ الرِّمَانُ شِتَاءً وَالْبَرْدُ يَكُونُ فِي تِلِكَ  
الْبَلَادِ شَدِيدًا وَالنَّلْجُ مُتَرَاكِمًا، فَأَهْلَكُوهُمُ الْبَرْدُ وَالْجُوْغُ وَالْتُّرْكُمَانُ فَقَلَ عَدْدُهُمْ.  
فَلَمَّا قَارَبُوا مَدِينَةَ فُونِيَّةَ حَرَّجَ إِلَيْهِمُ الْمَلِكُ قُطْبُ الدِّينِ مَلِكَشَاهُ بْنَ قَلْجَ أَرْسَلَانَ  
لِيَمْنَعُهُمْ، قَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِمْ قُوَّةٌ، فَعَادَ إِلَيْهِمْ فُونِيَّةَ وَبِهَا أُبُوهُ قَدْ حَجَرَ وَلَدُهُ الْمَذْكُورُ  
عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَ أُولَادُهُ فِي يَلَادِهِ، وَتَعَلَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى تَاجِيَةِ مِنْهَا. فَلَمَّا عَادَ  
عَنْهُمْ قُطْبُ الدِّينِ أَسْرَعُوا السَّيْرَ فِي أَثْرِهِ فَتَازَلُوا فُونِيَّةَ، وَأَرْسَلُوا إِلَى قَلْجَ  
أَرْسَلَانَ هَدِيَّةً وَقَالُوا لَهُ: وَمَا قَصَدْنَا يَلَادَكَ وَلَا أَرْدَنَاهَا، وَإِنَّمَا قَصَدْنَا الْبَيْتَ  
الْمُقَدَّسِ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَأْذَنَ لِرَعَيْتِهِ فِي اِخْرَاجِ مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ فُوتٍ  
وَغَيْرِهِ، فَأَذَنَ فِي ذَلِكَ، فَقَاتَاهُمْ مَا يُرِيدُونَ، فَسَيْغُوا، وَتَرَوْدُوا، وَسَارُوا. ثُمَّ طَلَبُوا  
مِنْ قُطْبِ الدِّينِ أَنْ يَأْمُرَ رَعَيْتَهُ بِالْكَفِ عَنْهُمْ، وَأَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِمْ جَمَاعَةً مِنْ  
أَمْرَائِهِ رَهَائِنَ، وَكَانَ يَخَافُهُمْ، فَسَلَمَ إِلَيْهِمْ تَبِقَّا وَعِشْرِينَ أَمِيرًا كَانَ يَكْرَهُهُمْ،  
فَسَارُوا بِهِمْ مَعِهِمْ وَلَمْ يَمْتَنِعُ الْلَّصُوصُ وَعَيْرُهُمْ مِنْ قَصْدِهِمْ وَالْتَّعَرُضِ إِلَيْهِمْ  
فَقَبَضَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ عَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَقَيْدَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ فِي  
أَسْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدِيَ تَفَسَّهُ. وَسَارَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ حَتَّى أَتَى يَلَادَ الْأَرْمَانِ،  
وَصَاحِبُهَا لَاقِونُ بْنُ اِصْطِفَانَةَ بْنِ لَيُونَ، فَأَمَدَهُمْ بِالْأَفْوَاتِ وَالْغُلُوْفَاتِ، وَحَكَمُهُمْ  
فِي يَلَادِهِ، وَأَظْهَرَ الطَّاعَةَ لَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا تَحْوَى أَنْطَاكِيَّةَ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِمْ تَهْرُزْ  
فَنَزَلُوا عِنْدَهُ، وَدَخَلَ مَلِكُهُمْ إِلَيْهِ لِيَعْتَسِلَ فَغَرَقَ فِي مَكَانٍ مِنْهُ لَا يَبْلُغُ الْمَاءُ  
وَسَطَ الرَّجْلِ وَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُ.

[263]

وَكَانَ مَعَهُ وَلْدُهُ ، فَصَارَ مَلِكًا بَعْدَهُ، وَسَارَ إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ، فَاخْتَلَفَ  
أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ، فَأَحَبَّ بَعْضُهُمُ الْعَوْدَ إِلَى يَلَادِهِ، فَتَخَلَّفَ عَنْهُ، وَبَعْضُهُمْ مَالَ إِلَى  
تَمْلِيكِ أَخِهِ لَهُ، فَعَادَ أَيْضًا، وَسَارَ فِيمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ لَهُ، فَعَرَضَهُمْ وَكَانُوا تَبِقَّا  
وَأَرْبَعِينَ لَهَا، وَوَقَعَ فِيهِمُ الْوَيَاءُ وَالْمَوْتُ، فَوَصَلُوا إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ وَكَانُوكُمْ قَدْ نِيَّشُوا  
مِنَ الْقُبُورِ. فَتَبَرَّمَ بِهِمْ صَاحِبُهَا، وَحَسَنَ لَهُمُ الْمَسِيرَ إِلَى الْفِرْجِ الْدِينِ عَلَى عَكَا،  
فَسَارُوا عَلَى جَبَلَةَ وَلَادِقِيَّةَ وَعَيْرِهِمَا مِنَ الْبَلَادِ الَّتِي مَلَكُهَا الْمُسْلِمُونَ، وَحَرَّ  
أَهْلُ حَلْبَ وَعَيْرِهَا إِلَيْهِمْ، وَأَخْذُوا مِنْهُمْ حَلْقًا كَثِيرًا، وَمَاتَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَخْذِهِ، فَبَلَغُوا  
طَرَابُلُسَ، وَأَقَامُوا بِهَا أَيَّامًا فَكَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا تَحْوَى الْفَرْجُ،  
فَرَكِبُوا فِي الْبَحْرِ إِلَى الْفِرْجِ الْدِينِ عَلَى عَكَا، وَلَمَّا وَصَلُوا وَرَأُوا مَا تَأْلَمُ فِي  
طَرِيقِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ الْاِختِلَافِ عَادُوا إِلَى يَلَادِهِمْ فَغَرِقُتْ بِهِمُ الْمَرَاكِبُ وَلَمْ  
يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَكَانَ الْمَلِكُ قَلْجَ أَرْسَلَنَ يُكَاتِبُ صَلَاحَ الدِّينِ بِأَخْبَارِهِمْ، وَيَعْدُهُ اللَّهُ يَمْنَعُهُمْ مِنِ الْعُبُورِ فِي بِلَادِهِ فَلَمَّا عَبَرُوهَا وَخَلَفُوهَا أَرْسَلَ يَعْتَذِرُ بِالْعُجْزِ عَنْهُمْ، لِأَنَّ أُولَادَهُ حَكَمُوا عَلَيْهِ، وَحَجَرُوا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، وَخَرَجُوا عَنْ طَاغِتِهِ. وَأَمَّا صَلَاحُ الدِّينِ عِنْدَ وَصْوَلِ الْخَبَرِ يُعْبُرِ مَلِكَ الْأَلْمَانِ، فَإِنَّهُ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، فَأَشَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ بِالْمَسِيرِ إِلَى طَرِيقِهِمْ وَمُحَارَبَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَتَصَلَّوْا بِمَنْ عَلَى عَكَاهُ. فَقَالَ: "بَلْ تُقْيمُ إِلَى أَنْ يَقْرَبُوا إِلَيْنَا، وَجِئْنَا تَفْعُلُ ذَلِكَ لِتَلَاهُ يَسْتَسْلِمَ مَنْ يَعْكَاهُ مِنْ عَسَاكِرِنَا" لِكَيْنَهُ سَيَرَ بَعْضَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ الْعَسَاكِرِ مِنْهَا عَسْكَرٌ حَلَبَ وَجَبَلَةَ وَلَادِقَيَّةَ وَسَيَرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، إِلَى أَعْمَالِ حَلَبَ لِيَكُونُوا فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ يَحْفَظُونَهَا مِنْ عَادِتِهِمْ. وَكَانَ حَالُ الْمُسْلِمِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا حَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقَكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَكُمْ وَإِذْ رَأَيْتُ الْأَبْصَارَ وَبَلَقْتُ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ وَتَنْثُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ هُنَالِكَ أَبْلَيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلِّلُوا زِلَّالًا

[264] شَدِيدًا] فَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُمْ وَرَدَّ كَبَدَهُمْ فِي تَحْرِيرِهِمْ. وَمِنْ شِدَّةِ حَوْفِهِمْ أَنَّ يَغْضَبَ أَمْرَاءِ صَلَاحِ الدِّينِ كَانَ لَهُ بِلَدِ الْمَوْصِلِ قَرِيَّةً وَكَانَ أَخِي، رَجُمَهُ اللَّهُ يَتَوَلَّهَا، فَحَصَّلَ دَخْلَهَا مِنْ حِنْطَةٍ وَشَعِيرٍ وَتِينٍ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي بَيْعِ الْغَلَةِ، فَوَصَّلَ كَتَابَهُ يَقُولُ: "لَا تَبْيَعُ الْجَبَّةَ الْفَرْدَ، وَأَسْكَنْتَنَا مِنْ أَلَّهِنِ" ؛ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَصَلَّ كَتَابَهُ يَقُولُ: "تَبْيَعُ الطَّعَامَ قَمَا يَتَّا حَاجَةُ إِلَيْهِ" ؛ ثُمَّ: إِنَّ ذَلِكَ الْأَمِيرَ قَدِيمَ الْمَوْصِلِ، فَسَأَلَنَا عَنِ الْمَنْعِ مِنْ بَيْعِ الْغَلَةِ، ثُمَّ الْأَذْنُ فِيهَا بَعْدَ مُدَّةٍ يَسِيرَةً، فَقَالَ: لَمَّا وَصَلَّتِ الْأَخْبَارُ بِوَصْوَلِ مَلِكِ الْأَلْمَانِ أَيْقَنَّا أَنَّنَا لَيْسَ لَنَا بِالسَّامِ مُقَامٌ، فَكَتَبَثُ بِالْمَنْعِ مِنْ بَيْعِ الْغَلَةِ لِتَكُونَ دَخِيرَةً لَنَا إِذَا جِئْنَا إِلَيْكُمْ، وَلَمَّا أَهْلَكُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَعْنَى عَنْهَا كَتَبَثُ بِبَيْعِهَا وَالْأَنْتِقَاعِ بِنَمِنَهَا.

## وصول ملك فرنسا وملك انكلترا ذكر وصول العساكر الإسلامية والملك افرنسيس

(بهاء الدين، 212-214)

ومن ذلك الوقت (ربيع 1190) انفتح البحر وطاب الزمان وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين. فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر، من أمراء الملك الظاهر، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ذا رأي حسن، والسلطان يحترمه ويكرمه وله قدم صحبة. ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فخرشاه وهو صاحب بعلبك. وتتابعت بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل صوب. وأما عسكر العدو فإنهما كانوا يتواعدون اليذك ومن يقاربهم بقدوم

[265] الملك الفرنسيس وكان معظمها عندهم مقدماً محترماً من كبار ملوكهم، تنقاد إليه العساكر بأسرها، بحيث إذا حضر حكم على الجميع ولم يزالوا يتواعدون بقدومه حتى قدم في ست بطرس تحمله وميرته وما يحتاج إليه من

الخيل وخواص أصحابه. وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة. (20 نيسان/أبريل 1191).

### نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس ما رأيت بازياً أحسن منه، وكان يعزم ويجهه جبًا عظيمًا. فشدّ البارز من يده وطار وهو يستجئه ولا يجيئه حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان. وقد كان لقادومه روعة عظيمة واستبشر عظيم بالظفر به. فتفاعل المسلمون بذلك وبذل الإفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوها. وقدم بعد ذلك [266] كندفرند وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكوراً، فذكروا أنه حاصر حماة وحارم في عام الرملة.

### ذكر ملك الأنكتار

[267] .. وهذا ملك الأنكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوي الهمة، له وقفات عظيمة وله جسارة على الحرب، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنزلة، لكنه أكثر مالاً منه وأشهر في الحرب والشجاعة. وكان من خبره أنه وصل إلى جزيرة قبرص ولم ير أن يتتجاوزها إلا وأن تكون له وفي حكمه، فنازلها وقاتلها فخرج إليه صاحبها، وجمع له خلقاً عظيماً وقاتلهم قتالاً شديداً. فأنفذ الأنكتار إلى عكا يستدرج إليه الملك جفري أخيه ومعه مائة وستون فارساً ليعيشو على مقصوده وبقيت الإفرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين.

### ذكر وصول الأنكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر (8 حزيران/يونية 1191) قدم ملك الأنكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها، وكان قدومه روعة عظيمة. ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد. وأظهر الإفرنج سوراً عظيماً حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة كبيرة، وكان ملوكهم يتواعدوننا به، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون فيما يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه فإنه ذو رأي في الحرب، مجريب. وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورعبه، هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والتوكّل وإخلاص النية لله تعالى في جهادهم.

### نداء صلاح الدين لقتال الصليبيين

"والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثائرهم وتخريب عامرهم، وما دام البحر يمدهم والبر لا يصدّهم، فبلاء البلاد بهم دائم ومرض القلوب بأدواتهم ملازم. فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيره أهل اليقين؟ وما ينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وقعود المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمناد، فانظروا إلى الفرج أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وigidات جمعوها وتوزعواها فيما بينهم وفرقوها؟ ولم يبق ملك في بلادهم وجزائهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم، إلا جاري جاره في مضمار الإنجاد، وباري نظيره في الجحّ والاجتهاد. واستقلوا في صوت ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدوا أجنسهم الأجناس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح. وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر ان الساحل (السوري) إذا ملك، ورفع فيه حجاب عزهم وهتك، يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده. والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيره، ولو اثنى، والعياذ بالله للإسلام عنان، أو خبا سنا ونبأ سنان، لما وجد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار ومن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التوانى، واستدئن أولى الحمية من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجعون، وله بإخلاص السرّ سرّ الإخلاص مناجون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون".

## قوة الزحف واستسلام عكا

(بهاء الدين، 229-239)

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا أحجارها حتى خلخلوا سور البلد وأضعفوا بنيانه، وأنهك التعب والشهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي لا ينامون أصلاً لا ليلاً ولا نهاراً، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن والشوانى. ولما أحسن العدو بذلك وظهر لهم تخلخل سور وتقلقل بنيانه شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساماً وتتناوبوا فرقةً، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه وشرعوا في ذلك شروعاً عظيماً، برجلهم وفارسهم ساعي الشهر (جمادى الآخر/ 12 تموز يوليه 1191)، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجاله والمقاتلة ليلاً ونهاراً. ولما علم السلطان بذلك بإخبار من يشاهده وإظهار العلامة التي بيننا وبينهم وهي دق الكؤوس، ركب وركب

العسكر إليهم وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبيين، وهو كالوالدة الثكلى، يجول بفرسه من طلب إلى طلب، ويبحث الناس على الجهاد. ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين والسلطان يطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي "يا للإسلام"، وعيناه تذرفان بالدموع. وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصائب العظيم، اشتد في الرزح والثعث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً للبئة وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب. وتأخرت عن حضور هذا الرزح لإمام مرض شوش مزاجي لما عراني فكنت في الخيمة في تل العياضية وأناأشاهد الجميع، ولما هجم الليل عاد رحمه الله إلى الخيم بعد العشاء الآخرة، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن فنام لا عن غفو. ولما كان

[268]

سحر تلك الليلة أمر الكؤوس أن دقت وركب العسكر من كل جانب وأصبحوا على ما أمسوا عليه.

وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة عن البلد يقولون فيها "أنا قد بلغ من العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم ت عملوا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا"، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكى في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجنيف البلاد الإسلامية، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما وكان قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدو عليها. وأصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله وخيف على مزاجه التشويش، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً،

[269]

[ووالله لا يضيع أجر المحسنين]. فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم. فصال في العسكر الصائج وركبت الأبطال فاجتمع الرجال والفارس واشتد الرزح. ولم يساعد العساكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو فإن

[270]

رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والذنبور كان والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب، ولقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد إفرنجي صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين وإلى جانبه جماعة ينالونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق وقال إنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فاحرقه. ولقد حكى ليشيخ عاقل جندي أنه كان من جملة من دخل خندقهم في ذلك اليوم، قال "وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى خرجت منها جماعة وتکاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملناها إلى

السلطان فعجب من ذلك عجباً عظيماً، ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتى فصل بينهم الليل.

### انهيار عكا ودخولها في مفاوضات مع الإفرنج ذكر ما آل إليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والإفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليها من كل جانب، وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع، وتمكن العدو من الخنادق فملوكوها، وتمكنوا من سور البашورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار، بعد حشو النقب. ووقيعت بدنة من الباشورة ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفراً وصاعداً، وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد "لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية"، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى. وفي الغد نادى الإفرنج "احفظوا السيدة فإننا نطلقكم كلكم بهم" فقالوا "قد قتلناهم" فحزن الإفرنج لذلك حزناً عظيماً وطلبوها الزحف بعد ذلك أياماً ثلاثة.

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه إلى ملك الفرنسيس بالأمان وقال له "قد أخذنا منكم بلاداً عدة، وكنا نهجم البلد وندخل فيه، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وإكرامهم. ونحن نسلم البلد، وتعطينا الأمان على أنفسنا". فأجابه بأن "هؤلاء الذين أخذتموهم منا وأنتم أيضاً مماليكي وعيدي، فأرجو فيكم رأيي". وبلغنا أن المشطوب بعد ذلك أغلط له في القول وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام منها "أنا لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من كباركم"، وانصرف عنه. ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا

في البلد، فأخذوا برకوساً [271] وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامي. وذلك في التاسع من جمادى الآخرة. وكان منهم منالمعروفين عز الدين أرسل وابن الجاوي وسنقر الوشاقى، فأما أرسل وسنقر فإنهما لما وصلا إلى العسكر تغيباً، ولم يعلم لهما مكان خشية من نومة السلطان. وأما ابن الجاوي فظفر به ورمي في الزردخانة (السجن).

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان بنية كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، مما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا عن ذلك وقالوا له

"نخاطر بالإسلام كله ولا مصلحة في ذلك". وفي ذلك اليوم خرج من الأنكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً وذكروا أن مقدم الأسبتار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصلح. غير أن السلطان أكرمهم ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم. وفي ذلك اليوم تقدم السلطان

إلى صارم الدين قايماز النجمي، أن يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم، وسار معه جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الإفرنج. ونصب قايماز بنفسه علمه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار. ووصل في ذلك اليوم عز الدين جرديك النوري، وسوق الزحف قائم، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً. وفي يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة (5 تموز/لولية) أصبح القوم ساكتين عن الزحف، والعساكر الإسلامية محدقة بهم، وقد باتوا ليتلهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين، عسى أن تمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا، ويجهزوا على طرف من الإفرنج فيكسروهم، وبخرجوا يحمي بعضهم بعضاً، وبجاوهم العسكر البراني فيسلم من يسلم وبؤخذ من يؤخذ، فلم يقدروا على الخروج وكان قد ثبت ذلك معهم، فلم يتهيأ لهم في تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان، فأخبر العدو بذلك فاحتاطوا عليهم وحرسوا حراسة عظيمة. ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسول ثلاثة واجتمعوا بالملك العادل وتحادثوا معه ساعة زمانية، وعادوا ولم ينفصل الحال وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو وباتوا على مثل ذلك.

ولما كان السبت الحادي عشر لبسوا الفرنج بأسرها لباس الحرب، وتحركوا حركة عظيمة، بحيث أنهم اعتقدو ضرب مصاتي مع المسلمين، وأصطفوا وخرج من الباب الذي تحته القبة زهاء أربعين نفساً، واستدعوا جماعة من المماليك، وطلبو منهم العدل الزيداني وذكروا أنه صاحب صيدا طليق السلطان. فحضر العدل وجرى مبادلة أحاديث في معنى إطلاق العسكر الذي بعكا، واشتبوا في ذلك اشتطاطاً عظيماً وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال.

### ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر وصلت (من المدينة) كتب يقولون فيها "إننا قد تباينا على الموت ولا نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياه فانتظرناكم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا فهذه عزائمنا وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم فإننا نحن قد فات أمرنا"، وذكر العوّام الواثق بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الإفرنج أن عسكراً عظيماً عبر إلى عكا وسلم وسار فيها قال "وجاء إنسان إفرنجي فوق تخت السور وصاح إلى بعض من على السور وقال له "بحق دينك إلا ما أخبرتني كم عدد العسكر الذي دخل إليكم البارحة" يعني ليلة السبت وكان قد وقع بالليل صوت

[273]

وانزعج الطائفتان ولم يكن له حقيقة" فقال له "ألف فارس" فقال "لا [274] لكنه دون ذلك، أنا رأيتم لابسين ثياباً خضراً".

ثم تابعت العساكر الإسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في تلك الأيام، بعد أن كان قد أشرف البلد على الأخذ، واشتد صعف البلد وكثرت ثغور سوره، وجاهد المقيمون فيه وبنوا عوض التلم سوراً من داخلها، حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه. وقدم في يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر المذكور، سابق الدين، صاحب شيزر، وفي يوم الأربعاء الخامس عشر، وصل بدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير، كان السلطان قد انفذ إليه ذهباً انفق فيهم. وفي يوم الخميس السادس عشر من شهر المذكور، وصل اسد الدين شيركوه، واشتد ثبات الفرنج على انهم لا يصلحون ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه، فلم يفعلوا، وبذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصليبي فلم يفعلوا، واشتد عتواهم واستفحلاً أمرهم وضاقت الحيل عنهم [275] [ومكروا والله خير الماكرين].

### ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة خرج العوام من التغر ونطقت الكتب عنهم أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وكبرت الثغر وعجزوا عن الحفظ والدفع ورأوا عين الهاك وتقنوا أنه متى أخذت البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحهم على أن يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الأحوال ومائة فارس معينين من جانبهم يختارون وصليب الصليبي ويخرجون بأنفسهم سالمين وما معهم من الأقمشة المختصة بهم وذرارتهم ونساؤهم وضمنوا للمركيسي عشرة آلاف دينار أنه كان واسطة وأصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك.

### ذكر استيلاء العدو على عكا

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر. وجمع أرباب المشورة وشاورهم فيما يصنع. واضطرب الأباء وتقسم فكره وتشوش، وعزم على أن يكتب في الليلة مع العوّام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه. وهو في مثل هذه الحال، فما أحسن المسلمين إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد، وذلك في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادي الآخرى سنة سبع وثمانين وخمسمائة (12 تموز يوليه 1191). وصاح الإفرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة [إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ]. وغشى الناس بغبة عظيمة وحيرة

شديدة ووقع في العسكر الصباح والعويل والبكاء والنحيب، ودخل المركيس البلد ومعه أعلام الملوك فنصب علمًا على القلعة وعلمًا على مأدبة الجامع في يوم الجمعة وعلمًا على برج الداوية، وعلمًا على برج القتال عوضًا عن علم الإسلام وحيزوا المسلمين إلى بعض أطراف البلد.

ومثلت في خدمة السلطان وهو في حال الوالدة الثكلى، والمولهة الحراء فسليته بما تيسر لي من التسلية وأذكرته في الفكر فيما يستقبله في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد وذلك في ليلة السبت الثامن عشر منه، وانفصل الحال على أن رأى التأخير عن تلك المنازلة مصلحة، فإنه لم يبق في المضايقة معنى. فتقدم بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً يشرف عم وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو، وحال أهل البلد، وأقام هو راضياً راجياً من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم بالخروج إليه والهجوم عليه، فينال منهم غرضاً ويلقي نفسه عليهم، ويعطي الله النصر لمن شاء. فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك، واستغلوا بالاستيلاء على البلد والتمكّن منه، فأقام إلى بكرة التاسع عشر من الشهر وانتقل إلى التل.

## ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله

(بهاء الدين، 242-243)

ولما رأى الأنكتار الملعون توقف السلطان ببذل المال والأسرى والصلب، غدر بأسرى المسلمين وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم ونسائهم، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى. فغدرهم الملعون وأظهر ما كان أبطئ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسرى، على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد. وركب هو وجميع العسكر الإفرنجية راجلهم وفارسهم والتراكيـل في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب (20 آب/اغسطس) وساروا حتى أتوا الآبار التي تحت تل العياضية، وقدموا خيامهم إليها وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وبين العياضية. ثم أحضروا من أسرى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك اليوم، وكانت زهاء ثلاثة آلاف في الحال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم ضرباً وطعنًا بالسيف. واليـزك الإسلامي يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم. وكان اليـزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلموه برکوب القوم ووقوفهم فأنفذ إلى اليـزك من قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب قتل فيها وجح من الجانبين ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقيـن. وأصبح المسلمين يكتشفون الحال، فوجدوا الشهداء في مصارعهم، وعرفوا من عرفوه منهم، فغشـي

ال المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة، ولم يبقوا إلا رجالاً معروفاً مقداماً أو قوي يد لعمائهم، وذكر لقتلهم أسباب منها أنهم قتلواهم في مقابلة من قتل منهم وقيل إن الأنكتار كان قد عزم على السير إلى عسقلان للاستيلاء عليها، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه، والله أعلم.

استمرت مفاوضات السلام لأكثر من عام، ويجب أن تسمى هدنة بحسب المفاهيم الإسلامية عن الحرب المقدسة. وقد تشابكت في اللعبة الدبلوماسية الطويلة والمعقدة خطط زواج رومانتيكية رسماها ريتشارد انكلترا الذي تبادل أيضاً بعض مجاملات الفروسية مع صلاح الدين (وأكثرها كان مع أخيه الملك العادل)، وتوسّط تلك اللعبة أيضاً أعمال حربية (عسقلان، يافا، آرسوف) حيث قابل قسوة الإفرنج على أسرى المسلمين في عكا خشونة الأعمال الانتقامية التي نفذها صلاح الدين. في النهاية أتعبت الحرب الجميع فانتهوا إلى اتفاق في أيلول/سبتمبر 1192 شرع من الناحية العملية الوضع الراهن لكلا الطرفين: لا يتلاءم هذا الاتفاق بالطبع مع الانتصارات الأولية الكبيرة التي حققها المسلمون عام 1187، لذلك فقد قبل صلاح الدين بها على مضض تحت ضغط جيشه المنكرون المتمزق. أما الهدف الذي كان معلناً من قبل والداعي إلى القاء الفرنجة في البحر فقد تأخر تحقيقه قرناً آخر من الزمان. أما مصادرنا عن سير المفاوضات فقد استقيناها من بهاء الدين وعماد الدين.

### مشاورات الصلح وعقده ذكر رسول الملك العادل إلى الأنكتار

(بهاء الدين، 274-275، 277-283، 284-287، 291-294، 295-296، 346-348)  
ولما كان السادس والعشرون (رمضان 587/17 تشرين أول/أكتوبر 1191)

[276]

كان اليزك للعادل فطلب الأنكتار رسوله، فأنفذ الصناعة وهو كاتبه. وكان شاباً حسناً، فوصل إليه وهو في بازور قد خرج في جمع كثير من الرجال وانبثوا في تلك الأرض فاجتمع به وسار معه زمناً طويلاً وحادثه في معنى الصلح، وقال "لا ارجع عن كلام أتحدث به من أخي وصديقي"، يعني العادل، وذكر له كلاماً وعد وأخبره به، فكتبه الملك العادل في رقعة وأنفذها إلى السلطان وكان يتضمن أنك تسلم عليه وتقول له "إن المسلمين والإفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حدث سوى القدس والصلب والبلاد، القدس متبعدينا ما ننزل عنه ولو لم يبق منها إلا واحداً. وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن. وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار لها، وهو عندينا عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونصطلح ونسريح من هذا التعب". ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب والذي رأه السلطان أن قال "القدس لنا كما هو لكم، وهو عندينا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبيتنا ومجتمع الملائكة، فلا تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين،

وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً، وما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به.

[277]

وأما الصليب فملاكه عندنا قرية عظيمة لا يجوز لنا أن نفترط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها"، وسار هذا الجواب إليه مع الواصل من جهته...

### ذكر رسالة سيرني فيها الملك العادل إلى السلطان مع جماعة من الأمراء

وذلك أنه لما كان التاسع والعشرون من رمضان (20 تشرين أول / أكتوبر) استدعاني الملك العادل في صحبته، وأحضر جماعة من الأمراء علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة، وشرح لنا ما عاد به رسوله من الأنكتار من الرسالة والكلام، وذلك أنه ذكر أنه قد أراد أن

[278]

يتزوج الملك العادل بأخت الأنكتار وكان قد استصحبها معه من صقلية، لأنها كانت زوجة صاحبها وقد مات، فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية. فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس، وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل، التي بيده من عكا إلى يافا وعسقلان إلى غير ذلك، و يجعلها ملكة الساحل، ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافاً إلى ما في يده من البلاد والإقطاع، وأنه يسلم إليه صليب الصليوب، وتكون القرى للداوية والأسبدار والمحصون لهما، وأسرانا تفك وكذلك أسرابهم، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة، ويرحل الأنكتار طالباً بلاده في البحر وينفصل الأمر.

هكذا ذكر رسول العادل عن الأنكتار. ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان، وجعلني المتكلم فيها ولجماعة يسمعون، ونعرض عليه هذا الحديث. فإن استصوبه ورأه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرضا به، وإن أبياه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية، وأنه هو الذي رأى إبطاله، فلما مثلنا بالخدمة السلطانية، عرضت عليه الحديث وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة، معتقداً أن الأنكتار لا يوافق على ذلك أصلاً، فإن هذه منه مكر وهزل. فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات، وهو يقول نعم ويفرح ويشهد على نفسه به. فلما تحققنا منه ذلك عدنا إلى الملك العادل فعرّفناه بما قال، وعّرفه الجماعة أنني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه، وأنه أصرّ على الإذن في ذلك واستقررت القاعدة عليه...

### ذكر وصول صاحب صيدا رسولاً من جانب المركيبي

... ولما كان ثالث عشر شوال (3 تشرين ثاني/نوفمبر) وصل من أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيسي صاحب صور، وكان قد جرى بيننا وبينه أحاديث متعددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الإفرنج ونصرتهم وبصيرون معنا عليهم، بناء على فتنة كانت جرت للمركيسي مع الملوك بسبب امرأة [279]

تزوجها كانت زوجة لأخي الملك جفري وقيح نكاحها بأمر اقتضاه دينهم، فاضطربت آراؤهم فيه فخاف المركيسي على نفسه، فأخذ زوجته وهرب تحت الليل إلى صور، وأخلد إلى السلطان والاعتصاد به، وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيسي عن الإفرنج فإنه كان أشدهم بأساً. وأعظمهم للحرب مراساً. وأثبتتهم في التدبیر أساساً. وحين اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر بإجلاله واحترامه فضررت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظامائهم وملوکهم وأمر بإنزاله في الثقل يستريح، ثم اجتمع به.

لما كان تاسع عشر شوال (9 تشرين ثاني/نوفمبر) جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه. وكنت حاضر المجلس فأكرمه إكراماً عظيماً، وحادثهم وقدم بين أيديهم أطعمة وافرة، ولما فرغ الطعام خلا بهم، وكان حديثهم في أن يصلح السلطان المركيسي صاحب صور، وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الإفرنجية، منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين، وقد سبقت قصته، وكان من شرط الصلح معه عداوة الإفرنج البحري، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة، وبذل لهم السلطان الموافقة على شروط قصد بها الإيقاع بينهم، وأن يغل بعضهم بعضاً. فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه الجواب فيما بعد، وانصرف عنه إلى الخيمة التي ضربت له.

لما كان عشيّة ذلك اليوم، وصل رسول الأنكتار، وهو ابن الهنيري، وهو من أكابر الإفرنجية وملوکهم، ووصل في صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة فاحضره السلطان عنده وسمع كلامه. وكانت رسالته أن الملك يقول "إني أحب صداقتكم وموسككم وأنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس، ومقصودي أن نقسم بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، ولا على لوم من الإفرنجية. فأجابه في الحال بوعده جميل ثم أذن له في العود في الحال وتأثر بذلك تأثراً عظيماً وأنفذ وراءهم من سالمهم عن حدث الأساري [280]

وكان منفصلاً عن حديث الصلح. فقال: "إن كان صلح فعلى الجميع وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأساري شيء"، وكان غرضه رحمة الله أن ينسخ قاعدة الصلح، فإنه التفت إلى في آخر المجلس بعد انفصالهم وقال "متى ما صالحناهم لا تؤمن غالتهم فإبني لو حدث لي حادث الموت ما تقاد

تجتمع هذه العساكر وتقوى الإفرنج فالمصلحة أن لا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت". هذا كان رأيه قدس الله روحه، وإنما غالب على الصلح.

### ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلح وبين الأنكتار والمركيسي

[281]

ولما كان حادي عشر شوال (11 تشرين ثاني/نوفمبر) جمع السلطان الأمراء والأكابر وأرباب المشورة وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيسي واستقر الأمر من جانبه عليها، وهي أخذ صيدا وأن يكون معنا على الإفرنج ويقاتلهم ويجهزهم بالعدوان، وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح، وهي أن تكون لنا من القرى الساحلية مواضع معينة وتكون لنا الجبليات بأسرها، أو تكون القرى كلها مناصفة، وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع القدس الشريف وكنائسه. وكان الأنكتار قد خبرنا بين هذين القسمين. فشرح قدس الله روحه الحال في القاعدتين للأمراء واستنبط آراءهم في ترجيح أحد الحالين، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن مع الملك، فإن مصافاة الإفرنج لل المسلمين بحيث يخالطوهم بعيدة غير مأمونة الغائلة.

وانفض الناس وبقي الحديث متراجعاً في الصلح، والرسول تتواتر في تقرير قواعد الصلح. وأصل القاعدة أن الملك قد يبذل أخيه للملك العادل بطريق التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية الإسلامية والإفرنجية لهما، فأما الإفرنجية فلها من جانب أخيها الإسلامية له من جانب السلطان. وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى أن قال: "إن معاشر دين النصرانية قد أنكروا علي وضع أخي تحت مسلم بدون مشاورة البابا، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه، وهذا أنا أسيّر رسولًا يعود في ستة أشهر، فإن أذن فيها ونعمت، وإلا زوجتك ابنة [282]

أخي وما أحتاج إلى إذنه في ذلك . هذا كله وسوق الحرب قائم، والقتال عليهم ضربة لازم، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ويشرف على الإفرنج، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفاً من أن ينضاف المركيسي إلى المسلمين، وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم ينزل الحال كذلك إلى الخامس والعشرين من شوال.

### ذكر انفصال رسول المركيسي

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولًا من جانب المركيسي يتلمس الصلح مع المسلمين. فاشترط -رحمه الله عليه - شروطاً منها: أن يقاتل جنسه وبيانهم، ومنها أن ما يأخذه من البلاد الإفرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا، وما نتفق نحن وهو على

أخذه تكون له نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من الأموال، ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته، ومنها أن فوض الأنكتار إليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الأنكتار ما عدا عسقلان وما بعدها فلا يدخل في الصلح، وتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا وما في الوسط مناصفة، وسار رسوله على [283] هذه القاعدة .

## ذكر تمام الصلح

[284] ولما وصل (شعبان 588/أوائل أيلول/سبتمبر 1192) العدل إلى هناك (يافا) أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به، فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة، وعرض العدل عليه النسخة وهو مريض الجسم، فقال: "لا طاقة لي بالوقوف عليها، وأنا قد صالحت وهذه يدي". فاجتمعوا بالكندери [285]

وابن بارزان والجماعة، وأوقفوهم على النسخة ورضوا بذلك والرملة مناصفة، وبجميع ما في النسخة، واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء بأنهم كانوا قد أكلوا شيئاً وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل وأنفذ العدل إلى السلطان من عرفه ذلك.

ولما كان يوم الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان (2 أيلول/سبتمبر) حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه، واعتذر أن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلك ثم حلف الجماعة والمستخلف الكنديري ابن اخته المستخلف عنه في الساحل وباليان بن بارزان صاحب طبرية، ورضي الأسبدار والداوية وسائر مقدمي الإفرنجية بذلك وساروا بقية يومهم عائدين إلى المخيم السلطاني فوصلوا العشاء الآخرة وكان الواصلون من جانبيهم ابن الهنغرى وابن بارزان وجماعة من مقدميهم فاحترموا وأكرموا وضررت لهم خيمة تلقي بهم، وحضر العدل وحكي ما جرى. ولما كانت صبيحة ثالث وعشرين شعبان حضر الرسول في خدمة السلطان وأخذ بيده الكريمة وعاذه على الصلح على القاعدة المستقرة، واقترحوا حلف الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر وعلى بن احمد المشطوب وبدر الدين دلدرم والملك المنصور ومن كان مجاوراً لبلادهم كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم، فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلاً إلى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم، وحلف لصاحب أنطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين فإن لم يحلفو له فلا يدخلوا في الصلح.

ثم أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسوق، أن الصلح قد انتظم في سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل، وأشاع -رحمة الله عليه - أن طريق الحج

قد فتح من الشام ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضراً  
[286]

ذلك جمبيه، وأمر السلطان أن تسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير لإخراج الإفرنج منها ويكون معهم جماعة من الإفرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية استباقائه عامراً. وكان يوماً مشهوداً غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وقد عُلم أن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته "أخاف أن

[287] أصالح وما أدرى أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاسترداد بقية بلا دهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلعته يعني حصنه وقال لا أنزل فيهلك المسلمين".

هذا كلامه وكان كما قال. لكنه رأى المصلحة في الصلح لسامية العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحة في علم الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح، فلو كان اتفق ذلك في أثناء وقعته لكان الإسلام على خطر، مما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له.

(عماد الدين، 434-436)

لِمَا عَرَفَ مَلِكُ الْإِنْكَتِيرَ أَنَّ الْعُسْكَرَ قَدْ اجْتَمَعُوا، وَالْخَرْقُ عَلَيْهِ قَدْ اتَّسَعَ، وَأَنَّ  
الْقَدْسَ قَدْ امْتَنَعَ، وَأَنَّ الْعَذَابَ بِهِ وَقَعَ. خَصَّعَ وَخَيْشَعَ، وَقَصَّرَ الطَّمَعَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا  
قَبْلَ لَهُ بِمِنْ أَقْبَلَ، وَلَا ثَبَاتٌ مَعَ الْجَحْفَلِ وَقَدْ حَفَلَ. فَأَظَاهَرَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يُهَاَدَنْ أَقَامَ  
وَاسْتَقْتَلَ، وَلِلشَّرِّ اسْتَقْبَلَ، وَأَنَّهُ عَازِمٌ عَلَى الْعُودَةِ إِلَى بَلَادِهِ، لِأَمْرِ مَرَدُّهَا يَعُودُ  
إِلَى مَرَادِهِ، "وَالْبَحْرُ قَدْ آنَ أَنْ يَمْنَعَ رَاكِبَهُ، وَيُسْتَمِّ بِالْأَمْوَاجِ غَوَارِبَهُ، فَإِنْ هَادِنَّمُ  
وَطَاوِعَتُمْ، تَبْعَثُ هَوَىِ، وَإِنْ حَارِبَتُمْ وَعَصَيْتُمْ أَقْيَثَ هَهُنَا عَصَايِ وَاسْتَقْرَرْتُ

[288]

تَوَايِ. وقد كَلَّ الْفَرِيقَانِ، وَمَلَّ الرَّفِيقَانِ ، وقد نَزَّلَتْ عَنِ الْقَدْسِ وَنَزَّلَ عَنِ  
عَسْقَلَانِ. ولا تَغْتَرُوا بِهَذِهِ الْعَساِكِرِ الْمُجَمَّعَةِ مِنِ الْجَهَاتِ، فَإِنَّ جَمِيعَهَا فِي  
الشَّتَاءِ إِلَى الشَّتَّاتِ. وَنَحْنُ إِذَا أَقَمْنَا عَلَى الشِّقَاقِ وَالشَّقَاءِ، رَمِينَا أَنْفُسَنَا عَلَى  
الْبَلَاءِ. فَأَجَبَبُوا رَغْبَتِي، وَأَصَبَبُوا مَحْبَبِي، وَأَوْدَعُونِي الْعَهْدَ وَدَعْوَنِي، وَوَادِعَونِي  
وَوَدَّعَونِي".

فَأَحْضَرَ السُّلْطَانَ أُمْرَاءَ الْمُشَائِرِينَ وَشَائِرِهِمْ فِي الْأَمْرِ، وَأَظْهَرُهُمْ عَلَى  
السَّرِّ، وَاسْتَطَلَعُ مَا عِنْهُمْ مِنِ الرَّأِيِّ، وَسَرَدَ لَهُمُ الْحَدِيثَ مِنِ الْمِبَادَىِ إِلَى  
الْغَايِيِّ. وَقَالَ لَهُمْ: "نَحْنُ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي قَوْهُ، وَفِي تَرْقَبِ نَصْرَةِ مَرْجَوْهُ،

[289]

فَأَنْصَارُنَا الْمُهَاجِرُونَ إِلَيْنَا ذُوو دِينِ وَكَرْمِ وَمَرْوَهُ، وَقَدْ أَلْفَنَا الْجَهَادَ، وَأَلْفَيْنَا  
بِهِ الْمَرَادَ، وَالْفِطَامَ عَنِ الْمَأْلُوفِ صَعْبَ، وَمَا تَصْدَعَ إِلَى الْيَوْمِ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ لَنَا  
شَعْبَ، وَمَا لَنَا شَغْلٌ وَلَا مَغْزَى إِلَّا الْغَرْبُ، وَمَا نَحْنُ مَمْنُونُ بِشُوَقِ الْلَّعْبِ وَبِسُوْقِهِ  
اللَّهُو، وَإِذَا تَرَكْنَا هَذَا الْعَمَلَ فَمَا الْعَمَلُ؟ وَإِذَا صَرْفَنَا عَنْهُمُ الْأَمْلَ فَفِيمَ الْأَمْلُ؟

وأخشى أن يأتيني في حالة بطالتي. الأجل، ومن ألف الحليلة كيف يالفه العطّل. ورأيي أن أخلف رأي الهدنة ورأيي، وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازي، وإليه اعتزائي، وما أنا بطالب البطاله، فارغب عن استحالة هذه الحاله. وقد رُزقت من هذا الشيء فأنا ألزمه، ولن يتأيد الله من الأمر أجزمه وأحرّمه.

[290]

فقالوا له: "الأمر على ما تذكره، والتدبر ما تراه والرأي ما تدبره ، ولا يستمر إلا ما ثمّره من الأمر ولا يستقر إلا ما تقرّره، وإن التوفيق معك في كل ما تعقده وتحله وتورده وتصدره. غير ألاك نظرت في حق نفسك من عادة السعادة، وإرادة العبادة، وافتقاء الفضيلة الراجحة، والاعتناء بالوسيلة الناجحة، والأتف من العطّله، والعزوف للعُزله، وأنك تجد من نفسك القوة والاستمساك، وبقيتك يعرّفك بالأيماني الأدراك. فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعّبت، والرعايا فإنها تعكست وتعلشت، والأجناد فإنها تصبّت ووصبت، والجيواد فإنها عطلت وعطّلت، وقد أعزّت العلوفات، وعزّت الأقوات، وبعدت عنّا العمارات، وغلت الغلات. ولا جلب إلا من الديار المصريه، مع ركوب الأخطار المهلكة في البرّيه. وهذا المجتمع مطئنة التفرق، ولا يدوم هذا الانساع مع هذا الضيق، فإن الموارد منقطعة، والجواود ممتنعه، والمترقب قد ترب، والمعدم قد عطّل، والتبن أعزّ من التبر، والشعيّر ليته وجّد وإن كان غالبي السعر. وهؤلاء الفرنج إذا يتّسوا من الهدنة، بذلوا وسعهم في استفراغ المكّنة واستنفاد المُنه، وصبروا على المنيّه. والصواب إن نقبل من الله الآية التي

[291]

أنزلّها، وهي قوله [إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَأْخِنْهُ لَهَا] . وحينئذ تعود إلى البلاد سكانها وعُمارها، وتكثر في مدة الهدنة غلاتها وأثمارها، وتستجدّ الأجناد عدّتها، وتستريح زمان السلم ومدّتها، فإذا عادت أيام الحرب عدنا، وقد استظهرنا وزدنا، ووجدنا القوت والعلف، وعدمنا المشاق والكلف. ففي أيام السلم نستعدّ للحرب، ونستجدّ أدوات الطعن والضرب، وليس ذلك تركا للعباده، وإنما هو للاستجادة والاستجاده والاستجاده. على أنّ الفرنج لا يَقُون، وعلى عهدهم لا يقفون، فأعْقِد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرّقوا، وقد شَقُوا بما لَفُوا وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومه، ويستقلّ بالملازمه.

وما زال الجماعة بالسلطان حتى راضي، وأجاب إلى ما اقتضي، وكانت قد بقيت بين العسكريين منزلة واحدة، والمعاجلات على الطلائع متعاقده. فلو رحلنا رحّلناهم، وعلى الهُلُك أحْلَناهم. لكن مراد الله غالب، وأجيب ملك الإنكشار من الصلح إلى ما طلب. فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكتبه نسختها، وعيّنت مذّتها وبيّنت قضيتها، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأول أيلول/سبتمبر (1192) لمدة ثلاثة سنين وثمانية أشهر. وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر، وتّصل إمدادهم على الحشد والحسـر. وعُقدت هدنة عامة في البر والبحر، والسهل والوعر

والبَدْو والخَضْر، وجعل لهم من يافا إلى عَكَّا إلى صور. وأبدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور. وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، والأعمال الدانية والنائية.

لم يعيش مركيز مونفيرات الشجاع<sup>[292]</sup>

حتى يتمكن من رؤية ذلك السلام، ولامن تقلد التاج الملكي المأمول. هناك بعض

الاختلاف داخل المصادر الإسلامية حول طبيعة اليد التي سلحت

الحساشين الذين<sup>[293]</sup>

طعنوه في صور خلال نيسان/أبريل

1192: فبينما أشار كل من

بهاء الدين وعماد الدين بصراحة إلى ريتشارد انكلترا (بعد أن تدخل المركيز كونراد

في مفاوضات السلام التي كان هذا يجريها، وتقدم بخطبة تستند إلى خطة كونت طرابلس

التي أجرتها مع صلاح الدين قبيل حطين ليضمن مصالحه الخاصة)، نرى أن ابن الأثير

يستخدم إشاعةً تحكي عن مبادرة قام بها صلاح الدين بالذات ليفتال ريتشارد وكونراد

معاً: ولأنه أن هذا كان ممكناً (راجع في هذا الصدد الإشارة المقنعة التي قدمها

عماد الدين عن عدم جدواي موت المركيز بالنسبة للمسلمين). غير أن هناك صدى غريباً

لذلك الحدث يثير الفضول ويؤيد فرضية مسؤولية صلاح الدين نجده في رواية متأخرة

تشوهت كل التشوّه وتتحدث عن إغتيال ملك إفرنجي قرب عكا أمر به حارس [294]  
الجبل أتباعه

ليُسعد صديقه السلطان. جاء هذا النص الغريب الذي نورده بعد روایتی عmad الدين

وابن الأثير من مصادر اسماعيلية سردية-دعائية تقدم سيرة المعلم الكبير لطائفة

الحساشين أي رشيد الدين سنان: لكن واقع الأمر أن الحشاشين كانوا هم من حاول أكثر

من مرة اغتيال صلاح الدين لأن تشدده في سُنْتِيه يتعارض مع بدع مذهبهم.

## هلاك

المركيس (كونراد) بصور

(عماد الدين، 420-422)  
أضافه الأسقف بصور يوم الثلاثاء

ثالث عشر ربيع الآخر (28/588 نيسان/ابريل

1192) فاستوفى رزقه

لموافاة أجله، ووصل إلى الباب قاطع أمله، وقد دعي إلى جهنم، ومالك على انتظار

مقدمه، والجحيم في ترقبه، والدرك الأسفل من النار في تلهّبه، والسعير في تسّعّره،

ولظى في تلظّيها لتنظره. وقد قرب أن تكون الهاوية له حاويه، والحامية عليه حاميته، والزبانية في إيقاع العذاب به لمنزل الريجز بانيه. وقد فتحت النار له

أبوابها السبعة، وهي جائعة إلى إلتهامه وهو مُلْتَهٍ بالأكل يستوفى الشُّبُعه. فأكل وتغدى، وما درى أنه يتربّى، وأكل وشرب، وشَيْع وطرب. وخرج وركب، فوثب عليه رجلان،

أَلْ ذِيَانْ أَمْعَطَانْ، وسَكَّنَا حَرْكَتَهْ بِالسَّكَّاكيْنْ، ودَگَّاهْ عَنْدَ تِلْكَ الدَّكَّاكِينْ. وَهَرْبَ  
أَحَدَهُما

وَدَخَلَ الْكُنِيسَهُ، وَقَدْ أَخْرَجَ النَّفْسَ الْخَسِيسَهُ. وَقَالَ الْمَرْكِيسُ وَهُوَ مَجْرُوحٌ،  
وَفِيهِ بَقِيَّةٌ رُوحٌ،

احملوني إلى الكنيسة، فحملوه، وظنوا أنّهم حاطوه لِمَا نقلوه. فلما أبصره أحد الجارّين، وثبَ إلَيْهِ للجَنِين، وزاده جُرْحًا على جُرْحٍ، وَقَرْحًا على قَرْحٍ. فأخذ

<sup>[295]</sup> الفرنج الرفيقين، فألفوهما من الفدائِيَّة الإسماعيلية مرتدُّين.

فَسَأْلُوهُمَا مَنْ وَصَّعَكُمَا عَلَى تَدْبِيرِ هَذَا التَّدْمِيرِ؟ فَقَالُوا: "مَلْكُ الْأَنْكَتِيرْ".

وذكر عنهم أئمّة تنصّراً منذ سُنّة شهر، ودخلوا في ترّهّب وتطهّر، ولزما البيع، والتزموا الورع، وخدم أحدّهم ابن بارزان والآخر صاحب صيادة لقريهما من المركّيس،

واستحکما بملاز متهم أسباب التأنسس. ثم علقا بر كايه، وفتكا به، فُقتلَا شَّهِيداً

**فِتْلَهُ، وَجَهْلٌ عَلَيْهِمَا أَشَدُّ جَهْلٍ، فِيَا لِلَّهِ مِنْ كَافِرٍ إِنْ سَفْكَ دَمٍ كَافِرٌ، وَفَاجِرٍ فَتَكًا**

یفاجر.

**فلمّا ظلّ المركيس مُركساً، وفي**

[296] جهنم منكبا منكسا.. تحكم ملك الانكتير في صور، وولاه الكند هري  
وعذق

[297] به الأمور، ودخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته ،

وادعى أنه أحق بزوجته، وكانت حاملاً مما منع الحملُ من نكاحها، وذلك أفطع من

سِفاحها، فقلت لبعض رسلهم: "إلى من يُنسب الولد؟"، فقال: "يكون ولد الملكة" ، فانظر إلى استباحة هذه الطائفة المشركة.

ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه

الحالة، وإن كان من طواغيت الضلاله، لأنّه كان عدوًّا ملك الإنكтир، ومنازعه على

الملك والسرير، ومنافسه في القليل والكثير، وهو يراسلنا حتى نساعده عليه، وتنزع

ما أخذه من يديه. وكلّما سمع ملك الانكтир أن رسول المركيس عند السلطان، مال إلى

المراسلة بالاستكانة والاذعان، وأعاد الحديث في قرار الصلح، وطمئن في ليل ضلاله

بإسفار الصبح. فلما قُتل المركيس سكن رُؤُعه ورَؤُعه، وذهب صَوره وصَوْعه، وطاب

قلبه، وآب لُّبّه، واستوى أمره، واستشرى شرّه. وكان قد تعصّب لمضايقة المركيس للملك

العتيق (غويدو)، فأظهر له ود الشقيق الشقيق، وولاه جزيرة قُبُرس وأعمالها،

وسدّد بسداده اختلالها. فلما هلك المركيس عرف أنه قد أخطأ في تقويته، وخشي أنه

لا يسلم من عاديته، ولا يأمن من غائلته. فلما عدم عدوه، وجد هدوه، وآب سكونه،

وثاب جنونه، وغاض غيظه، وحصّه حظه، وفاض من منيع الشرك قطّه. ومع هذا لم يقطع

محادثته، ولم يُحدث مقاطعته، ومَرَى رسَلَ مِراسِلَتِه، ورمى سهم مخادعته ومخاتلته..

ولم ينزل عن ادعائه صداقتَ الملك العادل وتصديق دعوته. وراسل في طلب المناصفة على البلاد

سوى القدس فإنه يبقى لنا بمدينته وقلعته، سوى كنيستهم المعروفة بقمامه، فِإِنْهُمْ

يعتقدونها لملّتهم الدِّعَامِه، فأبى السلطان أن يقبل هذا القرار، وأبدى لهم الإنكار،

وساهم أن ينزلوا عن يافا وعسقلان، وأخذوا على ما يبقى في أيديهم الأمان.

ابن الأثير (12/51)

في هذِهِ السَّنَةِ، فِي ثَالِثِ

عَشَّرَ رَبِيعَ الْآخِرِ (28/588 نيسان/أبريل

1192)، فُتِلَّ

الْمَرْكِيسُ الْفِرْنِجِيُّ - لَعْنَهُ اللَّهُ - صَاحِبُ صُورَ، وَهُوَ أَكْبَرُ سَيَاطِينِ الْفِرْنِجِ . وَكَانَ سَبَبُ قَتْلِهِ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ رَاسَلَ

[298] مُقَدَّمَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ [بِالسَّامِ] وَهُوَ سِتَّانٌ ،

وَبَدَلَ لَهُ أَنْ يُزْسِلَ مَنْ يَقْتُلُ مَلِكَ إِنْكِلَتَارَ، وَإِنْ قَتَلَ الْمَرْكِيسَ قَلَةً عَشَرَةً آلَافِ دِينَارٍ، قَلَمْ يُمْكِنُهُمْ قَتْلُ مَلِكِ

إِنْكِلَتَارِ . وَلَمْ يَرَهُ سِتَّانٌ مُصْلِحًا لَهُمْ، لِئَلَّا يَخْلُو وَجْهُ

صَلَاحِ الدِّينِ مَنْ الْفِرْنِجُ وَيَتَقْرَعُ لَهُمْ، وَشَرِهِ فِي أَحْذِ

الْمَالِ فَعَدَلَ إِلَى قُتْلِ الْمَرْكِيسِ، فَأَزْسَلَ، رَجُلَيْنِ فِي زِيَّ  
 الرُّهْبَانِ: وَاتَّصَلَا بِصَاحِبِ صَيْداً، وَابْنِ بَازْرَانَ، صَاحِبِ  
 الرَّمْلَةِ، وَكَانَا مَعَ الْمَرْكِيسِ يَصْوَرُ. فَأَقَامَا مَعَهُمَا سِنَّةً  
 أَشْهِرٍ يُظْهِرَانِ الْعِبَادَةَ، فَأَنِسَ بِهِمَا الْمَرْكِيسُ، وَوَتَّقَ  
 بِهِمَا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ التَّارِيخِ عَمِلَ الْأَسْفُفُ بِصُورَ دَعْوَةً  
 لِلْمَرْكِيسِ فَحَضَرَهَا، وَأَكَلَ طَعَامَهُ وَشَرَبَ مُدَامَهُ، وَخَرَجَ مِنْ

[299]

عِنْدِهِ، فَوَتَّبَ عَلَيْهِ الْبَاطِنِيَّانِ الْمَذْكُورَانِ،  
 فَجَرَحَاهُ جِرَاحًا وَثِيقَةً، وَهَرَبَ أَحَدُهُمَا وَدَخَلَ كَنِيسَةً  
 يَحْتَفِي فِيهَا، فَأَتَفِقَ أَنَّ الْمَرْكِيسَ خُمِلَ إِلَيْهَا لِيَتَشَدَّدَ  
 جِرَاحَهُ، فَوَتَّبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْبَاطِنِيَّ فَقُتِلَ، وَفُتِلَ  
 الْبَاطِنِيَّانِ بَعْدَهُ. وَتَسَبَّبَ الْفِرِنْجُ قُتْلَهُ إِلَى وَصْعِ مِنْ  
 مَلِكٍ إِنْكِلْتَارٍ لِيَنْقِرَدَ بِمُلْكِ السَّاحِلِ الشَّامِيِّ، فَلَمَّا  
 قُتِلَ وَلِيَ بَعْدَهُ مَدِينَةٌ صُورَ كَنْدُ مِنْ الْفِرِنْجِ، مِنْ دَاخِلِ  
 الْبَحْرِ يُقالُ لَهُ الْكَنْدُ هَرِيٌّ، وَتَرَقَّجَ بِالْمَلِكَةِ فِي  
 لَيْلَتِهِ، وَدَخَلَ يَهَا وَهِيَ حَامِلٌ، وَلَيْسَ الْحَمْلُ عِنْدَهُمْ مِمَّا  
 يَمْنَعُ النَّكَاحَ. وَهَذَا الْكَنْدُ هَرِيٌّ هُوَ ابْنُ أُخْتٍ مَلِكٍ  
 إِفْرَنْسِيَّسَ مِنْ أَبِيهِ، وَابْنُ أُخْتٍ مَلِكٍ إِنْكِلْتَارٍ مِنْ أُمِّهِ،  
 وَمَلِكٍ كَنْدُ هَرِيٌّ هَذَا بِلَادِ الْفِرِنْجِ بِالسَّاحِلِ بَعْدَ عَوْدِ  
 مَلِكٍ إِنْكِلْتَارٍ، وَعَاشَ إِلَى سَنَةِ أَرْبَعِ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِيَّةٍ،

فَسَقَطَ مِنْ سَطْحِ قَمَاتٍ، وَكَانَ عَاقِلًا، كَثِيرُ الْمَدَارَةِ  
وَالاِخْتِمَالِ. وَلَمَّا رَحَلَ مَلِكُ إِنْكِلَتَارٍ إِلَى يَلَادِهِ أَرْسَلَ  
كَنْدُ هَرِيَ هَذَا إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ يَسْتَغْطِفُهُ، وَيَسْتَمِيلُهُ،  
وَيَطْلُبُ مِنْهُ خِلْعَةً، وَقَالَ: أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لُبْسَ الْقِبَاءِ  
وَالشَّرْبُوشِ عِنْدَنَا عَيْبٌ، وَأَنَا أَلْبِسُهُمَا مِنْكَ مَحَبَّةً لَكَ،  
فَأَنْفَدَ (صلاح الدين) إِلَيْهِ خِلْعَةً سُنْنَةً مِنْهَا الْقِبَاءُ

[300]  
وَالشَّرْبُوشُ ،  
فَلِيَسْتَهِمُوا بِعَكَّا.

(مناقب رشيد الدين، 463-12/466) وأخبرنا بعض الرفاق الأمناء  
الفضلاء أن الملك صلاح الدين لما أخذ عكا، خرج إليه من البحر ملك من ملوك  
الافرنج

بجيش، فهجم عگة وملكتها وقتل من كان فيها من المسلمين. ونصب له دهليز  
مقابل دهليز

صلاح الدين، وصار جيشه بأزيد جيشه. واشتد الحرب بينهما، وبقي صلاح الدين  
في حيرة

من أمره، وكان المولى يومئذ في حصن الكهف ،

[302]  
فقال: " منه السلام " صاحبنا

الملك صلاح الدين اليوم في ضيق "، ثم طلب رجلين من رجال الجهاد الذين  
بين

بديه، قد علموهما يتحدثان بالافرنجي، فلما حضرا بين يديه، أمر لهما ببدلتين  
من

ملبوس الافرنج وسيفين من سيوف الافرنج، ثم قال لهم: "ادهبا إلى عند الملك

صلاح الدين بكتابي هذا، ول يكن مبيتكما هذى الليلة في المكان الفلانى" ثم عين

لهم المنازل ليلة بعد ليلة، قال: "ويكون وصولكما إلى عگا في اليوم الفلانى وقت العصر، فإن لم يكن وصولكما في هذا اليوم المعين والوقت الموقت كما قد قلنا، لن

تصلا إلى سوداكما ولن تبلغوا مقصودكم، فإذا وصلتما في ذلك الوقت إن شاء الله

وحضرتما عند الملك صلاح الدين، فسلما عليه من جهتي وبلغاه محبتي، وادفعا إليه

كتابي، فإذا قرأه وعرف ما فيه وفهم معناه، فقولا له أني قد أرسلتكم إلى عدوه، وهو

ملك الافرنج، لقتلاه في تلك الليلة، ثم اخرجا من عند الملك إذا غربت الشمس وأبعدا

من الجيش، ثم عردا إلى جيش الافرنج على شاطئ البحر، إلى أن تختلطوا في الغيش ثم

أقصدوا دهليز الملك ليلاً، فوجدموا سكران ناماً على وجهه، وما عنده أحد، فاحترازا

رأسه وخذا حياصته وسيفه، ومن قال لكم شيئا فأجيباه بالافرنجي، فما ينكره أحد

عليكم، فإذا وصلتما إلى عند الملك صلاح الدين ووضعتما الرأس والحياصة والسيف بين

يديه، فإنه من ساعته يبادر إلى عسكر الافرنج فيكره ويمزقه في كل قطر، إن شاء الله

تعالى، ويقتل منهم خلقاً كثيراً ويصبح منتصراً مسروراً، فيولى بكمما ويقول  
لكم

تمنيا علىٰ مهما شئتما، فلا تتمنيا ذهباً ولا فضة ولا غير ذلك، ولكن قولنا نحن  
قوم

قد خرجننا عن أنفسنا في طاعة الله تعالى، وتركنا الدنيا وسببها وزهدنا فيها فلا  
نتمنى شيئاً منها سوى شيء واحد وهو أنا لما سافرنا من عند أهلنا لم يكن عند  
صغارنا

دقيق، فيتصدق الملك على كل واحد منا "برحلة دقيق لا غير" فقال:  
"سمعاً وطاعة". ثم خرجا من عند المولى راشد الدين منه السلام وتوجهوا إلى  
عكة وحافظا على كل ما أمرهما به وعملاً بجميع وصاياته. ووصلوا إلى عكة في  
الوقت الذي

عينه لهما بعينه، وحضرما عند الملك، ودفعا إليه كتاب المولى، وبلغا سلامه إليه،  
فقالا له: "إن سيدنا قد أمرنا لنقتل ملك الأفرنج في هذا اليوم، وعيّن لنا  
الوقت الذي نقتله فيه، وقال أننا نجده في ذلك الوقت نائماً على وجهه وهو  
سكران وما

عنه أحد أصلاً، قال: " وإن لم نرّح إليه في ذلك الوقت بعينه لم نسع نقدر عليه  
ولا نصل إليه". فلما سمع كلاهما وما أخبراه، سره ذلك سروراً عظيماً وأكرم  
مثواهما، ولبثا عنده إلى أن أجنحت الشمس إلى الغروب، فعند ذلك لبساً لبس  
الأفرنج،

وتحدث كل واحد منهما مع صاحبه بالافرنجي، فأعجب الملك لبسهما وشكلهما  
وحديثهما،

فترسم صاحكاً منهما، وقد سره عزمهما. وقد خرجا من عنده وبعداً من  
الجيشين، وعادا

على شاطئ البحر إلى جيش الافرنج، فعاشا في لجته، وقد أرى الليل أذىال  
دجنته، ولما

فوجدها نائماً  
قربا إلى السلطان وحان الوقت المعين لها والأوان، هجما على الملك

على وجهه، كما قال سيدهما، وهو سكران وما عنده أحد لا أنس ولا جان،  
فاحترا رأسه

وخطا في مخلافة، وأخذ سيفه وحياته وخرج من جيش الافرنج مسرعين  
إلى أن دخلا على

الملك صلاح الدين، فوضعوا رأسه بين يديه وسيفه وحياته، فقبل كل واحد  
منهما بين

عينيه، ثم أمر الجيش بالركوب فركب وحمل على جيش الافرنج، فاهزمه  
ومزقه وقتل أكثره،

وأصبح الملك صلاح الدين فرحاً محبوراً مويداً منصوراً مستبشراً مسروراً.  
فطلب

الفداوية، فلما حضرا قام قائماً لهما وعظام قدرهما، وقامت وزراؤه وجلساؤه  
لقيامه

لهم، ثم خلع عليهما وأحسن إليهما وأجلسهما إلى جانبه، وقال لهم: "تمنيا  
عليّ مهما شئتما، واطلبوا أي شيء أردتما، فقد وجب عليّ حكمها"، فقالوا: "أيد  
الله مولانا الملك الملائكة، وألقى عدوه في المهالك، إن الدنيا هي

العدم، وسيندم المفتر بها حيث لا ينفعه الندم، ونحن عنها من الحايدين، وفيها  
من

الزايدين، ولا نطلب شيئاً على التحقيق، سوى رحلتين من الدقيق، لكل واحد  
منا رحلة

لأجل ما عنده من العايلة".

فرسم السلطان صلاح الدين عند ذلك

بأن يكتب للدعوة الهدية في كل معاملة من المعاملات القريبة إلى قلاع  
[303]  
**الدعوة عشرة**

ضبع، ويبني لبيت الدعوة الهدية في كل مدينة من المدن، دار دعوة في مصر  
و دمشق و حمص

و حماه و حلب وغير هذا من المدن، وهي تعرف بالدعوة إلى زماننا هذا، وأنعم  
على

الفداوية و سير للمولى راشد الدين هدية سنية.

يروي المخلص بهاء الدين وقائع مرض صلاح الدين ووفاته بأدق تفاصيلها، وقد توفي السلطان بعد أن عقد الهدنة مع الإفرنج. من الملاحظ أن كل هذه المصادر الإسلامية تكاد تتميز بأنواع الحذلقة والتکلف وضيق الأفق، ومع هذا فإنه يمكن لنا أن نرى في هذه الرواية ادراكاً لأهمية الشخصية الاستثنائية التي كرمها الشرق والغرب، وجباً شديداً لصاحبها وتعلقاً مخلصاً به. لقد ختم صلاح الدين حياته بالتقى، مؤمناً بروح ونصوص العقيدة التي سادت كل وقائع حياته، هذا مما يعني تلاشي الصورة الرائعة التي تخيلها Lessing عنه كسلطان ليبرالي متoller.

### مرض

صلاح الدين ووفاته  
مرضه رحمة الله عليه  
(بهاء الدين، 369-361)  
ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً  
عظيماً، فما انتصف الليل حتى غشته حمى صفراوية كانت في باطنها أكثر من  
ظاهره، وأصبح في يوم السبت السادس عشر صفر سنة تسع وثمانين (21 شباط/فبراير 1193) متكسلاً عليه أثر

الحمى، ولم يظهر ذلك للناس. لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الملك الأفضل،

وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه في الليل، وطال به الحديث إلى قرب الظهر. ثم

انصرفنا والقلوب عنده فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل، ولم

ي肯 القاضي عادته ذلك، فانصرف ودخلت أنا إلى الإيوان القبلي، وقد مد الطعام، والملك

الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشاً، وبكي في

ذلك جماعة تفألا بجلوس ولده في موضعه.

ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن

نلازم التردد طرفي النهار، وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، ويعطى

الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات

انتهاء العمر، غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفراً وحضرأ. ورأى الأطباء فصده

ففصدوه في الرابع، فاشتد مرضه وفُلت رطوبات بدنـه، وكان يغلب عليه اليـبس غـلبة عـظيمة.

ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غـاية الـضعف.

ولقد أجلسناه في سادس مرضه، وأسندنا

ظهوره إلى مخدة، وأحضر ماءً فاتراً ليشرب عـقيـب شـرب دـوـاء لتـلـيـن الطـبـيـعـةـ، فـشـريـهـ

فوجده شديد الحرارة، فشكى من شدة حرارته. وعرض عليه ماء ثان فشكى من برد، ولم

يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات: "سبحان الله، لا يمكن أحداً تعديل

الماء". فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي: "أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمين على مفارقتها،

والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره". واشتد مرضه في السادس

والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه. ولما كان التاسع حدثت عليه غشية

وامتنع من تناول المشروب. فاشتد الخوف في البلد، وخلف الناس ونقلوا الأقمشة من

[304] ،  
الأسواق ،

وغشى الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته.

ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقععد

في كل ليلة، إلى أن مضى من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم نحضر في باب الدار فإن

وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإنما لا يعرفونا أحواله وانصرفنا. وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا. ولما كان

العاشر من مرضه حقن دفتين، وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة، وتناول من ماء

الشعيـر مقداراً صالحـاً. وفـرح النـاس فـرحاً شـديداً، فـأقـمنا عـلـى العـادـة إـلـى أـن  
مضـى مـن

الـلـيل هـزـيع، ثـم أـتـيـنا إـلـى الدـار، فـوـجـدـنا جـمـالـاً الدـولـة إـقـبـالـ، فـالـتـمـسـنـا مـنـه تـعـرـيفـ

الـحـالـ الـمـسـتـجـدـ، فـدـخـلـ، وـأـنـفـذـ إـلـيـنا مـعـ الـمـلـكـ الـمـعـظـمـ تـورـانـشاـهـ -جـبـرـهـ اللـهـ  
ـتـعـالـىـ -

يـقـولـ بـأـنـ "الـعـرـقـ قـدـ أـخـذـ فـي سـاقـيـهـ"، فـشـكـرـنـا اللـهـ تـعـالـىـ عـلـىـ ذـلـكـ، وـالـتـمـسـنـا  
مـنـهـ أـنـ يـمـسـ بـقـيـةـ قـدـمـهـ وـيـخـبـرـنـا بـحـالـهـ فـيـ الـعـرـقـ، فـتـفـقـدـهـ ثـمـ خـرـجـ إـلـيـناـ وـذـكـرـ

أـنـ "الـعـرـقـ"  
سـاـيـغـ، وـانـصـرـفـنـا طـبـيـةـ قـلـوبـنـاـ. ثـمـ أـصـبـحـنـا فـيـ الـحـادـيـ عـشـرـ مـنـ مـرـضـهـ، وـهـوـ

الـسـادـسـ

وـالـعـشـرـينـ مـنـ صـفـرـ، فـحـضـرـنـا بـالـبـابـ وـسـأـلـنـا عـنـ الـأـحـوـالـ، فـاـخـبـرـنـا بـأـنـ الـعـرـقـ  
أـفـرـطـ حـتـىـ

نـفـذـ فـيـ الـفـرـاشـ ثـمـ فـيـ الـحـصـرـ وـتـأـثـرـتـ بـهـ الـأـرـضـ وـأـنـ الـيـسـ قدـ تـزاـيدـ تـزاـيدـاًـ  
عـظـيـماًـ

وـحـارتـ الـقـوـمـ وـاـيـسـتـ الـأـطـبـاءـ.

ذـكـرـ تـحـلـيفـ الـأـفـضـلـ

وـلـمـ رـأـيـ الـمـلـكـ الـأـفـضـلـ مـاـ حـلـ

بـوـالـدـهـ وـتـحـقـقـ النـاسـ مـنـ مـوـتـهـ تـسـرـعـ فـيـ تـحـلـيفـ النـاسـ فـيـ دـارـ رـضـوانـ

[305]ـ  
الـمـعـرـوفـةـ بـسـكـنـاهـ ،

وـاسـتـحـضـرـ الـقـضاـةـ وـعـمـلـ لـهـ نـسـخـةـ يـمـينـ مـخـتـصـرـةـ مـحـصـلـةـ لـلـمـقـاصـدـ تـنـضـمـنـ

[306]ـ  
الـحـلـفـ لـلـسـلـطـانـ مـدـةـ

حـيـاتـهـ، وـلـهـ بـعـدـ وـفـاتـهـ. وـاعـتـذـرـ إـلـىـ النـاسـ بـأـنـ الـمـرـضـ قدـ اـشـتـدـ وـمـاـ يـعـلـمـ مـاـ  
يـكـونـ، وـمـاـ

يُفْعَلُ هَذَا إِلَّا احْتِياطًا عَلَى جَارِي عَادَةِ الْمُلُوكِ. فَأَوْلُ مَنْ اسْتَحْضَرَ لِلْحَلْفِ، سَعْدُ الدِّينِ مُسْعُودٌ

أَخْوَبَدْرُ الدِّينِ مُودُودُ الشَّحْنَةِ، فَبَادَرَ إِلَى الْيَمِينِ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ، ثُمَّ حَضَرَ نَاصِرُ الدِّينِ صَاحِبَ

صَهْيُونَ وَزَادَ أَنَّ الْحَصْنَ الَّذِي فِي يَدِهِ لَهُ، وَسَابِقُ الدِّينِ صَاحِبُ شِيزِرَ فَحَلَفَ [307]  
وَلَمْ يُذْكُرْ الطَّلاقُ، وَاعْتَذَرَ

بِأَنَّهُ مَا حَلَفَ بِهِ، ثُمَّ حَضَرَ خَشْتَرِينَ حَسِينَ الْهَكَارِيَ وَحَلْفُهُ، وَحَضَرَ نُوشْرُوَانَ  
الْزَّرْزَارِيَ فَحَلَفَ

وَاشْتَرَطَ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبْزٌ يَرْضِيهِ، وَحَضَرَ عَلْكَانَ وَمِنْكَلَانَ وَحَلْفُهُ، ثُمَّ مَدَ الْخَوَانَ  
وَحَضَرَ

الْجَمَاعَةَ وَأَكَلُوا، وَلَمَّا كَانَ الْعَصْرُ أَعْيَدَ الْمَجْلِسُ لِلتَّحْلِيفِ، وَحَضَرَ مِيمُونُ  
الْقَصْرِيَ رَحْمَهُ اللَّهُ

وَشَمِسُ الدِّينِ سَنَقُرُ الْكَبِيرِ، وَقَالَا "نَحْلَفُ بِشَرْطٍ أَنْ لَا نَسْلِّ في وَجْهِ أَحَدٍ مِّنْ  
أَخْوَتِكَ"

سِيفَاً، لَكُنْ رَأْسِيْ دُونَ بِلَادِكَ". هَذَا قَوْلُ مِيمُونَ الْقَصْرِيِّ، وَأَمَّا سَنَقُرُ فَإِنَّهُ  
أَمْتَنَعَ

سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: "كُنْتُ خَلْفَتِي عَلَى النَّطَرَوْنَ وَأَنَا عَلَيْهَا"، وَحَضَرَ سَامِهُ وَقَالَ  
"لَيْسَ"

لِي خَبْزٌ فَقِيلَ لِي عَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَحَلَّفُ". فَرَجَعَ وَحَلْفُ وَعْلَقَ يَمِينَهُ بِشَرْطٍ أَنْ  
يُعْطِيَ خَبْزاً

يَرْضِيهِ، وَحَضَرَ سَنَقُرُ الْمَشْطُوبُ وَحَلْفُ وَاشْتَرَطَ أَنْ يَرْضِيَ، وَحَضَرَ أَبِيكَ  
الْأَفْطَسَ رَحْمَهُ اللَّهُ وَاشْتَرَطَ

رَضَاهُ، وَلَمْ يَحْلِفْ بِالْطَّلاقِ، وَحَضَرَ حَسَامُ الدِّينِ بِشَارَةَ وَحَلْفُهُ، وَكَانَ مُقْدَمًا  
عَلَى هُؤُلَاءِ، وَلَمْ

[308] يحضر أحد من الأمراء المصريين ولم يتعرض لهم ،

بل حلف هؤلاء للتقرير. وربما شذ منهم غير معروف. ونسخة اليمين المحلوف بها ومضمونها

الفصل الاول "أني من وقتى هذا أصفيت نبئي، وأخلصت طوبى، للملك الناصر مدة

حياته، وأنى لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بمنفسي ومالي وسيفي ورجالى، متمثلاً

أمره، واقفاً عند مراضيه. ثم من بعده لولده الأفضل علي وورثته. والله إنني في

طاعته، وأذب عن دولته وبلاذه بمنفسي ومالي وسيفي ورجالى، وأمثل أمره ونهيه، وباطنى

وطاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل".

ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه  
ولما كانت ليلة الأربعاء الثامن

والعشرين من صفر 589 (4 آذار/مارس

1193) وهي الثانية عشرة من

مرضه، اشتد مرضه وضعفت قوته، ووقع من الأمر في أوائل الامر من اوله،  
وحال بيننا

وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاصل تلك الليلة وابن الزكي ولم يكن عادته

[309] الحضور في ذلك الوقت،

وحضر بيننا الملك الأفضل، وأمر أن نبيت عنده فلم ير القاضي الفاصل ذلك  
رأياً، فإن

الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت في  
البلد، وربما

نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحة في نزولنا، واستحضار الشیخ أبي  
جعفر إمام

[310]  
الكلاسة ،

وهو رجل صالح، لبيت بالقلعة حتى إذا استحضر - رحمه الله - بالليل حضر  
عنه، وحال

بينه وبين النساء، وذكره الشهادة، وذكر الله تعالى. فعل ذلك ونزلنا وكل منا  
يود

فداءه بنفسه، وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ  
أبو

جعفر يقرأ عنده القرآن ويدرك الله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا  
يكاد

يفيق إلا في أحيان. وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: [هُوَ  
الله]

[311]  
الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة] .

سمعه وهو يقول رحمة الله عليه: "صحيح". وهذه يقطة في وقت الحاجة  
وعناء

من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك. وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم  
الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعه وثمانين وخمسمائه (4 آذار /  
مارس

1193) وبادر القاضي الفاضل

بعد طلوع الصبح في وقت وفاته، ووصلت وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله  
ومحل كرمه

وجزيل ثوابه، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: [لا إله  
إلا]

[312] .  
هو عليه توكلت

تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه،

وكان يوماً لم يصب الإسلام

وال المسلمين بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين، وغشى القلعة والبلد والدنيا  
من

الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم  
يتمنون

فداءه بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخيص  
إلا في ذلك

اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس. ثم  
جلس ولده

الملك الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص  
من

الأمراء والمعممين. وكان يوماً عظيماً وقد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن  
والأسف

والبكاء والاستغاثة من أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه  
شاعر أو

يتكلم فيه فاضل وواعظ.. وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد  
النفوس تزهق

لهول منظرهم. ودام الحال على هذا إلى ما بعد صلاة الظهر. ثم اشتغل بتغسيله وتکفینه،

فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن

الذي بلت به الطين.<sup>[313]</sup> وغسله

الدولعي الفقيه، ونهضت إلى الوقوف على غسله، فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر.

وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من

الثياب في تکفینه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه<sup>[314]</sup> وارتقتعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم من الضجيج والعويل، ما شغلهم عن الصلاة. فصلى عليه

الناس أرسلاً وكان أول من أُمِّي بالناس القاضي محبي الدين ابن الزكي ثم أعيد إلى

الدار التي في البستان وكان متمراضاً بها ودفن في الصفة الغربية منها. وكان نزوله

في حفرته قدس الله روحه ونور ضريحه قريباً من صلاة العصر.

## القسم الثالث: الأيوبيون والهجمات على مصر

## ساعد انحراف الحملة الرابعة نحو

القسطنطينية عام 1203 على تقديم هدنة زمنية للإسلام طالت خمسة عشرة عاماً تمكن الملك العادل أثناءها من

إحکام يديه على ميراث أخيه صلاح الدين، وتنظيم ممتلكات الأیوبیین الممتدة من مابین

النھرين إلى مصر وضبطها تحت سلطته. وقد استهدف الغزو الصليبي الجديد مصر بالذات

لكونها مركزاً للمقاومة الاسلامية في وقت كان يتزايد فيه التهديد المنغولي ليهيمن

في الشرق بصورة كارثية. وقد انطلق ابن الأثير بما عهدنا فيه من سعة أفق من مختلف

الواقع المحلية لينظر إلى كل مصائر الإسلام وليشير إلى ذلك الخطر المزدوج الذي

عبر عنه من خلال سرد كل من وقائع الغزو المنغولي الماساوية واحاداث الحملة الصليبية

الخامسة، وبهذا جمع في رواية منسقة واحدة حملة السنوات الاربع على مصر 1221-1217.

ونجد تكميلاً لرواية ابن الأثير في مقتطفات لابن واصل مؤرخ الأیوبیین، ليس من

السهل الوصول إليها في نسختها الأصلية خاصة وانها غير معروفة كما يلزم.

## الحملة

## الخامسة

### جمع

الفرنجة في سوريا  
وゾحفهم على مصر والاستيلاء على دمياط  
ثم استعادة المسلمين لها

(ابن الأثير، 208-209)

ذِكْرَ مَدِينَةِ دِمْبَاطَ وَعُودَهَا

إِلَى الْمُسْلِمِينَ

كَانَ مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ

الْحَادِيَّةِ إِلَى آخِرِهَا أَرْبَعُ سِنِينَ عَيْنَ شَهْرٍ، (614/1217) وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا هَاهُنَا: لِأَنَّ  
طُهُورَهُمْ كَانَ فِيهَا وَسُقْنَاهَا

سِيَاقَةً مُتَتَابِعَةً لِيَتَلْوُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَنَقُولُ: فِي هَذِهِ

السَّنَةِ وَصَلَتْ أَمْدَادُ الْفِرِنْجِ فِي الْبَحْرِ مِنْ رُومِيَّةَ

الْكُبْرَى وَعَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْفِرِنْجِ فِي الْقُرْبِ وَالسَّمَاءِ،

إِلَّا أَنَّ الْمُتَوَلِّيَ لَهَا كَانَ صَاحِبَ رُومِيَّةَ (البابا)، لِأَنَّهُ

يَنْتَزِلُ عِنْدَ الْفِرِنْجِ بِمَنْزِلَةِ عَظِيمَةٍ، لَا يَرْؤُنَ مُخَالَفَةَ

أَمْرِهِ وَلَا الْغُدُولَ عَنْ حُكْمِهِ فِيمَا سَرَّهُمْ وَسَاءَهُمْ، فَجَهَّزَ

الْعَسَاكِرَ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ مُقَدَّمِي الْفِرِنْجِ، وَأَمَرَ

عَيْرَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفِرِنْجِ إِمَّا أَنْ يَسِيرَ بِنَفْسِهِ، أَوْ يُرْسِلَ

[315] جَيْشًا، فَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ قَاجَمَعُوا بِعَكَّا مِنْ سَاحِلِ السَّامِ .

ذِكْرٌ

حُصْرِ الْفِرْنِجِ دِمْيَاطاً إِلَى أَنْ مَلَكُوهَا

(ابن الأثير، 210-213)

لَمَّا عَادَ الْفِرْنِجُ مِنْ حِصَارِ

الْطُّورِ [316] أَقَامُوا

بَعْدًا إِلَى أَنْ دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسَ عَشَرَةَ وَسِتِّمَائَةٍ، فَسَارُوا

فِي الْبَحْرِ إِلَى دِمْيَاطَ، فَوَصَلُوا فِي صَفَرٍ (ابار/مايو

1218)، فَأَزْسَوْا عَلَى

بَرِ الْجِيزَةِ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِمْيَاطَ النَّيلُ، فَإِنَّ بَعْضَ

النَّيلِ يَصْبُبُ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ عِنْدَ دِمْيَاطَ، وَقَدْ بَنَى فِي

النَّيلِ بُنْجٌ كَبِيرٌ مَنِيعٌ، وَجَعَلُوا فِيهِ سَلَاسِلَ مِنْ حَدِيدٍ

غَلَاظٍ، وَمَدُّوهَا فِي النَّيلِ إِلَى سُورِ دِمْيَاطَ لِتَمَنَعَ

الْمَرَاكِبُ الْوَاصِلَةُ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ أَنَّ تَصْقَدَ فِي النَّيلِ

إِلَى دِيَارِ مَصْرَ، وَلَوْلَا هَذَا الْبُنْجُ وَهَذِهِ السَّلَاسِلُ لَكَانَتْ

مَرَاكِبُ الْعَدُوِّ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مِنْعَها عَنْ اقْصى دِيَارِ مَصْرَ

وَادَانِيهَا. فَلَمَّا نَزَلَ الْفَرْنِجُ عَلَى بَرِ الْجِيزَةِ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِمْيَاطَ النَّيلِ بَنَوْا عَلَيْهِمْ

سُورًا وَجَعَلُوهُ خَنْدَقًا يَمْنَعُهُمْ مَمْنُ يَرِيدُهُمْ. وَشَرَعُوا فِي قَتَالِ مِنْ بَدِمْيَاطِ،  
وَعَمِلُوا أَلَاتٍ

وَمَرْمَاتٍ وَابْرَاجًا، يَزْحِفُونَ بِهَا فِي الْمَرَاكِبِ إِلَى هَذَا الْبَرِّ لِيَقْاتِلُوهُ وَيَمْلِكُوهُ. وَكَانَ

الْبَرِّ مَشْحُونًا بِالرِّجَالِ، وَقَدْ نَزَلَ الْمَلَكُ الْكَاملُ بْنُ الْمَلَكِ الْعَادِلِ، وَهُوَ صَاحِبُ دِمْيَاطِ

وَجَمِيعُ دِيَارِ مِصْرَ، بِمَنْزِلَةِ تَعْرِفُ بِالْعَادِلِيَّةِ، بِالْقَرْبِ مِنْ دِمْبَاطَ، وَالْعَسَكِرِ  
مَتَصَلَّهُ مِنْ عَنْدِهِ

إِلَى دِمْبَاطَ، لِيَمْتَعَ الْعَدُوُّ مِنَ الْغُبُورِ إِلَى أَرْضِهَا.

وَأَدَامَ الْفِرْنَجَ قِتَالَ

الْبَرْجِ وَتَابَعُوهُ، فَلَمْ يَطْفَرُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ، وَكُسْرَتْ  
مَرَّمَائِهِمْ وَآلَاهِهِمْ، وَمَعَ هَذَا قَهْمُ مُلَازِمُونَ لِقَتَالِهِ،  
فَبَقُوا كَذِلِكَ أَرْبَعَةَ أَسْهُرٍ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَخْذِهِ؛  
فَلَمَّا مَلَكُوهُ قَطَعُوا السَّلَاسِلَ لِتَدْخُلِ مَرَاكِبِهِمْ مِنَ  
الْبَحْرِ الْمَالِحِ فِي النَّيلِ وَتَحَكَّمُوا فِي الْبَرِّ، فَنَصَبَ  
الْمَلِكُ الْكَامِلُ عِوَضَ السَّلَاسِلِ حِسْرًا عَظِيمًا امْتَنَعُوا بِهِ مِنْ  
شُلُوكِ النَّيلِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَيْهِ أَيْضًا قِتَالًا شَدِيدًا،  
كَثِيرًا مُتَتَابِعًا حَتَّى قَطَعُوهُ، فَلَمَّا فَطَعَ أَخَذَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ  
عَدَّهُ مَرَاكِبَ كِبَارٍ وَمَلَاهَا وَخَرَقَهَا وَغَرَّقَهَا فِي النَّيلِ،  
فَمَمْتَعَتِ الْمَرَاكِبُ مِنْ شُلُوكِهِ. فَلَمَّا رَأَى الْفِرْنَجُ ذَلِكَ  
فَصَدُوا خَلِيجًا هُنَاكَ يُعْرَفُ بِالْأَزْرِقِ، كَانَ النَّيلُ يَجْرِي فِيهِ  
قَدِيمًا، فَحَقَرُوا ذَلِكَ الْخَلِيجَ وَعَمَّقُوهُ فَوْقَ الْمَرَاكِبِ الَّتِي  
جُعِلَتْ فِي النَّيلِ، وَأَجْرَوُوا الْمَاءَ فِيهِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَالِحِ،  
وَأَصْعَدُوا مَرَاكِبَهُمْ فِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ بُورَهُ، عَلَى  
أَرْضِ الْجِيزَةِ أَيْضًا، مُقَابِلَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَلِكُ  
الْكَامِلُ لِيُقَاتِلُوهُ مِنْ هُنَاكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَيْهِ

طَرِيقٌ يُقَاتِلُونَهُ فِيهَا، كَانَتْ دِمْيَاطَ تَحْجِزُ بَيْنَهُمْ  
 وَبَيْنَهُ، قَلَمَّا صَارُوا فِي بُورَةَ حَادُوْهَ فَقَاتِلُوهُ فِي الْمَاءِ،  
 وَرَحَفُوا عَيْرَ مَرَّةً، قَلَمْ يَطْقُرُوا بِطَائِلٍ. وَلَمْ يَتَغَيَّرْ  
 عَلَى أَهْلِ دِمْيَاطَ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الْمِيرَةَ وَالْأَمْدَادَ مُنْصَلَّةٌ  
 بِهِمْ، وَالثَّلَيلَ يَحْجِزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفِرْجِ، فَهُمْ  
 مُمْتَنِعُونَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ أَذْيَ، وَأَبْوَابُهَا مُفَنَّحَةُ، وَلَيْسَ  
 عَلَيْهَا مِنَ الْخَصْرِ ضِيقٌ وَلَا ضَرَرٌ.

فَأَنْفَقَ، كَمَا يُرِيدُ اللَّهُ

- عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّ الْمَلِكَ الْعَادِلَ ثُوْقَيَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ

مِنْ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِنِمَائَةٍ (أَب/اغسطس

1218)- عَلَى مَا

تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فَصَعَقَتْ نُفُوسُ النَّاسِ لِأَنَّهُ  
 السُّلْطَانُ حَقِيقَةُ، وَأَوْلَادُهُ، وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا إِلَّا أَنَّهُمْ

[317] بِحُكْمِهِ، وَالْأَمْرُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَلِكُهُمُ الْبِلَادُ ،

فَأَنْفَقَ مَوْئِهَ وَالْحَالُ هَكَذَا مِنْ مُقَاتَلَةِ الْعَدُوِّ. وَكَانَ  
 مِنْ جُمَلَةِ الْأَمْرَاءِ بِمِصْرَ أَمِيرُ يُقالُ لَهُ عِمَادُ الدِّينِ  
 أَخْمَدُ بْنُ عَلَيٌّ، وَيُعْرَفُ بِابْنِ الْمَسْطُوبِ، وَهُوَ مِنَ  
 الْأَكْرَادِ الْهَكَارِيَّةِ، وَهُوَ أَكْبَرُ أَمِيرِ بِمِصْرَ، وَلَهُ لَفِيفُ  
 كَثِيرٌ، وَجَمِيعُ الْأَمْرَاءِ يَنْقَادُونَ إِلَيْهِ وَيُطِيعُونَهُ لَا

سِيَّمَا الْأَكْرَادُ، فَاتَّفَقَ هَذَا الْأَمْرُ مَعَ عَيْرِهِ مِنَ  
الْأُمَّرَاءِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَخْلُغُوا الْمَلِكَ الْكَامِلَ مِنَ الْمُلْكِ،  
وَيُمْلِكُوا أَخَاهُ الْمَلِكَ الْفَائِزَ بْنَ الْعَادِلِ لِيَصِيرَ  
الْحُكْمُ إِلَيْهِمْ عَلَيْهِ وَعَلَى الْبِلَادِ، فَبَلَغَ الْخَبْرُ إِلَى  
الْكَامِلِ، فَقَارَقَ الْمَنْزِلَةَ لَيْلًا جَرِيدَةً، وَسَارَ إِلَى َرْبَةِ  
يُقَالُ لَهَا أَسْمُومُ طَنَّاحَ، فَتَرَلَ عِنْدَهَا، وَأَصْبَحَ الْعَسْكَرُ  
وَقَدْ قَدُّوا سُلْطَانَهُمْ، فَرَكِبَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ هَوَاهُ،  
وَلَمْ يَقِفِ الْأَخُونُ عَلَى أَخِيهِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَخْذِ شَيْءٍ مِنْ  
خَيَّا مِنْهُمْ وَذَخَائِرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ إِلَّا الْيَسِيرَ  
الَّذِي يَخْفُ حَمْلُهُ، وَتَرَكُوا الْبَاقِيَ بِحَالِهِ مِنْ مِيرَةِ،  
وَسِلَاحِ، وَدَوَابَّ، وَخَيَّا مِنْهُمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَحِقُوا بِالْكَامِلِ.  
وَأَمَّا الْفِرِنْجُ فَإِنَّهُمْ  
أَصْبَحُوا مِنَ الْعَدِ، فَلَمْ يَرُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا عَلَى  
شَاطِئِ النَّيلِ كَجَارِي عَادَتِهِمْ، قَبَّلُوا لَا يَدْرُونَ مَا الْخَبْرُ،  
وَإِذْ قَدْ أَتَاهُمْ مَنْ أَخْبَرَهُمُ الْخَبْرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَعَبَرُوا  
حِبَّتِهِمُ الْنَّيلَ إِلَى بَرِّ دِمِياطَ آمِنِينَ بِغَيْرِ مُتَارِعٍ وَلَا  
مُمَانِعٍ، وَكَانَ عَبُورُهُمْ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ  
خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِنِمَائَةٍ (8 شباط/فبراير  
1219)، فَعَنِمُوا مَا فِي  
مِعْسَكِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ عَظِيمًا يُعِجزُ الْعَادِيَنَ. وَكَانَ

الْمَلِكُ الْكَامِلُ يُفَارِقُ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ لَاَنَّهُ لَمْ يَتَقْبَلْ  
بِأَحَدٍ مِنْ عَسْكِرِهِ، وَكَانَ الْفِرْنَجُ مَلَكُوا الْجَمِيعَ بِعَيْنِ  
تَعْبٍ وَلَا مَشْفَقَةً، فَاتَّفَقَ مَنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى  
بِالْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْمَلِكَ الْمُعَظَّمَ عِيسَى ابْنُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ  
وَصَلَ إِلَى أَخِيهِ الْكَامِلِ بَعْدَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ بِيَوْمَيْنِ،  
وَالنَّاسُ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ، فَقَوَىَ بِهِ قَلْبُهُ وَاسْتَدَّ طَهْرُهُ،  
وَتَبَيَّنَتْ جَنَانُهُ، وَأَقَامَ يَمْنَزِلَتِهِ، وَأَخْرَجُوا ابْنَ الْمَسْطُوبَ  
إِلَى السَّامِ، فَاتَّصَلَ بِالْمَلِكِ الْأَسْرَفِ وَصَارَ مِنْ جُنْدِهِ.  
فَلَمَّا عَبَرَ الْفِرْنَجُ إِلَى  
أَرْضِ دِمْبَاطَ اجْتَمَعَتِ الْعَرْبُ عَلَى اخْتِلَافٍ فَبَاتَلُوهَا،  
وَنَهَبُوا الْبِلَادَ الْمُجَاوِرَةَ لِدِمْبَاطَ، وَقَطَّعُوا الطَّرِيقَ،  
وَأَفْسَدُوا، وَبَالْغُوا فِي الْإِفْسَادِ، فَكَانُوا أَسْدَّ عَلَى  
الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفِرْنَجِ، وَكَانَ أَصْرُّ شَيْءٍ عَلَى أَهْلِ دِمْبَاطَ  
أَنَّهَا لَمْ يَكُنْ يَهَا مِنَ الْعَسْكَرِ أَحَدٌ؛ لَاَنَّ السُّلْطَانَ وَمَنْ  
مَعَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ كَانُوا عِنْدَهَا يَمْتَعُونَ الْعَدُوَّ عَنْهَا،  
فَأَتَتْهُمْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ بَعْنَاءً، فَلَمْ يَدْخُلُهَا أَحَدٌ مِنْ  
الْعَسْكَرِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ ابْنِ الْمَسْطُوبِ، لَا جَرَمَ لَمْ  
يُمْهِلْهُ اللَّهُ، وَأَخَذَهُ أَخَذَهُ رَأْيِهِ، عَلَى مَا نَذْكُرُهُ إِنْ  
شَاءَ اللَّهُ، وَأَحَاطَ الْفِرْنَجُ بِدِمْبَاطَ، وَقَاتَلُوهَا بَرَّا  
وَبَحْرًا، وَعَمِلُوا عَلَيْهِمْ حَنْدَقًا يَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ يُرِيدُهُمْ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُذِهِ كَانَتْ عَادِثَهُمْ، وَأَدَمُوا الْقِتَالَ،  
وَاسْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى أَهْلِهَا، وَتَعَذَّرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَفْوَاثُ  
وَغَيْرُهَا، وَسَيَّمُوا الْقِتَالَ وَمُلَازَمَةَ، لِأَنَّ الْفِرِّيجَ كَانُوا  
يَتَنَاوِلُونَ الْقِتَالَ عَلَيْهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ، وَلَيْسَ بِدِمَاطَةٍ مِنَ  
الْكَثْرَةِ مَا يَجْعَلُونَ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ مُتَأْوِيَّةً، وَقَعَ هَذَا فَقَدَ  
صَبَرُوا صَبْرًا لَمْ يُسْمَعْ يَمْتَلِهِ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِيهِمْ  
وَالْجِرَاحُ وَالْمَوْتُ وَالْأَمْرَاضُ، وَدَامَ الْحِصَارُ عَلَيْهِمْ إِلَى  
السَّابِعِ وَالْعِشْرِينِ مِنْ سَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّ عَشَرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ (8 تشرين ثاني /  
نوفمبر

(1219)، فَعَجَزَ مَنْ

بَقَى مِنْ أَهْلِهَا عَنِ الْحِفْظِ لِقَاتِلِهِمْ، وَتَعَذَّرَ الْفُوتُ  
عِنْدَهُمْ، فَسَلَّمُوا الْبَلَدَ إِلَى الْفِرِّيجِ، فِي هَذَا التَّارِيخِ،  
بِالْأَمَانِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ قَوْمٌ وَأَقَامَ آخْرُونَ لِعَجْزِهِمْ عَنِ  
الْحَرَكَةِ، فَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَأَ .  
<sup>[318]</sup>

ذِكْرٌ

مُلْكِ الْمُسْلِمِينَ دِمَاطَةَ مِنَ الْفِرِّيجِ

(ابن

الأثير، 213-12/216)

لَمَّا مَلَكَ الْفِرِّيجُ

دِمَاطَةَ أَقَامُوا بِهَا، وَبَيْنُوا سَرَابِاهُمْ فِي كُلِّ مَا جَاقَرُهُمْ

مِنَ الْبِلَادِ، يَنْهَبُونَ وَيَقْتُلُونَ، فَجَلَا أَهْلَهَا عَنْهَا،  
وَسَرَّعُوا فِي عِمَارَتِهَا وَتَحْصِينَهَا، وَتَالَّفُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى  
إِنَّهَا بَقِيَتْ لَا تُرَامُ.

وَأَمَّا الْمَلِكُ الْكَامِلُ

فَإِنَّهُ أَقَامَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ فِي أَطْرَافِ بِلَادِهِ يَخْمِيَهَا  
مِنْهُمْ. وَلَمَّا سَمِعَ الْفِرِنْجُ فِي بِلَادِهِمْ يَقْتَلُونَ دِمْبَاطَ عَلَى  
أَصْحَابِهِمْ أَفْبَلُوا إِلَيْهِمْ يُهْرَعُونَ مِنْ كُلِّ فَجٌّ عَمِيقٍ،  
وَأَصْبَحَتْ دَارَ هُجْرَتِهِمْ، وَعَادَ الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ صَاحِبُ  
دِمْسُقَ إِلَى السَّامِ قَحْرَبَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسَ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ

[319] السَّنَةِ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ كَافَّةً حَافُوا الْفِرِنْجَ،  
وَأَسْرَفَ الْإِسْلَامُ وَجَمِيعَ أَهْلِهِ وَبِلَادِهِ عَلَى خُطْلَةٍ خَسَفِيَّ فِي  
شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا: أَفْبَلَ الشَّرُّ مِنَ الْمَشْرِقِ حَتَّى وَصَلُوا  
إِلَى نَوَاحِي الْعَرَاقِ وَأَذْرِيْجَانَ وَأَرَازَانَ وَغَيْرِهَا، عَلَى مَا  
تَذَكُّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛ وَأَفْبَلَ الْفِرِنْجُ مِنَ الْمَغْرِبِ  
فَمَلَكُوا مِنْلَ دِمْبَاطَ فِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، مَعَ عَدَمِ  
الْخُصُونِ الْمَانِعِ يَهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَأَسْرَفَ سَائِرَ الْبِلَادِ  
يِمْصُرَ وَالسَّامِ عَلَى أَنْ تُمْلَكَ، وَحَاقُهُمُ النَّاسُ كَافَّةً،  
وَصَارُوا يَتَوَقَّعُونَ الْبَلَاءَ صَبَاحًا وَمَسَاءً. وَأَرَادَ أَهْلُ مِصْرَ

[320] الْجَلَاءَ عَنْ بِلَادِهِمْ حَوْفًا مِنَ الْعَدُوِّ، [وَلَاتِ جِينَ مَتَاصِي]

وَالْعَدُوُّ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَوْ مَكَنُوكُمْ  
الْكَامِلُ مِنْ ذَلِكَ لَتَرَكُوا الْبِلَادَ حَاوِيَّةً عَلَى عُزُوضِهَا،  
قِلَّاتِمَا مُنِعُوا مِنْهُ فَتَبَشَّوا. وَتَابَعَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ كُنْبَةً  
إِلَى أَخْوَيْهِ الْمُعَظَّمِ صَاحِبِ دِمْسُقَ، وَالْمَلِكُ الْأَسْرَفِ  
مُوسَى بْنُ الْعَادِلِ، صَاحِبِ دِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَأَزْمِينَّةَ  
وَغَيْرِهِمَا، يَسْتَنْجِذُهُمَا، وَيَخْتَهُمَا عَلَى الْخُصُورِ  
يَأْنُفُسِيهِمَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَيْرَسِلَانِ الْعَسَاكِرِ إِلَيْهِ،  
فَسَارَ صَاحِبُ دِمْسُقَ إِلَى الْأَسْرَفِ يَنْفُسِيهِ بِحَرَّانَ، فَرَآهُ  
مَسْعُوقًا عَنْ إِنْجَادِهِمْ بِمَا دَهَمَهُ مِنْ احْتِلَافِ الْكَلِمَةِ  
عَلَيْهِ، وَرَوَالِ الطَّاعَةِ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ كَانَ يُطِيعُهُ، وَتَحْنَ  
تَذْكُرُ ذَلِكَ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِيَّمَائَةٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -  
عِنْدَ وَفَاهِ الْمَلِكِ الْقَاهِرِ، صَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَلِيُطْلَبْ مِنْ  
هُنَاكَ؛ فَعَذَرَهُ، وَعَادَ عَنْهُ، وَبِقِيَ الْأَمْرُ كَذِلِكَ مَعَ  
الْفِرِنجِ.

فَأَمَّا الْمَلِكُ الْأَسْرَفُ  
فَرَالِ الْخُلُفُ مِنْ يَلَادِهِ، وَرَجَعَ الْمُلُوكُ الْخَارِجُونَ عَنْ  
طَاعَتِهِ إِلَيْهِ، وَاسْتَقَامُتْ لَهُ الْأُمُورُ إِلَى سَنَةِ تَمَانِيَ  
عَشْرَةَ وَسِيَّمَائَةٍ، وَالْمَلِكُ الْكَامِلُ مُقَابِلُ الْفِرِنجِ.  
فَلَمَّا دَخَلَتْ سَنَةُ  
تَمَانِيَ عَشْرَةَ وَسِيَّمَائَةَ عِلَمَ يَرْوَالِ مَانِعُ الْمَلِكِ

الْأَسْرَفِ عَنِ إِنْجَادِهِ، فَأَزْسَلَ يَسْتَنْجِدُهُ وَأَخَاهُ، صَاحِبَ  
دِمْشَقَ، فَسَارَ صَاحِبُ دِمْشَقَ الْمُعَظَّمَ إِلَى الْأَسْرَفِ يَخْتُنُ  
عَلَى الْمَسِيرِ، فَفَعَلَ، وَسَارَ إِلَى دِمْشَقَ فَيَمْنَ مَعَهُ مِنْ  
الْعَسَاكِرِ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ بِاللَّحَاقِ بِهِ إِلَى دِمْشَقَ، وَأَقَامَ  
بِهَا يَنْتَظِرُهُمْ، فَأَسْأَرَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَمْرَائِهِ وَحَوَاضِهِ  
بِإِنْقَاذِ الْعَسَاكِرِ وَالْعَوْدِ إِلَى بِلَادِهِ حَوْفًا مِنْ اخْتِلَافٍ يَخْذُلُ  
بَعْدَهُ، فَلَمْ يَقْبِلْ قَوْلَهُمْ، وَقَالَ قَدْ خَرَجْتِ لِلْجِهَادِ، وَلَا  
بُدَّ مِنْ إِنْقَامِ ذَلِكَ الْعَزْمِ، فَسَارَ إِلَى مِصْرَ.  
وَكَانَ الْفِرْنُجُ قَدْ سَارُوا

عَنِ دِمْيَاطَ فِي الْقَارِسِ وَالرَّاجِلِ، وَقَصَدُوا الْمَلِكَ الْكَاملَ،  
وَنَزَلُوا مُقَابِلَهُ، بَيْنَهُمَا خَلِيجٌ مِنَ النَّيلِ يُسَمَّى بَحْرَ  
أَسْمُومَ، وَهُمْ يَزْمُونَ بِالْمَنْجَنِيقِ وَالْجَرْخِ إِلَى عَسْكَرِ  
الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ تَيَقَّنُوا هُمْ وَكُلُّ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ  
الْدِيَارَ الْمِصْرِيَّةَ وَأَمَّا الْأَسْرَفُ فَإِنَّهُ سَارَ حَتَّى وَصَلَ  
مِصْرَ، فَلَمَّا سَمِعَ أَخْوَهُ الْكَاملُ يُقْرِبُهُ مِنْهُمْ تَوَجَّهَ  
إِلَيْهِ، فَلَقِيهِ، وَاسْتَبَّشَ هُوَ وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ  
بِاجْتِمَاعِهِمَا، لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بِذِلِكَ نَصْرًا وَظَفَرًا.

وَأَمَّا الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ،  
صَاحِبُ دِمْشَقَ، فَإِنَّهُ سَارَ أَيْضًا إِلَى دِيَارِ مِصْرَ، وَقَصَدَ  
دِمْيَاطَ ظَلَّا مِنْهُ أَنَّ أَخْيَوْهُ وَعِسْكَرَهُمَا قَدْ تَازَلُوهَا،

وَقِيلَ بَلْ أَحِبَّ فِي الطَّرِيقِ أَنِ الْفِرْجَ قَدْ تَوَجَّهُوا إِلَى

[321] دِمْيَاطَ ،

فَسَابَقُهُمْ إِلَيْهَا لِيَلْقَاهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَأَخْوَاهُ مِنْ  
خَلْفِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَمَّا اجْتَمَعَ الْأَشْرَفُ بِالْكَامِلِ  
اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا عَلَى التَّقْدُمِ إِلَى خَلِيجٍ مِنَ النَّيلِ  
يُعْرَفُ بِنَحْرِ الْمَحَلَّةِ، فَتَقدَّمُوا إِلَيْهِ، فَقَاتَلُوا  
الْفِرْجَ، وَارْدَادُوا فُزُّبًا، وَتَقدَّمُ شَوَّانِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ  
النَّيلِ، وَقَاتَلُوا شَوَّانِي الْفِرْجَ، فَأَخْدُوا مِنْهَا ثَلَاثَ قِطَاعٍ  
يَمْنَ فِيهَا مِنَ الرِّجَالِ، وَمَا فِيهَا مِنْ الْأَمْوَالِ وَالسَّلاحِ،  
فَفَرَّ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ، وَاسْتَبَشَرُوا، وَقَاتَلُوا، وَقَوَيْتُ  
ثُفُوشُهُمْ، وَاسْتَطَالُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ.

هَذَا يَجْرِي وَالرُّسْلُ

مُتَرَدِّدُهُ بَيْنَهُمْ قِي تَقْرِيرٍ قَاعِدَةِ الصَّلِحِ، وَبَذَلَ  
الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ تَسْلِيمَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَعَسْقَلَانَ،  
وَطَبَرِيَّةَ، وَصَيْداً، وَجَبَلَةَ، وَاللَّاذِقِيَّةَ، وَجَمِيعَ مَا فَتَحَهُ  
صَلَاحُ الدِّينِ مِنَ الْفِرْجِ بِالسَّاحِلِ، وَقَدْ تَقدَّمَ ذِكْرُهُ مَا

[322] عَدَا الْكَرَكَ، لِيُسَلِّمُوا دِمْيَاطَ ،

فَلَمْ يَرْضُوا وَطَلَّبُوا ثَلَاثِيَّةَ أَلْفِ دِينَارٍ عِوْصَانَ عَنْ  
تَحْرِيبِ الْقُدْسِ لِيَعْمَرُوهُ بِهَا، فَلَمْ يَتَمَّ بَيْنَهُمْ أَمْرٌ

وَقَالُوا: لَا بُدَّ مِنَ الْكَرِكِ.

فَبَيْنَمَا الْأَمْرُ فِي هَذَا،

وَهُمْ يَمْتَنِعُونَ، اصْطَرَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَى قِتَالِهِمْ.

وَكَانَ الْفِرْنَجُ

لَا غَيْدَادِهِمْ يُنْفُوسِهِمْ لَمْ يَسْتَضْحِبُوا مَعَهُمْ مَا يَقُولُهُمْ

عِدَّةً أَيَّامٍ، ظَنَّا مِنْهُمْ أَنَّ الْعَسَاكِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَا

تَقُومُ لَهُمْ، وَأَنَّ الْفَرَّارِيَّةَ وَالسَّوَادَ جَمِيعُهُ يَبْقَى يَأْيُدِيهِمْ،

يَأْخُذُونَ مِنْهُ مَا أَرَادُوا مِنِ الْمِيرَةِ، لِأَمْرٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ

تَعَالَى بِهِمْ، فَعَبَرَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي

عَلَيْهَا الْفِرْنَجُ، فَعَجَزُوا التَّلَلَ، فَرَكِبَ الْمَاءُ أَكْثَرَ تِلْكَ

الْأَرْضِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْفِرْنَجِ جِهَةً يَسْلُكُونَ مِنْهَا عَيْرَ جِهَةً

وَاحِدَةٌ فِيهَا ضِيقٌ، فَنَصَبَ الْكَامِلُ حِينَئِذٍ الْجُسُورَ عَلَى

الْتَّلَلِ، عِنْدَ أَسْمُومَ، وَعَبَرَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَيْهَا، فَمَلَكَ الطَّرِيقَ

الَّذِي يَسْلُكُهُ الْفِرْنَجُ إِنْ أَرَادُوا الْعَوْدَ إِلَى دِمْياطَ، قَلَمْ

يَبْقَ لَهُمْ خَلَاصٌ. وَاتَّفَقَ فِي تِلْكَ الْخَالِ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهِمْ

مَرْكَبٌ كَبِيرٌ لِلْفِرْنَجِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرَاكِبِ يُسَمَّى مَرَّمَةً،

وَحَوْلَهُ عِدَّةُ حَرَّاقَاتٍ تَحْمِيهِ، وَالْجَمِيعُ مَمْلُوءٌ مِنِ

الْمِيرَةِ وَالسَّلَاحِ، وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا

شَوَّانِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَاتَلُوهُمْ، فَظَلَفُوا بِالْمَرَّمَةِ وَبِمَا

مَعَهَا مِنِ الْحَرَّاقَاتِ، أَخْدُوهَا، فَلَمَّا رَأَى الْفِرْنَجَ ذَلِكَ

سُقْطَةٍ فِي أَيْدِيهِمْ، وَرَأُوا أَنَّهُمْ قَدْ صَلَوْا الصَّوَابَ  
بِمُفَارَقَةِ دِمْبَاطٍ فِي أَرْضٍ يَجْهَلُونَهَا. هَذَا وَعَسَاكِرُ  
الْمُسْلِمِينَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ يَرْمُوْهُمْ بِالثُّشَابِ، وَيَخْمِلُونَ  
عَلَى أَطْرَافِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْفِرِيجِ أَخْرَفُوا  
خِيَامَهُمْ، وَمَجَانِيقَهُمْ، وَأَنْقَالُوهُمْ، وَأَرَادُوا الرَّحْفَ إِلَى  
الْمُسْلِمِينَ وَمُقاَتَلَتُهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْعَوْدِ إِلَى  
دِمْبَاطٍ، فَرَأُوا مَا أَمْلَوْهُ بَعِيدًا، وَجَبَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا  
يَسْتَهِونَ، لِكُتْرَةِ الْوَحْلِ وَالْمِيَاهِ حَوْلَهُمْ، وَالْوَجْهُ الَّذِي  
يَقْدِرُونَ عَلَى سُلُوكِهِ قَدْ مَلَكَهُ الْمُسْلِمُونَ.

فَلَمَّا تَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ  
قَدْ أَجْيَطَ بِهِمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ، وَأَنْ مِيرَتَهُمْ قَدْ تَعَذَّرَ  
عَلَيْهِمْ وُصُولُهَا، وَأَنَّ الْمَنَائِيَا قَدْ كَسَرَتْ لَهُمْ عَنْ  
أَمْبَايَهَا، دَلَّتْ نُفُوشُهُمْ، وَتَكَسَّرَتْ طَلْبَانُهُمْ، وَصَلَّ  
عَنْهُمْ شَيْطَانُهُمْ، فَرَاسَلُوا الْمَلِكَ الْكَامِلَ وَالْأَسْرَفَ  
يَطْلُبُونَ الْأَمَانَ لِيُسَلِّمُوا دِمْبَاطٍ يَغْيِرُ عَوْضِي، فَبَيْنَما  
الْمُرَاسَلَاتُ مُتَرَدِّدَةٌ إِذْ أَقْبَلَ جَمْعٌ كَيْبِرٌ، لَهُمْ رَهْجُ  
شَدِيدٌ، وَجَلَبَهُ عَظِيمَةٌ، مِنْ جِهَةِ دِمْبَاطٍ، فَطَنَّهُ الْمُسْلِمُونَ  
تَجْدَهُ أَئْتُ لِلْفِرِيجِ، فَاسْتَشْعَرُوا، قَدْ هُوَ الْمَلِكُ  
الْمُعَظَّمُ، صَاحِبُ دَمْسَقَ، قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ قَدْ جَعَلَ  
طَرِيقَهُ عَلَى دِمْبَاطٍ، لِمَا ذَكَرْتَاهُ، فَاسْتَدَّتْ ظُهُورُ

الْمُسْلِمِينَ، وَإِرْدَادُ الْفِرِنْجِ خِدْلَاتًا وَوْهَنًا، وَتَمَّمُوا  
الصُّلُحَ عَلَى تَسْلِيمٍ دِمْيَاطًا، وَاسْتَقَرَتِ الْقَاعِدَةُ وَالْأَيْمَانُ  
سَابِعَ رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ تَمَانِي عَشْرَةَ وَسِنِّيَّةَ (27 أَبَ/اَغْسَطْس 1221)،  
وَاتَّقَلَ مُلُوكُ الْفِرِنْجِ، وَكُنُودُهُمْ، وَقَمَامِصَنُّهُمْ إِلَى  
الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَالْأَسْرَفِ رَهَائِنَ عَلَى تَسْلِيمٍ دِمْيَاطًا: مَلِكُ  
عَكَّا، وَتَائِبُ بَابَا صَاحِبِ رُومِيَّةَ، وَكُنْدُرِيشَ، وَغَيْرُهُمْ،  
وَعِدَّتُهُمْ عِشْرُونَ مَلِكًا، وَرَاسَلُوا فُسُوسَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ إِلَى  
دِمْيَاطًا فِي التَّسْلِيمِ، فَلَمْ يَمْتَنِعْ مَنْ يَهَا، وَسَلَّمُوهَا إِلَى  
الْمُسْلِمِينَ تَاسِعَ رَجَبٍ الْمُذْكُورِ، وَكَانَ يَوْمًا مَسْهُودًا. وَمِنْ  
الْعَجَبِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لِمَا تَسْلَمُوهَا وَصَلَّبُ لِلْفِرِنْجِ  
تَجْدَهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَوْ سَبَقُوا الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا لَامْتَنَعُوا  
مِنْ تَسْلِيمِهَا، وَلَكِنْ سَبَقُهُمُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْضِيَ اللَّهُ  
أَمْرًا كَانَ مَقْعُولًا، وَلَمْ يَبْقِيَهَا مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا آخَادُ،  
وَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا، بَغْضُهُمْ سَارَ عَنْهَا بِإِختِيَارِهِ،  
وَبَغْضُهُمْ مَاتَ، وَبَغْضُهُمْ أَخَذَهُ الْفِرِنْجُ. وَلَمَّا دَخَلُوا  
الْمُسْلِمُونَ رَأَوْهَا وَقَدْ حَصَنَهَا الْفِرِنْجُ تَحْصِيَنًا عَظِيمًا  
بِحَيْثُ بَقِيَتْ لَا تُرَامُ، وَلَا يُوصَلُ إِلَيْهَا، وَأَعَادَ اللَّهُ،  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْحَقَّ إِلَى نِصَابِهِ، وَرَدَّهُ إِلَى أَرْبَابِهِ،  
وَأَعْطَى الْمُسْلِمِينَ طَقْرًا لَمْ يَكُنْ فِي جِسْمِهِمْ، فَإِنَّهُمْ  
كَانُوا عَایَةً أَمَانِيَّهُمْ أَنْ يُسَلِّمُوا الْبِلَادَ الَّتِي أَخْدَتْ

مِنْهُمْ بِالشَّامِ لِيُعِيذُوا دِمْبَاطًا، فَرَزَقَهُمُ اللَّهُ إِعَادَةً  
دِمْبَاطًا، وَبَقِيَتِ الْبِلَادُ يَأْيُدِيهِمْ عَلَى حَالِهَا، قَالَ اللَّهُ  
الْمَحْمُودُ الْمَسْكُورُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ  
وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ كَفٌّ عَادِيَةٌ هَذَا الْعَدُوُّ، وَكَفَاهُمْ شَرُّ  
الشَّرِّ، عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

### تفاصيل

أخرى عن هزيمة الفرنج

(ابن

واصل، 209r-210r) ... (راسل الفرنج)... السلطان

الملك الكامل وأخويه السلطان الأشرف والملك المعظم يطلبون منهم  
الأمان

لأنفسهم، ليسلمون لهم دمياط من غير عوض. قال: فاستشار السلطان الملك  
الكامل ملوك

أهل بيته في ذلك، فأشار بعضهم بأن لا يؤمنهم ويأخذهم أخذ باليد، فإنهم قد  
صاروا في

قبضته، وهم جمهور أهل الشرب، وأنه إذا فعل ذلك أخذ منهم دمياط وجميع ما  
تبقى لهم

من البلاد الساحلية. فلم يرى السلطان الملك الكامل ذلك مصلحة، وقال: "إن

هاولي (هؤلاء) ليس لهم جميع الفرنج، وإذا أبدناهم <sup>[323]</sup> لم

نقدر على أخذ دمياط إلا بالمطاولة وحروب كثيرة مدة، وتسمع ملوك ما وراء  
البحر من

الفرنج مانالهم وما جرى عليهم، فيقدم إلينا أضعاف هؤلاء، وتعود الحرب خدعة".

وقد ضجرت العساكر من الحروب وكُلّت [324] ،

وكانت مدة مقام الفرنج بالديار المصرية ثلاثة سنين وشهور. فأتفق رأى الكل على بذل

الأمان لهم، وبأخذ دمياط منهم. فأجيبوا الفرنج إلى ما طلبوا من الأمان، على أن

يأخذ السلطان الملك ملوكهم رهائن، إلى أن يسلموا دمياط. وطلبوا لهم أيضاً أن يأخذوا

ولد السلطان الملك الكامل وجماة من خواصه رهائن، إلى أن ترجع ملوكهم إليهم فتقررت

القاعدة على ذلك والإيمان، سابع رجب من هذه السنة، أعني سنة ثمان عشر وستمائة.

وكانت رهائن الفرنج ملك عكا، واللكاف نايب البابا صاحب رومية الكبرى، والملك

كندروس (لودوفيك) وغير هؤلاء من الملوك تتمة عشرين ملكاً. وكانت رهائن السلطان

الملك الكامل، ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب [325] وجماة

من خواصه، وكان عمر الملك الصالح يومئذ خمسة عشر سنة، لأن مولده سنة ثلاثة وستمائة.

ولما قدم هؤلاء الملوك إلى السلطان الملك الكامل، جلس مجلساً عظيماً، ووقف بين يديه

الملوك وأخوته وأهل بيته جميعاً، فرأوا الفرنج من عظمة ملكه وناموسه

[326] ماهالهم ...

(سلمت دمياط).. وبعد ذلك رجعت  
رهائن الفرنج إليهم، ورهائن المسلمين إليهم. وولها الأمير شجاع الدين جلدك  
المظفرى النورى، وكان رجلا خيرا شهما. وكان للفرنج، لما وقع الصلح،  
صوارى عظام

جدا، فأرادوا أخذها وحملها معهم إلى بلادهم، فمنعهم من ذلك شجاع الدين.  
فبعثوا إلى

السلطان الملك الكامل يشكونه ويقولون إن "هذه الصوارى لنا، وإن مقتضى  
الصلح

أن ترد إلينا". فكتب الملك العادل إلى شجاع الدين يأمره أن ترد الصوارى  
إليهم، فأصر على الامتناع، وقال أن الفرنج أخذوا منبر جامع دمياط وكسروه،  
وأهدوا

كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم، فيأمرهم السلطان أن يردوا إلينا المنبر  
لنرد إليهم

الصوارى". فكتب السلطان إليهم في ذلك، وذكر لهم ما ذكر شجاع الدين،  
فعجزوا عن

ذلك وأعرضوا عن ذكر الصوارى...

كان للحملة الصليبية السلمية التي شنها فريدرick الثاني على صورة مناوشات دبلوماسية تداخلت بين منافسات امراء الايوبيين من ورثة العادل أن تركت كثيراً من الذكريات المهمة لدى المؤرخين المسلمين في تلك الآونة. مصادرنا الرئيسية هنا هم سبط ابن الجوزي الذي كان شاهداً ومشاركاً هو نفسه في ردة الفعل الاسلامية على عملية التنازل عن القدس للإمبراطور السواويّ، ثم ابن واصل الذي لم يعرف شخص فيديريك لكنه أصبح فيما بعد سفيراً لدى مانفريدي في منطقة بوليا الإيطالية فترك لنا كثيراً من التفاصيل المباشرة والجية والدقيقة عن السواويين ومناصرتهم للمسلمين. تكشف هذه التفاصيل عن تلك الانطباعات التي كُوِّنَتْ عنها شخص استطاع الاقتراب من الإمبراطور خلال زيارته للقدس ووجده شخصاً متشككاً وساخرًا من الناحية الدينية، وبناصر الإسلام من الناحية السياسية. لابد ان البابوية كانت سترحب أياً ما ترحيب بمثل هذه الانطباعات لأنها كانت ستعزز من موقفها المعادي لفرديريك. هناك أيضاً وثيقة مازالت حتى اليوم فريدة من نوعها وجدت بين رسائل فيديريك الثاني الدبلوماسية وهي عبارة عن رسالتين أرسلهما بالعربية بعيد عودته إلى إيطاليا إلى أميرٍ من أصدقائه في القصر الايوبي، وقد تم الاحتفاظ بهما ضمن تاريخ شرقيٍّ مجهول. لابد أن أحد معاونيه الإمبراطور غير الجديرين كتب الرسائلتين بخطابةٍ ركيكةٍ ومع هذا فهما يفصحان عن وقائع تاريخية محددة وعن الوعي بالكرامة الإمبراطورية وحِدّة الخصومة البابوية التي عرفت في كل الوثائق الفيديريكيّة.

## قدوم الإمبراطور فرديريك - ملك الإفرنج- إلى عكا

[327]

(ابن واصل، r (252r+119

وفي هذه السنة (1228/625) قدم الإمبراطور ملك الفرنج إلى عكا في جمع كثير من الألمانية وغيرهم من الفرنج. وقد ذكرنا مسيرة الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى الملك الإمبراطور من جهة السلطان الملك الكامل، وكان

[328]

ذلك في أيام الملك المعظم . وإنما قصد الملك الكامل بالاتفاق مع الإمبراطور ملك الفرنج واستدعائه لإشغال سر الملك المعظم، ولئن لا يتمكن من مساعدة السلطان جلال الدين بن علai الدين خواردم شاه ومظفر الدين، صاحب أربيل، عليه وعلى الملك الأشرف. فتجهز الإمبراطور ووصل في عساكره إلى الساحل، ونزل بعكا في هذه السنة، وكان قد تقدمه جمع كثير من الفرنج، لكنهم لم يتمكروا من الحركة، خوفاً من الملك المعظم، ولانتظارهم لملكهم الإمبراطور، ومعنى هذا الاسم بالفرنسية "ملك الأمراء".

[329]

وملكه جزيرة صقلية، ومن البر الطويل (إيطاليا) بلاد أبولية والمبردية . قال صاحب الكتاب جمال الدين بن واصل قد رأيت تلك الممالك لما توجهت رسولا من جهة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، رحمة الله تعالى، إلى ولد الإمبراطور المسمى منفريدا، وكان الإمبراطور من ملوك الإفرنج متميزا عالما محبا للحكمة والمنطق والطب ما يلا إلى المسلمين، لأن مقامه في الأصل ومربياه بلاد صقلية، وهو وأبوه وجده، كانوا ملوكها، وأهل الجزيرة غالبيهم مسلمين.

ولما وصل الإمبراطور إلى عكا (عجب) الملك الكامل به، لأن أخيه الملك المعظم الذي كان السبب في استدعائه توفي، واستغنى عنه، ولم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق ولأنه كان يؤدي ذلك إلى فوات أغراضه التي كان في ذلك الوقت بصددها. فراسله ولطفه، وجرى بعد ذلك ما سندكره إن شاء الله تعالى... ولم ينزل الإمبراطور بعكا، والرسل متعددة بينه وبين الملك الكامل، إلى أن خرجت هذه السنة.

## تسليم القدس إلى الفرنج

(ابن واصل 121R - 253R - 120R)

ولم تزل الرسل تتعدد بين السلطان الملك الكامل والإمبراطور ملك الإفرنج. وأطمع الإمبراطور ملك الإفرنج متعلقة بما كان تقرر بينه وبين الملك الكامل أولا قبل موت الملك المعظم. وأبى ملك الإفرنج أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه وبعض الفتوح الصلاحي (فتح

صلاح الدين) . وأبى الملك الكامل أن يسلم إليه كل ذلك. وآخر الأمر أنه قد تقرر بينهما أن يسلم إليه القدس على شريطة أن يبقى خرابا ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة، بل يكون جميع قرايابه للمسلمين، وللمسلمين واليا عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتو lah قوام المسلمين، ويكون شعار الإسلامي قائما على عادته. واستثنى الفرنج قرايابا معدوده في طريق عكا إلى القدس، تكون بأيديهم دون ماعداها من قرايابا القدس.

ورأى السلطان الملك الكامل أنه إن شاقق الملك الإمبراطور ولم يقف له بالكلية، ان ينفتح باب محاربة مع الفرنج و يتسع الخرق، ويغوت عليه كل ما خرج بسببه. فرأى أن يرضي الفرنج بمدينة القدس خرابا، وبهادنهم مدة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء. وكان المتعدد بين الملك الإمبراطور في الرسائل الأمير فخر الدين بن الشيخ، وكانت تجري بينهما محاورات في أشياء شتى. وسير ملك الإفرنج الإمبراطور في أثناء ذلك إلى السلطان الملك

الكامل مسائل حكميه هندسيه ورياضييه مشكلة، ليتحسن بها من عنده من الفضلاء. فعرض السلطان ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيس، امام هذه الصناعة. وعرض الباقي على جماعة من الأفاضل، فأجابوا عن الجميع. ثم حلف السلطان على ما وقع عليه الاتفاق، وحلف

[331]

الإمبراطور ملك الإفرنج، وعقدوا عقد الهدنة مدة معلومة . وانتظم بينهم الأمر، وأمن كل من الفريقين صاحبه. وبلغني أن الإمبراطور قال للأمير فخر الدين بن الشيخ "لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان ذلك، ومالي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم. ولما وقعت الهدنة، بعث السلطان من نادى في القدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج. فخرج المسلمون، ووقع فيهم الضجيج والبكاء والعويل، وعظم ذلك على المسلمين وحزنوا على خروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستثنعوه منه إذ كان هذا البلد الشريف (واستعادته) من الكفار من أعظم مآثر عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين، قدس الله روحه. لكن علم السلطان الملك الكامل، رحمة الله، أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتببت الأمور له، كان متمنكا من تطهيره من الفرنج وآخرائهم منه. وقال "إنما لم نسمح لهم إلا بكنائس ودار خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المعظمة وساير المزارات، والذي هو المقصود، بأيدي المسلمين على حاله، وشعار المسلمين والاسلام قائما على ما كان عليه،

[332]

ووالى المسلمين متحكم في أعماله ورساتيقه ".

ولما تم ذلك، استأذن الملك الإمبراطور في زيارة القدس، فأذن له. وتقدير السلطان إلى القاضي شمس الدين، قاضي نابلس، رحمة الله، وكان جليلا في الدوله متقدما عند ملوكبني أيوب، أن يلازم خدمة الإمبراطور ملك الفرنج إلى أن يزور القدس ويرجع إلى عكا. قال القاضي جمال الدين بن واصل، صاحب التاريخ حكي لي القاضي شمس الدين، رحمة الله، قال "لما قدم الإمبراطور ملك الفرنج إلى القدس، لازمته كما أمرني السلطان الملك الكامل، ودخلت معه إلى الحرم الشريف وما فيه من المزارات، ثم دخلت معه إلى المسجد الأقصى، فأعجبه عمارته وعماره قبة الصخرة المقدسة. ولما وصل إلى المحراب أعجبه حسنه وحسن المنبر، وصعد في درجه إلى أعلىه، ثم نزل وأخذ بيدي، وخرجنا إلى الأقصى، فوجد رجلا قسيسا وبيده الإنجيل يريد دخول الأقصى، فصاح عليه الملك الإمبراطور صيحة منكره، وقال له: "مالذي أتي بك إلى هنا؟ والله لئن عاد واحد منكم يدخل هنا بغير إذن، لأخذن ما في عيناه. نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعيشه، وعندما تصدق علي وعليكم لهذه الكنائين على سبيل الأنعام منه، ولا يتعدى أحد منكم

[333]

على طوره." . فمضى القسيس وهو يرتعد خيفة منه. ومضى الإمبراطور ملك الفرنج إلى الدار التي عين له نزوله فيها، فنزل بها. قال القاضي شمس الدين فأوصيت المؤذنين أنهم لا يؤذنون تلك الليلة احتراماً للملك. فلما أصبحنا ودخلت عليه، قال: "يا قاضي لم لم تؤذن المؤذنون على المنابر على جاري عادتهم؟" فقلت لهم (له): "أن المملوك منهم من ذلك إعظاماً للملك واحتراماً له" فقال: "أخطأت فيما فعلت، والله أنه كان أكبير غرضي في المبيت في القدس أن أسمع أذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل". ثم رحل بعد ذلك إلى عكا.

ولما ورد الخبر إلى دمشق بتسلیم القدس إلى الفرنج، أخذ الملك الناصر في التشيع على عمه الملك الكامل لينفر الرعية منه. وتقدم إلى الشيخ شمس الدين يوسف سبط الشيخ جمال الدين بن الجوزي الوعاظ، وكان له قبول عظيم عند الناس في باب الوعاظ، أن يجلس في جامع دمشق للوعاظ ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يحزن الناس عليه، ويذكر ما في تسليمه إلى الكفار من الصغار للمسلمين والذل، وقد بدأ بذلك الملك الناصر داود تنفير الناس عن عمه الملك الكامل ليناصحوه في قتل

[334]

له . فجلس شمس الدين للوعاظ ما أمره، وحضر الناس ل الاستماع

[335]

وعظه ، وكان يوماً مشهوداً، فعلى يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم. وحضرت أنا هذا المجلس، وما سمعته، يورد ذلك قصيده عملها نائبها، ضمنها

[336]

بيتاً من شعر دعبد الخزاعي الشاعر . ومما علق منها بحفظي:  
على قبة المراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخراتمدارس آيات  
خلت من تلاوة ومنزل وهي مقبر العرصفات

قال "فلم يرى في ذلك اليوم إلا باك وباكية". ولما تقررت قواعد الهدنة بين السلطان والملك الكامل والإمبراطور، أقلع الإمبراطور إلى بلاده

[337]

ragعاً .

## أسف المسلمين في دمشق فيديريك في القدس

(سبط ابن الجوزي، 434-432)

ووصلت الأخبار بتسلیم القدس إلى الفرنج، فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العطایم بحيث أنه أقيمت المآتم. وأشار الملك الناصر داود بأن أجلس بجامع دمشق وأذكر ما جرى على بيت المقدس، مما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقه. فجلست بجامع

دمشق وحضر الناصر داود على باب مشهد علي، وكان يوماً مشهوداً، لم يختلف من أهل دمشق أحد. وكان من جملة الكلام "انقطعت من البيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفماً لما شفت. أحسن الله عز المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تنظم الحسرات..." وذكر كلام طويل، وأكثر الشعراً في حديث القدس...

[338]

... ودخل الأبرور (الإمبراطور) إلى القدس والحاصر على دمشق . وجرى له عجائب، منها أنه لما دخل الصخرة رأى قسيس قاعداً عند القوم

[339]

يأخذ من الفرنج القراطيس ، فجاء إليه كأنه يطلب منه الدعاء، ولكمه فرماه إلى الأرض وقال يا خنزير، السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان، تفعلون فيه هذه الأفاعيل! لأن عاد واحد منكم، دخل على هذا الوجه لأقتلنه. وحكي صورة الحال قَوْمُ الصخرة، قالوا: "ونظر إلى الكتابة التي في القبة" وقد ظهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين" ، فقال: "ومن هم المشركين (من هم هؤلاء المشركون؟)" ، وقال للقائم: "هذه الشباك التي على أبواب الصخرة، من أجل ليش؟" قالوا: "لئلا تدخلها العصافير" ، فقال:

[340]

"قد أتي الله إليكم بالجبارين" ، قالوا: "ولما دخل وقت الظهر وأذن المؤذن قام جميع من كان معه من الفراشين والغلمان، ومعلمه، وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق فصولاً، فصلوا وكانوا مسلمين. قالوا: "وكان

[341]

الإمبراطور أسقر، معط ، في عينيه ضعف، لو كان عبداً ما ساوي ما يتي درهم" . قالوا: "والظاهر من كلامه، أنه كان هدياً (مادياً)، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية". قالوا: "وكان الكامل قد تقدم إلى القاضي شمس الدين قاضي نابلس، أن يأمر المؤذنين" ما دام الإمبراطور في القدس لا تصعدوا المنابر ولا تؤذنوا في الحرم". فأنسى القاضي أن يعلم المؤذنين، وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر، والإمبراطور نازل في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى مثل قوله تعالى: [ما اتخذ الله من

[342]

ولد] ، ذلك عيسى بن مريم، ونحو هذا. فلما طلع الفجر استدعي القاضي عبد الكريم وقال له: "إيش عملت؟ السلطان رسم كذا"، وقال: "فما عرفتني، والتوبة". فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم الماذنة، فلما طلع الفجر استدعي الإمبراطور القاضي وكان قد دخل القدس في خدمته، وهو الذي سلم إليه القدس، فقال له: لا يا قاضي أين ذاك الرجل الذي طلع

البارحة المنارة وذكر ذاك الكلام؟" فعرفه أن السلطان أوصاه، فقال الإمبراطور: "لا أخطأت يا قاضي، تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلني. فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا، هذا أول ما تنقضون عندنا." ثم فرق في القوم والمؤذنين والمجاوريين جملة أعطى كل واحد عشرة دنانير، ولم يقم بالقدس سوى [343] ليلتين، وعاد إلى يافا، وخاف من الدونة فإنهم طلبوا قتله.

[344] **العلاقات الأيوبيّة - السوّابيّة وآخر السوّابيين**  
(ابن واصل 121R - 123R)

واستمر (الإمبراطور) مصافياً للملك الكامل مواداً له، والمراسله بينهما متصله إلى أن توفي الملك الكامل -رحمه الله- وولي بعده ولده الملك العادل [345]

سيف الدين أبو بكر . فصافا الإمبراطور الملك العادل ووالده وراسله، ولما قبض (مات) على الملك العادل، وملك السلطان أخيه الصالح نجم الدين [346]

أيوب ، استمر معه الأمر كذلك. وأرسل إليه الملك الصالح الشيخ العلامه سراج الدين الأرموي الذي هو قاضي بلاد الروم اليوم، فأقام الشيخ سراج الدين عند الإمبراطور ملك الروم مكرماً مده، وصنف له كتاباً في المنطق. وأحسن الإمبراطور إليه إحساناً كثيراً. وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح مكرماً. ولما قصد ريدافرنس (ملك فرنس) الإفرنجي، وهو من أكبر ملوك الإفرنج، الديار المصرية سنة سبع وأربعين وستمائة (1249) بعث إليه الإمبراطور ينهاه عن ذلك ويحذره عاقبة ذلك، فلم يقبل منه. قال [347]

فحكي سر بر وهو مهمندار منفريد بن الإمبراطور، قال أرسلني الملك الإمبراطور في السر إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب لأعرفه على عزم ريدافرنس على قصد الديار المصرية، وأحذره منه وأشار عليه بالاستعداد له. فاستعد له الملك الصالح، ورجعت إلى الإمبراطور، وكان ذهابي إلى مصر ورجوعي في زي تاجر. ولم يشعر أحد باجتماعي بالسلطان، خوفاً من الفرنج أن يعلموا ممالة الملك الإمبراطور للمسلمين. ولما مات الملك الصالح وجرى لريدافرنس ما جرى من هلاك عسكره واستئصالهم قتلاً وأسراً، وأسر الملك المعظم نوران شاه له، ثم خلاصه من الأسر بعد قتل الملك المعظم ورجوعه [348]

إلى بلاده ، بعث الملك الإمبراطور إليه يذكره نصحته إليه وما جرى عليه لحاجه ومخالفته، ويعنته على ذلك تعنيفاً شديداً. وتوفي الملك الإمبراطور سنة ثمان وأربعين وستمائة (1250) بعد موت الملك الصالح أيوب بسنة. وولي

بعده ولده، كذا ثم مات كذا، وولى أخوه منفريدا، وهؤلاء كلهم كانوا ممقوتين عند البابا، خليفة الفرنج، لميلهم إلى المسلمين. وجرى بين منفريد وبين البابا، خليفة الفرنج، حرب انتصر فيها الامير اطهور على البابا.

قال القاضي جمال الدين قاضي قضاه حماه المحرosome، صاحب هذا التاريخ، توجهت رسولاً إلى منفريداً من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، رحمة الله، في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة (آب/أوغسٗت - 1261) فأقمت عنده مكرماً بمدينة من مدائن ابوليه في البر الطويل [349]

[349] (إيطاليا) المتصل ببر الأندلس يقال لها برلت، واجتمعت به مراراً فوجده  
تميّزاً محباً للعلوم العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب أقليدس في  
[350]

الهندسة. وبالقرب من البلد التي كنت نازلا مدینه تسمی لوحاده ، أهلها كلهم مسلمون من أهالي جزيرة صقلیه، وتقام الجمعة فيها وتعلی فیها بشعائر الإسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور. وكان قد شرع في

بناء دار علم بها ليشتعل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية ، وأكثر أصحابه الذين يتولون أمور الخاصه مسلمون، ويعلن في معسکره بالأذان والصلوة. ولما رجعنا من تلك البلاد جاءت الأخبار بأنه اتفق على قصده البابا. صاحب رومية الكبرى، وبينها وبين البلد الذي كنا فيه خمسة أيام، واخوه ريافنس،

الذى تقدم ذكره . وذلك أن البابا كان قد حرم منفريدا لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم، وكذلك أن كذا أخوه وأبوهما الإمبراطور محرمين من جهة البابا بروميه . والبابا بروميه يقولون أنه خليفة المسيح عليه السلام، عندهم والقائم بمقامه، إليه التحرير والتحليل والقطع والفصل وهو الذي يلبس الملوك تاج الملك ويقيمهم، ولا يتم لهم أمرا في شريعتهم إلا به، ويكون راهيا، وإذا مات قام مقامه من هو أيضا متصرف بصفة الرهابية.

ولقد حكى لي وأنا ببلادهم حكاية عجيبة، أن مرتبة الإمبراطورية كانت قبل الإمبراطور فردريك، الذي تقدم ذكره، لأبيه قبله، وانه لما مات، كان ابنه فردرick شابا في أول ترعرعه، وأنه طمع في هذه المرتبة جماعة من ملوك الفرنج، وكل منهم رجا أن يفوتها إليها بابا رومية. وكان فردرick ماكرا خبيثا، وهو من الألمانيه، جنٍّ من أجنان الفرنج، فاجتمع بكل واحد من الملوك الذين طمعوا في مرتبة الإمبراطورية على انفراد وقال له: "أني لا أريد هذه المرتبة فإني لا أصلاح لها، فإذا اجتمعنا عند الملك فقل له أنت أنت قد قلدت فردرick هذا الأمر، ورضيت بما يرضى به قائد ابن الإمبراطور الماضي، فأنا لا أختار من كل أحد إلا أنت، وقصدي الائتمان بك والاعتصاد بك". قال فردرick هذا القول لكل واحد منهم على انفراد، فكل منهم وثق إليه واعتهد صدقه فيما قال. فلما اجتمعوا عند البابا بمدينته رومية الكبرى، ومعهم فردرick، وكان قد تقدم إلى

جمع كثير من الالمانية الشجعان بأن يكونوا راكبين خيولهم قربا من الكنيسة العظمى التي بروميه، التي فيها المجمع المذكور. فلما اجتمع الملوك قال البابا "ما ترون في أمر هذه المرتبة، ومن هو الأحق بها؟" ووضع تاج الملك بين أيديهم، فكل منهم قال "حكمت فردرريك في ذلك، وما يشير به فهو الذي اقبله وأشير به، فإنه ولد الملك الإمبراطور وأحق الجماعة أن يسمع قوله في ذلك"، فقام فردرريك، وقال: "أنا ابن الإمبراطور وأنا أحق بمرتبته وتاجه، والجماعة كلهم قد رضوا بي واختاروني"، والبابا لا يختار إلا ما تختار الجماعة ويتافقون عليه، ووضع التاج على رأسه، فابلسوا كلهم، وخرج مسرعا والتاج على رأسه، وركب، وركبت الجماعة معه الالمانية الذين تقدم إليهم بأن يقفوا قرب الكنيسة، وسار بهم على حمية إلى بلادهم. ثم بعد ذلك صدرت منه أمور توجب عندهم تحريمها، فحرموه.

قال وبلغني أنه كان الإمبراطور بعكا، قال للأمير فخر الدين بن الشيخ، رحمه الله، "أخبرني عن هذا الخليفة الذي لكم"، فقال فخر الدين: "هو ابن

[353]

عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أخذ الخلافة عن أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج عنهم" ، فقال الإمبراطور "ما أحسن هذا لكن هؤلاء القليلون العقول - يعني الفرنج - يأخذون رجالا من المزيلة ليس بينه وبين المسيح نسب ولا سبب، جاهلا (عادما)، يجعلونه خليفة عليهم قائما مقام المسيح فيهم، وهو لا يستحق هذه المرتبة، وأنتم خلفتكم [354]

[354]

ابن عم نبيكم، فهو أحق الناس بمرتبته" .

ولما قصد البابا واخوه ريدافرنس بن الإمبراطور منفريد ابن الإمبراطور، قاتلاه وهزما عسكره وقبضا عليه، فتقىم البابا يذبحه فذبح، وملك أخوه

[355]

البلاد التي كانت بيد الإمبراطور واستولى عليها، وكان هذا سنة ثلاثة وستين وستمائة (1265)، في غالب ظني.

## رسالتا فردرريك العريتان

(تاریخ المنصوري 37-24)

[356]

سنة 627 (1229)... وفيها وصل بحران رسول الإمبراطور إلى الكامل،

[357]

وعلى يده كتب إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ بما نسخه: بسم الله الرحمن الرحيم، عنوانه ترجمته

"قيصر المعظم، إمبراطور رومية فردرريك بن الإمبراطور هريلك بن الإمبراطور فردرريك المنصور بالله، المقتدر بقدرته المستعلى بعزته، مالك

**المانية ولمبردية وتسقانه وايطاليا وأنكبردة وقلورية وصقلية ومملكة الشام**

[358]

القدسية، معز إمام رومية ، الناصر للملة المسيحية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(شعر)

رحلنا وخلفنا القلوب مقيمة  
تخلت عن الأجسام والجنس والنوع  
وأنت على ألا يخل بودكم

[359]

ملاي الدهر وانسلت تنكب عن طوعي  
لو ذهبنا إلى وصف بما نجد من عظم الشوق، ونكايده من اليم الاستيحاس  
والتفوق، إلى المجلس السامي الفخري (فخر الدين)، لازم الله أيامه، ومدد  
أعوامه، وثبت في الرياسة أقدامه، وحرس مودته وأكرمه، وأجرى على سبيل  
المجاح (النجاح؟) مرامه، وسد عهده وكلامه، وأجزل من النعم أقسامه وجدد  
مع الجديدين سلامه، الزمنا في الخطاب شططا، وحدنا عن الصواب غلطا. إذا  
منينا بروعة استيحاس بعد سكون وابناس، ولوعة فراق في أثر غبطة  
واشتياق، فرأينا السلو ممتنعا، وحبل التجلد منقطعا، ومأمول التمايل قد عاد

[360]

جرعا، وشمل الاصطبار منصدعا، إذا رحلت .

وقد كنت لو خيرت بين فرافقكم وبين حمامي، فليت يدركني نجي  
وتاما له، أكرمه الله ملنا، واعتضض بغيرنا واختار فراقنا، وتناسا ودادنا،

[361]

فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب :  
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا  
إن لا تفارقهم فالراحلون هم

وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبيائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا،  
فننشر: حسب ما شرحناه (؟) بصيداء، أن البابا باع بالغدر والخدعه (؟)، أخذ

[362]

إحدى قلاعنا المنيعة، تسمى منت قسيين ، أسلمها له أباطتها اللعين، وعد  
للأرام المزيد، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لرجوعنا السعيد، فاضطر إلى أن  
زعم أنها متنا، وخلف القردنالية على ذلك وعلى أن رجوعنا مستحيل، وراوضوا  
خداع العامه بمثل هذه الأباطيل، وأنه ليس أحد بعدها يحسن حواية بلادنا  
وحفظها برسم ولدنا مثل البابا، فلايمان هؤلاء الذين هم أئمة الدين وخلفاء  
الواريين، انخدعت جماعة من الطغم والمفسدين، فعند وصولنا إلى مينا  
مندريس المصونة، ألفينا الملك جوان وللمبردين، في الدخول في ملكنا

[363]

معاندين (ولما) وقع خبر ورودنا متشكين، لما قرره القردنالية عندهم  
باليمن. وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين، واهنل أعداءنا الجزع وحل بهم الروع

والنزع، ونكصوا إلى ورائهم خاسرين مسافة يوم (يومين)، وارتدى أهل طاعتنا طائين(طائعين) وذلك اللمبرديين، الذين كانوا معظم عسكراهم لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أدبارهم أجمعين.

وأما الملك المذكور وأصحابه، فأحاط بهم الحباء والخوف، واجتمعوا إلى موضع ضيق يخافون التصرف عنه والخروج منه، بل لا يقدرون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قد عادت إلى طاعتنا، ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكراً مدیداً من الألمانيه، الذين كانوا معنا في الشام والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح إلى بلادنا، وغيرهم من أمنائنا ورؤساء دولتنا. واستقللنا نجد السير إلى بلاد أعدائنا. وبعد، فمما نوثر من المجلس، مواصلة كتبه، متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته، وأن يقرى سلامنا على جميع أكابر العسكر وعلمائه ومملوكيه ودخلته، والسلام عليه ورحمة الله وبركته. كتب ببرلت المصنونه بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسو للاندقتيس (الاندقتيس) الثاني (22 آب / أغسطس 1229).

وهذا نسخة الكتاب الثاني، الترجمة كالأول، فيه من الأخبار بما نشعره به...  
أثنا قد جمعنا عسكراً كثيراً، وأنا نجد بالسير إلى قتال من هم بانتظارنا ولم يهرب أمام وجهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حنسنا، وذلك أنهم قد

[364]

حاصروا قلعة من قلاعنا ، ونصبوا عليها المنجنيقات وما شابهها من الدبابات والآلات فلما أحسوا بإقبالنا مع بعد المسافة بينهم، لم يتمهلوا إلى (...) بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم، وانهزموا هاربين أمامنا، ونحن نجد السير في طلبهم وتفرق شملهم وتبديد جمعهم، وطلب البابا حشر (حشر؟) ورده خاشيا(خاسي؟) على قفاه، نادما على ما نواه. وما نجده من الأخبار، فنحن نكاتب المجلس إن شاء الله.

الغرض من اثبات هذه الكتب، تحقيق ممالك عّمّها الملك الإمبراطور، وقدرته. فما ملك من النصرانية مثله، من زمن الاسكندر إلى الآن. لا سيما قدرته وانهاله لخلفتهم البابا، وقصده له واطراجه إياه.

كانت آخر الحملات الصليبية الحملة المصرية التي قادها لويس التاسع الذي عاد ليقارع بالسلاح تلك الأمكانة التي استعصت قبل ثلاثين سنة على المبعوث البابوي بيلاجو وجون دي بريين. أهم مؤرخي هذه الحملة المصرية الثانية من العرب كانا ابن واصل ومقرزي، فالأخير عاصر الحملة وكان شاهد عيان على الواقع المروري، أما الثاني فكان متأخراً وقام كالعادة بالتصنيف عن مصادر سابقة، وقد تابع عن قرب رواية ابن واصل ثم أغناها ونوعها بتفاصيل مختلفة استقاها من مصدر مختلف أو من مصدر مشترك مجهول. نستقي هنا الأحداث المأساوية التي صاحبت الحملة الصليبية من ابن واصل، بينما نقدم عن مقرزي بعض الوثائق والتعليقـات الإسلامية على مغامرة ملك فرنسا ثم نختـم بإشارة إلى حملته التونسية التي قادها بعد عشرين سنة وفارق خلالها الحياة.

### حملة سان لويس وصول الفرنج إلى الديار المصرية وتملّكهم ثغر دمياط

(ابن واصل 356R - 357R)

... ولما كانت ثاني ساعة من نهار يوم الخميس لتسع بقين (عشرين) صفر من هذه السنة، وهي سنة سبع وأربعين وستمائة (5 حزيران/يونية 1249) وصلت مراكب الفرنج، وفيها جموعهم العظيمة، وقد انضمت إليهم افرنج الساحل جميعها، فأرسلوا في البحر إبان المسلمين. وفي هذا اليوم وهو يوم السبت شرعوا في النزول إلى البحر الذي فيه المسلمين، وضررت خيمة الملك أريدا فرنـس وكانت حمرا. وناوشـوهـم بعض المسلمين بعض المناوشـة فاستشهدـ في ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام، رحـمه اللهـ، وقد قدمـنا ذكرـهـ، وأنـهـ كانـ هوـ وأخـوهـ شـهـابـ الدينـ يـؤـانـسانـ - يـونـسانـ - الـمـلـكـ الصـالـحـ وهوـ بـالـكـرـكـ، بأـمـرـ الملكـ النـاصـرـ دـاـودـ لـهـماـ بـذـلـكـ، وـكـانـ رـجـلاـ صـالـحاـ. واستـشهدـ أـيـضاـ منـ أـمـرـاءـ مصرـ أمـيرـ يـقالـ لهـ الـوـزـيـرـ، فـلـمـ أـمـسـ المـسـلـمـونـ [365]

رحلـ بهـمـ الـأـمـيرـ. فـخـرـ الـدـيـنـ يـوسـفـ بـنـ شـيـخـ الشـيـوخـ ، وـقـطـعـ بـهـمـ الـجـسـرـ إـلـىـ الـجـانـبـ الشـرـقـيـ الـذـيـ فـيـهـ دـمـيـاطـ، وـخـلـاـ الـبـرـ الـفـرـجـيـ لـلـفـرـنـجـ، وـلـمـ عـدـاـ فـخـرـ الـدـيـنـ يـوسـفـ بـنـ الشـيـوخـ، وـحـصـلـ عـنـ الـعـسـكـرـ طـمـعـ بـسـبـبـ مـرـضـ الـسـلـطـانـ الـمـلـكـ الـصـالـحـ نـجـمـ الدـيـنـ أـيـوبـ، فـلـمـ يـكـنـ لـهـمـ مـنـ يـرـدـهـمـ وـلـاـ يـرـدـعـهـمـ، فـرـحـلـ فـخـرـ الـدـيـنـ يـوسـفـ بـنـ الشـيـوخـ، إـلـىـ جـهـةـ أـشـمـوـنـ طـنـاحـ، وـالـعـسـكـرـ إـلـىـ الـبـرـ الشـرـقـيـ. وـخـلـاـ الـبـرـ الشـرـقـيـ مـنـ عـساـكـرـ الـمـسـلـمـونـ.

وخف أهل دمياط على أنفسهم أن يحصروا. وكان فيها جماعة من الكنانية شجعان، فألقى الله سبحانه وتعالى الرعب في قلوبهم، فخرجوا هم وأهل دمياط على وجههم طول الليل، ولم يبق بدِّمياط أحد بل تركوها صبراً من الرجال والنساء والصبيان. ورحلوا في الليل مع العسكر هاربين إلى أشمون صناح، وكان هذا فعلاً قبيحاً منهم ومن فخر الدين والعساكر. فإن فخر الدين يوسف، لو منع العسكر من التهرب وأقام لا متنعت دمياط. فإن دمياط في الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل، كانت أقل دخاير وعدد، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة، فلما نزلت سنة خمسة عشر وستمائة (1218) وأخذت سنة ستة عشر وستمائة (1219) ولم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنَّى أهلها بالوباء والجوع. والكنانية وأهل دمياط، لو غلقوا أبوابها وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشمون طناح، لما قدر الفرنج عليهم، وكانت العساكر ردت إليهم ومنعت عنهم، والأقوات والألات والعدد كانت عندهم في عناية الكثُر. فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك، ولكن إذا أراد الله أمراً فلا مرد له. ولكن أهل دمياط كانوا معذورين لأنهم لما رأوا هرب العسكر وعلموا مرض السلطان، خافوا أن يستمر عليهم الحصار مدة طويلة فيهلكوا جوعاً، كما هلك أهل دمياط في المرة الأولى.

قال: ولما أصبح الصباح يوم الأحد لسبعين بقين (23) من صفر جاء الفرنج إلى دمياط فوجدوها صفراء من الناس، وأبوابها مفتوحة، فملكوا صفوأً وعضوأً، واحتلوها على ما كان فيها من العدد والأسلحة والذخائر والأقوات والمناجيق... وكانت هذه مصيبة عظيمة لم يجر مثلها. قال صاحب التاريخ: ووردت يوم الأحد إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهدباني، وأنا عنده، بطاقة بذلك، فاشتد الجوع والخوف، ووقع اليأس بالديار المصرية بالكلية، لا سيما والسلطان مريض، وقد ضفت قواه عن الحركة، وليس قد بقا له قدرة على ضبط جنده، وقد اشتد طمعهم فيه. ولما وصلت العسكر وأهل دمياط إلى السلطان، حنق على الكنانيين حنقاً شديداً، وأمر بشنقهم، فشنقوا جميعاً، وتألم مما فعله فخر الدين والعساكر، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإعفا عما فعلوه.

## رحيل السلطان الملك الصالح إلى المنصورة ونزولهم بها

(ابن واصل 357 r-v)

ولما جرى ما ذكرناه، رحل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالعساكر إلى المنصورة فنزل بها، وهي المنزلة التي كان أبوه الملك الكامل نزلها نوبة دمياط الأولى، وهي شرقى النيل في قبة جرج، وبينها وبين [366] الجزيرة التي هي بـ دمياط بحر أشمون طناح، وكنا ذكرنا أن الملك

الصالح نجم الدين أيوب كان أمر ببناء الأبنية فيها وجعل بينها وبين البحر سوراً ولأبيه الملك الكامل فيها قصراً عالياً على بحر النيل، فنزله الملك الصالح وضرب دبليزه إلى جانبه.

وكان استقرار السلطان بالمنصورة يوم الثلاثاء خمس بقين (25) من صفر، وشرعت العساكر في تجديد الأبنية وقادت بها الأسواق وأصلاح السور الذي على البحر وستر بالستائر، وجاءت الشوانى والحراريق وفيها العدد الكاملة والمقاتلة، فأرسلوا قدام السور. وجاء إلى المنصور من الرجال والحرافشة والغراة المطوعة من ساير النواحي خلق كثير لا يقع عليهم الإحصاء، وورد من العريان أمم كثيرة وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم، وحضرّن الفرنج أسوار دمياط وشحذوها بالمقاتلة. وفي يوم الاثنين سلخ (آخر) ربيع الأول ورد إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين قطفتهم العريان وغيرهم ستة وأربعون أسيراً منهم فارسان. وفي يوم السبت لخمس ماضين (خمسة) من ربيع الآخر وصل أيضاً منهم تسعة وثلاثون أسيراً أسرتهم العرب والخوارزمية، ثم دخل منهم إلى القاهرة أيضاً اثنان وعشرون أسيراً أخذوا من غزة، وكان دخولهم لسبعين ماضين (سبعة) من ربيع الآخر وفي يوم الأربعاء لأربع عشر ليلة بقيت من ربيع الأول (15) وصل أيضاً منهم خمسة وثلاثون أسيراً، منهم ثلاثة من الخيالة. وورد يوم الجمعة لخمس بقين (24) من ربيع الآخر، بأن عسکر السلطان الملك الصالح بدمشق خرجوا إلى صيدا وتسلموها من الفرنج، ثم كان بعد كل قليل يصل من الفرنج أسرى، جمع بعد جمع، ووصل منهم لاثني عشر ليلة بقيت من جمادى الأول (30 آب) خمسين أسيراً، وهذا يجري والسلطان الملك الصالح يتزايد مرضه وقواه يضعف ويتشاشى، والاطباء ملازمون له ليلاً ونهاراً، وقد وقع ياسهم من عافيته، ونفسه مع ذلك وعزيمته في غاية القوة، وتعاضد عليه مرضان عظيمان الخراجة في مخاذه والسُّل.

## تقديم الفرنج ونزو لهم قبلة عسکر المسلمين

(ابن واصل 365r - 364r)

ولما تحقق الفرنج موت السلطان (15 شعبان 647/24 تشرين الثاني - نوفمبر 1249) الملك الصالح نجم الدين أيوب، رحلوا من دمياط بفارسهم وراجلهم، وشوانفهم في البحر تحاذفهم، فنزلوا على فارسكور، ثم تقدموا منها مرحلة، وذلك يوم الخميس لخمس بقين من شعبان (24) من هذه السنة، وفي عند هذا اليوم، وهو يوم الجمعة ورد من الأمير فخر الدين يوسف كتاب يهدد [367]

الناس ويأمرهم بالجهاد، وفيه علامة تشبيه علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب، ليظن الناس أنه كتابه، أوله: [انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله

[368] بأموالكم وأنفسكم ذلكم حير لكم إن كنتم تعلمون]. وهو كتاب بلغ، أطنه

[369]

بإنشا بهاء الدين زهير ، وفيه مواعظ جميلة، تحريض على قتال الكفار، وأن الفرنج قد قصدوا الديار المصرية والبلاد الإسلامية بحدهم وحددهم، وقد أطمعتهم أنفسهم بملك البلاد، وقد وجب على المسلمين كافة، النفر إليهم ودفعهم عن البلاد. فقرىء هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلة بالقاهرة، فبكى الناس بكاءً كثيراً، وانزعج الناس لذلك. وخرج من القاهرة ومصر وساير النواحي خلق عظيم. وعظم الخوف لموت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وتمكن الفرنج بملك دمياط وكرهم، وتحققوا أنه إن اندفع العسكر الذي بالمنصورة إلى ورائهم مرحلة واحدة، ملكت ديار مصر أجمعها في أسرع الأوقات.

ولما كان يوم الثلاثاء مستهل شهر رمضان (8 كانون أول/ديسمبر 1249) وقعت بين الفرنج والمسلمين وقعة عظيمة، استشهد فيها أمير مجلس المعروف بالعلائي وجماعة من الأجناد. ونزلت الفرنج بسرمساح (شرم شاه). وفي يوم الاثنين لسبعين مصرين من رمضان (7)، نزلت الفرنج البرمون، وكثير الاضطراب بسبب دنواً ملك الإفرنج من عساكر المسلمين. وفي يوم الأحد لثلث عشرة ليلة مضت من رمضان (13)، وصلت الفرنج إلى طرف جزيرة دمياط، وصاروا في مقابلة المسلمين ومعظم عسكر المسلمين في المنصورة، وهي في البر الشرقي، وجماعة من العسكر وأولاد الملك الناصر [370]

داود بن الملك المعظم ، وهم الملك الأمجد والملك الظاهر والملك المعظم والملك الأوحد، والأكابر فيهم في البر الغربي، وكانوا أولاد الملك الناصر الأكابر والأصاغر الذين قدموا القاهرة اثنى عشر ولداً ذكراً، وكان بالبر أيضاً أخو الملك الناصر داود الملك القاهر، والملك المغبيث. ولما نزلت الإفرنج بجموعهم في طرف الجزيرة التي فيها دمياط، وصاروا في مقابلة المسلمين، خندقوا عليهم خندقاً، وأداروا عليهم سوراً ستروه بالستائر، ونصبوا المناجيق يرمون بها المسلمين. ونزلت شواناتهم في بحر النيل، وشوانات المسلمين بإزاء المنصورة، ونشب القتال بين الفريقين براً وبحراً.

## مباغة المسلمين في المنصورة، ومقتل الأمير فخر الدين يوسف ثم انتصار المسلمين بعد ذلك على الفرنج

(ابن واصل 366v, 365v)

قد ذكرنا استقرار الفرنج في قبالة المسلمين، واتصال القتال بين الفريقين، وبينهما بحر أشمون، وهو بحر صغير وفيه محاياض رفاق. فدل بعض المسلمين الفرنج على مخاضة يسلمون. فركبت الفرنج وقصدوا المخاضة أبكرة الثلاثاء لخمس مصن من ذي القعدة (10 شباط/فبراير 1250)، فلم يشعر المسلمون بهم إلا وقد خالطوا معسركهم. وكان الأمير فخر الدين يوسف بن

شيخ الشيوخ يغتسل في الحمام، فأتاه الصريح بأن الفرنج قد دهموا المعسكر، فركب دهشاً غير مستعد ولا متحفظ، فصادفوه جماعة من [371]

الفرنج فقتلوا رحمه الله، وكان أميراً فاضلاً عالماً متادياً جواداً سمحاً عالي الهمة كبير النفس، وما كان في أخوته مثله بل ولا في غير أخوته، نال من الدنيا سعداً عظيماً ومكانة عالية، وانتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح [372]

نجم الدين أيوب، وكانت همته ترقى إلى الملك، وختم الله له بالشهادة ، رحمة الله ورضي عنه.

ودخل ملك الإفرنج ريدا فرنس المنصورة، ووصل إلى القصر الذي للسلطان، وتفرق الفرنج في أزقة المنصورة، وهرب كل من فيها من الجند وال العامة والسوق يميناً وشمالاً، وكادت ثقافة الإسلام تستأصل، وأيقن الفرنج بالظرف. وكان من سعادة المسلمين تفرق الفرنج في الأزمة: واشتد الأمر وأعطل الخطاب، فأنبعث الطايفة التركية، مماليك السلطان الملك الصالح نجم

[373]

الدين أيوب من البحريه والجمدارية ، أسود الحرب وفرسان الهيجاء، وحملوا على الفرنج حملة واحدة، فزعزعوا بها أركانهم وهددوا بنيائهم، وأخذت الفرنج السيوف والدبابيس من كل جانب. فأثخنوا البحريه فيهم القتل والجرح وطروحهم في أزقة المنصورة. فكانت عدة ما قتل من الفرنج ألف وخمسمائة فارس من فرسانهم وصناديدهم وشجاعتهم، وأما رجاله الفرنج فكانوا قد جاءوا على الجسر المنصوب على بحر أشمون ليعدوا منه. ولو تراخي الأمر وعدت الرجاله إلى المسلمين وتكاملوا فيه لأعطل الداء، فإن الرجاله كانوا جمعاً عظيماً وكانوا حملوا فارسهم (لكن هذا لم يكن)، ولو لا ضيق مجال القتال، فإن الحرب كان بين الأزقة والدروب، لكانوا استأصلوا - استوصلوا - الفرنج عن آخرهم. لكن سلم الباقون منهم ومضوا إلى جديله، فاجتمعوا بها، ودخل الليل ففرق بينهم.

وضربوا على جديله سوراً، وخندقوا خندقاً عليهم، وأقامت طائفة منهم في البر الشرقي، ومعظمهم في طرف الجزيرة المتصلة بدبياط، وعلى الطائفتين الخندق والسور. وكانت هذه الواقعة أول النصر ومفتاح الظرف. ووردت البطاقة إلى القاهرة، فأحضرت إلى حسام الدين محمد بن أبي [374]

علي بعد الظهر من يوم الواقعة، ومضمونها أنه: شرح الطاير، وقد هجم العدو المنصورة وال Herb قايمة، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد، وليس في البطانة غير ما هذا معناه، فانزعجا وانزعج المسلمون كافة، وغلب على

الظنوں بوار الإسلام. وورد المسلمين آخر النهار، وبقا باب النصر مفتوحاً طوال ليلته، وهي ليلة الأربعاء، والجند وال العامة والكتاب والمتصرفون يدخلون [375]

منه منهزمين، ولا علم لهم بما تجدد بعد دخول الفرنج المنصورة. وممن دخل تلك الليلة وجاء إلى الأمير حسام الدين القاضي تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز، وكان متولى النظر بديوان الصحبة. وبقيت القلوب منزعجة إلى أن طلعت الشمس من يوم الأربعاء، فوردت البشري بالنصر، وزين البلد وضررت البشائر وعظم السرور والفرح بالانتصار على الفرنج، وكانت هذه أول واقعة انتصر فيها أسود الترك على كلاب الشرك، ووردت البشري على الملك المعظم بذلك وهو في الطريق، فجّد في السير إلى الديار المصرية.

## وقوع أسطول المسلمين على مراكب الفرنج وضعف الفرنج

(ابن واصل، 368r.v)

ولما استقر الفرنج بمنزلتهم، كانت تأتיהם الميرة من دمياط في بحر النيل. فعمد المسلمون إلى مراكب شحنوها بالمقاتله، وحملوا على الجمال إلى بحر [376]

المحله ، وألقواها فيه، وفيه ما من زيادة النيل واقفة، لكنه متصل بالنيل. فلما حاورت مراكب الفرنج، وهي مقلعه من دمياط في بحر المحله، وتلك المراكب التي للMuslimين مكمنه، خرجت عليها تلك المكمنه في بحر المحله ووقع القتال بين الفريقين. وجاءت أساساً مراكب المسلمين من جهة المنصورة متقدمة إليهم، والتقي الأسطول والمراكب التي كانت مكمنه، فأحاطوا بالفرنج فأخذوهم ومراكبهم أخذ باليد. وكانت عدة المراكب المأخوذة للفرنج اثنين وخمسين مركباً، وأسر من كان فيها نحو ألف رجل، وأخذ جميع ما فيها من الميرة، ثم حملت الأسرى على الجمال وقدم بهم إلى المعسكر. وانقطعت الميرة بسبب ذلك عن الفرنج، ووهنوا وهنا عظيمماً واشتد عندهم الغلا، ويقروا محبوسين لا يستطيعون مقام ولا الذهاب. واستطرد عليهم المسلمين، وطمعوا فيهم.

وفي مستهل ذي الحجه (7 آذار - مارس 1250)، أخذ الفرنج من مراكب المسلمين التي هي في بحر المحله سبع حرايق، وهرب من فيها من المسلمين. وفي ثاني ذي الحجه، تقدم الملك المعظم إلى الأمير حسام الدين في الدخول إلى القاهرة، وفي المقام بدار الوزارة، ليجري على عادته في نيابة السلطنه. قال صاحب التاريخ القاضي جمال الدين بن واصل: "وخلع على وعلى جماعة من الفقهاء الذين وردوا إلى خدمته، ووصل إحسان الملك المعظم إلى كل من قصد بابه". قال: ودخلت القاهرة مع الأمير حسام الدين [377]

وفي يوم الاثنين لتسع مصين من ذي الحجه (9)، وهو يوم عرفه ، خرجت شوانى المسلمين على مراكب وصلت للفرنج تحمل الميرة، فالتقوا عند مسجد النصر، وأخذت شوانى المسلمين من مراكب الفرنج اثنين وثلاثين مركباً، منها سبع شوانى، فازداد عند ذلك ضعف الفرنج ووهنهم، وقوى الغلا

عندهم. وعند ذلك شرعت الفرنج في مراسلة المسلمين وطلب المهادنة منهم. ووصلت رسالتهم، فاجتمع بهم الأمير زين الدين، أمير جندار، وقاضي القضاة بدر الدين، فرغب الفرنج أن يسلموا دمياط إلى المسلمين على أن يأخذوا بذلك بيت المقدس وبعض الساحل. فلم تقع الإجابة على ذلك. وفي يوم الجمعة لثلثٍ بقين من ذي الحجة (26) أحرقت الفرنج أخشابهم كلها وأبقوا مراكبهم وعزموا على الهروب إلى دمياط. وخرجت هذه السنة (647) وهو مقيمون بمنزلتهم في مقابلة المسلمين.

## هزيمة الفرنج واستئصالهم والقبض على ملكهم ريدافنس

(ابن واصل 369r, 370r)

ولما كانت ليلة الأربعاء لثلث مصين من شهر المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة (7 نيسان/أبريل 1250)، وهي الليلة الـّغرا المسفرة عن النصر الأعظم والفتح الأكبر، رحل الفرنج بفارسهم ورجالهم متوجهين إلى دمياط ليستعصموا بها، وأخذت مراكبهم في الانحدار في البحر قبالتهم. وعلم المسلمون بذلك فتبعوهم وركبوا أعناقهم بعد أن عذّوا إلى برههم، فاتبعوهم. وطلع الصباح من يوم الأربعاء المذكور، وقد أحاط المسلمون، وبذلوا فيهم سيفهم وأحاطوا عليهم قتلاً وأسراً، فلم يسلم منهم أحد. فذكر أن عدة القتلى بلغت ثلاثين ألف. وكان لملك السلطان، الملك الصالح نجم الدين أيوب، البحريه في هذه الواقعة، المهمة العالية والتقدم العظيم. فأذاقوا الفرنج البلاء، وكان لهم الخط الأول، كانوا قاتلوا قتالاً شديداً، وهو الذين قدموا على أتباع الفرنج، وهو كانوا

[378]

داوية الإسلام . قال: وانحاز الملك ريدافنس الملعون والأكابر من ملوك الفرنج إلى تل مونة (المنيا) مستسلمين طالبين الأمان. فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحي، فنزلوا على أمانه وأحيط عليهم كلهم، ومضوا بالملك اريدافنس ومن معه من ملوك الفرنج إلى المنصورة. فضرموا في رجل الملك الكبير ريدافنس القيد، وكذلك جميع من معه من الملوك، واعتقل في الدوار التي كان نازلاً بها كاتب الإنسا فخر الدين بن لقمان، ووكل به الطواشى صبيح المعظمي، وهو أحد خدام الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو من قدم في صحبه من حصن كيفا، فقدمه وأعلا شأنه وعظمته.

وفي هذه الكسرة، وفي اعتقال ملك الإفرنج ريدافنس في دار فخر الدين بن لقمان وتوكييل الطواشى صبيح به، قال جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

قل لفرنسيس، إذا جئته، مقال حق عن قوؤل نصيح:  
أجزاك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع المسيح!

أتيت مصرآ، تبتغي أخذها، تحسب ان الزمر بالطبل ريح.  
فسافك إلى موضع، صاق له عن ناظريك الفسيح.  
وكل أصحابك أوردتهم، بحسن تدبيرك، يطن الضريح.  
خمسون ألف، لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح.

[379]

وففك الله لأمثالها، لعل عيسى منكم يستريح !  
إن كان ببابكم بدا راضياً، فرب غش قد أتى من نصيح!  
وقل لهم إن أحمروا عودة لأخذ تار أو لهد صحيح:  
دار بن لقمان على حالها، والقيد باق، والطواشي صبيح".

قال: ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم والعساكر من المنصورة إلى جهة دمياط، فنزلوا بفارس كور، وهي من أعمال دمياط، وضرب بها دهليز السلطنة، ونصب إلى جانبه برج خشب كان الملك المعظم يصعد إليه بعض الأوقات، متراخياً من ثغر دمياط. ولو أسرع على النزول عليها والدخول إليها، وطلب تسليمها من الملك ريدافرسن، وهو في قبضته لحصل له ذلك في أقرب الأوقات. لكن أبعده عن ذلك سوء التدبير، الذي اقتضاه بما سبق له من التقدير.

## مقتل الملك المعظم غياث الدين طوران شاه

(ابن واصل 371r.v)

ولما جرى ما ذكرناه من تغير قلوب العسكر منه، خصوصاً مماليك أبيه [380]

البحرية، اتفق جماعته من مماليك أبيه على قتله، فلما كان بكرة الاثنين للليلة بقيت من المحرم من هذه السنة، أعني سنة ثمان وأربعين وستمائة (2 أيار/مايو 1250) مذكورة الملك المعظم السماط في دهليزه، وجلس على طراحته، وأكل الناس بين يديه، وأكل معهم على ما جرت عادته، ثم فرقت الناس من الأكل وتفرقوا الأمرا إلى وطاقاتهم، وقام من مجلسه فطلب الدخول إلى خيمة له صغيرة، فدخل عليه ركن الدين بيبرس، وكان أحد جمداري أبيه، وكان يعرف بالبندقداري، وهو الذي ملك مصر بعد ذلك ولقب الملك الظاهر، وهو الذي كسر التتر مع الملك المظفر قطز على عين جالوت، ولما ملك، فتح بلاد الإفرنج مثل صفد والشقيف وأنطاكية وغيرهم من البلاد، وفتح بلاد الإسماعيلية [381]

وكسر التتر مرات .. فضرب الملك المعظم بسيفه، فجرحه في كتفه، ورمى ركن الدين السيف من يده. ورجع الملك المعظم بن الملك الصالح إلى مجلسه واجتمع حوله الناس وأصحابه وبعض مماليك أبيه، فقالوا له: "أي شيء جرى؟"، فقال: "جرحني أحد البحرية"، وكان ركن الدين بيبرس البندقداري واقفاً، فقال: "ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية" [382] فقال: "ما

فعل بي هذا إلا البحريه" ، فخافت البحريه حينئذ وأسسوا منه. ثم قام وصعد إلى البرج وأحضر الجراحي ليداوي يده. فاجتمع مماليك أبيه، فخافوا لما سمعوه ينسفهم إلى أنهم قصدوا قته، فانضم هذا إلى ما كان في نفوسهم من إطرافه لهم، فأحاطوا بالبرج، ففتح طاقاته واستغاث بالناس فلم يجده أحد ولا عانه أحد، ولم تأتى إليه أحد من الأمراء المصريه، لأن الجميع كانت قلوبهم نافرة منهم. وأحضرت نار ليحرق بها البرج، فنزل من البرج، فحمل عليه البندقاري الذي كان جرحه، فهرب على جهة البحر، فكانت فيه حراريق له، فأراد أن يسبق لها ويقتصر بها، فأدركه فارس الدين أقطايا وضربه بالسيف فقتله، رحمة الله عليه، وكان شاباً ما أظنه كان استكملاً ثلثين سنة، ولم أحط علمًا بتاريخ مولده. وكان مدة ملكه لمصر شهرین (وأياماً)

### الاتفاق على تملك السر العالى، والدة خليل، شجرة الدر وعز الدين التركمانى ليكون أتابك العسكر

(ابن واصل 372r.v)

ولما جرى ما جرى من قتل الملك المعظم، اجتمعت الأمراء والبحريه عند الدهليز السلطاني، واتفقت كلية على أن تكون شجرة الدر والدة خليل [383]

الملك الصالح نجم الدين أيوب هي القائمه بأمر السلطنة والملك، وأن التوقيع السلطانية تخرج بأمرها واسمها وعليها علامتها. وكانوا عرضوا هذه [384]

التقدمة على حسام الدين محمد بن أبي علي، وقالوا: "إنت كان الملك الصالح نجم الدين يعتمد عليك، فأنت أحق بهذا الأمر" فامتنع، وأشار بأن يكون الطواشى شهاب الدين الرشيد هو القائم بهذا الأمر، فعرضوا ذلك عليه، فامتنع. فوقع الاتفاق على الأمير عز الدين أيوب التركمانى الصالحي، فحلف الجماعة كلهم على ذلك. وورد إلى القاهرة الأمير عز الدين أيوب الصالحي، وصعد إلى القلعة، وأنهى ذلك إلى والدة خليل بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، فصارت الأمور كلها معلقة بها، وصارت تبرز من جهتها علامه ما صورته [385]

"والدة خليل". وخطب لها بالسلطنة بالقاهرة ومصر وسائر الديار المصرية، وهذا أمر لا يعرف أنه جرى مثله في بلد من البلاد في أيام الإسلام. وأما الحكم والتصرف فقد جرى مثله، فان ضيفة خاتون بنت الملك [386]

العادل ، نظرت في أمر الملك بحلب وبلادها بعد موته ولدها الملك العزيز، إلى أن توفيت، لكن الخطبة بالسلطنة كانت لابن ابنتها الملك الناصر رحمة الله.

قال، ولما قتل الملك المعظم بن الملك الصالح، بقي مطروحا على ساحل البحر، لا يجسر أحد يتقدم إليه، فعدى بعض الملاحين من الجانب الغربي، ودفنه في بر الغرب.

## فتح دمياط

(ابن واصل 372v, 373v)

ولما حلف الأمراء والأجناد، واستقرت القاعدة على ما ذكرناه، ووقع الحديث مع ملك الفرنج ريدافرنس في تسليم دمياط لل المسلمين، وجعل المتحدث في ذلك الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي، الاتفاق الجماعة على الاقتداء برأيه ومشورته لما يعلمون من عدله ومعرفته، واعتماد ملوكهم الملك الصالح نجم الدين أيوب عليه. فجرت بينه وبين ريدافرنس الملك محاورات ومراجعات، حتى وقع الاتفاق في تسليم دمياط، وأن يذهب بنفسه سالماً. قال القاضي جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ: حكى لي الأمير حسام الدين قال: كان ريدافرنس ملك الإفرنج عاقلاً فطننا إلى الغاية. قال: حكمت له في بعض محاوراتي في ما مضاه: "كيف خطر للملك، مع ما أرى فيه من فصله وعقله وصحة ذهنه أن يتقى من خشب وبركب متى هذا البحر ويأتي إلى هذه البلاد المملوكة خلقاً من المسلمين والعساكر، ويعتقد إنما يحصل له ويملكها؟ وفيما فعل غاية التغريب بنفسه وبأهل مملكته". قال: فضحك، ولم يرد جواباً، فقلت له: "إن من شريعتنا من ركب هذا البحر مرة بعد أخرى مغراً بنفسه وما له، لا تقبل شهادته إذا شهد" فقال الملك: "ولم ذلك؟"، قال: فقلت "إنا نستدل بذلك على نقصان عقله، ومن كان ناقص

[387]

العقل لا ينبغي قبول شهادته" قال: فضحك وقال: "إنه قد صدق هذا القائل وما قصر فيما حكم به". قال صاحب التاريخ وهذا الذي ذكره حسام الدين من قول منقول عن بعض العلماء، لكنه ليس يقوى، لأن الغالب في ركوب البحر السلامة. وأما ها هنا وجهان: إذا لم يكن للإنسان وصول إلى مكة إلا برکوب البحر، هل يجب عليه الحج؟ فأحد الوجهين لا يجب، لما في ركوب البحر من الخطر والتغريب بالنفس، والثاني يجب، لأن الغالب إنما هو السلامة. ولما وقع الاتفاق بين ريدافرنس والمسلمين على تسليم دمياط، أرسل ريدافرنس إلى من بمدينة دمياط يأمرهم بتسلیم البلد إلى المسلمين، فأجابوا إلى ذلك بعد امتناع ومراجعات بينه وبينهم. وسلموا دمياط إلى المسلمين، ودخل العلم السلطاني في يوم الجمعة لثلاث مصرين من صفر من هذه السنة، أعني سنة ثمان وأربعين وستمائة (7 أيار/مايو 1250)، ورفع العلم السلطاني على سورها، وأعلن فيها بكلمة الإسلام، وأخرج عن ريدافرنس، وانتقل هو ومن بقي من أصحابه إلى البر الغربي، ثم ركب البحر غداة هذا اليوم وهو يوم

السبت، هو ومن معه، وأقلعوا إلى عكا. وأقام بالساحل مدة، ثم رجع إلى بلاده. وظهر الله الديار المصرية منهم، وكانت هذه النصرة أعظم من [388]

الأولى بأضعاف مضاعفة، لكثره من قتل منهم واسر، وامتلاء الجبوس بالقاهرة من الفرج. ووردت البشرى بذلك إلى سائر الأقطار وأعلن فيها بالفرح والسرور. ولما رحل ريدافرنز رحلت العساكر متوجهة إلى القاهرة فدخلوها وقد ضربت البشائر بها أيامًا متواصلة لنصرة المسلمين على الفرج واسترجاع ثغر دمياط، وهي عقبة الإسلام وتغير الديار المصرية. وكانت هذه ثانية لأخذ الكفار لها واسترجاعها منهم وانصرافهم مكسورين مغلولين.

## مقدمة حملة سان لويس وخاتمتها

(مقرزي، 334 - 356، 335 -)

(وبينما كان في طريقه إلى مصر) سير ملك الفرج إلى السلطان (الملك

[389]

الصالح) كتاباً، نصه بعد كلمة كفرهم :

"أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيساوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمي النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلّى منهم الديار. وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية. فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك، وقتالك في أعز البقاع عليك. فإن كانت البلاد لي فيها هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة علىّ، فيدرك العلية ممتدة إلىّ. وقد عرفتك وحضرتك، من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياf القضا".

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرأ عليه، إغروقت عيناه بالدموع واسترجع. فكتب الجواب بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد، كاتب الإنشاء، ونسخته بعد البسمة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآلـهـ وصحبه أجمعين:

"أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جدناه، ولا بغى علينا باع إلا دمّرناه. فلو رأت عيناك - أيها المغدور! - حد سيفونا، وعظم حروينا، وفُتحنا منكم الحصون والسوائل، وإخراينا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولا أن تزيل بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك. [390]

فهناك تسعة بك الطنوون، [وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون] .

فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: [أَنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا  
[391] نُ  
[392]

[٣٩٣] **تستعِلُوهُ** ، وَكُنْ عَلَى آخِرِ سُورَةِ صِّ: [وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاهُ بَعْدَ حِينَ]. وَنَعُودُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: [أَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلٍ] غَلَبْتُ فِئَةً [٣٩٣]

كثيراً يأذن الله والله مع الصابرين] ، وإلى قول الحكمة: إن الباغي له مصري، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك، والسلام".

( وبعد النصر في المنصورة، السلطان طوران شاه) كتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتاباً يخطه نصه:

"(من) ولده تورانشاه. الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وأما بنعمتهريك فحدث، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. نبشر المجلس السامي الجمالي، بل نبشر المسلمين كافة، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين. فإنه كان قد استفحلا أمره واستحكم شره، وينس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا لا تيأسوا من روح الله. ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة، تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح، وجعلنا العريان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقد حلبهم دمياط هاربين. وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل، وقد حلبهم الخزي والويل. فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفا، غير من ألقى نفسه في اللحج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسليمنا دمياط بعون الله وقوته، وجلله وعظمته"،  
وذكر كلاما طويلا.

وبعث (المعظم) مع الكتاب غَفَارَةُ الْمَلِكِ الْفَرْنَسِيَّسُ، فلبسها الأَمْرِيْرُ جَمَالُ الدِّينُ بْنُ يَغْمُورٍ، وَهِيَ أَشْكَرُ لَاطٍ أَحْمَرُ بَفْرُو سَنْجَابٌ، (فِيهَا بُكْلَةُ ذَهَبٍ). فَقَالَ

**شيخ نجم الدين بن اسرائيل:  
إن غفارة الفرنسيس التي  
جاءت جباء لسيد الأمراء  
كبياض القرطاس لونا ولكن  
صبغتها سيفوننا بالدماء**

وَقَالَ (آخِرُ):  
أَسِيدُّ أَمْلَاكِ الزَّمَانِ بِأَسْرِهِمْ  
تَنْجَزَتْ مِنْ نَصْرِ إِلَاهٍ وُعْدَهُ  
فَلَا زَالَ مَوْلَانَا يَبْيَحُ حَمْنَ الْعَدُى  
وَيُلَيِّسُ أَسْلَابَ الْمُلُوكِ عَبِيَّدَهُ

## سان لويس في تونس

(مقرزي، 364 - 365)

وأتفق أن الفرنسيس هذا، بعد خلاصه من أيدي المسلمين، عزم على [394]  
الحركة إلى تونس من بلاد إفريقيا ، لما كان فيها من المجاعة والموتان.  
وأرسل يستنفر ملوك النصارى، وبعث إلى البابا خليفة المسيح بزعمهم.  
فكتب(البابا) إلى ملوك النصارى بالمسير معه، وأطلق يده في أموال الكنائس  
يأخذ منها ما شاء. فأتاها من الملوك ملك الإنكشار، وملك اسكونسا، وملك ثورل،  
وملك برشلونة واسمه ريداركون ، وجماعة آخر ملوك النصارى. [395]

فاستعد له السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر بالله ابن الأمير أبي  
ذكرى يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر، ملك  
تونس، وبعث إليه رسالته في طلب الصلح، ومعهم ثمانون ألف دينار. فأخذها  
(الفرنسيس) ولم يصالحهم، وسار إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين  
وستمائة (21 تموز/لوالية 1270)، ونزل بساحل قرطاجنة في ستة آلاف فارس  
وثلاثين ألف راجل. وأقام (الفرنسيس هناك) ستة أشهر ، فقاتلته المسلمون [397]

- للنصف من محرم سنة تسع وستين (آخر آب/اغسطس) - قتالا شديدا، قتل  
فيه من الفريقين عالم عظيم. وكاد المسلمون أن يغلبوا، فأتاهم الله بالفرح  
وأصبح ملك الفرنجة ميتا، فجرت أمور آلت إلى عقد الصلح ومسير النصارى.  
ومن الغريب أن رجلا من أهل تونس، اسمه أحمد بن إسماعيل الزيات، قال:

يا فرنسيس هذه أخت مصر  
فتذهب لما إليه تصير  
لك فيها دار ابن لقمان قبراً [398]

وطواشيك منكر ونكير  
فكان هذا فالأ عليه ومات...، وكان ريدافرس هذا عاقلا داهيا خبيثا مُفكراً.

## القسم الرابع: المماليك وتصفيه الصليبيين

بين الأعوام 1265 و 1291 تمكّن ثلاثة سلاطين مماليك هم بيبرس (1277-1260) و قلاوون (1290-1279) والأشرف (1293-1290) تمكنوا من تفكيك كل ماتبقى من أعمال الحملات الصليبية. المصدر الرئيسي عن جميع

الثلاثة هو معاصرهم ابن عبد الزاهر، رغم أنه لم يصلنا من روایته إلا ببعضها وأن أكثرها ما زال غير منشور. هناك عن فتوحات بيبرس سيرة ابن عبد الزاهر الموجودة في

المختصر الذي جمعه ابن أخيه شفيع، هذا فضلاً عن وقائع متأخرة كتبها ابن الفرات

والمرزري والعيني. المقاطع التالية مأخوذة من المصادر المذكورة وفيها أيضًا رسالة

النصر المشهورة المرسلة إلى بيمند السادس بعد فتح انطاكية.

### بيبرس

ضد طرابلس وأنطاكية  
ورسالته إلى بيمند السادس  
(ابن عبد الزاهر الوراق)

(v111 - v105)

هذا الحصن (طرابلس الشام) كان للإسلام قديماً وأخر من كان به بنو عمار. وحاصره بعض ملوك الفرنج عدة سنين، وبني

[399]

أمامه حصنًا لطول مدة المحاصرة ،

فلما أعيَا بُنِي عَمَارَ ذَلِكَ، ترکوَا فِيهِ وَاحِدًا مِنْهُمْ وَذَهَبُوا لِيُسْتَنصِرُوَا وَيُسْتَنْجِدُوَا.  
وَكَانَ

الذِّي ترکوهُ مِنْهُمْ بِهَا مُخْتَلِّاً، فَقَامَ بِأَعْلَاهَا، وَنَادَى الْفَرْنَجَ أَنْ إِدْخُلُوا وَتَسْلِمُوا،  
فَتَسْلِمُوهَا. وَأَخْرَى مِنْ مُلْكِهَا يَمْنَدُ السَّادِسُ بْنُ يَمْنَدِ الْأَبْرَنْسِ. وَلَمَّا أَفْضَتْ نُوبَةُ  
الْمَلْكِ لِلْسُّلْطَانِ الْمَلْكِ الظَّاهِرِ، صَاحِبُ هَذِهِ السِّيرَةِ، وَأَيَّدَ اللَّهَ بِهِ الْإِسْلَامَ،  
وَصَارَ يَبْلُغُهُ

عَنْ يَمْنَدِ هَذَا، مِنْ سُوءِ الْجِيَرَةِ وَكُثْرَةِ التَّعْدِيِّ وَالتَّعْرُضِ إِلَى مَنْ يَقْصِدُ أَبْوَابَهُ،  
حَتَّى أَنَّهُ

طَفَرَ بِرَسْلٍ أَتَوْ مِنَ الْكَرْجِ، وَقَدْ انْكَسَرَتْ مَرْكِبُهُمْ، فَأَخْذُهُمْ وَأَخْذُ مَا عَلَى يَدِهِمْ  
مِنَ الْكِتَبِ

الْوَارِدَةُ إِلَى السُّلْطَانِ، وَسَيَّرُهُمْ إِلَى هُولَاكُو مَلْكِ التَّتَارِ، فَأَتَى عَلَى نُفُوسِهِمْ  
وَنُفُوسِ

مَرْسِلِهِمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَجَاهِرَةِ فَاقْتَضَتِ الْغِيَرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَالْحُمَيْةُ  
الْإِيمَانِيَّةُ، أَنَّ

تَهْيَأً لِقَصْدِهِا، وَأَسْرَ فِي التَّهِيَّةِ خَلَافَ فَأَظَهَرُهُمْ مِنْهَا، وَأَقْتَحَمُ إِلَيْهَا الْجَبَالَ  
وَالْأَوْدِيَّةَ.

وَفِرَقُ الْعَسَكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَأَحْاطُوا بِهَا الْهَلَكَ، وَأَسْرُوا وَنَهَبُوا، وَأَرْعَدُوا  
وَأَبْرَقُوا،

وَاسْتَولَى عَلَى أَكْثَرِ بَلَادِهَا، وَتَرَكَهَا بِمَا اقْتِصَاهُ الْحَزْمُ، وَعَادَ.

قد تقدم ذكر الإغارة على طرابلس

وإنهاك قواها، ورحيله عنها، من غير أن يُعرف إلى أين موه السلطان، فضرب  
عدة

دهاليز، جعل باب كل دهليز إلى ناحية لتحيير الأخطار، ثم فرق عساكره فاقداً أنطاكية، وهي في مملكة الإبرنس صاحب طرابلس، فتوجهوا موغلين في القتل والأسر وخراب

الديار وتعقبة الآثار. وقصد السلطان أنطاكية بنفسه، فنزل بها مستهل رمضان سنة ست

وتسعين وستمائة (15 آيار - مايو 1268).

وكان أستاذ داره الأمير شمس الدين أقسنقر الغارقاني، قد وجد في توجهه، جماعة من

فرسان أنطاكية، فضرب معهم رأساً، فأهلكهم عن آخرهم، واسر كند اسطبل، نايبها.

واجتمعت العساكر على أنطاكية من كل جانب ومكان، وحصل الزحف، وملكت الأسوار، وأخذت

البلد، وقتل من بها من الجمع الكبير الكثير. ثم خصرت القلعة، فأخذت بالأمان، واستقرت في قبضة الإسلام.

وأمر السلطان بالكتابة إلى

[400] الإبرنس، عزاء بفتحها، وخساراً له بترجمها، من إنشاء مؤلفها، رحمة الله ما كان أدراه بمواقع الكتابة، وأظفره بمظان الإصابة، وأنكاه بدسايس كتبه ودفاین

تفتيشه عن مقاصد ملكيه وتطلبه. وعند الفرنج أنه لا يجعل ابرنس إلا صاحب أنطاكية،

[401] فخاطبه مؤلفها بالقومص، لخروج أنطاكية عنه .

ويتعرض ذلك ما حكاه لي، رحمة الله، قال: كان السلطان قد جهزني رسولأً، صحبة الأمير

[402] فارس الدين أتابك إلى طرابلس عند تقرير هدنة طرابلس .

وأن السلطان الملك الظاهر دخل معها متنكراً في صورة سلاح دار، ليكشف حال البلدة

ويخبر جهاتها ومكان أخذها. وأنه لما أحضره الإبرنس للحديث فيما وصلا فيه، واستقر

الأمر والسلطان واقف ينظر على رأس الأتابك، ويسمع، أنه أخذ (أخذ)

[403] فكتب : " واستقرت الهدنة بين مولانا السلطان، وبين القومص..." ولم يكتب الإبرنس،

إن صاحب طرابلس لمحها، واستشاط وقال: "من هو القومص؟" قلت له:

"أنت" قال: "لا، أنا إبرنس"، قلت له: "الإبرنس السلطان

الملك الظاهر، لأن الإبرنسية هي لصاحب القدس وأنطاكية واسكندرونة، وهو مولانا

السلطان"، فنظر إلى جيشه الواقف، فارتज مجلس. قال: فغمز السلطان الأتابك

برجله، فقال الأتابك: "يا يحيى الدين، صدقت، وإنما مولانا السلطان قد أنعم على هذا بلفظة الإبرنس، كما أنعم عليك بتوطينه في مملكته"، قلت للأتابك:

"إذا عملت هذا فلا بأس"، وكتب عوض القومص الإبرنس. قال مؤلفها: ولما انفصلنا، وحل مولانا السلطان لمخيمه، أخذ مولانا السلطان يحكىها لأمراء دولته

ويضحك، ويلتفت إلي ويقول: "هذا كان وقته! بعد الله الإبرنس وال القومص".

انقضت الحكاية، ونعود إلى إثبات نسخة الكتاب وهي:

[404] قد علم، القومص فلان ،

أكبر الطائفة العيساوية، والمنتقل إلى اللفظة القومصية - ألهمه الله رشده،  
وقرن

بالخير قصده. وجعل النصيحة محفوظة عنده - ما كان من قصدنا طرابلس،  
وغزونا له في

عقر الدار، وما شاهد بعد رحيلنا من إخراط العماير وهدم الأعمار، وكيف  
كنست تلك

الكنائس من له بساط الأرض، ودارت الدواير على كل دار، وكيف جهلت ثلث  
الحساير على

جانب البحر من الأجسام كالجزاير، وكيف قتلت الرجال الحرار، وكيف قطفت  
الأشجار، ولم

يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانق<sup>[405]</sup> ،

إن شاء الله، والستاير، وكيف نهبت الأموال والحرير والأولاد والمواشي،  
وكيف استغنى

الفقير وتأهل العازب واستخدم الحذيم، وركب الماشي، هذا وأنت تنظر  
المغشى عليه من

الموت، وإذا سمعت صوتا كلت فزعًا على هذا السوط، وكيف رحلنا عنك، لكن  
رحيل من

يعود، وأخرناك وما تأخيرك إلا لأجل معدود، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها  
ماشية،

إلا وهي بين أيدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في ملكها جارية، ولا سارية إلا  
وهي

بين أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصور ولا موجود لك إلا وهو منك  
مفقود،

وما منعك تلك المغاير التي هي في رؤوس تلك الجبال الشاهقة، ولا تلك  
الأودية التي

هي في التخوم مختربة، والعقول حارقة. وكيف سقنا عنك، ولم يسبقنا إلى  
مدينتك

أنطاكيه خبر، وكيف وصلنا إليها، وأنت تصدق أننا نبعد عنك، وأنت بعدها  
فستعود على

الأثر. وها نحن نعلمك بما تمّ، ونفهمك بالبلاء الذي عم: كان رحيلنا عنك من  
طرابلس

في يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان، ونزلونا أنطاكيه في مستهل شهر  
رمضان المعظم،

وفي حالة النزول، فرجت عساكرك للمبارزة، فكسرروا، وتناصروا فما نصروا،  
وأسر من

بينهم كذا اسطبل، فسأل في مراجعة أصحابك، فدخل إلى المدينة، فخرج هو  
وجماعة من

رهبانك وأعيان أعيانك، فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس  
بالغرض

الفاسد، وأنهم رأيهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد. فلما رأيناهم  
قد فات

فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت، ردناهم، وقلنا نحن الساعة  
لكم نحاصر،

وهذا هو الأول في الإنذار والآخر، فرجعوا متشبھين بفعلك، ومعتقدین أنك  
تنجدهم

بخيلك ورجلك ففي بعض ساعة (...) شان المرشان، [406] وداخل

الرہب الرہبان (...) البلاء القصطلان وجاءهم الموت من كل مكان وفتحناها  
بالسيف في

الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان المعظم (18 أيار - مايو)،  
وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحامات عنها. وما كان أحد منهم إلا

وعنده شيء من الدنيا. فما بقي أحد منا إلا وعنه شيء منهم ومنا، فلو رأيت  
خيالتك

وهم صرعي تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول والكسابة فيها  
تجول، وأموالك

وهو توزن بالقسطار، وداماً ثك (نساؤك) في كل أربع منها تباع فتشتري من  
مالك بدینار،

ولو رأيت كنایسک وصلبانها وقد كسرت، وصحفها من الأنجل المزورة وقد  
نشرت، وتبور

البطارقة وقد بعثرت. ولو رأيت عدول المسلم وقد داس مكان القدس  
والذبح، وقد ذبح

فيه الراهن والقسیس والشمامس والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأنباء  
المملكة وقد دخلوا

في المملكة، ولو شاهدت النيران وهو في تصورك تحرق، والقتلى فكم بدار  
الدنيا قبل

دار الآخرة تحرق، وتصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة  
القصيان [407] وقد

نزلت كل منها وزالت، لكنك تقول "يا ليتنى كنت تراباً، يا ليتنى لم أوت بهذا  
الخبر كتاباً" ول كانت نفسك ذابت من حزنك، ول كانت تطفى تلك النار بماء  
عبرتك.

ولو رأيت مفانيك وقد أقفرت من معانيك، ومراتبك وقد أخذت في السويدية  
بمراتبك،

فصارت شوانيك من شوانيك، ولتيقنت أن إله الذي أنطاك أنطاكيه، منك  
استرجعها،

والرب الذي أعطاك قلعها، منك قلعها، ومن الأرض اقتلها. ولتعلم أنا قد  
أخذنا،

بحمد الله، منك ما كنت أخذته من حصنون الإسلام وهو دركوش وشقيف  
كفردبين وجميع ما

كان لك في بلاد أنطاكية، واستنزلنا أحمالك من الصياصي، وأخذناهم  
بالنواصي،

وفرقناهم في الداني والقاصي. ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا  
النهر، فلو

[408]  
استطاع لما تسمى بالعاصي ،

وقد أجزى دموعه ندماً، وكان يذرفها عبرة صافية، فها هو أجراها بما سفكناه  
فيه

دماً. وكتابنا هذا يتضمن البشري لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر،  
وكذلك لم

يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكذلك ما كنت بها، فتكون إما قتيلاً  
إما

جريحاً إما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي، إذا شاهد الميت.  
ولعل

الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم أحد  
يخبرك

بما جرى، خبرناك. ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك  
ما سواها،

بشرناك بهذه المفاوضة وبasherناك، لتحقق الأمر على ما جرى، وبعد هذه  
المكاتبة، لا

ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها  
مخبراً.

ولما وصل (هذا الكتاب) انقضى

الكتاب بهذه ورudge، (ولم يصله خبر أنطاكية إلا بهذه الوسيلة).

## الاتفاق

مع أوك الثالث، ملك قبرص

(ابن الفرات، 6، 146r)

(147r -

لما فتحت الشقيف، أراد الفرنج أهل عكا أن يملكون عليهم ملكاً يصلح أمورهم. وكان بقبرص (بقدرس) ملك [409]  
صغير وله

بال مقدم على عسكره اسمه أوك بن هري (أوك بن هري) وعمره دون الثلاثين

[410] سنة، وهو ابن عم صاحب طرابلس، وهو ابن أخت صاحب قبرص (السابق)،

والد الصبي الذي ذكرناه. فأيقن أن الصبي مات، وهذا البال فروج عند أصحاب [411]  
أرسوف ،

[412] ومرجع الملك لهذا الشاب، ولابن خالته ،

وولد خالته أحق بالملك منه، لأن أمه الكبرى: وهذا في اصطلاح الفرنج أنه مقدم ولد

[413] الكبرى. وإنما كان غائباً في بلاد سيس ،

فاستولى هذا الشاب على قبرص. ثم استدعاه الفرنج إلى عكا، والمملكة العكارية منصافة

للمملكة القبرصية. فوصل إليها، وحلف له أهل عكا. وورد (في هذا الوقت إلى قيصر

بيبرس) كتاب ملك صور يذكر وصول هذا الملك، وأنه رجل عاقل، وأنه لما وصل (عرض عليه) آراء الفرنج في (أن يطمئنوا) ما أحسنوا مجاورة السلطان، وانه قال "ما جرى مني

ما يوجب عداوة"، وسأل صاحب صور في أن السلطان يصالحه. ولما عاد السلطان من

(حرب) أنطاكية إلى دمشق. كما قدمنا شرحه، وصلت رسالته وجماعة من خيالتهم قريب الماية

نفس، وأحضروا هدية ومصوغاً وجوارح وغيرها. وحصل الاتفاق بين السلطان الملك

الظاهر (بيبرس) وبين هذا الملك على شيء يسير، وهو مدينة عكا وبلادها، وهي أحد

وثلاثون ضيعة، وتقرر أن حيفا تكون للفرنج ولها ثلاثة ضياع، وبقية بلادها مناصفة،

وببلاد الكرمل تكون مناصفة وعسلين تكون (للفرنج؟)، لها ثلاثة قرى والباقي مناصفة،

والقررين عشر قرایا (للفرنج؟)، والباقي للسلطان وببلاد صيدا الوطأة (السهول) للفرنج

والجبيليات للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرص. هذا ما استقر عليه الحال في

البلاد كلها، وأن تكون الهدنة لعشرين سنتين، وإنها لا تنقض برجل غريبة ولا ملك محضرة

في البحر. واشترط (السلطان) عليه إطلاق رهائن البلاد.

قال القاضي محي الدين بن عبد

الظاهر، مؤلف سيرة الملك الظاهر (بيبرس)؛ وتوجهت رسولاً أنا والأمير كمال الدين

ابن شيث، لاستحلاف الملك. وسير السلطان هنا هدية: عشرين نفرًا من أسارى أنطاكية

قسيسين ورهباناً. فدخلنا إلى عكا في رابع وعشرين شوال (7/666 تموز يوليه 1298)

واحتفل بنا احتفالاً كثيراً. وكان السلطان قد وصى بأن لا نتواضع له في جلوس ولا

مخاطبة فلما دخلنا إليه، رأيناه على كرسي هو والمقدمين. فلم نجلس إلى أن وضع لنا

كرسي قبالته، ومد الوزير يده لأخذ الكتاب. فلم نعطه حتى مد الملك يده، وأخذه.

وتوقف في أشياء منها: أنه رغب في مملكة قبرص، يكون لها صلح بمفردها، وأن الصلح

يستقر ما لم تصل رجل غريبة أو أحد من ملوك البحر، وأن الإسماعيلية لا يكون لهم

حديث في الهدنة، واستعنى من الحديث الرهائن، وفصول آخر. وعادت رسائل السلطان من ملك

الفرنج، ولم يحلف وبقيت الأمور ساكنة. وكان هذا الملك بعكا كلما تكلم يقول:

"أنا أخاف من الملك جارلا (كارلو) أخي ريدافرن، ولا أقدر أبٌ صلحاً خوفاً"

[414]  
منه".

والله أعلم.

(ابن عبد الزاهر، 117v)

كانت هذه عكا، حين المهادنة، بلا ملك، فملكت لشخص من فرنج قبرص. فلما ولّيّها هذا المذكور، كتب إلى السلطان متراجياً إليه، خاطباً موته، سائلاً استقرار الهدنة على ما هي عليه، وسيّر هدية نفيسة مثمنة. فما كره السلطان منه ذلك، وقبل تودده وعوّضه بهدية. فسأل الملك المذكور أن تكون المهادنة باسمه، ودخل في الطاعة والفراغة، فأجاب السلطان. فحلف له على

[415] المهادنة وسيّر لتحليله الصاحب محي الدين مؤلفها، وكمال الدين بن شيث. وحكي لي محي الدين المشار إليه، قال: لما استحضرنا هذا الملك، وجدناه على سرير مرتفع، وأراد أن يكون فوق ونحن أسفل، فأبى لنا الإسلام ذلك، فرفعناه إليه، وأخذنا معه في الحديث، فأخذ يُمغلط، ويدخل حديثاً في حديث، فأغلظت عليه، فنظر إلى بعين المغضب، فقال للترجمان: "قل له ينظر إلى من وراءه"، فنظرت، فإذا به قد صرف جنده وحملهم، وقال له: "قل له، انظر إلى هذه الكثرة"، فنظرت وأطرق، فقال للترجمان: "قل له: أيش تقول فيما رأيت؟"، فقلت: "قلهولي الأمان؟" فقال له "نعم" قلت "عرف الملك أن عندنا في خزانة البنود، وهو حبس بمملكة السلطان بمصر، أساري من

الفرنج أكثر من هؤلاء؟"، فاغضب وصلب وجهه وقال: "وحق ديني ما أسمع لهم

رسالة في هذا اليوم" فانصرفنا ثم استحضرنا، فلخلفناه. واستقرت الهدنة إلى

[416] الأيام السلطانية الملكية المنصورية القلاونية .

## ذكر

[417] بعض أخبار حصن الأكراد وفتحه

(ابن الفرات r189 - v190) كان هذا الحصن قديماً يسمى حصن

[418] السفح. منتخب الدين يحيى بن أبي طي النجار الحلبي ،

في تاريخه في سبب نسبته إلى الأكراد أن الأمير شبل الدين نصر بن مرداس صاحب

حمص أسكن في هذا الحصن قوماً من الأكراد في سنة اثنين وعشرين وأربعين (1031) فنسب إليهم، فلما أن كانت أيام الأتابك طفتين بدمشق وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج

على أن يكون حصن الأكراد وحصن مصياف داخلين في المودعة، ولحمل أهلها مالا معينا

في كل سنة إلى الفرنج، قاوموا (فداوموا) على ذلك مدة. وذكر ابن [419] عساكر أن

صنجيل (رايموند)، لعنه الله تعالى، منذ (سار) لطرابلس الشام كان لا يقطع الغارات

عن هذا الحصن وما قاربه من الحصون. ثم أنه قصده في سنة ست وتسعين وأربعين (1103) وحاصره وضيق عليه وأشرف على أخذه. واتفق قتل جناح الدولة، صاحب حمص، فطمع في حمص

[420] ورحل عن حمص الأكراد، واتفق هلاكه. وتولى ولده بدران (برتراند) فجرى على عادة أبيه في أذية هذا الحصن وإفساد أعماله، فخاف من كان فيه. وتوجه

للحصار بيروت. فخرج طنكتي صاحب انطاكية واستولى على أكثر البلاد، وداراه أهل بلاد

الشام، فنزل على هذا الحصن، وأهله في غاية ما يكون من الضعف. فسلمه صاحبه إليه،

وكان يرجوا أنه يبقيه فيه لأنه اختاره على صنجيل، فأنزل أهله منه واجبره صحنته،

ورتب فيه من يحفظه من الفرنج. انتهى ما ذكره (ابن عساكر).

وقيل أن طنكريك، صاحب أنطاكية، خرج

من أنطاكية ونزل على حصن الأكراد، وتسلمه من أهله في بقية سنة ثلاثة وخمسين (1110)،

ولم يزل بيد الفرنج إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى. وذكر ابن منقد في كتاب

[421] البلدان ،

أن الشهيد الملك العادل نور الدين محمود، صاحب الشام، رضي الله عنه كان قد عامل

بعض رجاله التركمان المستخدمين في جهة الفرنج أصحاب حصن الأكراد، على أنه إذا قصده

الشهيد يثور هو وجماعة من أصحابه في الحصن، ويرفعون علم نور الدين الشهيد على

الحصن، وينادون باسمه وكان هذا التركمانى له أولاد وأخوة قد وثق لهم الفرج في هذا

الحصن، وكانت العلامة بينه وبين الملك العادل نور الدين الشهيد، أنه يقف على رأس

باشوره. فاتفق أن الشهيد لم يطلع أحداً على هذا الأمر، وتقدمت العساكر، فرأوا

التركمانى فرموه فقتلوه، واستغل أهله بوفاته وبطلت الحيلة.

ولم يفتح السلطان صلاح الدين

يوسف بن نجم الدين أيوب فيما فتح من بلاد الفرنج، ولم يزل الحصن بيد الفرنج

إلى أن أغار الملك الظاهر ركن الدين ببرس الصالحي على طرابلس في هذه السنة (1271/669) ما قدمنا شرحه. وفي تاسع شهر رجب (2 شباط/فبراير)

الفرد من هذه السنة، نازل السلطان الملك حصن الأكراد، وفي العشرين منه (4 آذار/مارس)

أخذت ارياص حصن الأكراد، ووصل الملك المنصور، صاحب حماة<sup>[422]</sup> ،

بعسكنره. فالتقاه السلطان، وترجل لترجله وساق السلطان تحت صنائق صاحب حماة بغير

جمدارية ولا سلاح داريه، تأدبا مع صاحب حماة. وسير إليه دهليز أمر بمنصبه. ووصل

الأمير سيف الدين، صاحب صهيون وصاحب دعوة الإسماعيلية القياجب نجم الدين. وفي آخر

شهر رجب، الشهر المذكور، تكمل نصب عدة مجانيق. وفي سابع شعبان (22 آذار/مارس)

من هذه السنة، أخذت الباشورة بالسيف، وجعل للسلطان مكان يرى منه النشاب، وصار يعطي

المال والخلع. وفي السادس عشر شعبان، الشهر المذكور، (31 آذار/مارس) تشقق برج من أبراج القلعة، وزحف الناس فطلعوا على القلعة وتسليموها، وطلع الفرنج

على القلعة، وأحضرت جماعة من الفرنج والنصارى، فأطلقهم السلطان صدقة من الملك

[423] .  
السعيد .

ونقلت المجانيد إلى القلعة ونصبت بها على التلة. وكتب السلطان كتاباً على لسان مقدم

الفرنج بطرابلس إلى من بالقلعة يأمرهم بالتسليم. ثم طلبوا الأمان، فكتب لهم أمان

على أن يتوجهوا إلى بلادهم. وفي يوم الثلاثاء رابع وعشرين شعبان (7 نيسان/أبريل)،

الشهر المذكور، خرج الفرنج منها وجهزوا إلى بلادهم، وتسلم السلطان الحصن.

وكتب إلى مقدم بيت الأسبدار، صاحب

[424] حصن الأكراد، كتاب بالبشاره، منه هذه المكاتبة "إلى افريداوك" ،

جعلك الله ممن لا يعرض على القدر، ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر، ولا

يعتقد أنه ينجي من أمر الله الحذر ولا يحمي منه حجر البناء ولا مبنيّ الحجر.  
يعلم

ما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وحليته. و كنت الموفق  
[425] .  
لو اخليته .

واتكلت في حفظه على أخوته، فما نفعوك، وضييعهم بالإقامة فيه، فضييعوه  
وضييعوك. وما

كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى أو تخدم سعيداً ويشقى". ورتب  
السلطان

الأمير صارم الدين الكافرى نايها لحصن الأكراد، وفوض عمارته للأمير عز الدين

الأكرم والأمير عز الدين أيك الشيخ وبضم السلطان وهو يحاصر حصن  
الأكراد نفرین،

كانا سيرا من العليقة [426] إلى

صاحب طرابلس، وقد رتب معهم اغتيال السلطان الملك الظاهر. فلما حضر  
الصاحب نجم

الدين، أنكر السلطان عليه ذلك، ثم أطلقهما.

## الهجوم

الفاشل على قبرص

(العيني 239-242)

وقال ابن كثير [427] : لما فتح الملك السعيد بن الظاهر حصن الأكراد جعل  
كنيستها جاماً وأقام فيه الجمعة، وولى السلطان فيه نائباً وقاضياً، وأمر بعمارة البلد. ثم أنه بلغ  
السلطان

وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى  
عكا، لينصر أهلها

خوفا عليهم من الملك الظاهر، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة، فبعث  
جيشا كثيفا

في سبعة عشر شينيا ليأخذوا جزيرة قبرس في غيبة صاحبها عنها. فسارت  
المراكب مسرعاً،

فلما قاربت الجزيرة جاءتها ريح قاصف، وصادفت بعضها بعضا، فتحطم منها  
أحد عشر مركبا

بإذن الله عز وجل، ففرق خلق وأسر الفرج من الصناع والرجال قريب من  
ألف وثمانمائة

إنسان، إنا لله وإنا إليه راجعون.

[428] **وقال بيبرس في**

تاریخه: هذه الطّامة التي حصلت على المسلمين بعد فتح القرین، فقال: خرج  
السلطان من

دمشق بعد فراغه من الجهات التي ذكرناها في العشر الآخر من شوال، (اوائل  
حزيران/يونية

[429] **1271 وسار إلى القرین ونازله**

في ثاني ذي القعدة (13 حزيران/يونية)،

وأخذت باشورته، وسأل من فيه الأمان، فكتب لهم أمانا، وتقرر خروجهم  
وتوجههم حيث

شاءوا، وأنهم لا يستصحبون مالا ولا سلاحا. وتسلّم السلطان الحصن وأمر  
بهدم قلعته،

ثم سار عنه ونزل اللجون، وتقدمت مراسمه إلى النواب بالديار المصرية  
وتجهيز

الشوانى وتسفيرها إلى قبرس، فجهزهَا النواب، وسقّروها صحبة مقدم البحر  
ورؤساء

الخلافة. فلما وصلت إلى مرسى النمسون تحت قبرس جنّا الليل، وتقدّم  
الشيني الأول

داخلاً على أنه يقصد الميناء، فصادف الشعاب في الظلماء، فانكسر. وتبعه  
الشوانى

واحداً فواحداً، ولم تعلم بما أصابه، فانكسروا في دجى الليل جميعاً، وأسرهم  
أهل قبرس.

وكان ابن حسون المقدّم قد أشار برأي، تطير الناس منه، وهي أن تطلّ  
الشوانى

بالقارب، ويعمل عليها الصليان لتشبيهه على الفرنج بشوانفهم، فيتمكن من  
موانئهم،

فاقتضى تغيير شعارها بما أراد الله من انكسارها. وورد كتاب صاحب قبرس  
إلى السلطان

يخبر بأن شوانى مصر وصلت إلى قبرس، وكسرها الريح وأخذتها، وهي أحد  
عشر شيئاً، فأمر

السلطان بأن يكتب جوابه، فكتب إليه هذه المكاتبة:

إلى حضرة الملك أوك، جعله الله ممن

يوفى الحق لأهله، ولا يفتخر بنصر إلا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله، نعلمه  
أن

الله إذا أسعد إنساناً دفع عنه الكثير من قضائه باليسير، وأحسن له التدبير فيما

[430]  
جرت به المقادير ،

وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدّه من شوانينا وصار بذلك ينجح، وبه يقرح،  
ونحن

الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشاره بتملك القرين من البشاره بما كفى  
الله ماكنا

من العين، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على  
الحصينة هو

العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله إن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وليس  
من اتكل

على الله وسيفه كمن اتكل على الريح، وما النصر بالهواء مليح، إنما النصر  
بالسيف هو

المليح، ونحن ننشئ في يوم واحد عدّة قطائع، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة،  
ونجهز مائة

قلع ولا يجهز لكم في مائة سنة قلعة، وكلّ من أعطى مقداف قدّف، وما كلّ  
من أعطى

سيف أحسن الضرب به أو عرف، وإن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندا  
من بحرية

المراكب ألف، وأين الذين يطعنون بالمقاديف في صدر البحر من الذين  
يطعنون بالرماح في

صدر الصفوف، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول، وفرق بين من  
يجريها

كالبحار ومن تقف به في الوحول وفرق بين من يتصيد الصقور من الخيل  
العراب، وبين من

[431]  
إذا افتخر قال: تصيدت بغراب ،

فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمرة، وإن  
استوليتكم على

سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان، وقد كسبت وكسبنا، فيرى إينما أغنم، ولو  
أن في

**الملك سكوتا كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم.**

لم تكن سلطنة قلاوون أقل قيمة من سلطنة بيبرس، لابل إنها كانت أكثر إنسانية. كما أن قلاوون اشتهر بعلاقاته مع مابقي من دولات مسيحية في سورية، وتوقيع سلسلة من المعاهدات مع الديوية وعكا ومرغريت صاحبة صور، والتي حفظ نصوصها كلها ابن عبد الزاهر في كتابه عن ذلك السلطان (تشريف الأيام والعصور). لكن قلاوون تابع أيضاً تفتیت الممتلكات اللاتينية في الأراضي المقدسة وتوج عملياته بأخذ طرابلس (1289) وكان المؤرخ أبو الفدا شاهد عيان على ذلك (وهناك رواية أخرى أقدم، نقلها مقرزي). بعد سقوط طرابلس لم يبق للفرنجة إلا منطقة عكا وبعض المدن الساحلية.

## اتفاق

قلاوون مع ديوّه طرطوس (ابن عبد الزاهر، تشريف، 38 v - 44 v) وفي هذه السنة (681/1282) استقرت الهدنة بين مولانا الملك السلطان المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين، وبين المقدم افريير كليام دي باجوك مقدم بيت الديوية

[432] بعكا والساحل، وبين جميع الأخوة الديوية بانطرطوس

لمندة عشر سنين كواحدة متتالية وعشرة شهور، أول ذلك يوم الأربعاء  
خامس المحرم سنة

إحدى وثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للخامس عشر من  
نيسان/أبريل

سنة ألف خمس مائة وثلاثة وتسعين للاسكندر بن فيليب اليوناني [433]  
نيسان/أبريل (15)

1282)، على بلاء مولانا

السلطان والملك المنصور، وبلاء ولده السلطان الملك الصالح علاء الدين

[434]  
علي ،

وعلى كل ما هو داخل في مملكتهما من الديار المصرية وأعمالها وثغورها  
وموانئها،

والبلاد الشامية وثغورها وحصونها وقلاعها وسواحلها وموانئها، والمملكة  
الحمصية

وبладها وأعمالها، وقلاع الدعوة وبلاطها وأعمالها، ومملكة صهيون وبلاطنس،  
وجبلة

واللاذقية وما أضيف إلى ذلك، والمملكة الحموية وبلاطها وأعمالها، والمملكة  
الحلبية

وأعمالها وبلاطها والفراتية وبلاطها وأعمالها، والفتحات الساحلية وبلاط حصن  
الأكراد وبلاطها وأعمالها داخل فيها ومنسوب إليها ومحسوب منها حين استقر  
أن هذه

الهدنة، من بلاط وقري ومزارع ومزاجات وأرض وأبراج وطواحين وغير ذلك،  
ومملكة

صافيتا وبلاطها وأعمالها وقرابها وأسوارها، وما استقر لها، وأنصاف القرى  
والبلاد

إلى آخر وقت. والميuar وأعمالها، والغريمة وأعمالها وما هو مستقر لها  
ومنسوب

إليها، وحلب وأعمالها، وعرقا وأعمالها، وطيبوا وأعمالها، وقلعة حصن الأكراد  
وأعمالها وبلادها، والقليلات وأعمالها وبلادها، بكمالها وبلادها وما وقع الاتفاق  
عليه في مناصفات بلاد المرقب، وكل ما تضمنته الهدنة لهم المستقرة في  
الأيام

المنصورية، وكلما في هذه البلاد القريب منها والبعيد، والمحادر والمجاور وغير  
ذلك

من عامر ودائر، وسهل ووعر، وبر وبحر ومواني سواحل، وما هو في هذه  
البلاد من طواحين، وأبراج وبساتين وأنهار ومياه وشجيرات ودخل (آبار)، وكلما سيفتحه  
الله،

على يد مولانا السلطان الملك المنصور، ويد ولده السلطان الملك الصالح،  
وعلى يد

مقدمي جيوشه وعساكره، من حصون ومدن قلاع وقرى، وما تخلل ذلك من  
سهل وجبل وعامر  
ودائر وأنهار وبساتين وموان سواحل وبروز. وعلى انطرطوس الجارية في  
بيت الديوبية،

وعلى بلادها المستقرة إلى آخر وقت، عند استقرار هذه الهدنة المباركة، وما  
انضاف

إلى بلادها من بلاد العريمة وميuar، بمقتضى الهدنة الظاهرية [435] التي  
حمل الأمر على حكمها. وهي سبعة وثلاثون ناحية، على ما فُصل في الهدنة  
على كل ما

تحويه بلاد مولانا السلطان جميعها من المقدام افريير كليام ديباجوك، مقدم  
بيت

الديوية، ومن ساير الأخوة بانطروطوس، من جميع الخيالة والتركمانية والفرسان  
وسائل

أجناس الفرنجية.

لا تخطي أحد من انطروطوس وبلادها

وميناهما وسواحلها إلى بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وبلاط ولده  
السلطان الملك

الصالح، ولا إلى قلاعهما ولا إلى حصونها ولا إلى بلادهما ولا إلى أراضيهما، ما  
عين

في الهدنة وما لم يعين. وتكون انطروطوس وبلادها المعينة في الهدنة، ومن بها  
من

الأخوة والفرسان والرعايا وغيرهم، القاطنين والمتردد़ين، آمنين مطمئنين من  
مولانا

السلطان الملك المنصور أو من ولده، ومن عساكرهما، ومن هو داخل في  
حكمهما، لا يتخطى

أحد إلى انطروطوس ولا إلى بلادها ولا رعاياها، بمكرره ولا غارة، إلى انقضاء  
الهدنة.

وعلى أن الممنوعات تستمر على قاعدة المنع.

وعلى أنه متى انكسر مركب أو إنعاب

من بلاد مولانا السلطان، ومن المترددِين إليها، وغيرها من ساير البلاد  
والأجناس

والناس، في ميناء انطروطوس وسواحلها وبروزها الداخلة في هذه الهدنة  
يكون كل من فيها

آمنين على النفوس والأموال والمتاجر والبضائع والرجال. فإن وجد صاحب  
الذى انكسر أو  
إنعاب، يسلم إليه مركته وماله، وإن عدم بموت أو غرق، فيحتفظ بموجوده،  
ويسلم لنواب  
مولانا السلطان. ويكون هذا الحكم لما ينكسر في بلاد مولانا السلطان من  
مراكب  
انططوس.

وعلى أن لا تجدد في بلاد انططوس،  
المعينة في هذه الهدنة، قلعة ولا برج ولا حصن، ولا ما يتحصن به من حفر  
خندق، ولا  
غير ذلك.

## الاتفاق

مع عكا

(ابن عبد الزاهر، r 69)

(85 v -

وفي هذه السنة (682/1283) أجاب مولانا السلطان مسألة أهل عكا، عندما  
تكررت رسالتهم إلى خدمته في الشام ومصر  
بسبب الصلح، ومنعهم من الحضور في البر، وأنهم لا يحضرون إلا في البحر إن  
أرادوا  
الحضور، فحضروا في البحر وأخر الأمر أنهم نزلوا على حكمه، بعد أن كانوا  
اشتبوا عند

[436]  
انقضاء الهدنة الظاهرية .

(وفي صفر من هذا العام (آيار/مايو

1283) وصل رسول الإفرنجية

وأعيان عكا ووقعوا على الهدنة) وحلف مولانا السلطان عليها بحضور رسول  
الفرنجية، وهم

نفران من بيت الديوية أخوة، ونفران من بيت الأسبtar أخوة، ومن المملوكيه  
فارسان

هيام، والي الولاة والوزير فهد. وهي (نص الهدنة):

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان

الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين الدنيا والدين علي،  
خلد الله

سلطانهما، وبين الحكام بمملكة عكا وصیدا وعثليث وبلادها التي انعقدت عليها  
الهدنة،

وهم السنجال أود، كفيل المملكة بعكا<sup>[437]</sup> ،

والمقدم افريير كلير ديباجول، مقدم بيت الديوية، والمقدم افريير نيكول  
للورني،

مقدم بيت أسبtar الأّمن (الأرمن)، لمدة عشر سنين كواحد وعشرة شهور  
وعشرة أيام

وعشرة ساعات. أولها يوم الخميس الخامس شهر ربيع الأولى سنة اثنين  
وثمانين وستمائة

للهجرة النبوية، الموافق للثالث من حزيران/يونية

سنة ألف وخمسمائة أربعة وتسعين للاسكندر بن فيليبيس اليوناني (3 حزيران/  
يونية

1283). على جميع بلاد مولانا

السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين والدين،  
على جميع

القلاع والحسون والبلاد والممالك والأعمال والمدن والقرى والمزارع  
[438]  
والأراضي، وهي مملكة

الديار المصرية وما بها من التغور والقلاع والحسون الإسلامية، وثغر دمياط  
وثر

الإسكندرية ونسّتروه وسنترية، وما ينسب إلى ذلك من المواني والسواحل  
والبروز،

وثر فُوه وثغر الرشيد والبلاد الحجازية، وثغر غزة المحروس، وما معها من  
المواني

والبلاد والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها، والصلت وأعمالها، وبصري  
وأعمالها،

ومملكة الخليل، صلوات الله وسلامه عليه، ومملكة القدس الشريف وأعمالها،  
والأردن

وبيت لحم وأعماله وبلادها وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت  
جبريل، ومملكة

نابلس وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانيها  
وسواحلها،

ومملكة يافا والرملة وميناها وأعمالها، وأرسوف وأعمالها وميناها، وقيسارية  
وميناها سواحلها وأعمالها، وقلعة قاقيون وأعمالها وبلادها، ولد وأعمالها،  
وأعمال

العوجا وما معها من الملاحة (المملحة)، وبلاط الفتوح العيد وأعمالها ومزارعها  
وبيان وأعمالها ومزارعها، والطور وأعماله، واللّجّون وأعماله، وجنيين وأعمالها،  
وعين

جالوت وأعمالها، والقيمون وأعماله وما يتنسب إليه، وطبرية وبغيرتها  
وأعمالها وما

معها، والمملكة الصفدية وما يتنسب إليها، وتبنين وهونين وما معها من البلاد  
والأعمال، والشقيف، المعروف بشقيف أرنون، وما معه من البلاد والأعمال  
وما هو منسوب

إليه، وبلاط القرن وما معه، خارجاً عما عين في هذه الهدنة، ونصف مدينة  
اسكندرونة

ونصف ضيعة مارون بقراها وكرومها وبساتينهما وحقولهما، وما عدا ذلك يكون  
جميعه

بحدوده وبلاطه لمولانا السلطان ولولده، والنصف لمملكة عكا، والبقاع  
[439]  
العزيزي وأعماله،

ولشقا وأعمالها، وشقيف قيرون وأعماله، وقلعة الصبية وما معها من  
البحيرات

وأعمالها، وكوكب وأعمالها وما معها. وقلعة عجلون وأعمالها، ودمشق  
والمملكة

الدمشيقية ومالها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال، وقلعة بعلبك وما معها  
وأعمالها، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود، ومملكة حماة ومدينتها  
وقلعتها

وبلاطها وحدودها، وبلاطنس وأعمالها، وصهيون وأعمالها، وبئرية وأعمالها،  
وفتوحات حصن الأكراد وأعماله، وصافيتا وأعمالها، ومياعاز وأعمالها، والغرّيمة  
وأعمالها، مرقية وأعمالها، وحلب وأعمالها، وحصن عكا وأعماله وبلاطه،  
والقلعية

وأعمالها، وقلعة شيزر وأعمالها، وأفامية وأعمالها، وجبلة وأعمالها، وأبو قبيس

وأعماله، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد، والحسون،

[440] وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوحات المباركة ،

وبغراش وأعمالها، والدرساك وأعماله، والراوندان وأعمالها، وحaram وأعمالها،

وعينتاب وأعمالها، وتيزين وأعمالها. وسنج الحديد وأعماله، وقلعة نجم وأعمالها،

وشقيف دير كوش وأعمالها، والشغر وأعماله، وبيكاس وأعماله، والسويدا وأعمالها،

والباب وبزاعا وأعمالهما، والبيرة وأعمالها، والبيرة وأعمالها، والرحبة وأعمالها، وسلمية وأعمالها، وشميمس وأعمالها، وتدمر وأعمالها، وما هو منسوب إلى

جميع ذلك ما عين وما لم يعين.

(الأمان مكفول في كل هذه البلاد) من الحكم بمملكة عكا، وهم: كفيل المملكة والمقدم افريير كليام دي باجول مقدم بيت

الديوية، والمقدم افريير نيكول للؤّزن مقدم بيت الأسبتار، والmarshal افريير كورّات

نائب مقدم بيت أسبتار الأمّن، ومن جميع الفرنج الأخوة والفرسان الداخلين في

طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية، ومن جميع الفرنج على اختلافهم الذين يستوطنون عكا

والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة، من كل واصل إليها في بر وبحر على اختلاف

أجناسهم وأنفارهم. لا ينال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور، وبلاط ولده السلطان

الملك الصالح - ولا حصونها ولا قلاعهما ولا بلادهما ولا ضياعهما ولا عساكرهما  
ولا

عربهما ولا تركمانهما ولا رعاياهما على اختلاف الأجناس، ولا ما تحويه أيديهم  
من المواشي

والأموال والغلال وسائر الأشياء - ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية،  
وكذلك كلما يستفتحه مولانا الملك السلطان المنصور وولده السلطان الملك  
الصالح، على

يدهما ولا عساكرهما وثوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات، برأً  
وبحراً،  
سهلاً وجبراً.

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي  
استقرت الآن عليها الهدنة من البلاد الساحلية، وهي مدينة عكا وبساتينها  
وأراضيها  
وطواحينها وما تحصن بها من كرومها، وما لها من حقوق حولها، وما تقرر من  
بلاد في

هذه الهدنة، وعدتها بما فيها من مزارع، ثلاثة وسبعون ناحية، خاصاً للفرنج.  
وكذلك حيفا

والكروم والبساتين، والعدة بحيفا سبع نواحي، وكذلك مارينا بأرضها، المعروفة  
بها،

تكون للفرنج، وكذلك دير السياج (؟) أو دير مار إلياس يكون للفرنج ويكون  
لمولانا

السلطان من بلاد الكرمل خاصاً عكا والمنصورة، وهي ثلث عشرة ناحية،  
للفرنج وعثليث،

القلعة والمدينة والبساتين التي قطعت، والكروم وفلاحتها وأراضيها، تكون لها،  
ويكون

لها من البلاد ستة عشر ناحية. وتكون خاصة لمولانا السلطان ما يذكر، وهو  
قرية

الهرأّميس بكمالها وحقوقها ومزارعها، وبقية بلاد عثليث تكون مناصفة، خارجا  
عما

للخاص الشريف، وعما لخاص عثليث تكون مناصفة، وهي ثمان نواحي.  
وفلاحة الأسيتار بعمل

قيساريه يكون خاصة للفرنج بما فيها. ونصف مدينة اسكندرونة ونصف قرية  
مارون بما

فيها للفرنج، وما عدا ذلك يكون لمولانا السلطان. ومهمما كان في اسكندرونة  
وقرية

مارون من الحقوق والغلة، يكون مناصفة. وصيدا، القلعة والمدينة وضواحيها  
وجميع ما

ينتسب إليها، يكون خاصة للفرنج، ويكون لها من البلاد خاصة خمس عشرة  
ناحية، وما في

الوطأة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين وقنوات ومباه جارية وسكور  
(سدود)، لهم

بها عادة قديمة تسقي أراضيهم، يكون خاصة لها. وما عدا ذلك من البلاد الجبلية  
جميعها، تكون لمولانا السلطان ولولده بكمالها. وتكون هذه البلاد العكاوية، وما  
عين

في الهدنة، أمنة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه، ما هو  
خاص وما هو

مناصفة أمنة مطمئنة، ومن بها.

وليس للفرنج أن يجددوا في غير عكا

وعثليث وصيدا، مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاثة، سورا ولا  
قلعة ولا

برجا ولا حصنا قديما ولا مستجدا.

وعلى أن شوانى مولانا السلطان

وشوانى ولده، متى عمرت وخرجت، لا تتعرض لأذية البلاد الساحلية التي  
انعقدت الهدنة

عليها، وإذا قصدت الشوانى المذكورة جهة غير هذه الجهات، وكان صاحب تلك  
الجهة

معاهدا للحكام بمملكة عكا، ولا تدخل إلى البلاد التي انعقدت الهدنة عليها، ولا

تنزود منها، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشوانى، معاهدا  
للحكم بمملكة

عكا، فلما أن تدخل إلى بلادها وتنزود منها: وإن انكسر شيء من هذه الشوانى

والعياذ بالله - في مينا من الموانى التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها، فإن  
كانت

قادمة إلى من له مع مملكة عكا عهدا أو مع مقدمها، فيلزم كفيل المملكة  
بعكا ومقدمي

البيوت حفظها، ويمكن رجالها من الزوادة وانصلاح ما انكسر والعود إلى البلاد

الإسلامية، ويبطل حركة ما انكسر منها أو ترميه في البحر. فإن لم يكن للذى  
تفصده

الشوانى معهم عهد وانكسرت، فلها أن تنزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة  
عليها

الهدنة، وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها، ويعهد هذا الفصل بين الجهاتين.

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك

البحر الفرنجية، وغيرهم من جوّا البحر، لقصد الحضور لحضره مولانا  
السلطان، أو حضره

ولده، في بلادهما المنعقدة عليها الهدنة، فليلتزم نايب المملكة والمقدمون  
بعكا،

تعريف مولانا السلطان بحركتهم، قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين، وإن  
وصلوا بعد

انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون **مُرَّأً** (برئتين) من  
عهدة

اليمين في هذا الفصل.

وإن تحرك عدد من جهته التtar

وغيرهم، فأي من سبق إليه من الجهتين، فيعرف الجهة الأخرى. وعلى أنه إن  
قصد **البلاد**

**الشامية - العياذ بالله -** عدد من التtar وغيرهم في البر، انحازت العساكر  
قدامهم

ووصل العدد إلى القرب من **البلاد الساحلية الداخلية** في هذه الهدنة، وقصدوها  
بمضّرة،

فلকفيل المملكة بعكا والمقدمون بها أن يداروا عن نفوسهم ورعايتهم وبلادهم  
بما تصل

قدرتهم إليه. فإن حصل جفل - والعياذ بالله - من **البلاد الإسلامية إلى البلاد**

**الساحلية الداخلية** في هذه الهدنة، فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمون  
حفظهم والدفع

عنهم ومنع من تقادهم بضرر، يكونون آمنين مطمئنين بما معهم. وعلى نايب  
**المملكة**

**بعكا، والمقدمون** يوصون في سائر **البلاد الساحلية** التي وقعت الهدنة عليها،  
أنهم لا

يمكنون حراميّة البحر من الزوادة من عندهم، ولا من حمل ماء، وإن ظفر بأحد  
منهم

يمسكونه، وإن باعوا عندهم بضائع يمسكونها، حتى يحضر صاحبها وتسليم إليه،  
وكذلك يعتمد

مولانا السلطان في أمر الحرامية هذا الاعتماد.

وعلى أن تكون كنيسة الناصرة، وأربع

بيوت من أقرب البيوت، لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم  
وصغيرهم، على

اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة.  
ويصلى

بالكنيسة الأقسى والرهبان، وتكون البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصة،  
ويكونون

آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه  
الهدنة. وإذا

ُثقلت الحجارة التي بالكنيسة، ترمي برأً، ولا يحط منها حجر على حجر لأجل  
بناء. ولا

يتعرض إلى الأقسى والرهبان في ذلك على وجه الهبة بغير حق .<sup>[441]</sup>

وتضمنت الهدنة تقرير الشروط الجاري

بها العادة. ولما حلف مولانا السلطان على هذه الهدنة، توجه الأمير فخر الدين  
أياز

أمير حاجب، والقاضي بدر الدين بن رَّزِين، لتحليف الفرنج، فحلفو واستقر  
ذلك.

صيغة

قسم السلطان في هذه الهدنة

(ابن الفرات 7، v 181 r - 182) والله والله والله وبالله

وبالله، وتالله وتالله، والله العظيم الطالب الغالب الضار النافع الملاك

المهلك، عالم ما بدا وما خفا، عالم السر والعلانية الرحمن الرحيم. وحق  
القرآن ومن

أنزله ومن انزل عليه، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وما يقال  
فيه

من سورة سوره وأية أيه، وحق شهر رمضان انتي أفي بحفظ هذه الهدنة  
المباركة، التي

استقرت بيني وبين ملك عكا والمقدمين بها على عكا وعسليت وصيدا وبلادها،  
التي

تضمنتها هذه الهدنة، التي مدتتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام  
وعشرة ساعات،

أولها يوم الخميس الخامس شهر ربيع الأول، سنة اثنين وثمانين وستمائة  
للهجرة، من

أولها إلى آخرها، وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المسرودة فيها، وأجري  
الأمور على

أحكامها إلى انقضاء مدتھا، ولا أتأول فيها ولا في شيء منها، ولا استقني فيها  
طلبا

لنقضها [442] ما

دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعسليت، وهم كافل المملكة بعكا ومقدم  
بيت الديویة

ومقدم بيت الأسبدار ونائب بيت اسبدار الأرمي، الآن ومن يتولى بعدهم في  
كفالة مملكة

أو يقدم بيت بهذه المملكة المذكورة، وافقن باليمين التي يحلفون بها لي  
ولولدي

الملك الصالح ولأولاده على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن، عاملين بها وبشروطها

المشروحة فيها، إلى انقضاء مدتھا، ملتزمين بأحكامها. وإن نكثت في هذا اليمين

فليلزمني الحج إلى بيت الله الحرام، بمكة المشرفة، حافياً حاسراً ثلاثة حجة،  
ويلزمني صوم الدهر كله إلا الأيام المنهي عنها (ويذكر بقية شروط اليمين)،  
والله  
على ما نقول وكيل.

### صيغة

### قسم الإفرنج

(ابن الفرات 7، R 182 - 183 R) والله والله والله، وبالله وبالله

وبالله، وتالله وتالله، وحق المسيح وحق المسيح وحق  
الصلب وحق

الصلب وحق الصليب وحق الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد المكتنى بها عن  
الأب والابن

والروح القدس إله واحد، وحق اللاهوت <sup>[443]</sup> المكرم

الحال في الناسوت المعظم، وحق الإنجيل المطهر وما فيه، وحق الأنجليل  
الأربعة التي

نقلها متى ومرقس ولوقا ويحنا، وحق صلواتهم وتقديساتهم، وحق التلاميذ  
الإثنى عشر

والاثنين وسبعين والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة، وحق الصوت  
الذي نزل من

السماء على نهر الأردن فزجره، وحق الله منزل الإنجيل على عيسى بن  
مريم، روح

الله وكلمته، وحق الست ماريا أم النور مارت مريم وبوحنا المعمودين  
ومرتمان

ومرتمانى، وحق الصوم الكبير، وحق ديني ومعبودي وما تلقيته من النصرانية،  
وما

تلقيته من الآباء والأقساّس المعمودية. أنتي ومن وقتني هذا وساعتي هذه أنتي  
قد

أخلصت بيتنى وأصفيت طويتى في الوفا للسلطان المنصور ولولده الملك  
الصالح

ولأولادهما، بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة، التي انعقد الصلح عليها  
على

مملكة عكا وصیدا وعسليث وبلادها الداخلة في هذه الهدنة المسماة فيها التي  
مدتها

عشرة سنين كواحد وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات أولها يوم  
الخميس ثالث حزيران

سنة ألف وخمسمائة أربعة وتسعين للاسكندر بن فيلبس اليوناني. والعمل  
بجميع

شروطها، شرطا شرطا، والتزم الوفا بكل فصل في هذه الهدنة المذكورة إلى  
انقضاء

مدتها. وإنى والله والله وحق المسيح وحق الصليب وحق ديني، لا أ تعرض بلاد  
السلطان

ولولده ولا إلى من حوتة وتحويه من ساير الناس أجمعين، ولا إلى من يتrepid  
منها إلى

البلاد الداخلة في هذه الهدنة، بأذية ولا ضرر، في نفس ولا في مال. وإنى والله  
وحق

دينى ومعبودي، أسلك في المعاهدة والمهادنة والمصافحة والمصادقة وحفظ  
الرعية

الاسلامية، والمترددين من البلاد السلطانية والصيادين منها وإليها، طريق  
المعاهدين

المتصادقين الملزمين كف الأذية والعدوان، من النفوس والأموال. وألتزم  
الوفا بجميع

شروط هذه الهدنة. على انقضائها، ما دام الملك المنصور وافيا باليمين التي  
حلف بها

على الهدنة، ولا أنقض هذه اليمين ولا شيئاً منها ولا شيئاً فيها ولا شيء منها  
طلبا لنقضها. ومتى خالفتها أو نقضتها أكون بريء من ديني واعتقادي  
ومعبددي، وأكون

مخالفا للكنيسة، ويكون علي الحج إلى القدس الشريف ثلاثين حجة حافيا  
حاسرا، ويكون

علي فك ألف أسير مسلمين من أسرى الفرنج وإطلاقهم، وأكون من() من  
الأهوت (اللاهوت) الحال في الناسوت، واليمين يميني، وأنا فلان والنية فيها  
بأسرها (مثل) نية السلطان

الملك المنصور وولده الملك الصالح، ونية مستحلبي لهما على الإنجيل  
المكرم.

لأنّي لي غيرها، والله وال المسيح  
على ما نقول وكيل.

## فتاح

حصن المرقب

(تشريف r - 149 r - 160) وهو حصن عظيم منيع، ما زال مولانا

السلطان الملك المنصور، نصره الله، يدأب في أمره ويتحيل في تحصيله للإسلام،

ويستنفذ الرأي والتدبير في افتتاحه وإحباب جماده، لأنه كان قد أعجز الملوك، ولم

يقدر أحد منهم على التقرب منه، فكيف النزول عليه. واجتهد الملك الظاهر (بيبرس) في

الإغارة عليه مرارا، فما قدر الله ذلك ولا سهل له، ولا حاج على قسمته ولا عجله.

وتوجه إليه مرة من حماه: مصادفته ثلوج وبرد وأمطار، وحجبته عنه، وحجزته المصايف

والأوعار. ومرة من غير حماه، ولم يحصل له منه قصد بالحملة الكافية، وخباء الله

لمولانا السلطان، ليكون من فتوحاته المنيرة ولتطرز به أحسن سيرة. وكان بيت

الأسبار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم، وكثير فسادهم، حتى بقيت أهل القلاع

المجاورة لهم كأنهم في حبس، بل في رمس وكان الفرنج يعتقدون أنه لا يدرك بحول ولا

حيلة، وأن الحيلة فيه قليلة واستمروا على هذا الطغيان، ولم يقفوا عند الإيمان،

وعملوا في نوبة القليعات <sup>[444]</sup> كل

فتح من الغدر والأسر والنهب، ومولانا السلطان المنصور رابض بهم كالأسد الهصور، وهو

يهتم بأمر هذا الحصن من غير إظهار، وكلما أوقدوا ناراً لحرب أمده من الهدية

الربانية الأنوار، وجهر المناجيق من دمشق، ولا يعلم أحد إلى أين تسير، ولا إلى أين

المصير، والرجال من البلاد مجهزة بأزوادهم ومقدميهم وعدهم، وهي كثيرة لا تحصى

[445] كثرة، ومن الناس من يقول أن العزم إلى قلعة الروم ،

ومنهم من يقول إلى غير ذلك. وكان قد جهز مولانا السلطان زرداخانة عظيمة من مصر،

بها أحمال كثيرة من النشاب وغيره، وكذلك فرق على الأمراء والجناد نشاب يحملونه

معهم، ليحضرونه إذا طلب منهم. وجهزت آلات من الحديد والنفط مما لا يوجد إلا في

ذخایره وخزاین سلاحه. كل ذلك سبق تجهیزه قبل سفره. وتوجهه، واستخدمت جماعة كبيرة

من الصناع الذين لهم خبرة بالحصارات ودریه بالمنازل، وجهزت المجانيق التي في

القلاع المجاورة، وجّرت رجالها من غير رهج ولا إظهار شيء. وحملت المناجيق والآلات

على الأعناق والرؤوس، ورحل مولانا السلطان من على منزلة عيون القصب مُجّداً. فنازل

حصن المرقب، في يوم الأربعاء العاشر من شهر صفر (684/17 نيسان/أبريل). (1285)

وللوقت حملت المجانيق على الأكتاف

في تلك الأكناف، وكان البلاء بهذا الحصن من كل مكان، ونفذوا في حصاره بأعظم سلطان،

ونصبت المجانيد الفرنجية والقرايغا، ومن جملة ذلك مجانيد فرنجية كباراً ثلاثة،

ومجانيد قرايغا ثلاثة، ومجانيد شيطانية أربعة، بحيث أنها طافت بها من كل مكان،

واستمرت ترمي من الحجارة بما يتطاير شرره ويتتنوع ضرره، وأخذت النقوب من كل جانب.

واتفق أن المجانيد الفرنجية كسرت مجانيد الفرنج، وتقدمت الإسلامية إلى قرب القلعة،

فأصلاح الفرنج مجانيدهم، ورموا المجانيد الإسلامية، فكسرت بعضها، وقتل تحتها جماعة

من المسلمين. ولا خلاف في أن الحرب سجال، وما في كل موطن تسلم في الحرب الرجال.

وانتهى النقب السلطاني وخشي بالأحطاب، وأُوقد في يوم الأربعاء سايع عشر شهر ربيع

الأول (25 أيار/مايو):

فعملت النيران في وسط النقب في البرج الذي في قرنة الباشورة، وزحف المسلمون

ليطلعوا البашورة، واشتد القتال، وقصد المسلمون الصعود بما تمكنا، فبطل الزحف

وانفصل هذا النهار، وسقط البرج، وتوهم الناس عسر التوصل إلى الحصن. وبات الناس في

قلق عظيم لأجل ذلك، لأن الحيلة من المجانيد بطلت بسبب ما عرض، والثقوب انتهى الحال

فيها، وما بقي تدبير إلا من الله عز وجل. فلما كان يوم الجمعة، أنزل الله تعالى

لطفه وأجمل عطفه، وأنجد بملائكته المقربين وجنوده أجمعين، فنزلت لنصرة  
الإسلام

مسرعين: وخَيْلُ اللَّهِ لِلْفَرْنَجِ أَنَّ النَّقُوبَ فِي بَقِيَّةِ الْأَسْوَارِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ،  
وَأَنَّ النَّقُوبَ

تخرج إِلَى الْخَنَادِقِ، وَمِنْهَا إِلَى الْأَبْرَاجِ، وَتَعْلُقُ حِينَئِذٍ فِي الْأَسْوَارِ. وَكَانَتْ  
النَّقُوبُ قَدْ

أَخْذَتْ مِنْ تَحْتِ الْخَنَادِقِ فِي أَسْرِيَةٍ إِلَى تَحْتِ الْأَبْرَاجِ، وَالْفَرْنَجُ لَا يَشْعُرُونَ  
بِذَلِكَ، فَأَطْلَعُوا

عَلَى ذَلِكَ، فَسَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَحَلَّ الْخَذْلَانُ فِي نَادِيهِمْ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ قُتِلُوا  
بِغَيْرِ شُكٍّ، وَأَنَّ

أَسْيَرُهُمْ لَا يَفْكُرُونَ، وَطَلَبُوا الْحَدِيثَ فِي الْأَمَانِ، وَالْمُعَادِلَةُ بِالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ، وَبَعْدَ  
أَنْ

كَانُوا يَؤْثِرُونَ الْمَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ، صَارُوا يَؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ عَلَى الْمَوْتِ، وَتَحَقَّقُوا  
أَنَّهُمْ إِنْ

غَفَلُوا عَنْ أَنفُسِهِمْ، فَإِنْ فِيهِمْ الْفَوْتُ. فَطَلَبُوا رَحْمَةَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ وَعَفْوَهُ،  
فَاقْتَضَى

الْحَالُ أَنْ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ رَأَى إِخْتِيَارَ الْغَنِيمَةِ بِهَذَا الْحَصْنِ الْعَظِيمِ أَوْلَى مِنْ  
الْتَّطْوِيلِ فِي

حَصَارِهِ، وَأَنَّ التَّأْخِيرَ لِهِ آفَاتٌ، وَالْأَوْلَى الْإِهْتِمَامُ بِمَا هُوَ آتٍ، وَأَنَّ الْفَرْنَجَ الَّذِينَ  
بِهِذَا

الْحَصْنَ، إِنْ سَلَمُوا مِنْ نَارِ السِّيُوفِ، لَا يَسْلِمُوا مِنْ نَارِ الْحَتُوفِ. فَأَجَابُوهُمْ إِلَى  
الْعَفْوِ

وَالْأَمَانِ، وَوَثَقُوا بِأَنَّ قَوْلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْإِيمَانِ. فَسَيِّرُوا  
أَكَابِرَهُمْ إِلَى

الْدَّهْلِيزِ الْمُنْصُورِ، وَلَمْ يَسْأَلُوا غَيْرَ الْأَمَانِ عَلَى النُّفُوسِ لَا غَيْرَ، وَأَنَّ لَا يَخْرُجُ  
مِنْهُمْ لَا

مال ولا سلاح متعلق بالحصن خاصة، ومن لم له مال يتعلّق بنفسه ينعم عليه  
به وشفع

الأمراء فيهم، وفُيّلوا الأرض بين يدي مولانا السلطان، ورغبوا في إجابة  
سؤالهم،

فأطلق لهم مركوب أكابرهم من الخيل والبغال خمسة وعشرون رأساً  
ومليوساً، وما عينوه

من مال لبعضهم، وهو ألفان دينارا صوريّة، وكتبت لهم أمانات، وصعدوا ومعهم  
الأمير

فخر الدين المقرى الحاجب، فحلّف الجسطلتين وبقية الفرسان. وسلموا  
الحصن جميعه في

ثامن ساعة من نهار الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الأول (25 أيار/مايو).

وتصدّع الصنّيق الشريفي السلطاني المنصوري المنصور. وارتقت السنة  
العالم بالأدعية

لمولانا السلطان الذي أرتهم أيامه هذا الفتح الذي طالما تقاصرت عنه الهمم.  
وشابت

دون الإلمام به اللهم.

وطلع المسلمون وأعلنوا أعلاه بالأذان

والتسبيح والشكر لله على إهلاك عبدة المسيح وإخلاء ديارهم منهم، وأنهم لم  
تغرن

نيتهم شيئاً عنهم، وكتبت البشائر إلى جميع الأقطار، وسيّرت به البريدية إلى  
كل

جهة. وطلع مولانا السلطان إلى الحصن، يوم السبت، واجتمع الأمراء الأكابر  
في خدمته،

وضرب مشورة بين يديه في هدم القلعة أو إبقاءها، فمنهم من أشار بهذا،  
ومنهم من أشار

بهذا، ومنهم من أشار بهذا. ورأى مولانا السلطان يتقد نوره نفاذًا، فرأى إبقاءها

لحسانتها ومنعها، وتحسينها وتزيينها. وصمم على إبقاءها حسرة في قلوب الكفار،

وعضدًا للحصون التي لها عليها حق الجوار، ورتب بها ألف راجل أتجيّة (؟) وجريحة

ومقاتلة، وأربع مائة من أرباب الصناع، ورتب بها جماعة من الأمراء أصحاب الطبال

خانات، وجماعة من البحريّة الصالحية والمنصورية ، [446]

مائة نفر وخمسون نفرًا. ونقل المنجنيقات التي كانت ترمي عليها، فصارت ترمي منها،

وكذلك الآلات والأحشاب والأحطاب والنشاب والزرداخانات والنفط، ومن كل شيء كان في

الصحبة الشريفة من أصناف الحصن وألاته. ورتب لها خاصًّا من بلاد كفر طاب ومدينة

انطاكيّة ومدينة اللاذقية والمينا وبلاط المرقب التي كانت خاصًا لها وما كان مقطعا

قبل الفتح، وجملة ما يتحصن منه عند عمارته الف الف درهم. ورتب كلف

[447] عمارته ونفقات

رجالته على البلد إلى أن تتعمر وتتراجع أهلها، ولما تمت هذه الأمور رحل فنزل

بالوطأة على مدينة بلنياس.

فتح

مرقّية

ولما فرغ مولانا السلطان، نصره

الله، من مهمات المرقب، ونزل بالوطأة، على ما ذكرناه، وشرع في أمر  
حصن مرقية،

وأعمل الرأي في افتتاحه، وتحقق أنه بين أحشاء تلك الحصون داء دخيل، وأنه  
لا يحصل

راحة ولا أمن بوجوده وبقائه. وصاحب يعرف ببرتلما (بارتولوميو)، أحد أكابر  
الفرن.

وكان لم (لما) فتح حصن الأكراد، لم يطق الإقامة بهذه البلاد وضاقت به، فهجّ  
على

رأسه، ودخل إلى التinar مستجيراً ومستميراً ومستنصرأً ومستكبراً، وأقام  
سنين على

هذه الحالات. ولما مات الملك الظاهر، رحمه الله، عاد إلى هذه البلاد واغتنم  
الفرصة

وطلب عمارة مرقية، فعجزت قدرته وخاف أن تؤخذ منه، فعمر حصنًا قبالتها،  
وحصنه وحسنه،

وأعانه الإبرنس (الأمير) صاحب طرابلس، عليه. وأمدده وأعانه آخرون من  
الفرن

الإسبانيّة، أهل المرقب، وغيرهم. وهذا البرج (هو) بين انطرطرس وبين  
المرقب، في

البحر المالح، قبالة مدينة مرقيه، وبينه وبين البحر رميتان للسهم السريع  
وأكثر.

وصفتُه: أنه برجٌ مربع، عرضه قريب من طوله، كل جانب منه خمسة  
وعشرون ذراعاً ونصف

(بالعقل) وعرض سوره سبعة أذرع. وهو سبع طباق، وبني على مراكب،  
غرّقت في وسط

البحر، فيها أحمال كثيرة من الحجارة، تحت كل قطر مفّرق تسع مایة مركب  
(؟!) فيها

حجارة، وبين كل حجرين، في أسوارها، قضيبين من الحديد متصلين وعليهما  
شبك الرصاص،

وداخله صهريج عظيم، وفوق الصهريج قبو، وفوق القبو أخشاب. وفوق  
الأخشاب حصى صغار،

وفوق الحصى خيش، وفوق الخيش حبال قنب مشدودة، حتى إذا نصب  
المنجنيق من البر ورمي

به لا يبالى مما يرمى فيه، ويقع الحجر من أعلىه في الماء. وفيه مایة مقاتل.  
وخلف

هذا البرج برج متصل به، وفيه ثلاثة مجانيق منصوبة. لا يؤخذ هذا الحصن  
بحصار ولا

بضايقه. وكان النواب (المسلمون) بحصن الأكراد وتلك الجهات، لما بني هذا  
الحصن

وعجزوا عن منعهم من عمارته، لأن الأصناف والآلات إنما تحضر في البحر،  
أجلهم الحال

إلى عمارة برج بالقرب منه، بقرية، تسمى ميعار. وجرد خمسون راجلاً بالبدل،  
فما أفاد

ذلك ولا أغني غناء.

ولما شاهد مولانا السلطان هذا

الحصن، على هذه الصورة من الحصانة والمنع، وأن البرج المبني قبلته ضرّ  
بانيه

وما نفعه، وأن حصاره لا يمكن لكونه في البحر، وما لل المسلمين مراكب تقطع عنه الميرة،

ولا تمنع الداخل إليه ولا الخارج منه، وأن أمره يطول ومسئلته تعول، وأن الأمر الذي

منه بدأ إليه يعود، وأن افتتاحه بجنود التدبير لا بالجنود. فسيّر إلى صاحب طرابلس،

فقال له أن العساكر قد تفرّغت وما بقي لها إلا أنت، وهذا البرج أنت عمرته في الحقيقة،

ولولا اعانتك لما بُني، وأنت المؤاخذ به، فإذاً ما يهدم إلا أخذنا قبالتة من بلادك

مَا لَيْفَعُكَ فِي الدُّفَعِ عَنْهُ صَاحِبُ مَرْقِيَّةٍ، وَتَنَدِّمُ حِيثُ لَا يَنْفَعُكَ النَّدَمُ، وَيَكْشِفُ  
الغطاء

وَيُسْتَرِدُ الْعَطَاءَ. فَلَمَّا عَلِمَ الْابْرَنِسُ هَذَا التَّصْمِيمَ الْعَظِيمَ ، [448]

وتحقق ما يتربّ على هذا القول من إخراّب بلاده وحصونه وتلاف أحواله، وأن ملك

البساطة وجيوشه العظيمة على أبواب مدینته، وانه بربوعه قد خَيْمَ، وأن القصد له أو

هدم هذا الحصن قد تحدّم، توصل في تسليمه وهدمه، وأرضى صاحبه بما وصلت قدرته إليه

بجملة من المال وتمليك ضياع بعد صعوبة من صاحب مرقية. وكان ولد صاحب مرقية قد

حضر متخفياً إلى أبواب مولانا السلطان، وتدرك تحصيله هذا الحصن وتسليمه لمولانا

السلطان، وتوجه إلى عكا مختفيًا على البريد، فأمسكه أهل عكا، واتصل خبره بأبيه

حضر من طرابلس إلى عكا وتسلمه وقتلها بيده في وسط عكا، وبطل ذلك السعي، وبعد ذلك

وافق على تسليمه بوساطة البرنس وأذعن وأجاب إلى تسليمه للمسلمين.  
وسير البرنس

جماعة من الفرنج للمساعدة في هدمه، فكانوا - كما قال الله تعالى - [يخربون  
بيوتهم

[449] .  
بأيديهم وأيدي المؤمنين]

وسير صاحب طرابلس شخصاً من أعيان أصحابه، للحضور على هدمه، مقدماً  
للحاجة

المسيرين من الفرنج لذلك، ومزيلًا للاعتذار في استدعاء آلات الهدم من حديد  
وغيره.

[450] وجّرد الأمير بدر الدين بكتاس النجمي، أمير جاندار، وصحبه ماية حجار ،  
لهدمه. وكان الأمير الأسفهسلا ركن الدين طقضمون المنصوري، وصحبه جملة  
من العساكر،

المجردين قبالة جبلة. فرسم مولانا السلطان له ولهم بالحضور إلى قبالة  
البرج،

للمساعدة والمعاضدة على هدمه، فهدم حجراً فحجراً، وما أبقى الاجتهد له  
عيناً ولا

أثراً، وذلك بعد تعب عالت المعاول من شدته، وقصت الحجارة من حدّه،  
وتضرجت القوى

من مدته، ولطف الله في إزالة آثارها وادلة قرارها، وكفى الله المؤمنين  
شره، وكف

ثره، وأبطل مكره، وبقي مكانه في قلوب الكفار حسرة.

## سقوط

طرابلس

(أبو الفداء، 162)

إن السلطان الملك المنصور

قلاوون خرج بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة (688/شباط / فبراير 1289) وسار إلى الشام، ثم سار بالعساcker المصرية والشامية، ونازل مدينة طرابلس الشام يوم

الجمعة مستهل ربيع الأول (25 آذار/مارس).

ويحيط البحر بغالب هذه المدينة، وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق، وهو

مقدار قليل. ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كبيرة من المجانق الكبار والصغراء

ولازمها بالحصار واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة (27 نيسان/أبريل)

بالسيف، ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها إلى المينا، فنجا آفلهم في المركب، وقتل

غالب رجالها وسببيت ذراريهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة.

ولما فرغ المسلمون من قتل أهل

طرابلس ونهبهم، أمر السلطان، فهدمت ودكت إلى الأرض. وكان في البحر قريباً من

طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سسطمان (سان توماس) وبينها وبين طرابلس

المينا، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم

عظيم من الفرج والنساء، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى

الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا جميع من فيها من النساء

والصغار والمال، وهذه الجزيرة، بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها في مركب

فوجدتها ملأء من القتلى وقد جافت بحث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن

القتلى. ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها، عاد إلى الديار المصرية... فيكون

مدة لبثها (لبث طرابلس) مع الفرج نحو ماية سنة وخمس وثمانين سنة [451].  
وشهوراً .

(مقرزي، 746 - 487)

في يوم الخميسعاشر المحرم (4 شباط/فبراير

1289) خَيْمَ السُّلْطَانِ بَظَاهِرٍ

القاهرة، ورحل في خامس عشره. واستخلف ابنه الملك الأشرف خليلاً [452]  
بالقلعة ،

والأمير بي德拉 نائباً عنه وزيراً، وكتب عند الرحيل إلى سائر ممالك الشام  
بتجهيز

العساكر لقتال طرابلس. وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث عشر صفر،  
وخرج منها في

العشرين منه إلى طرابلس فنازلها، وقد قدم لنجدتها أهلها أربعة شوانٍ من جهة متملك

قبرص. فوالى (السلطان) الرمي بالمناجيق عليها والزحف والنقوب في الأسوار، حتى

افتتحها عنوة في الساعة السابعة من يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر<sup>[453]</sup> ،

بعد ما أقام عليها (1190) أربعة وثلاثين يوماً، ونصب عليها تسعه عشر منجينياً، وعمل فيها ألف وخمسمائة نفس

من الحجارين والزراقين. وفَرَّ أهلها إلى جزيرة تجاه طرابلس، فخاض الناس فرساناً

ورجالاً وأسررهم وقتلوهم وغنموا ما معهم، وظفر الغلمان والأوشاقية بكثير منهم

كانوا قد ركبوا البحر<sup>[454]</sup> فألقاهم

الريح بالساحل، وكثرت الأسرى حتى صار إلى زرْدَخاناه السلطان ألف ومائتا أسير.

واستشهد من المسلمين الأمير عز

الدين معن، والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني، وخمسة وخمسون من رجال الحلقة،

وأمر السلطان بمدينة طرابلس فهدمت، وكان عَرْضُ سورها يمر عليه ثلاثة فرسان

بالخيل، ولأهلها سعادات جليلة منها أربعة آلاف تَوْلٍ قِيَازة. وأقر (السلطان

بلدة) جبيل مع صاحبها على مال أخذه منه، وأخذَ بيروت<sup>[455]</sup> وجبلة

وما حولها من الحصون.

**وعاد (السلطان) إلى دمشق في نصف**

**جمادى الأولى، واستقرّ العسكر على عادته بحصن الأكراد مع نائبه الأمير  
سيف الدين**

**بلبان الطباخى. ونزل اليَزِك إلى طرابلس من حصن الأكراد وأضيف إلى  
الطباخى، واستقر**

**معه خمسمائة جندي وعشرة أمراء طبلخاناه، وخمسة عشر أمراء عشرات،  
وأقطعوا إقطاعات.**

**ثم عمر المسلمين مدينة بجوار النهر فصارت مدينة جليلة، وهي التي تُعرف  
اليوم**

**بطرابلس.**

في عام 1291 أكمل الأشرف بن قلاوون عمل أبيه الذي مات وهو يحضر الحملة على عكا وكذلك عمل كل أسلافه في حربهم على الغزاة المسيحيين. وقد روى أبو الفداء الوقائع الدموية التي تم بواسطتها استعادة عكا بعد مقاومة عارمة. وكان أبو الفداء قد شارك في تلك العملية في تبع السلطان وتتكامل روايته مع "داويٌّ صور" التي شكلت أهم مصدر غربي حول الأحداث التي أدت إلى نهاية السيادة المسيحية على الأرضي المقدسة. أما مذبحة الكفارة التي نفذت بحق المدافعين الإبطال بعد استسلامهم فجاءت أخبارها عن أبو المحاسن وهو مؤرخ مصرى متاخر وهي ترتبط بمذبحة مماثلة قام بها قبل قرن من الزمان ريتشارد قلب الأسد ضد أسرى مسلمين بعد أن حنت بوعوده لهم. وينطبق هذا القانون القديم ينسدل الستار على الفصل الأخير من مأساة الحروب الصليبية.

## سقوط عكا

(أبو الفداء، 162-163)

في هذه السنة في جمادى الآخرة (690/1291) فتحت عكا وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا صحبتهم المجانيق فتوجه [456]

الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماة صحبته إلى حصن الأكراد. وتسليمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري، حمل مائة عجلة ففرقـت في العسكر الحموي. وكان المسلم إلى منه عجلة [457]

واحدة، لأنـي كنت إذ ذاك أمـير عشرة . وكان مـسـيرـنا بالـعـجلـ فيـ أـواـخـرـ فـصـلـ الشـتـاءـ فـاتـقـقـ وـقـوـعـ الـأـمـطـارـ وـالـثـلـوجـ عـلـيـنـاـ بـيـنـ حـصـنـ الـأـكـرـادـ وـدـمـشـقـ فـقـاسـيـنـاـ مـنـ ذـلـكـ بـسـبـبـ جـرـ العـجـلـ وـضـعـفـ الـبـقـرـ وـمـوـتـهـ بـسـبـبـ الـبـرـدـ شـدـةـ عـظـيـمـةـ وـسـرـنـاـ بـسـبـبـ الـعـجـلـ مـنـ حـصـنـ الـأـكـرـادـ إـلـىـ عـكـاـ شـهـراًـ وـذـلـكـ مـسـيرـ نحو ثـمـانـيـةـ أـيـامـ لـلـخـيـلـ عـلـىـ الـعـادـةـ وـكـذـلـكـ أـمـرـ السـلـطـانـ الـمـلـكـ الـأـشـرـفـ بـجـرـ الـمـجـانـيـقـ الـكـبـارـ وـالـصـغـارـ مـاـ لـمـ يـجـتـمـعـ عـلـىـ غـيـرـهـاـ وـكـانـ نـزـولـ الـعـساـكـرـ الـإـسـلـامـيـةـ عـلـيـهـاـ فـيـ أـوـاـئـلـ جـمـادـىـ الـأـوـلـىـ مـنـ هـذـهـ السـنـةـ (أـوـاـئـلـ آـيـارـ/ـمـاـيـوـ 1291) وـاشـتـدـ عـلـيـهـاـ الـقـتـالـ وـلـمـ يـغلـقـ الـفـرـنـجـ غالـبـ أـبـوـابـهـ، بلـ كـانـ مـفـتـحـةـ وـهـمـ يـقـاتـلـونـ فـيـهـاـ وـكـانـ مـنـزـلـةـ الـحـمـوـيـنـ بـرـأـسـ الـمـيـمـنـةـ عـلـىـ عـادـتـهـمـ، فـكـنـاـ عـلـىـ جـانـبـ الـبـحـرـ وـالـبـحـرـ عـنـ يـمـيـنـاـ إـذـاـ وـاجـهـنـاـ عـكـاـ وـكـانـ يـحـضـرـ إـلـيـنـاـ مـرـاكـبـ مـقـبـيـةـ بـالـخـشـبـ الـمـلـبـسـ جـلـودـ الـجـوـامـيـسـ وـكـانـوـاـ يـرـمـونـنـاـ بـالـنـشـابـ وـالـجـرـوـخـ، وـكـانـ الـقـتـالـ مـنـ قـدـامـنـاـ مـنـ جـهـةـ الـمـدـيـنـةـ وـمـنـ جـهـةـ يـمـيـنـاـ مـنـ الـبـحـرـ. وـأـحـضـرـوـاـ بـطـسـةـ

فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمنا من جهة البحر. فكنا منه في شدة، حتى اتفق في بعض الليالي هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذي فيه بحيث أنه انحطم ولم ينصب بعد ذلك. وخرج الفرنج في أثناء مدة الحصار بالليل وكبسوا العسكر، وهزموا اليزكية، واتصلوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهم فارس في جرة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك. وتکاثرت عليهم العسكر فوق الفرنج منهزمين إلى البلد. وقتل عسكر حماة عدة منهم. فلما أصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب حماة عدة منرؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف. واشتدت مضايقة العسكر لعكا، حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة (17 حزيران/يونية 1291) بالسيف. ولما هجموا المسلمين هرب جماعة من أهلها في المراكب. وكان في داخل البلد عدة أبراج عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها. وقتل المسلمين وغنمو من عكا شيئاً يفوت الحصر من كثرته. ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبراج ولم يتأخر

[458]

منهم أحد، فأمر بهم فضريت أعناقهم عن آخرهم حول عكا . ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكاً.

ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سبع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسين وعشرين واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلواهم فقدر الله عز وجل في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سبع عشر جمادى الآخرة على

[459]

يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين .

لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخلوا صيدا وبيروت، وتسليمها الشجاعي في أواخر رجب (آخر آب/اغسطس). وكذلك هرب أهل مدينة صور فأرسل السلطان وتسليمها، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان (30 آب/اغسطس)، ثم تسلم أنططررس في الخامس شعبان. جميع ذلك في هذه السنة أعني سنة تسعين وستمائة.

واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتافق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب. وأمر بها فخربت عن آخرها. وتكلمت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية الإسلامية، وكان أمراً لا يطبع فيه ولا يرام. وتطهر الشام والسوائل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا علىأخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام. فللله الحمد والمنة على ذلك.

ولمّا استهلت سنة تسعين وستمائة أخذ الملك الأشرف في تجهيزه إلى السّفر للبلاد الشاميّة، (وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكا، وأرسل إلى [460]

البلاد الشاميّة) ، وجمع العساكر وعمل آلات الحصار، وجمع الصناع إلى أن تمّ أمره. خرج بعساكره من الديار المصريّة في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين المذكورة (6 اذار/مارس 1291)، وسار حتّى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، ويوافقه الخامس نيسان (ابريل)، فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة. وكان المتطلّعة أكثر من الجنود ومن في الخدمة. ونصب عليها المجانيق الكبار الفرنجية خمسة عشر منجيقاً، منها ما يرمي بقنطرار دمشق وأكبر، ومنها دونه. وأمّا المجانيق الشيطانية وغيرها فكثير، ونقب عدّة ثقوب. وأنجد أهل عكا صاحب قبرس بنفسه، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيراناً عظيمة لم ير مثلها، فرحاً به، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عند ما شاهد انحلال أمرهم، وعظم ما دهمهم.

ولم ينزل الحصار عليها والجّد في أمر قتالها إلى أن انحلّت عزائم من بها وضعف أمرهم واختلفت كلمتهم. هذا والحصار عمال في كلّ يوم، واستشهد عليها جماعة من المسلمين.

[461] فلما كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادي الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسن عظيم مزعج. فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار، هرب الفرنج وملك المدينة بالسيف. ولم تمض ثلاثة ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها؛ وطلب الفرنج البحر فتبعهم العسكر الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل؛ ونهب ما وجد من الأموال والذخائر والسلاح، وعمل الأسر والقتل في جميع أهلها. وعصى الديوينة والإسبتار وأسبتار الأرمن في أربعة أبراج شواهد في وسط البلد فحصروا فيها. فلما كان يوم السبت ثامن عشر الشهر، وهو ثاني يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجنود وغيرهم الدار والبرج الذي فيه الديوينة، فطلبو الأمان فأمّنهم السلطان وسيّر لهم صنّيقاً، فأخذوه ورفعوه على برجهم وفتحوا الباب. فطلع إليهم جماعة كثيرة من الجنود وغيرهم. فلما صاروا عندهم تعرض بعض الجنود والعوام للنهايب، ومددوا أيديهم إلى من عندهم من النساء والأصغار، فغلق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيوف، فقتلوا جماعة من المسلمين، ورموا الصنّيق وتمسّكوا بالعصيان، وعاد الحصار عليهم. وفي اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحرّمهم على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصوري. وتّم القتال على برج الديوينة ومن

[462] عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادي الأولى طلب الديوينة ومن بقي في الأبراج الأمان، فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحرّمهم على أن

يتوجّهوا حيث شاءوا. فلما خرّجوا قتلوا منهم فوق الألفين وأسروا مثلهم، وساقوا إلى باب الدّهليز النساء والصّبيان، وكان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير أقيّغا المنصوري أحد أمراء الشام كان طلع إليهم في جملة من طلع فأمسكوه وقتلوه، وعرقوبوا ما عندهم من الخيول، وأذهبوا ما أمكنتهم إذهباه؛ فتزايّد الحنق عليهم. وأخذ الجنود وغيرهم من السّيّبي والمكاسب ما لا يحصى.

ولمّا علم من بقي منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعصيان، وامتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشدّ قتال، واختطفوا خمسة نفر من المسلمين ورمّوهم من أعلى البرج فسلم منهم نفر واحد ومات الأربعة. ثم في يوم [463]

الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذى تأخر بعكا، وأنزل من فيه بالأمان، وكان قد غلق من سائر جهاته. فلما نزلوا منه، وحوّلوا معظم ما فيه، سقط على جماعة من المسلمين المتفرّجين وممّن قصد النّهب فهلكوا عن آخرهم. ثمّ بعد ذلك عزل السلطان النساء والصّبيان ناحية وضرب رقاب الرجال أجمعين، وكانوا خلائق كثيرة.

والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدّر فتح عكاً في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه، ومثل الساعة التي أخذوها فيها، فإن الفرنج كانوا استولوا على [464] [465]

عَكَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَابِعَ عَشَرَ جَمَادِيَ الْآخِرَةِ [سَنَةُ سِبْعَ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَمَائَةٍ] فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ النَّهَارِ، وَأَمْنَوْا مِنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ قُتْلُوهُمْ غَدْرًا، وَقَدْرُ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ اسْتَرْجَعُوهَا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ النَّهَارِ، وَوَافَقَ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ جَمَادِي

**الأولى** ، وأمّنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بال المسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم.

وكان السلطان عند منازلته عَكْا قد جهز جماعة من الجنود مقدمهم الأمير

[467]

علم الدين سنجر الصّوابي الجاشنكيـر إلى صور لحفظ الطريق وتعريف الأخبار، وأمره بمضايقة صور. في بينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء التي لصور، فحال بينها وبين الميناء؛ فطلب أهل صور الأمان فأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور فأجิبوها إلى ذلك، فتسلّمها. وصور من أجل الأماكن ومن الحصون المنيعة، ولم يفتحها السلطانـ صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكاناً وأمّنهم أوصلهم إلى صور هذه لحصانتها ومنعتها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الرّعب حتى سلموها من غير قتال ولا منازلة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شيء من أمرها البـة.

وعند ما تسلّمها جهز إليها من أخريها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل من رخامها وأنقاضها شيء كثير. ولما تيسّر أخذ صور على هذه الصورة قوى عزم [468]  
الملك الأشرف على أخذ غيرها (من أراضي الفرنجة) .

## نماذج المرحلة الأولى من الكتاب العربي

نماذج من صور طبق الأصل (فوتوكوبي) وميكروفيلم التي شكلت أساس هذا العمل المضمن القائم على صور الصفحات الأصلية التي جمعتها من أصولها في مكتبة مؤسسة كايتاني للدراسات الإسلامية Fondazione Caetani Per gli studi musulmani في روما، ثم رتبتها بحسب ماوردت في كتاب غابرييلي الإيطالي. قمت بعدها بترجمة كل ماقتبه غابرييلي من مقدمات وهوامش وفهارس وأضفتها إلى هذا العمل. كما أضفت إلى النصوص العربية المقاطفة التواريخ الميلادية التي وضعها غابرييلي إلى جانب التواريخ الهجرية الموجودة في النصوص الأصلية.

في ثلاثة غلائن على وجهه في الآية، فليبه في حافظ البلد، خالٍ  
عنه، فظيل الله عرب يخرج من باب آخر حارثة وكان ذلك معزلا  
للفرجون؛ ونحو تبكي ساعة لبلوكا • ثم أن الفرجون دخلوا البلد من  
باب وفتحوا وقتلوا من فيه من المسلمين، وذلك في جمادى الآخرة •  
واما باعى سباعي ذاته لما تطلع عليه النهار رفع النبي هلاله وكان  
كالراين • دراي ذئبه يخذل دفع هناء فرسان العقاد كان معه ابن  
الليل • على اربعه فراسين من انتاكية فقدمكيف حاتم سالما  
وه يقاتل حتى يوليهم عن البلد او يقتل وحمل يتلهيف ويسترجع  
على ترك اهلة واولاده والمسلمين، فلشده ما تحد سقط عن شرمه  
معشيا عليه، فلما سقط له الارض اراد احبيبه ان يركعها، فلم يكُن  
فيه مسکنة، فدارب ابيه، فتركته وصاروا عمه، واجتاز به اهلان  
ارمني ان يقطع للخطب وهو يآخر رمق القنة واحد رأسه وجاءه الى  
الفرجون انتاكية، وكان الفرجون قد كاتبوا صاحب حلب وبصقون  
باتما لا تفاصي غير البلد تلك كانت بعد الريء، لا تطلب سواها،  
مكرها مدين ومشدعا حتى لا يساعدوا صاحب الطاكية

**رسير المسلمين** إلى الفرج وها كل مفهوم

(۹ - ۱۸۸۶۰، سیمین)

١٣٧  
نَّا مَعْ قَوْمَ الدُّونِيَةِ كَرِيْوَقَا بَحْلَ الْفَرِيقِ وَفَلَّابِمِ الْأَنْتَاكِيَّةِ جَمِيعِ  
الْعَسَكِرِ وَسَارَ إِلَى الشَّامِ مَارِقَامِ هَبِيجِ دَابِينِ بَرِاجِنَتِ مَعَهُ مَسَكُرِ  
الشَّامِ، تَرَكَهَا وَمَرَّ بِسَوْدَوْنِ كَانِ حَلْبَ، مَجْتَمِعَهُ مَعَدْ دَقَانِيْنِ  
تَقْشِيْنِ وَطَفْلَكِيرِنِ الْأَبَدِ وَجَنَاحِ الْمُدَّلَّةِ، مَادَاحَبِ تَحْدِيْنِ بَارِسَلَانِ نَافِشِ  
صَاحِبِ سَدَاحَارِ وَسَلَمَانِ كَنِ أَرْسَلَكِ اوْغُرِمِيْنِ الْأَمْرَاءِ مِنْ نِيسِ  
مَنْلِيمِ، فَلَمَّا سَعَتِ الْفَرِيقِ وَعَذَّبَتِ الْأَدْبِيَّةِ عَلِيَّمِ، رَحَخَافِرِيْلَا مَيْهِ فِيهِ  
مِنْ الْوَقْنِ دَفَّلَةِ الْأَذَرَاتِ خَنَدَرِ، وَسَارَ الْمُسْلِمُونَ فَنَازَرُوكَ عَلَى الْأَنْتَاكِيَّةِ.  
وَلَسَاءَ كَرِيْوَقَا السَّيْرَةِ لَمَّا مَوْنَ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينِ، وَانْتَسَبَ الْأَرَادَ، وَكَثِيرٌ

٣) *Qur.* B. ٤) *B. add.* ٥) *كتاب مسلم* B. ٦) *كتاب مسلم* B. ٧) *Vetus iuxta modum scriptura, iam* تغذى *كتاب مسلم*، *كتاب مسلم*.

وأحرق أهل القرى القتلى من الفرنج ، فوجد في رماد فارس واحدٍ أربعون نصل نشَّاب ، وزُل إيلغازي في خيمة سرجال ، وحمل إليه المسلمون ما غنمُوه ، فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه الملوك الإسلام ، ورد عليهم ما حلوه بأسره .

ولما حضر الأسرى بين يدي إيلغازي ، كان فيهم رجل عظيم الخلقة مشهوراً بالقوة ، وأسره رجل ضعيف قصير قليل السلاح ، فلما حضر بين يدي إيلغازي قال له التركان : « أما تستحي يا سرك مثل هذا الضعيف وعليك مثل هذا الحديد ؟ » فقال : « والله ما أخذني [مخدوا] هذا ، ولا هو مولاي [إفما] أخذني رجل عظيم أعظم مني وأقوى ، [أب] وسلمني إلى هذا ؛ وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس أخضر [أب] .

(ابن الفدوسي ، ٢٠٠ - )

(يلغاري)

ولما وصل ظهير الدين اتابك الى حلب ، الاجتماع مع نجم الدين على الامر المقرر  
بيانها بعد مضي الاجل العين عليه بتذكرة وجد التركان قد اجتمعوا اليه من كل فرج  
وكل حرب في الاعداد الدثرة الوافرة والقرة الظاهرة ، كأنهم الاسود تطلب فريضها ،  
والشواهين اذا حامت على مكاسبها . ووردت الاخبار بیروز روجير صاحب اطاكية  
منها يفي من جمه وحشده من طوانف الفرنج ورجاله الاردن من سائر اعلامهم  
واطرافهم بحيث يزيد عددهم على العشرين الف فارس وراجل اسوى الاتباع ، وهو  
المدد الكثير في اتم عده ، واكل شکئ ، واهم قد تروا في الموضع المعروف بشرمدا ،

--- حبرس ---

وقول وجع كلامه وكيف قصمه واحد قصمه ولقد رأيته واستعذت الله أسلوب  
من أسلوب دقيق يقال له ابن رجب ولكن نفي الدين ابن الحسين ذكره أنه لم يصرح به  
مجلس الحكم وكان نفي الدين من أمر الناس عليه وأعظم منه وهو محبته ونفعه.  
وأعظم من هذا المكنته مما يدخل على مدارك قدرة جرب له مع أسلوب ينتها قدر  
لخلالق تأثيره وذاك أن كتب يوماً و مجلس الحكم بالقدس الضيق لا يدخل عنه مع  
حسن نجح عروض يحيى بن خلائل معه كتاب حكمي يحمل فيه رسالة في  
حمدان خالق حمي السلطان وهذا يسأل العدل وقد سمعنا أنك لا تخلي نفسك في  
أى قدرة هو محبتك فأقال لي سفر خلاص كل مملوك بربه منزل في ملكك إلى أن مات  
ويكون و بعد موافع عظمتك كلاماً لـ يوم عدتها واستغلوه عليهما السلطان ولا مطالبه  
بها أعلنت له يا مع وما الذي اعدنا لك هذا العالية فحال يتحقق لا ينطلي بالظاهر  
وإذا الكتاب شُكت بخطه عليه # برب في منكرا إلى أن تكتب الكتب منه  
وتصطف معمديه درجهاته ينتهي حالي سلفه خلاصي. وأنه قد أشرأه من مثلك  
الحادي وأحدثت باسمه العلائي في عهده كلام من سمة كلامي وأنه # برب و منك لـ

~~DE LA VIE DU SULTAN MOUSSA~~

متن ساده: تمثال ۱۰ کتاب مل روسی ساز آرمان، خیر، از عمل این جویی  
مکانیزم ساخته اند، ساخته اند، ساخته اند، ساخته اند، هر چند سفر کاهه ملودنی  
در آن تولید نمکی هسته نشسته و نوشته، هنگام بازگشتها نوشته، بیانال زیارت  
علی بیسته شصت در میان اینستیتوی تمثیل مل میان شیخ کاهه

أسلم مثلـ واظبـ شاعة ملاجـ الدين بـواهـ على ما فعلـ حـمـادـ  
الـفـرجـ فـاخـتـلـفـ كـلمـتـهـ وـقـفـتـ شـعـلـاتـ وـكـنـ تـلـادـ منـ أـعـدـ الـ  
الـمـوحـيـدـ لـفـتـجـ بـلـانـتـ وـأـسـلـانـ اـبـيـتـ المـقـدـسـ مـفـاعـلـ مـاـ نـذـكـرـ  
شـاءـ الـهـ وـسـيـرـ صـلـاجـ الدـينـ السـراـيـ مـنـ نـاحـيـةـ قـلـوـيـةـ فـشـقـنـ الـ  
مـلـ يـلـادـ الـفـرجـ وـخـرـجـ سـالـةـ شـاهـيـةـ خـوشـ الـفـريـيـ بـلـادـ وـ  
وـخـرـاـ الـمـسـلـمـونـ عـلـيـمـ وـضـعـيـفـ وـمـهـمـ

### ~~نـ~~ غـدر الـمـقـدـسـ اـرـباطـ

كـانـ الـمـرـىـسـ اـنـاطـ صـاحـبـ الـكـرـمـ مـنـ اـعـظـمـ الـفـرقـ وـ  
وـأـشـجـ عـدـاـةـ الـمـسـلـمـينـ وـأـعـظـمـهـ مـهـرـاـ حـلـيـهـ فـلـتـهـ اـيـ مـلـاجـ اـ  
ذـلـكـ مـنـهـ فـصـحـهـ بـالـحـصـرـ مـرـةـ بـعـدـ مـرـنـاـ وـمـانـخـارـ مـنـ يـلـادـ كـرـهـ بـعـدـ  
فـذـلـ وـخـصـعـ وـهـلـلـ. الـصـلـاجـ مـنـ صـلـاجـ الدـينـ، فـاجـابـهـ لـهـ ذـلـكـ  
وـحـالـهـ، وـتـرـثـتـ الـلـوـاـلـ مـنـ الشـامـ اـلـىـ مـصـرـ، وـمـسـرـ اـلـشـامـ  
كـانـ هـذـهـ الـسـنـةـ اـحـتـزـ وـهـ قـلـلـ مـهـمـلـاـ، غـرـبـ الـأـمـوـالـ كـثـيرـاـ  
وـعـهـ جـمـاسـةـ سـالـةـ مـنـ مـلـيـنـ غـدـرـ الـعـبـينـ بـهـ وـأـخـذـمـ مـنـ  
وـعـشـمـ الـأـمـوـالـ وـدـوـافـيـمـ وـسـلـاحـهـ وـأـدـعـ الـسـاـخـوـنـ مـنـ اـسـرـهـ مـنـهـ.  
أـلـيـهـ صـلـاجـ الدـينـ يـلـوـمـ وـيـلـتـيـمـ غـلـبـ وـغـدـرـ وـيـتـرـعـهـ اـنـ فـرـ  
الـأـسـرـ، وـالـأـمـوـالـ، فـلـمـ يـجـبـ اـنـ ذـلـكـ وـاصـفـ اـلـامـعـ وـخـرـ صـلـاجـ  
نـلـرـاـ اـنـ يـقـتـلـهـ اـنـ خـلـرـ، فـكـانـ مـاـ نـذـكـرـ اـنـ شـاءـ الـهـ تـعـالـ

### ~~نـ~~ اـنـ

كـانـ الـفـرجـيـوـنـ، قـدـمـاـ وـحـدـيـشـاـلـ حـكـيـمـاـلـ حـكـيـمـاـلـ حـكـيـمـاـلـ  
وـالـعـشـرـيـنـ مـنـ سـمـادـيـ الـأـسـرـ، فـجـيـعـ الـكـوـاـكـبـ كـلـيـسـاـ فـيـ بـرـ  
وـجـبـتـ بـاقـيـاتـهـ وـبـارـعـ شـدـيـدـ فـلـمـ يـكـنـ لـذـلـكـ هـلـةـ وـدـهـ  
الـرـبـاطـ عـنـ الـبـيـةـ حـلـقـ اـنـ الـفـلـالـ بـلـيـسـ وـالـشـعـرـ وـخـرـ الـبـرـاحـ  
الـهـيـهـ، الـذـهـ، يـخـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ  
وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ  
وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ  
وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ وـفـرـقـ

### ~~نـ~~ اـنـ

لـهـ دـخـلـتـ سـنـةـ قـلـاثـ وـنـهـاـيـهـ وـخـمـسـيـهـ،  
أـتـعـفـ أـتـلـهـ حـدـهـ الـسـنـةـ بـوـمـ الصـبـتـ وـفـيـ بـوـمـ النـورـعـ اـسـ  
وـرـافـعـ عـشـرـ اـدـارـ سـنـهـ اـنـفـ دـارـعـ مـلـيـكـ وـكـنـ وـتـسـعـنـ الـخـدـارـةـ  
الـلـذـمـ وـالـلـذـمـ فـيـ الـلـيـلـ وـأـتـعـفـ أـتـلـهـ سـنـةـ الـمـرـبـ وـتـلـ سـنـةـ الـفـرسـ  
جـنـدـيـوـنـ اـخـيـرـ وـأـدـلـ سـنـةـ الـرـيمـ وـالـشـمـسـ وـالـفـرـقـ وـأـدـلـ

### ~~نـ~~ حـصـرـ صـلـاجـ الدـينـ الـفـرـقـ

وـقـدـهـ الـسـنـةـ وـتـبـتـ صـلـاجـ الدـينـ اـلـ جـمـيعـ الـبـلـادـ بـيـسـتـرـ  
لـلـجـهـادـ وـكـتـبـ اـلـ مـوـسـلـ وـدـيـزـ طـرـيـرـ وـأـرـيـلـ وـغـيـرـهـ مـنـ يـلـادـ الـ  
وـلـ، مـصـرـ وـسـارـ يـلـادـ الـشـامـ بـيـدـهـوـلـ اـلـ جـهـادـ وـجـعـلـهـ عـلـيـهـ دـاعـرـ  
لـهـ بـهـائـيـهـ الـإـسـكـانـ وـكـرـ خـرـجـ مـنـ خـمـسـ اـوـاسـتـ الـفـرـقـ بـيـ عـسـكـرـ حـاـ

## موجز سيرة المترجم

**نبيل رضا المهايني Nabil R. Mahaini** - من مواليد دمشق 1944.

- أقام في ايطاليا للدراسة ثم العمل بين عامي 1963 و1986.
- تخرج عام 1969 من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديمية الفنون الجميلة في مدينة فلورنسة،
- ثم تخرج عام 1973 باختصاص علوم الرأي العام - إخراج تلفزيون وسيينا من جامعة الدراسات الاجتماعية في روما.
- عمل قبلها وبعدها في مجالات التلفزيون والسينما في ايطاليا.
- ومراسلاً لكثير من المجالات الأدبية والعلمية العربية، من فلورنسة وروما.
- ترجم وقتها وفيما بعد عدة كتب عن الايطالية. وقد نشر كثير منها في بيروت ودمشق.
- أخرج كثيراً من الأفلام التلفزيونية في مختلف المجالات الوثائقية والإرشاد الزراعي، حاز بعضها على جوائز في مهرجانات دولية وعربية.
- يعمل منذ عام 1983 خبيراً لدى الصندوق الدولي للتنمية الزراعية- إيفاد، في روما بداية ثم في دمشق.
- يعمل الآن كممثل ميداني لإيفاد في سوريا.

## انتهى

- 
- [1] من شخصيات ملحمة "القدس المحتلة" و"القدس المحررة" للشاعر الايطالي توركواتو تاسو 1544-1595 [المترجم]
  - [2] من شخصيات الملحمة المذكورة [المترجم]
  - [3] كانوا يسمون المسلمين آنذاك Saracini Cani [المترجم]
  - [4] René Grousset (1885-1952)، مستشرق ومؤرخ فرنسي. من أهم مؤلفاته في مجالنا "تاريخ الحروب الصليبية ومملكة القدس الإفرنجية". [المترجم]
  - [5] Albigesi أو Albigensian هم سكان منطقة آلبى جنوب فرنسا استقروا فيها وشكلوا في العهد الوسطى طائفة دينية انشقت عن تعاليم الكنيسة، ولهؤلاء أصول تعود إلى شبه جزيرة البلقان. جهزت الكنيسة حملة صليبية ضدهم عام 1208، إلا أن الصراع معهم استمر طيلة النصف الأول من ذلك القرن. أما الهوهنستاوفن Hohenstaufen فهم سلالة الكهنة الألمان حكمت خلال العهود الوسطى، كما حكمت مملكة صقلية عام 1194. [عن موسوعة ويكيبيديا]
  - [6] انجيل متى 5/26 وهي باللاتينية Qui gladio ferit gladio perit ووردت ترجمتها الانكليزية: tutti quelli che mettono mano alla all who take the sword will perish by the sword [المترجم]

[7] وضع دانتي الجيري صلاح الدين في البرزخ بين العظام الصالحين، والمكان مخصص للصالحين من غير المسيحيين والأطفال الذين ماتوا قبل أن يتم تعميدهم. وجاء في النشيد الرابع 129 من كتاب "الجحيم" في "الكوميديا الإلهية": (رأيت صلاح الدين، كان وحيداً، على طرف). قال دانتي إنه وحيد لأنه من دين آخر، لكنه ذكره بين الحكام الذين استحقوا المجد بسبب سخاء روحهم، ووضعه مع الأرواح العظيمة Spiriti Magni. [المترجم]

[8] يُعنى أنه لم يُكتب عن صلاح الدين الأسطورة، مثلما كُتب عن بيبرس في كتاب السيرة.

[9] أشعر هنا بضرورة توجيه الشكر للمهندس جهاد العواد على مساعدته القيمة في هذا المجال.

[10] من أهم المواقع المستعملة: موقع المكتبة الشاملة <http://index.php/shamela.ws/> : وجدت فيه مقاطع فيها كتب مثل "الكامل في التاريخ ابن الأثير"، وكتاب "النواود السلطانية والمحاسن اليوسيفية"، "النجوم الظاهرة"، "ذيل تاريخ دمشق". وهناك موقع المشاكا <http://www.almeshkat.net/> حيث وجدت كتاب "بغية الطلب في تاريخ حلب". ثم موقع www.anti-rafedha.com// : http://www.anti-rafedha.com//

[11] ان ترتيب هذه الإشارات - عدا الأولى منها - إنما هو وفق الترتيب الذي يظهر فيه المؤلفون في الكتاب، وهو لا يتوافق إلا بصورة إجمالية مع الترتيب الزمني.

[12] صدر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء (القاهرة 1962-1954) بإشراف م. شياط.

[13] لا توجد في الطبعتين الغربيتين (Matthes-Popper) لكتاب النجوم اشارة الى تلك الفترة. ولم

أتمكن من الوصول إلى طبعة القاهرة.

[14] أكرر أن كل أرقام الصفحات هذه - هنا وفي كل الكتاب - تشير إلى صفحات الطبعات المذكورة في فصل "المؤلفون والكتب" [المترجم]

[15] من الواضح أن هذا التاريخ يشير إلى نهاية الغزو النورمانى.

[16] باردوبل هذا (بالدوين الأول) شخص خيالي، نتج عن التباس بين أسماء العديد من أشخاص يحملون هذا الاسم في الفلاندر والقدس، أو أنه أول بردوبل تم تخليه خطأ على أنه ملك من ملوك الغرب.

[17] من المؤسف أن يتم في بداية هذه الصفحات تصوير الكونت الأكبر ببريرياً بهذا الشكل. لكن هذا أمر تقليدي، سواء بسبب الطريقة العدائية المبتذلة التي يتكلّم بها عادةً أولئك المسلمين عن أعدائهم، أو لأن هذا المقطع الخيالي يصور بأمانة باللغة الحنكة السياسية التي يتمتع بها روجر.

[18] وهو سلطان تونس الزيري، تميم بن معز (1061-1107).

[19] قائد عسكري تابع للسلطان السلجوقي مالك شاه، وكان قد غزى مصر عام 1076 انتقاماً من فلسطين.

[20] الفاطميون هم بالطبع مسلمون أيضاً، لكنهم طائفة منشقة، وقد تم وضعهم هنا في تناقض مع الإسلام السنوي.

[21] ذلك كما كان المؤرخون العرب يسمون أرمينيا الصغرى الكليكيلية.

[22] حسب المصادر الغربية: 3 حزيران - يونيو.

[23] الفرسخ حوالي 6 كيلومتر.

[24] أمير الموصل التركي.

[25] صاحب دمشق السلجوقي، وسرعان ما خلفه واحد من قواد جيشه آتابك طفتكن فغين بعده مباشرة ليصبح من أعنف خصوم الفرنجة خلال هذه المرحلة الأولى من الغزو.

[26] وهو Baudoin du Bourg وسيصبح بعدها بالدوين الثاني.

[27] كنيسة مار بطرس الأنطاكيّة، واسمها في المصادر العربية قسيان، على اسم شخص أحين مار بطرس له ابنه.

[28] معجزة الرمح المقدس التي حققها Pierre Barthelemy، مروية هنا من خلال منظور عقلاني إسلامي.

[29] سلجوقي من سوريا، أخو السلطان ملك شاه

[30] وزير فاطمي

[31] بهذا تنتهي العلاقة المشار إليها أعلاه بالانهزام التركي تحت أنطاكيّة، لكن الخطأ في الواقع هو في تاريخ العام، إذ أن القدس قد أخذت من المصريين في شهر آب 1908.

- [32] يوجد محراب داود، الذي تدعوه المصادر الغربية برج داود، في مدينة القدس. لكن لابد من تمييزه عن معبد صغير يحمل نفس الاسم في منطقة المعبد المقدس.
- [33] وهي الصخرة التي صعد منها - على ما يعتقد المسلمون - محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء وقد أقيم عليها المعبد المسمى بمسجد عمر، وهو أكبر صرح إسلامي في القدس، وفيه أقام المنتصرون عيدهم. ويوجد قربها المسجد الأقصى، لكنه متميّز عنها، وهناك اشتد القتال حسب رواية ابن الأثير هذه. علمًا أن المصادر الشرقية والغربية تخلط عادةً بين هذين المعبدتين.
- [34] شاعر عراقي عاش بين القرنين 12-11
- [35] أي صوت النبي (صلى الله عليه وسلم) ينبعث من القبر ليزجر أفراد عائلته (آل هاشم) والمتقاعدسين عن أداء واجبهم أحسن قيام في محاربة الصليبيين.
- [36] تجمع كل المصادر الإسلامية على أن كندفري مات في القتال.
- [37] وهو ريموند سان جيل، كونت طولوز ومؤسس الفرقاطة الطرابلسية
- [38] لا بد من التنبّيه إلى المبالغة الخيالية في هذه الأرقام، وهي ظاهرة متّعة في التاريخ الإسلامي آنذاك
- [39] الدينار عملة ذهبية كانت تستعمل بأشكال مختلفة خلال العهد المتوسط الإسلامي، وكان وزن الدينار من النوع (القانوني) 4.25 غرام ذهب صافي
- [40] هو Krak des chevaliers، حصن منيع شمال شرق طرابلس، وقد احتل مكاناً مهمّاً في تاريخ الحروب الصليبية
- [41] أي من أتباع الطائفة الباطنية أو الإسماعيلية أو الحشاشين، وقد شكل إرهابهم، الذي سنرى أمثلة منه، كابوساً جاثماً على صدر الفرنجة والمسلمين السنة خلال الحروب الصليبية
- [42] الأول هو أمير حصن كييفاً في ديار بكر، وقد سبق ذكره. أما الثاني فقد كان أمير الموصل.
- [43] أمير تركي استولى على الموصل متّزعًا إياها من جركميش والذي أسر بالدوين صاحب الراها، كما رأينا
- [44] من عام 1104، كما رأينا سابقاً
- [45] هذا من طيبة فرسان ذاك الزمان، وقد أثّرت هنا في المؤرخ المسلم
- [46] السلطان السلاجوقى محمد بن ملك شاه (1104 - 1117)، أكبر سادة الإقطاعيين بين هؤلاء النساء
- [47] يذكر هنا وبعد قليل اسم ريموند وفي هذا خلطٌ مع اسم الأب Raymond de Saint-Gilles ريموند صنجيل الذي مات عام 1105 دون أن يتمكن من أخذ طرابلس المحترضة وقد خلفه ابن إحدى قريبهاته أبي Guillaume Jourdain كونت منطقة سردان الواقعة بين فرنسا وإسبانيا (وتسميتها المصادر العربية سارданى) وذلك حتى وصل برتراند ليطالب بالوراثة.
- [48] دار العلم، مكتبة ومدرسة علمية، وقد كانت فخرًا لأمراء طرابلس من بني عمار
- [49] المقصد مدينة جبلة لأن الإفرنج استولوا على مدينة جبيل عام 1104
- [50] مرفأً أنطاكية
- [51] Sigurd ملك النرويج
- [52] كان يقتسم الحكم آنذاك في بغداد كل من الخليفة العباسى وهو السلطان الاسمى وزعيم المسلمين السنة، والسلطان السلاجوقى، وهو السلطان الفعلى في كل من إيران والعراق مع فروع إقطاعيى الشام. ولم يكن الانسجام الموجود بين السلطنتين كاملاً رغم الزيجات المتعددة بين الأسرتين. يتهياً لنا أننا نرى في هذا التناقض، الظاهر في هذه الصفحات والصفحات التالية، صورة ايطاليا في العشرينيات الفاشية وقبيل اكمال الحكم الفاشي، حيث كان يتنازع الحكم الملكُ فكتور عمانوئيل والدوثشة موسوليني.
- [53] Alessio Commeno (1110-1081)
- [54] الوزير الفاطمي الذي سبق ذكره والذي كان عليه أن ينقذ هذه الثغور الواقعه من الناحية الشكلية تحت السيادة المصرية.
- [55] أي قذائف وألواح (ترجمة عن الإيطالية)
- [56] الدعائم (ترجمة عن الإيطالية)
- [57] صليب على شكل T
- [58] ليس من الواضح فيما إذا كانت "فيها" تعنى: في دمشق - خلال العودة، أو أنها تعنى "خلال الحرب" أي في صور نفسها أيام الحصار.

- [59] أي البرج المتحرك وسنته وكلاهما مشار إليهما بنفس الكلمة مما لا يساعد على الوضوح [60] بعد هذا الدفاع الناجح، تم إنقاذ صور مرات عديدة أخرى من قبل طفتين، ذلك قبل أن تسقط نهائياً في أيدي الصليبيين عام 1124
- [61] في معجم البلدان لياقوت 162/3: سنجة: بفتح أوله وسكون ثانية ثم جيم- قال الأدبي: هو نهر عظيم لا ينتهي خوضه لأن قراره رمل سيال كلما وطنه الإنسان برجله سال به فغرقه، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مصر- بالضاد المعجمة.
- [62] هناك في المخطوطة جملة مكررة ((قطع الفرات من عبر... وسارت)) ولا مجال لوجودها، وقد كتبت فوق الجملة بخط دقيق ((من لا... إلى)) وهي دالة الحذف، وبدونها تستقيم الجملة، على أن نبدل الكلمة في الأصل وهي ((سراباهم)) فنرسمها((سراباها)) متابعة للسياق.
- [63] سرجال هو: سير روجر(Sir Roger) ملك أنطاكية. - وفي ابن القلانسي 200: ((ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب أنطاكيه منها فيمن جمعه وحشده من طوائف الافرنج ورجال الأرمن)). - في ابن الأثير 8/289 "سيرجال".
- [64] في ابن القلانسي 201 ((قد نزلوا في الموضع المعروف بشرمدا وقيل دانيث البقل بين أنطاكيه وحلب)) - وفي معجم البلدان لياقوت 3/82: ((سترمدا: بلفظ السرمد، الدائم، موضع من أعمال حلب)) - وفي دوسو 221 أنها منذ العروب المصرية القديمة وتسمى Sarmada أو Sarmeda وهي عند المؤرخين الفرنجة Sarmit. (الهوامش الأربع السابقة من النص الأصلي، غير مذكورة عند غابرييلي)
- [65] العمامة يضعها رجال الدين والشرع لدى المسلمين
- [66] أمير أزان في الجزيرة، من أعمال إلغاري
- [67] في ابن الأثير 8/289: ((وأما سيرجال صاحب أنطاكيه فإنه قتل وحمل رأسه)) (هامش من النص الأصلي)
- [68] اللون الأخضر الفردوسي لا يترك مجالاً للشك بأن الحديث يدور عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو عن مبعوث آخر من السماء، أتى ليساعد المسلمين على النصر.
- [69] استشهاداً بعبارة قرآنية (قرآن كريم 27، 28) مطبيقة هنا على الأعداء المهزومين. ويستعمل المؤلف في النص السجع والمحسنات البديعية الأخرى تناغماً مع سمو الموضوع.
- [70] يجب تقديم هذا التاريخ سنة كاملة لأن بعدهما الثاني مات في الواقع في القدس في 21 آب / أوغسطس 1131 الموافق تماماً لـ 25 رمضان 525.
- [71] Cont d'Anjou وهو
- [72] سماها الصليبيون Mont Ferrand، وهي بين طرطوس وحماء.
- [73] ملك القدس Folco ومن تبعه من البارونات (جمع بارون).
- [74] وذلك مع الامبراطور البيزنطي Giovanni II Comneno (1118 - 1143). غابرييلي: وفي هذه السنة...
- [75] كان يسمى في القديم Celesiria بين سلسلتي لبنان الشرقية والغربية
- [76] حفيد طفتين ورابع خليفة له على إمارة دمشق.
- [77] مكان إقامة صلاة الجمعة
- [78] قال الفارقي: إن في هذه السنة ملك أتابك زنكي قلعة بعلبك ونزل على دمشق وحاصرها مدة ثم سلموا إليه قلعة بصرى (عن النص الأصلي).
- [79] باب الفراديس من أبواب دمشق
- [80] الغوطة منطقة خصبة كلها بساتين وجنان تحيط بدمشق وفيها البلات التي وردت هنا أسماؤها
- [81] Raimondo di Poitiers
- [82] معين الدين أثر Aynard في المصادر الفرنجية، قائد عسكري تركي، كان يتزعم من الناحية العملية إماراة دمشق في هذه السنوات، وذلك باسم الأمير الشاب أباق Abaq.
- [83] خيول المراعي (عن الإيطالية)
- [84] قال الفارقي في تاريخه: انه فتحها عنوةً في 25 من جمادى الآخرة وكان 23 كانون الأول من السنة وكان أخذتها الافرنج بعد موت تاج الدولة في سنة 492 ثم رحل عنها بعد ما رتب أمرها ونزل على البيرة فحاصرها مدة. وكانت النصارى يقولون أن أتابك يُقتل ليلة الميلاد وكانو منتظرين ذلك وكان فتحها ليلة الميلاد وسلم أتابك وكذبوا (هامش عن النص الأصلي).

- [86] لابد أن كلمة ((عشرين)) قد سقطت سهواً لأن التاريخ الصحيح هو الذي ذكره تاريخ ابن القلansي قبل قليل أي السبت 26 جمادى الثاني عام 539 - 23 كانون أول 1144.
- [87] يقول غابريللي إن النص يتحمل تفسيرين حول أي منهما قتل الآخر.
- [88] وهي Biregik التركية حاليًّا.
- [89] هناك تزامن غير دقيق مع حملة صقلية عام 1142، أو مع تلك الناجحة التي جرت عام 1146 ضد طرابلس. والحادية تؤكد هنا تسامح رجّار الثاني المناصر للمسلمين أما المسلم المذكور الذي كان غافياً فقد يكون الإدريسي بالذات.
- [90] مع أن الزنكي قد قتل وهو يحارب مسلمين آخرين (العقيلي صاحب جبر)، فإن ابن الأثير المخلص له يدعوه هنا وفي أمكنة أخرى بالشهيد، ذلك لكافحه المرير ضد الفرنج.
- [91] الأمير أقسنقر، والذي تمرد عام 1094 على سلطان حلب تتش فقتله هذا.
- [92] يمدح كل المؤرخين على الاطلاق زنكي بسبب رعايته ودفاعه عن مواطنه ضد عنة ولصوصية الجنود. ويقول المؤرخ الحلبي كمال الدين، أنه عندما كان يخرج من المدينة، فإن الجنود يظهرون وكأنهم يسرون بين سلسليتين طوبيلتين، وذلك لحرصهم على ألا يدوسوا شيئاً من الزرع لأنهم يعلمون أنه لا مزاح مع الآتاك.
- [93] وهو تاريخ أتابكة الموصل، حيث عبر ابن أثير عن حبه وإخلاصه ومناصرته للعائلة الزنكية.
- [94] الامبراطور كونراد الثالث. أما مشاركة لويس السابع ملك فرنسا فلم يكن لها ذكر كبير في المصادر الإسلامية.
- [95] وفي كتاب العبر للحافظ الذهبي: هو أبو الحجاج يوسف بن دوياس المغربي الفندلاوي، قُتل شهيداً في حصار الفرنج مقبلاً غير مدبر. والدعاء عند قبره خارج الباب الصغير مستجاب. (هامش من النص الأصلي)
- [96] اشارة إلى عموم الآيات القرآنية المتعلقة بالجهاد..
- [97] يتخيّل فرانشيسكو غابريللي أنه قد يكون بين هؤلاء القتلى واحد من شخصيات الكوميديا الإلهية الذين يقول الشاعر الإيطالي الكبير ذاتي أنهم قضوا خلال الحروب الصليبية اعتقاداً منهم أنهم يدافعون عن قبر المسيح. واسم هذه الشخصية هو Cacciaguida.
- [98] عن الآية الكريمة 42/43 من السورة 37 (الصفات)
- [99] نسخة قيمة من القرآن الكريم تعود لعهد الخليفة عثمان (رضي الله عنه) عندما جرت أولى محاولات جمع القرآن (الكريم) (644 - 56). ويرجح أنها كانت أيضاً النسخة التي كان يقرأ فيها عندما قتل.
- [100] دمشق.
- [101] كان نور الدين أول من نظم خدمة بريد نظامية باستعمال الحمام الراجل.
- [102] أسد الدين شيركوه كردي من خلصاء نور الدين وعمّ صلاح الدين.
- [103] Honfroi de Toron
- [104] بالدوين الثالث
- [105] الدركيولية "أبناء الأتراك" كانوا جنوداً مؤقتين ومحليين في الجيوش الصليبية.
- [106] كان صلاح الدين قد ذهب إلى مصر كقائد في جيش نور الدين، وهناك ألغى الخلافة الفاطمية واستولى عملياً على البلد، رغم أنه لم يعلن الانفصال رسميًّا عن تبعيته لنور الدين. ومن هنا فقد سمي الأخير في هذا السياق "صاحب مصر"، إلا أنه لم يكن يمارس هناك أية سلطة مباشرة.
- [107] نرى هنا أيضاً أنها كانت شكليّة بحثة سلطة نور الدين على الحجاز ("المدينتين المقدستين" أي مكة والمدينة) وعلى اليمن الذي استولى عليها أخوه صلاح الدين. الواقع أن هذه البلدان كانت تحت السلطة الأيوبية.
- [108] الخلفاء الراشدون هم الخلفاء الأربع الذين جاءوا بعد محمد (صلى الله عليه وسلم)، أي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) وبجمع معهم عادةً الخليفة عمر بن عبد العزيز (عمر الثاني 719-717)، ويعتبرون جميعهم في مفاهيم السنة التقليدية الخلفاء المثاليين بل انموذج الحكم الصالح.
- [109] تاريخ أتابكة الموصل السابق ذكره.
- [110] ترجمها غابريللي: "ما أحسن المُحارب في المحراب"، وهذا وجهٌ صحيح في فهم بيت الشعر.
- [المترجم]
- [111] سهمن
- [112] ملك القدس فلك (1131 - 1134)، راجع الفصول التالية عن علاقته مع أسامة.

- [113] هناك في هذا الفصل تأرجح بين معنوي كلمة فارس بالفرنسية، "Chevalier" "Cavalier" أما في الإيطالية وال العربية فلا توجد لها إلا لفظة واحدة.
- [114] هذا لا يعني أنه ملك بالفعل، فالإشارة هنا إلى الوزير الفاطمي طلائي بن روزيك، الذي استبد بمصر تحت سلطة الخليفة الفايزة، وقد مات عام 1161
- [115] كان أسامة يشارك في سياساته الداخلية، المليئة بالفتن الدموية، ومن هنا اشارته التالية إلى خشيه او وحشه من أهل القصر.
- [116] مركب نهري خاص
- [117] سلطان قونية السلاجوقى، وقد حدث هذا حوالي عام 1155.
- [118] يسمىها الصليبيون Moinestre، وهي في لبنان، خمسة عشر كيلو متراً غربى جبيل.
- [119] من المؤكد أن أطباء الإفرنج لم يكونوا كلهم من الجزارين، كما جاء في هذا الوصف. لكن هذا التهمك يجد تبريراً له في تفوق المعارف الطبية الشرقية على تلك الغربية في ذلك الوقت.
- [120] برميل
- [121] Teodoro Sofiano، يوناني، رئيس بلدية أنطاكية.
- [122] شكل هذا الطعام النجس كابوساً بالنسبة لهذا الصيف الحذر، لهذا فقد آكل وهو محترز رغم تطمئنات صاحب البيت.
- [123] يقول المسلمين في بدء صلواتهم "الله أكبر"
- [124] كان مسيحيو العهد المتوسط يصلون ووجوههم متوجهة نحو الشرق. بينما يصلى المسلمون نحو القبلة أي باتجاه مكة.
- [125] تطبقاً لآية قرآنية على تجديف هذا الشخص
- [126] التحالف الفرنجي - الدمشقي عام 1140، ويبدو من هذا النص أن المؤلف شارك في المحادث.
- [127] حلّ بالدوين الثاني، خلال إحدى فترات أسره ضيفاً على أمراء شيزر، ذلك كما يخبرنا أسامة نفسه في مكان آخر.
- [128] من أمراء دمشق، وقد سبق ذكره.
- [129] King Folco
- [130] وهذا من التقليدي في العائلة المسلمة في العهد الوسيط، فعندما لفق أسامة الحاجة ذكر الجدة ولم يذكر الأم، ومن المؤسف أن العرض لم يقبل، إذ لو سافر ابن مؤرخنا إلى الغرب لترك لنا شهادة قيمة عنه!
- [131] يعتبر المسلمون كلاً من يحيى المعمدان وزكرياً (عليهما السلام) نبيين ويقدسونهما.
- [132] الصلاة المسيحية كما رأينا قبلها.
- [133] النص والمعنى غير واضحين في هذه العبارة: ويبدو أن الصليبان المذكورة على شكل عصي كانت مرسومة على أثواب الكهنة من اتباع القديس يوحنا.
- [134] حيث كان خان قاه بعض الصوفيين في دمشق
- [135] الحديث يضم أحاديث نقلت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) عبر سلسلة من الرواية الذين يؤكدون صحتها. وقد أصبح علم الحديث جانباً هاماً في علوم الدين الإسلامي.
- [136] كتب غابريللي عن هذه الصلوات إنها ركعتا قيام الليل، ثم قام بتفسير معنى الركعة وقال إنها وحدة من وحدات الصلاة تضم القيام والجلوس.
- [137] أي ممهورة باسمه الرسمي الملك الناصر (الملك ناصر الدين)
- [138] قاضي القضاة ومستشار صلاح الدين الخاص، وسنقرأ عنه لاحقاً عدة مرات.
- [139] جاء لقب الحافظ الذي لقب به هذا الشاعر الفارسي الشهير من معنى الكلمة وهو يطلق على حفظة نصوص القرآن الكريم وعلى علماء الفقه بصورة عامة.
- [140] فيلسوف متصوف من حلب راح 1911 ضحية التعصب الفكري الديني الذي شرّعه صلاح الدين فكشف عن جانب حقيقي من شخصيته بعيد عن الصورة التي كونها عنه عصر التنوير Illuminism.
- [141] أول خليفة جاء بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) 634-632.
- [142] في بلاد الرافدين
- [143] محمد بن قره ارسلان، أمير ارتوفي على حصن كيفا Hasankeyf (1185-1174) وهي اليوم في تركيا.

- Balian II d'Ibelin [144] الثاني أحد سفراء الفرنج المفوظين في سلام 1192. سمعاود رؤية هذه الأحداث والشخصيات فيما بعد.
- [145] الطبول (غابريللي)
- [146] هنا تبرز الأسباب الجدلية والتبريرية التي سنجدها حول سلام 1192 المثير للجدل
- [147] نيران المعسكرين
- [148] ألواح خشبية كان مسيحيو الشرق يستعملونها محل الناقوس
- [149] قرآن (كريم) الآية 69 من السورة 29 (العنكبوت). وقد ذكر غابريللي أنها السورة 62 لأنها اعتمد على نسخة مترجمة لمعاني القرآن الكريم رببت آياتها بشكل مختلف).
- [150] حصن اسبتارية قرب طبرية
- [151] إجازة أو تسرير (ترجمة عن غابريللي)
- [152] عيد الأضحى بعد الحج (عرفة) في شهر ذي الحجة
- [153] استعارة عن القرآن (الكريم) [مُقْرَأْ كَالْجِنَالِ] الآية 44 من السورة 11 (هود)
- [154] سنرى لاحقاً أن هناك آراء فقهية تقول بعدم قبول شهادة من يركب البحر
- [155] قرآن (كريم) الآية 110 السورة 16 (النحل)
- [156] مكان بين حيفا ومار يوحنا في عكا.
- [157] الأمونة (ترجمة عن غابريللي)
- [158] قرآن (كريم) الآية 134 سورة 3 (آل عمران)
- [159] ترجمتها غابريللي بـ (الخيمة)
- [160] قرآن (كريم) الآية 4 سورة 68 (القلم)
- [161] قرآن (كريم) الآية 120 سورة 9 (التوبية)
- [162] أي ريتشارد قلب الأسد
- [163] من مشايخ الفرق الصوفية أو غيرهم من التقاة المسنين المعروفين بالفضل والصلاح
- Renaud de Chatilion [164]
- [165] توجد هذه القصة الماساوية حتى في اخبار تاريخ حطين
- [166] أي أنه كان يخصص له كلّ أو قسم مما كان مخصصاً لأبيه إذا كان هذا موظفاً عسكرياً أو مدنياً.
- [167] الكونت ريمند الثالث- of Saint Gilles
- [168] الكونتس Echive
- [169] بالدوين الرابع (1185-1174)
- [170] بالدوين الخامس، مات في 1186 بعد عدة أشهر من توليه الملك إسمياً
- Sibilla [171] اخت بالدوين الرابع وام بالدوين الخامس وزوجة ثانية لغويدو دي لوزينيانو di Lusignano
- [172] كرك معاب في شرق الاردن وكانت تشرف على طرق تصل بين مصر وسوريا كما بين سوريا والجaz.
- Roger des Moulins [173]
- [174] امتيازات ورواتب عسكرية (ترجمة عن غابريللي)
- [175] قرآن (كريم) الآية 120 سورة 4 (النساء)، والآية ترد في سورة أخرى، إلا أن غابريللي ذكر الآية 19 من السورة السادسة، وهذا خطأ.
- [176] طلائع النشأين (ترجمة عن غابريللي)
- [177] يقول القرآن (الكريم) إن الذي ضلّ هو شخص آخر وليس شخص يسوع المسيح، وهذا يعكس (كذا) مذاهب دوسيتية Docetism (المترجم: جاء في موسوعة ويكيبيديا أن: الدوسيتية هي مذهب مسيحي يتعلّق بطبيعة المسيح الحقيقي. أصل الاسم عن فعل في اليونانية يعني "الظهور" أو "الظاهر". وبهذا فإن المذهب يعتقد أن آلام المسيح وطبيعته البشرية ليست إلا أموراً ظاهريّة وغير حقيقة. وقد تطور المذهب بين افراد الغنوسيين من اوائل المسيحيين الذين ثاروا ضد ما اعتبروه فضيحة الصليب، خاصة وأن بعضهم نظر فكرة أن المسيح لم يصلب لأن شخصاً آخر وضع محله على الصليب أو لأن حادثة صلب المسيح على الجملة كانت مجرد وهم. بل ان هؤلاء كانوا يعتقدون أن كل ما شوهد من حياة المسيح كان قائماً على وهم الآخرين. وقد وجد هذا المذهب عدة أصداء خلال تاريخ المسيحية عبر العصور وظهر تحت عدة مسميات ومذاهب).

[178] غويدو دي لوزينيانو

Gerard de Ridefort

[179] المعلم الكبير

[180] ترجمتها غابريللي (فاح عطره).

[181] أي "المسيحيين" مثل الذين يعبدون الأقانيم الثلاثة أو الأشخاص الإلهية

[182] يبدو الكونت هنا في موقف مضاد لذلك الذي رسمه به ابن الأثير في بدء المعركة

[183] أراد بهذه الصورة البلاغية الأنique ما قاله ابن الأثير بكلمات بسيطة: "ترجلوا عن الفرس

وجلسوا على الأرض".

[184] أي أن المسيحيين أذلوا كأنهم يهود جبناء. وكان غابريللي قد ترجم العبارة "وعادوا مثل أغnam

بائسة بعدما كانوا أسودا".

[185] لابد أن عماد الدين اعتبر هذه السحبة البلاغية الرهيبة برهاناً ساطعاً على روعة أدبه.

[186] يشكل هذا النص الذي يرويه مؤرخنا شاهد العيان، بأسلوبه المطرز المعتاد، لطخةً تعيب شهامة صلاح الدين المزعومة. من جهة أخرى لا يمكن تفسير هذه المذبحة إلا بذلك الحقد الذي زرعته الطائفتان الحرفيتان في الجانب الإسلامي، وذلك من خلال سلوكهما الحربي الذي لم يكن بكل تأكيد أكثر إنسانية (ومسيحية) من سلوك أعدائهم.

[187] Eraclio

[188] Balian d'Ibelin

[189] يملؤ النقب بعد حفره بم مواد محترقة، ما إن تشتعل حتى يسقط الجدار الذي يعلوه.

[190] حسب غابريللي والنمسخة العربية الأصلية، لكن نسخة الانترنت تذكر 491.

[191] يصعب مع هذا الخبر تحديد هوية تلك المرأة، وفيما إذا كانت هي نفسها Maria Comnena أرملة الملك Amaury زوجة الملك غويدو دي لوزينيانو

[192] Sibilla زوجة الملك Stefania Honfroi de Thoron أم

[193] [194] أسلفنا بأن الأقصى ومسجد الصخرة، المسمى مسجد عمر، هما مسجدان متقاربان لكن متميزان. من المؤكد بأن هذا الحفل الكبير جرى في الأقصى، قام صلاح الدين بعدها بالصلاوة في مسجد

[195] الصخرة، ويبعد هذا بصورة واضحة في الرواية التي سنستشهد بها بعد قليل عن عماد الدين نرى أن ابن الأثير لا يترك فرصة تمر دون أن يظهر تعلقه بالأسرة الزنكية التي أطاح بها صلاح الدين.

[196] الخليفة الثاني (634 - 644). فتح المسلمين في عهده القدس للمرة الأولى (637).

[197] في العربية: القيامة، لكن الكتاب المسلمين آنذاك كانوا يرون من واجبهم تحويل الاسم إلى: القمامنة وذلك للحط من قيمتها. وقد أوردها عماد الدين هنا وبعد ذلك تحت هذا الاسم، ويقصد القبر المقدس.

[198] إشارة إلى آية قرآنية تذكر رمي سحرة مصر للجبال أمام موسى (عليه السلام) ليتخيلو أنها تسعى - الآية 66 سورة 20 (طه).

[199] هذا صدى قرآني آخر: المائدة هي مائدة القرىان المقدس التي يرى (كذا) محمد (صلى الله عليه وسلم) أن معجزة أنزلتها من السماء، قرآن (كريم) السورة 5 (المائدة). أما المسيح الصبي المتتكلم، قرآن (كريم) الآية 30 وما بعدها من السورة 19 (مريم)، فهو صدى (كذا) L'Infantiae Evangelium.

[200] معلومات مجذزة وعداء مسبق ساهمت في دفع هذا الكاتب المسلم على رسم هذا الخلط العجيب من العقائد والطقوس المسيحية، لكن هذا التصوير الكاريكاتوري للمسيحية، بعيداً عن الأسلوب المطرز، هو نفسه الذي نراه عادة لدى مسلمي العهد المتوسط. ولا نستطيع أن نقول بأن الأمر كان مختلفاً لدى الطرف الآخر.

[201] رأينا أن هذا نسبة إلى لقب صلاح الدين الناصر لدين الله

[202] ترجمتها غابريللي (ألوية صفر لشقاء بنى الأصفر).

[203] بعيداً عن تلاعب الألفاظ (الاشتقاق الحقيقي هو من ذكر توراتي عن Sofer قریب Esau)، ويرى العرب أنهم قدامى الرومان ثم اللاتين والغربيين، وقد سموا بعدها بالعيون الزرق، وكوصف عرقي وكووصف شؤم وتطير.

[204] الأعوام القمرية للهجرة، من 492 (1099) إلى 583 (1187).

- [205] البراق السماوي الذي يعتقد إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) انطلق عليه في معجزة المراج من الصخرة نحو العالم الآخر. وتظهر في النص رغم تزويبات عماد الدين تلك المعالم التي جعلت ماتزال تجعل القدس ثمينة بل ومقدسة لدى المسلمين. راجع بعدها الرسالة التي بعث بها صلاح الدين ريتشارد وظهرت فيها نفس الأسباب.
- [206] باب الرحمة، المسمى اليوم بباب الذهب، أحد أبواب المعبد المقدس.
- [207] القبلة هي وجهة الصلاة التي جعلها (كذا) محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو القدس قبل أن يحولها نهائياً (كذا) نحو مكة. فالقدس هي إذن أول القبلتين، وثالث الحرمين بعد مكة والمدينة، وفيها بيت الله الثاني بعد الكعبة.
- [208] قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 17 (الإسراء)، وفيها ذكر إسراء النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى القدس. وبعد المراج الليلي نحو السماء.
- [209] قرآن (كريم) الآية 37 من السورة 3 (آل عمران) لقب الخليفة عمر
- [210] قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 17 (الإسراء) أي من العائلة الأيوبية.
- [211] [212] يبدو أنه يريد القول إنها كانت تبث الرعب بشكل تنفطر معه مرارة من يستطيع تقدير أثرها المميت. لكن هذه الصور لم تذكر إلا لصالح السجع الذي يضيع في هذه الترجمة.
- [213] [214] الملكة Sibilla ابنة الملك Amauri
- [215] Honfroi de Thoron Stefania ابنة Waramla Filippo di Milly وارملة Renaud de Chatillon
- [216] أي هدفاً وجهة كما اسلفنا
- [217] يبدأ الكاتب هنا بمدح نفسه، على أنه ذو القلم الفاضل والكاتب السلطاني الأمين في التعبير عن الإرادة السلطانية.
- [218] تلاعب بلحظة البروج بين معنوي برج القلعة وبرج الفلك
- [219] تلاعب بالالفاظ وسجعوا مرة أخرى للتعمير عن انتشار الخبر السعيد حتى في انجاء بلاد فارس وأسيا الوسطى الإسلامية
- [220] ذكر هذا حبا في الجناس او انه يشير الى صناديق الصدقات وما شابها
- [221] اي الى كنيسة القبر المقدس كما في هامش سابق
- [222] قرآن (كريم) الآية 29 من السورة 9 (التوبة) نقلها غابرييلي بالاطالية عن ترجمة حديثة بقلم F. Rosenthal
- [223] محراب الصلاة في قبلة المسجد الأقصى الذي يدور عنه الحديث في هذا المقطع، فارن هذا مع رواية ابن الأثير السابقة.
- [224] يفسر غابرييلي معنى الأذان ثم يكرر معنى ألواح الخشب التي كان مسيحيو الشرق يستعملونها بدل الناقوس
- [225] أوتاد الخيام والأوتاد من درجات الصوفية أيضاً، وترجمنا "الأبدال" بعبارة كبار القيسين، وهم أيضاً من درجاتهم.
- [226] أي طالباً لتوسيط كاتب السلطان، ورغم المحسنات البديعية التي نمّق بها كاتبنا روايته عن هذه المسابقة، فإن جمال السعي نحو نيل المنصب يبدو بوضوح.
- [227] حافظ صلاح الدين السنى على صلته النظرية بالخلافة العباسية بينما قضى على الخلافة الفاطمية المنشقة في مصر.
- [228] عرفات قرب مكة من مواقع الحج الاسلامي حيث يحيى الحجاج بالبعد والصلاة الليل في الخيام (كذا)
- [229] ام الكتاب أي السورة الاولى او الفاتحة والتي تبدأ بالبسملة
- [230] الاجماع والقياس من مبادئ الفقه الإسلامي
- [231] انتقال البركات من الاشخاص والأشياء المقدسة
- [232] تصاویر حیوانیة من الفن الرومانی (تیجان اعمدة ونقوش بارزة) أما عن الخنازير فهناك شك بان المقصود هو الحيوان بالذات ام انها كنایة عن ذكر المسيحيين.
- [233] القراءات السبع وما زاد هي قراءات بفوائق بسيطة لكتاب المقدس (القرآن الكريم)
- [234] النقش التذکاري الذي مازال يخلد اسم السلطان
- [235] أخوه صلاح الدين صفاء الدين وقد أصبح سلطاناً على سوريا ومصر حتى عام 1218

- [236] ابن اخ صلاح الدين وامير حماة (1191-1178)
- [237] ابن صلاح الدين وخليفته على سوريا (1196-1186)
- [238] ابن آخر لصلاح الدين وخليفته على مصر (1198-1193)
- [239] تعني اليوم القنابل المعروفة ولاندري ان كانت تعني وقتها الطلقات
- [240] السهام اليزنية والردنية كانت مميزة لدى قدماء العرب وكذلك السيفون المشرفة في ماوراء سورية
- [241] تقوّت (عن غابرييلي)
- [242] المدرسة هي معهد عالي لعلوم الدين والفقه الاسلامي. وقد تم الالتفات أولاً إلى المدرسة الشافعية لأنها كانت سائدة آنذاك في مصر وسوريا. لكن السلطان دبر أيضاً لغيرها (الحنفية والمالكية والحنبلية) وهذا واضح بعد سطور قليلة في الحديث عن "مدارس للطوائف".
- [243] San Giovanni
- [244] في نسخة أخرى (المركيش) [المترجم]
- [245] ليس هذا هو النص الوحيد الذي تلوّح فيه عداوة مؤرخ ما بين النهرين لصلاح الدين، وكان هذا دائماً بسبب ميله للعائلة الزنكية التي أطاح بها صلاح الدين. لذلك فإننا لا ندرّي مدى صحة نقه هنا لسلوكه الحربي: لكن المهم هي الروح التي تتجلى، والتي لم تمنع ابن الأثير من الاعتراف ولو على على مضض بعظامه هذا البطل المسلم.
- [246] Il Marrchese di Monferrato
- [247] وكان صلاح الدين قد صدهم خلال معركة سابقة
- [248] غزوة مؤتة شرقى الاردن عام 629 عندما هزم البيزنطيون حملة محمد (صلى الله عليه وسلم)
- [249] Gerard de Ridefort أسره صلاح الدين في حطين ثم اطلق سراحه.
- [250] قرآن (كريم) الآية 11 سورة 13 (الرعد) يعود موقف ابن الأثير النقدي من تحركات صلاح الدين العسكرية.
- [251] قبائل كردية
- [252] اي الذين يحملون اسم اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين
- [253] يتقدّم هذا التاريخ بأكثر من شهر على تاريخ ابن الأثير والمصدر الذي أخذ عنه أي عماد الدين (منتصف شوال)
- [254] الخنازير نجسة لا يأكلها المسلم قط.
- [255] تل العياضية قرب عكا، في التاسع من ربيع اول 587 (6 نيسان/ابريل 1191)
- [256] الحقيقة أن هذا الجواب الكريم يجعل صورة صلاح الدين التاريخية تتطابق مع صورته الأسطورية
- [257] هذه صفحة من الاباحية التقية ذات الطراز الباروكي المزخرف قد تثير اهتمام هواة ادب العجائب والغرائب
- [258] هذه هي الاشارة الوحيدة لطبيعة تلك المرتزقات الالائي تم تصويرهن كأنهن يمثلن العقيدة المسيحية، لكن هذه العبارة عن طلب الاجرة بغمزة العين والخطيئة قد تفهم أيضاً بمعنى غير فاسد.
- [259] هذه "كلوريندا" ثانية في الجانب المسيحي، لكن أسامة يطلعنا على أنه كان هناك في الجانب الاسلامي أيضاً نساء تمكن من حمل السلاح.
- [260] سبق وان اسلفنا ان فهم المسلمين للمسيحية يستند الى نظريات دوسيتية. (راجع هامش رقم 179).
- [261] احتفالات النيران خلال السبت المقدس كان يجري احياؤها في القبر المقدس حتى القرن المنصرم
- [262] سلطان قونية السلاجوقي
- [263] فيديريك وقد مات بعدها بقليل على عكا
- [264] قرآن (كريم) الآية 11 من السورة 33 (الأحزاب) - تشير الآية الى حصار المدينة من قبل حلفاء المشركين، في السنة الخامسة للهجرة (617).
- [265] Filippo Augusto
- [266] فيليب، كونت الفلاندرز
- [267] ريتشارد قلب الأسد

- [268] قرع الطبول والرجوع الى المعركة من جديد (عن غابريللي)  
[269] قرآن (كريم) الآية 134 من السورة 3 (آل عمران)  
[270] ترجمتها غابريللي (القوس والنشاب).  
[271] ترجمتها غابريللي (مركبأ).  
[272] أي أن في هذه الخطة مغامرة بالاسلام كله (المترجم).  
[273] يبدو انها كانت هزة ارضية  
[274] الصفوف السماوية التي غالباً ماتراها المعتقدات الاسلامية تتدخل في المعركة  
[275] قرآن (كريم) الآية 54 من السورة 3 (آل عمران)  
[276] أورد غابريللي هذا المقطع على النحو التالي: "كان دور الملك العادل على مقدمة الجبهة عندما طلب ملك انكلترا منه أن يبعث له برسول، فبعث له بأمين سره الذي كان من صنيعه وكان شاباً حسناً اسمه ابن النهال، فذهب إلى ريتشارد وهو في مكان اسمه بازور مع جم من صحبه..." [المترجم]  
[277] يقول غابريللي إن النص والمعنى غير واضحين ويمكن أن يفهم منهما "إن موت المسيح هو كذبة كبرى" أو "إن في تحطيم الصليب جدارة عظيمة"  
[278] Giovanna di Sicilia أرملا غوليام الثاني  
[279] كان يجب ان يقول: اخت زوجة الملك غويدو وليس غوفريدو كما يكرر بهاء الدين. كانت Isabella d'Angio اخت الملكة Sibilla تزوجت أولاً من Honfroi Thorono ثم خلعت منه وتزوجت من Corrado di Monferrato.  
[280] قد يكون المتكلم سفير ملك الانكليز أو أنه صلاح الدين بالذات  
[281] يذكر النص 11 شوال مما لا يتفق مع التواريخ السابقة  
[282] كما قال بهاء الدين كانت اخت ريتشارد ارملا اما العذراء فلا حاجة بها الى موافقة البابا.  
[283] الواقع ان كل مشاريع الزواج هذه لم تشهد النور بسبب المعارضة المسيحية على تزويج امراة مسيحية من كافر.  
[284] حطم خنجر الحشاشين بعدها بقليل كل حيادات كوراد هذه وهو نفسه لم يشهد انعقاد السلم.  
[285] السفير المسلم المفوض Enrico di Champagne الملك الم قبل، Balian II di Ibeling.  
[286] كان تهديم المسلمين لسور عسقلان من شروط المعاهدة.  
[287] يتكرر هنا حدس صلاح الدين بمותו، وكذلك في الفقرات التالية.  
[288] اي الخصمان  
[289] تلاعب الفاطح بالاشارة الى اصحاب النبي (صلى الله وعليه وسلم) من جماعتي المهاجرين المكيين والانصار  
[290] فليلاحظ الاسلوب الشرقي بالافصاح او لا عن الموافقة عندما يكون الهدف الانتقال الى رأي معارض.  
[291] قرآن (كريم) الآية 61 من السورة الثامنة (الانفال)  
[292] Marchese di Monferrato  
[293] يقول غابريللي إنهم الـ Assassini الذين يرى المسلمين السنة أنهم خارجون عن الاسلام.  
[294] جاء في موسوعة ويكيبيديا أن شيخ الجبل أو حارس الجبل كان بطل قصة وردت في كتاب "المليون" لماركو بولو. وقد انتشرت هذه القصة آنذاك في أنحاء اوروبا.  
[295] يقول غابريللي إنهم الـ Assassini الذين يرى المسلمين السنة أنهم خارجون عن الاسلام.  
[296] Henri di Champagne  
[297] اي استلامه للحكم في صور وعرسه.  
[298] حارس الجبل أو المعلم الكبير لدى الحشاشين - راجع المقطع التالي.  
[299] الباطنية ريف آخر للسامعينية أو الفدائية أو الحشاشين، ويعني حرفيأً أتباع مذهب سرّي يقتصر على جماعة معينة.  
[300] عباءة وطاقية مما كلن يستعمله الشرقيون آنذاك.  
[301] واحد من حصون الاسمااعيليين قرب بابايس شمالي سوريا. المولى هو حارس الجبل رشيد الدين سنان المسرودة قصصه في هذا المصدر.

[303] يتراوح معنى الدعوة الحرفى بين الرسالة والدعـاية. ويقصد بها هنا الدعـوة الاسماعيلية. وينطبق معنى الدعـاية (أو نشر الدعـوة) في السطور التالية لدن الحديث عن فتح مقرات لها في مختلف المدن.

[304] كان موت السلطان على الغالب فرصة سانحة للاضطرابات والنـهب.

[305] أمير حلب زمن الحملة الصليبية الأولى.

[306] تظهر التفاصيل التالية هشاشة تلك الدولـات القائمة على اقطاعية عسكرية فوضـوية خاصة عندما تسقط شخصية الزعيم القوية مثل صلاح الدين ومن بعده العادل والكامل. نرى أن الاحتياطـات التي يتخذـها الـابن الكبير الفاصل لضمان خلافته على سوريا وأحقـيته في السيادة على موقع الأيوبيـين تصطـدم منـذ الـبداية مع أـنانيـات مختلفـ الأمـراء الذين يـسعـيـ كلـ منـهم لأنـ يـضـمن لنـفسـه المنـافـع والأـمتـياـزـاتـ. لكنـ المستـقـيلـ خـيبـ آمالـ ذـاكـ وـاولـئـكـ حـيثـ نـالـ الأولـويـةـ أـخـوـ مؤـسـسـ الأـيوـبيـينـ أيـ المـلـكـ العـادـلـ.

[307] منـ الشـائـعـ فيـ قـسـمـ المـسـلـمـينـ الـحـلـفـ بـطـلاقـ الزـوـجـ إذاـ نـكـثـ الـحـالـفـ بـقـسـمهـ.

[308] والـواـقـعـ أـنـ السـيـادـةـ الـمـباـشـرـةـ الـتـيـ سـيـمـتـعـ بـهـاـ الـأـفـضـلـ مـنـ إـرـثـ صـلـاحـ الـدـينـ إنـمـاـ هـيـ عـلـىـ سـورـيـةـ، لـأـنـ مـصـرـ هـيـ لـأـخـيـهـ الـعـزـيزـ.

[309] لاـ تـطـابـقـ كـلـ الـعـبـارـاتـ مـعـ كـتـابـ غـابـرـيـلـيـ الـذـيـ اـخـتـصـ بـعـضـهـ. [المـتـرـجـمـ]

[310] مـزـارـ قـرـبـ دـمـشـقـ

[311] قـرـآنـ (كـرـيمـ) الـآـيـةـ 22ـ مـنـ سـوـرـةـ (الـحـشـ)

[312] قـرـآنـ (كـرـيمـ) الـآـيـةـ 129ـ مـنـ سـوـرـةـ (الـتـوـبـةـ)

[313] يـعودـ هـنـاـ الـحـدـيـثـ عـنـ نـزـاهـةـ صـلـاحـ الـدـينـ وـتـقـشـفـهـ الـوـاسـعـ. وـلـمـ أـفـهـمـ تـامـاـ نـفـعـ التـبـنـ وـالـطـينـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـضـعـ. (المـتـرـجـمـ: يـجـوزـ أـنـهـمـاـ مـاـ يـسـتـعـمـلـ فـيـ بـنـاءـ الـقـبـرـ)

[314] مـنـ الشـائـعـ أـنـ ضـمـائـرـ وـعـقـائـدـ الـمـسـلـمـينـ تـشـغـلـ كـثـيرـاـ بـالـأـصـلـ الـشـرـعـيـ الـحـلـلـ لـمـصـادـرـ الدـخـلـ وـالـأـشـيـاءـ الـتـيـ يـسـتـعـمـلـهـاـ الـمـؤـمـنـ فـيـ حـيـاتـهـ وـلـدـنـ مـوـتهـ.

[315] مـعـ الـمـلـكـ Guglielmo di Brienne, Andrea II d'Ungheria, وـمـلـكـ قـبـرـصـ Ugo di Lusignano.

[316] حـصنـ اـسـلـامـيـ قـرـبـ عـكـاـ

[317] تـمـكـنـ الـعـادـلـ مـنـ تـوـجـيدـ مـخـلـفـ الـبـلـادـ الـتـيـ كـانـتـ تـحـتـ سـلـطـةـ أـخـيـهـ صـلـاحـ الـدـينـ وـجـعـلـهـاـ تـحـتـ سـيـادـتـهـ.

[318] تـرـجمـهـاـ غـابـرـيـلـيـ بـمـاـ مـعـناـهـ (فـيـ كـلـ حـدـبـ وـصـوبـ).

[319] اـرـادـ عـلـىـ الـأـقـلـ الـغـاءـ أـهـمـيـتـهـاـ الـعـسـكـرـيـةـ، وـذـلـكـ خـيـفـةـ مـنـ الـاـضـطـرـارـ إـلـىـ إـعادـةـ الـمـدـيـنـةـ الـمـقـدـسـةـ الـيـهـمـ، كـمـاـ عـرـضـ عـلـيـهـمـ بـالـفـعـلـ

[320] قـرـآنـ (كـرـيمـ) الـآـيـةـ 3ـ مـنـ سـوـرـةـ (صـ)

[321] فـيـ مـحاـوـلـةـ لـلـإـنـسـحـابـ مـنـ الدـلـلـ الـمـلـحـقـةـ، كـمـاـ سـيـروـيـ لـاحـقاـ

[322] بـنـاءـ عـلـىـ هـذـاـ عـرـضـ يـمـكـنـاـ أـنـ نـقـيـسـ أـهـمـيـةـ دـمـيـاطـ وـصـحـةـ حـسـابـاتـ الـفـرـنـجـةـ فـيـ مـهـاجـمـتـهـ. وـالـكـرـكـ الـمـسـتـشـىـ مـنـ عـرـضـ التـسـلـيمـ (وـتـضـمـ تـقـرـيـباـ كـلـ مـكـاـسـبـ صـلـاحـ الـدـينـ) هوـ كـرـكـ مـعـابـ الـذـيـ يـشـرـفـ عـلـىـ طـرـقـ الـمـواـصـلـاتـ بـيـنـ سـورـيـةـ وـمـصـرـ.

[323] يـقـولـ غـابـرـيـلـيـ إـنـ هـنـكـ رـوـاـيـةـ أـخـرـىـ تـقـوـلـ (أـسـرـنـاهـمـ)

[324] يـمـكـنـ أـنـ تـكـونـ الـعـبـارـةـ جـانـبـاـ مـاـ سـبـقـ مـنـ قـوـلـ السـلـطـانـ.

[325] وقد حـكمـ مـصـرـ بـعـدـهـاـ بـيـنـ 1240ـ وـ1249ـ

[326] فـيـ هـذـهـ الـحـمـلـةـ وـقـبـلـ هـذـاـ بـقـلـيلـ ظـهـرـ لـيـعـظـ "فـيـ حـضـرةـ السـلـطـانـ الـجـلـيلـةـ" الـقـدـيسـ فـرـانـشـيـسـكـوـ أـسـيـسـيـ S.Francesco d'Assissi، وـقـدـ اـعـتـقـدـنـاـ بـالـعـثـورـ عـلـىـ أـثـرـةـ مـنـ اـشـارـةـ فـيـ الـمـصـادـرـ الـشـرـقـيـةـ تـتـحدـثـ عـنـ مـسـتـشـارـ مـسـلـمـ لـلـمـلـكـ الـعـادـلـ "حـولـ قـصـةـ الـرـاهـبـ". (المـتـرـجـمـ: هـنـاكـ كـثـيرـ مـنـ الـأـدـبـاـتـ بـلـ وـالـرـسـومـ حـولـ لـقـاءـ جـرـىـ بـيـنـ هـذـاـ الـرـاهـبـ الـمـشـهـورـ وـبـيـنـ الـمـلـكـ الـعـادـلـ. أـمـاـ عـبـارـةـ "فـيـ حـضـرةـ السـلـطـانـ الـجـلـيلـةـ" فـهـوـ بـيـتـ شـعـرـ لـدـائـىـ الـيـغـيـرـيـ فـيـ الـكـوـمـيـدـيـاـ الـأـلـهـيـةـ.

[327] هـذـهـ اـرـقـامـ اـورـاقـ لـكـنـ تـرـتـيـبـهـاـ تـغـيـرـ فـيـ مـخـطـوـطـةـ بـارـيسـ

[328] صـاحـبـ دـمـشـقـ وـاخـوـ الـكـامـلـ الـذـيـ رـأـيـنـاـ كـيـفـ سـارـعـ إـلـىـ مـنـاصـرـتـهـ ضـدـ الـفـرـنـجـةـ فـيـ دـمـيـاطـ. لـكـنـ عـلـاقـتـهـمـاـ تـدـهـورـتـ بـعـدـهـاـ وـسـادـ التـوـتـرـ بـعـدـمـاـ تـقـرـبـ مـنـ سـلـطـانـ خـوارـزمـ جـلـالـ الـدـينـ وـالـىـ اـمـيرـ اـرـيـلـ، مـاـ دـفـعـ الـكـامـلـ لـتـقـرـبـ مـنـ فـيـدـيرـيـكـ.

[329] قدـ يـوـجـدـ هـنـاـ بـعـضـ الـخـلـطـ بـيـنـ اـسـمـيـ مـنـطـقـيـ لـوـمـبـارـدـيـاـ وـلـانـغـوـبـارـدـيـاـ وـذـلـكـ بـسـبـبـ التـسـمـيـاتـ الـجـفـرـافـيـةـ الـعـرـبـيـةـ السـائـدـةـ اـنـذاـكـ. وـقـدـ وـرـدـ كـلـ اـسـمـيـ فـيـ رـسـالـةـ فـيـدـيرـيـكـ بـالـعـرـبـيـةـ التـيـ سـنـورـدـهـاـ لـاحـقاـ.

[330] يشير فيديريك إلى عروض تسليم الساحل التي قدمها الكامل للصلبيين في 1220 تحت دمياط (راجع الصفحات السابقة). بل إن الإمبراطور يسخر من مبعوثه Pelagi<sup>o</sup> حين يقول "إنه مبعوثي أي آخر خدمي. وعليكم أن تقدموا لي الآن ما لا يقل عما كنتم مستعدين لتقديمه له." (تاريخ منصوري 32 مقرزي 229-228).

[331] عشر سنوات وخمسة أشهر واربعون يوماً بدءاً من أول 24/626 شباط/فبراير 1229 (مقرزي 230).

[332] اريفه

[333] ترجمتها غابريللي (يخرج عن حدوده).

[334] رأينا الصدام بين الكامل والمعظم صاحب دمشق مما فسح المجال أمام التقارب مع فيديريك. ونرى هنا أن الناصر الذي خلف أبيه على دمشق يحاول أن يستغل الانطباع بتسليم القدس من أجل تدعيم ملكه المهزوز.

[335] يحدثنا بهذا ابن الجوزي في صفحات من تاريخه قدمناها بعد قليل.

[336] شاعر من زمن هرون الرشيد (القرن الثامن-التاسع)، وقد قام الوعاظ باستبدال بعض كلمات القصيدة ليطبقها على وضع القدس التي لم تعد مسلمة.

[337] يحدد مقرزي هذا في أواخر جمادى الثاني (أيار/مايو 1229)

[338] من قبل الكامل والاشraf ضد ابن أخيهما الناصر

[339] لا ينسني هنا معرفة ماهية تلك القراطيس التي كان يحسب هذه الرواية يأخذها ذلك الخوري الأفرنجي. (وليمكننا الطعن بأنها كانت دراهم ورقية). وقد رأينا أن رواية ابن واصل تقول إن الخوري هو الذي كان يحمل الانجيل. أما (المستشرق) ميكيلي أماري في tieten أن بعض العبارات سقطت من النص.

[340] يفسر غابريللي معاني "الجبار" بالعربية ويقول إن أماري يظن أن الإمبراطور قال "خنازير" وذلك على سبيل النكتة وفي سجع مع "عصافير"، ويبدو أنه قالها بالعربية مما يشهد بمعرفته بها حتى باعتراف المصادر الشرقية.

[341] يقول غابريللي "أحمر الوبر وأصلع".

[342] قرآن (كريم) الآية 91 من السورة 13 (المؤمنون)

[343] تقرأ "الداوية" أو "الدونة" بحسب المخطوطة، اشاره إلى المؤامرات المسيحية ضد فيديريك. راجع أماري في "تاريخ المسلمين في صقلية" الطبعة الثانية الجزء 3 ص 660

[344] نسبة إلى (بمختلف اللغات اللاتينية): -Svevia- Swabia- Schwaben- Souabe -Suēbia [المترجم]

[345] بين 1238 و 1240

[346] بين 1240 و 1249

[347] المهمندار هو مدير المراسم المختص بالعلاقة مع السفراء وكبار الضيوف في قصر مانفريد. أما عن اسمه فلم يصلنا إلا سرير، فافتراضت مجموعة المطبعة أنه كان Sir Berto.

[348] حملة سان لويس على مصر وسيأتي ذكرها.

[349] من ينظر في خريطة الادريسي فلن يدهش من قرب إيطاليا من إسبانيا بحسب المعارف الجغرافية لدى الشرقيين آنذاك.

[350] بحسب غابريللي Lucera

[351] هذه معلومة ثمينة حول الحياة الثقافية لمجموعة المسلمين في مدينة لوحادة (لوشيرا) ولم يكن هذا معروفاً. ويبدو واضحاً أن مؤسس "دار العلم" المؤسسة العلمية المذكورة لاحقاً إنما هو مانفريدي، كما أن "كان قد شرع" هي اشاره للأب.

[352] Carlo d'Anglo 'أخو الملك لويس التاسع

[353] إشاره إلى خلفاء العباسيين من سلالة عباس عم محمد (صلى الله عليه وسلم).

[354] يتضح من هذه المقاطع وغيرها انه كانت تسود آراء تقارن بين الخليفة والبابا، ذلك رغم الاختلاف العميق الواضح بين هذين المنصبين من النواحي الدينية والقانونية.

[355] "وملك أخوه البلاد" سهو في النص وال الصحيح: وملك أخو ملك فرنسا البلاد، أي Carlo d'Angio وهذا ما يوضحه حتى أبو الفدا الذي نسخ عن ابن واصل.

[356] حران في مابين النهرين كانت تابعة لسيطرة الإيوبيين

[357] وقد رأينا انه مفوض الكامل ودليل/مستشار الإمبراطور في الاراضي المقدسة

[358] من مهازل البروتوكول

- [359] تتعاقب في هذا القسم الاول ابيات الشعر والنشر المسجوع وتعبر، بأسلوب الغمز التصويري المعروف في البلاغة العربية، عن الاسى على بعد الصديق. لكن النص غير موثوق على الاطلاق.
- [360] طبع آماري السطور التالية على انها نثر، لكننا نرى صيغة شعرية في هذا النص التالف وخاصة في سطره الاول.
- [361] المتنبي الشاعر العظيم من القرن العاشر
- [362] Montecassino
- [363] . يتحدث عن جيش البابا جورج التاسع او الكتائب المسلحة من حملة شارة المفاتيح البابوية التي غزت سنة 1226 بقيادة ملك القدس السابق Giovanni di Brienne مملكة بوليا وصقلية واقتاحتها خلال تغيب فيديريك الثاني عنها لوجوده في الحملة الصليبية. وقد هزم الامبراطور هذا الجيش وألزم البابا بالاستسلام عام 1230. (المترجم عن موسوعة تريكانى Treccani).
- [364] يبدو أنها Caiazzo، وحدث عسكري جرى في ايلول/سبتمبر 1229.
- [365] هو نفسه الذي رأيناه قبل عشرين سنة يسير المفاوضات مع فيديريك وقد وضعه الان ايوبى الملك الصالح المريض في قيادة الدفاع المصري.
- [366] هي قطعة بربة طويلة بين النيل وبحيرة منزلة على طرف دمياط.
- [367] حاولوا اذن اخفاء خبر وفاة السلطان ربما يصل ابنه الملك المعظم ويترقى للعرش. وعلامة الملك هي توقيعه (او ختمه) على وثائق الدولة.
- [368] قرآن (كريم) الآية 41 من السورة 9 (التوبية)
- [369] شاعر ايوبى وكاتب (لدى السلطان)
- [370] المعظم الذي عرفناه وهو اخو الكامل وابو الناصر داود (صاحب دمشق ثم الكرك) ويجب ان يعرف بأنه ليس المعظم توارنشاه ابن الصالح الذي يخلف هنا اباه وهو اخر ايوبى مصر. خاصة وأن لقب النساء الايوبيين تختلط بسبب تشابه الأسماء.
- [371] تفصل رواية مقرزي اكتر وتقول انهم كانوا فرقة من الداوية (فرسان الهيكل)
- [372] كان في الواقع الوصي على عرش مصر في الفترة بين موته وتوبيخ ابنه المعظم قبل ان يصل من سفره من ما بين النهرين.
- [373] أي مإن اشتد الخطب حتى هجمت الطائفة التركى... الخ (عن غابرييلي). والبحرية خرجت من بينهم أول مجموعة مماليك وسموا كذلك لأنهم كانوا يعسكرون في بحر النيل في القاهرة. أما الجدرية فكانوا نوعاً من الخدم بين المماليك.
- [374] متصرف القاهرة ثم وزير يعمل لديه كاتينا ابن واصل
- [375] احد ابواب القاهرة ومازال قائماً
- [376] ذراع ميت من النيل ذكر في احداث الحملة الخامسة
- [377] يوم عظيم في الحج الاسلامي.
- [378] وهذا اعظم مدح عدو به القيمة القتالية لجماعة الداوية
- [379] يعتبر المسلمين يسوع المسيح نبياً عبداً لله أتى بالمعجزات ولهذا فإنه يعتبر هو بالذات كفراً عبادة للمسيحيين له.
- [380] بعد أن ميّز عناصر أخرى جلها معه من ما بين النهرين مثل ذلك الطواشي صبيح الذي قرأنا للتو عنه.
- [381] يفسر هذا التقديم التجيلي ليبرس أن كاتبه - ابن واصل - كان عاملاً بإمرته ومتعمماً بيهاته، فضلاً عن أن التقديم مطابق للحقيقة التاريخية، ومع هذا فإنه لا يفلح في تجميل المنظر التالي (وقد أورد آخرون تفاصيل أخرى رهيبة مروعة) الذي شكل أساس انطلاقه ملك سلطان مصر المُقبل.
- [382] الطائفة المنشقة التي رأينا أنها متخصصة بالاغتيالات السياسية.
- [383] جارية تركية ولدت للملك الصالح انه خليل الذي مات طفلاً. وقد رأى ابن واصل أنَّ تسلُّم هذه المرأة للسلطنة كان حدثاً لسابق له في تاريخ الإسلام، وقد شكل فترة انتقالية بين حرص الايوبيين على شرعية ملوكهم وبين النظام العسكري المملوكي الذي خيم عملياً على مصر: خاصة بعد أن تزوج كبير عسكرهم آبيك من شجرة الدر مبتدأ حكم سلالة المماليك.
- [384] يفهم من السطور السابقة أن العرض كان يتعلق بالسلطنة، لكن السطور التالية تظهر أن العرض كان لقيادة الجيش، وسنرى على كل الأحوال أنه سرعان ما اجتمع هذان المنصبان في يد رجل واحد.
- [385] خطبة الجمعة من على منبر الجامع حيث يدعى لولي الأمر الحاكم.

- [386] زوجة الظاهر سلطان حلب الذي مات في 1216 ومات ابنهما العزيز في 1236 عندما بدأ ولادة الجدة باسم حفيدها.
- [387] جرى ذكر ذلك [388] زمن الحملة الخامسة.
- [389] أي بعد المدائن المسيحية
- [390] قرآن (كريم) الآية 277 من السورة 26 (الشعراء)
- [391] قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 16 (النحل)
- [392] قرآن (كريم) الآية 88 من السورة 38 (ص)
- [393] قرآن (كريم) الآية 149 من السورة 2 (البقرة)
- [394] ضاحية روما الأفريقية، أي تونس.
- [395] ملوك انكلترا، اسكتلندا، تولوز، برشلونة (المسمى (Re d'Aragon
- [396] ملك تونس بين 1240 و 1277
- [397] في 25 آب/اغسطس
- [398] اشارة الى سجنه من قبل في مصر. ومنكر ونكير لها الملكان الذي يعتقد المسلمون أنها أول من يحاسب الميت حسابا عسيرا.
- [399] Raymond de Saint-Gilles بناء Mont-Pelerin في 1103
- [400] المحدث هو ابن أخ ابن عبد الزاهر منسق اعمال عممه.
- [401] مع بيمند الرابع (1233-1277) توحدت امارة انطاكيه وكوتيبة طرابلس تحت السلالة الانطاكيّة.
- [402] في 1271 بعد أخذ انطاكيه بثلاث سنوات.
- [403] هو محي الدين ابن عبد الزاهر المؤلف والراوي.
- [404] كما في تصنيف ابن عبد الزاهر. لكن مصادر اخرى تظهر الترويسة اكثر احتراماً: (الكونت النبيل الحليل، الأسد الشجاع، فخر الامة المسيحية، زعيم أممة الصليبيين، الذي أصبح لقبه بعد الظرف بانطاكيه أميراً بعد أن كان كونت... الخ). رغم اللهجة العدائية الساخرة فقد كانت تلك الألقاب كثيرة فأسقطتها المصطف. وقد تم في ترجمتنا هذه تعديل رواية ابن عبد الزاهر حينما هي تالفة وفق رواية النويري (في QUATREMERÉ, Sultans Mamlouks, I, II ص 91-190).
- [405] تفهم كتهديد بعودة جيش الاسلام على طرابلس.
- [406] تتلوى هنا العاب الالفاظ بشكل (لايفهم) ولا يترجم، وهذا مما افتخر به عماد الدين الأصفهاني
- [407] كاتدرائية القديس بطرس مركز الحياة الدينية والمدنية في انطاكيه المسيحية.
- [408] يسمى العرب نهر Oronte بالعاصرى نظراً لأنه يجري من الجنوب إلى الشمال.
- [409] Ugo الثاني مات عن 14 سنة في 1267
- [410] Isabella الأخت الصغرى لهنري الأول
- [411] Isabella d'Ibelin هوغو الثالث زوجته
- [412] Ugo di Prienne ابن ماريا اخت هنري الاول الكبرى
- [413] في كيليكيا او ارمينيا الصغرى
- [414] Carlo d'Angio هذا تجميع الحقوق في تاج القدس الاسمي (أي مملكة عكا الحقيقية) والتي حصلتها Maria d'Antinochia وأعلنت رسمياً في 1277.
- [415] الكلام للكاتب
- [416] تم توقيع هدنة مع هوغو(أوكر) الثالث في 1268 هذا بخلاف ماورد في رواية ابن فرات السابقة مع أنه استشهاد بابن عبد الزاهر. لكن الاشارة الى استمرارها حتى زمن قلاوون فانما يتعلق بهذه Cesarea (أيار/مايو 1272) بين بيبرس وعكا والتي جددت بمعاهدة قلاوون وعكا التي ستذكر لاحقاً.
- [417] وهو قلعة الأكراد Krak de Chevaliers وكان حصن الداوية الكبير الواقع شمال شرق طرابلس.
- [418] مؤرخ شيعي مغمور من القرن الثاني عشر حفظ لنا منه ابن الفرات بعض الاستشهادات
- [419] مؤرخ دمشقي من القرن الثاني عشر.
- [420] راجع الهامش رقم 48 في القسم الاول من هذا الكتاب
- [421] عمل مفقود من تاليف اسامه ابن منقذ المشهور الذي كتب ايضاً سيرته الذاتية. وتظهر كل هذه الاستشهادات طريقة التصنيف التي يسلكها ابن الفرات.

[422] عم المؤرخ ابو الفدا.

[423] الابن الكبر لبيبرس وهو شاب خلفه على عرش مصر لستين (1279-1277)

[424] Frere Hugues - Hugues de Revel

[425] التلاعب المعهود بالالفاظ كما سيجري باسم الامير ولـ العهد

[426] العليقة من حصون الاسماعيلية الذين غابت قوتهم المخيفة بعد ضربات تلقوها من المغول  
وهم هنا يتحركون بين الصليبيين وبيبرس ويدفعون أحياناً لكليهما الفدية رغم أنهم مازالوا على عادتهم  
الجارية في الاغتيالات.

[427] مؤرخ من القرن الرابع عشر، والعني هو ايضاً مصنف عن مصادر سابقة.

[428] امير مملوكي بنفس اسم السلطان الذي عاصره لكنه كان اصغر سنًا، وهو مؤلف تاريخ مهم  
حول احداث زمنه.

[429] مونت فورت، الافرنجي شمال شرق حيفا، تابع للداوية

[430] تنوع وتفويم للمفهوم الكلاسيكي القديم عن غيره الالهة (والقائل بأن كثرة الخير على  
الانسان تستدعي غضب الآلهة - المترجم عن موقع انترنت)

[431] الغراب كان نوعاً من الزوارق الخفيفة، ونقرأ هنا كما من قبل وفيما بعد التلاعب المعهود  
بالالفاظ والمعانى

[432] نص الوثيقة مشوهة

[433] التقويم السلوقي يبدأ في 311 قبل المسيح

[434] الوريث الذي عينه قلاوون لكنه مات في 1288 فانتقلت الوراثة الى الاشرف اخيه الاصغر.

[435] لا يتوفى لدينا نص هدنة ببيبرس المذكور

[436] لا يتوفى لدينا نص هدنة ببيبرس المذكور

[437] 'Carlo d'Angio مقام Odo Poilechien

[438] تابع على وتبة واحدة قائمة طويلة بمتلكات سلطان مماليك مصر مرتبة تقريراً من  
الجنوب الى الشمال. وتفصح الامور عن حالها عندما نقارن هذه القائمة مع وصف الاراضي الموجز الذي  
سنراه لاحقاً في قائمة طرف العقد الثاني، والنتيجة هي ان مملكة القدس قد مسخت الى بقعة هزيلة  
تمتد من شمال عكا الى الكرمل. وهناك خارجها صور وصيدا وبيروت وطرابلس وبعض قلاع الداوية  
والاسبارتارية في سوريا وهي كل ماتبقى من اعمال الصليبيين. اما قائمة دويلات قلاوون بدءاً من المدينة  
المقدسة فتضم كل الاراضي التي خسرها او هاهجمنا الصليبيون عانياً خلال قرن من الزمان.

[439] نسبة الى الملك العزيز ابن صلاح الدين.

[440] فتوحات ببيبرس الجديدة نوعاً ما، لكنه غير واضح ما هي الفتوحات السعيدة المذكورة لاحقاً.

[441] تسمح الشريعة الاسلامية بوجود كنائس مسيحية على اراض اسلامية، لكنها لاتسمح بترميمها  
او بنائها من جديد. الا ان السلطات المحلية كانت تعصر تبرعات من الكهنة. (تشاد كثير من دور العبادة  
التابعة لكل الاديان بتبرعات اتباعها- المترجم)

[442] خلل قديم في عادات المسلمين وغيرهم للتحلل من اليمين والعقد.

[443] يقول غابريليلي ان النص اخطأ بذكر الصليب وهذا ما صلحه Quatremere (الهامش غير  
مفهوم القصد-المترجم)

[444] هي Caliat باللاتينية، قرب عرقة وقد تعرضت قبلها الى غزو الاسبارتارية.

[445] قلعة الروم في اعلى الفرات.

[446] أصحاب الطبال خانات امراء عندهم اوركسترا عسكرية لتحية الشرف. المماليك البحرية هم  
كما اسلفنا قاطنو بحر النيل، والصالحة والمنصورية شكلهما كل من الملك الصالح والملك المنصور اي  
قلاوون نفسه.

[447] أفهم من هذا انه من الصعب وضع الكلفة المالية لاعادة الاعمار على المنطقة المعنية نفسها  
وذلك من خلال مطالعة الجملة العامة في الوحدة الاقتصادية- العسكرية القائمة.

[448] اعيد له هنا لقبه الذي انكر عليه قبلها على انه الصاحب السابق لانتهاكية.

[449] قرآن (مريم) الآية 2 السورة 59 (الحشر)

[450] يتراوح المعنى بين قطاعي الاحجار ورماة الاحجار.

[451] بحسب التقويم الهجري القمري (688—502) أي 180 سنة شمسية (1280-1109)

[452] قلعة جبل المقطم مقر السلاطين في القاهرة.

[453] في المخطوطة "الأول" تصلح من نفس السياق ويحسب أبو الفدا.

- [454] تذكر المخطوطة "من الافرنج" وأحسن Quatremere بتصليحها.
- [455] الواقع أن سقوط هذه المدينة أقدم بستين من سقوط عكا. راجع بعدها.
- [456] هما ابن عم واب المؤلف الذي سيصبح بدوره صاحب حماة.
- [457] درجة من الدرجات الأولى في ترتيب الأقطاعية.
- [458] لا يذكر ابو الفدا الامان الذي اعطاه السلطان للمدافعين ثم نكث به وقتلهم. راجع فيما يلى رواية أبي المحاسن حول هذا.
- [459] اي انه كان يحمل مثل سلفه الكبير لقب صلاح الدين.
- [460] زائد عن غابريللي
- [461] (جمادى الثاني- لدى غابريللي). يسوق النص هنا وفيما بعد "الأولى" (راجع الهامش 467). نلاحظ أيضاً في التواريخ التالية عدم توافق بين أيام الشهر و أيام الأسبوع.
- [462] يسوقها غابريللي: (الأحد 20 جمادى الثاني)
- [463] يسوقها غابريللي (ثامن عشر)
- [464] في 587/1191 بعد الحصار الشهير. راجع ماجاء في هذا الكتاب عن "استيلاء العدو على عكا".
- [465] يقول غابريللي (17 جمادى الثاني). كما يكرر أن فتح عكا تم في شهر جمادى الأولى. لكن ملاحظة التوافق مع الفتح الأول على يد صلاح الدين (17 جمادى الثاني) ترجح كفة رواية أبو الفدا القائلة بـ "جمادى الثاني"، هذا ان لم يكن هو بالذات قد أدخل بالتوفيق عن قصد. وعلى مانقبل بوارد من هذين التاريخيين فإن مأساة عكا تكون قد حدثت في أيار/مايو أو حزيران/يونيه من 1291.
- [466] يسوق غابريللي: جمادى الثاني.
- [467] يقول غابريللي إن "الذواق" "النحات" هي من تسلسل الألقاب القيادية في القصر.
- [468] اي بيروت وصيدا والثليث وطرطوس التي اخذت كلها او اخليت دون حرب في صيف نفس العام ذلك كما رأينا في أبي الفدا. لكن جزيرة ارواد مقابل طرطوس بقىت في يد الداوية حتى عام 1303.

# Table of Contents

عنوان الكتاب

صفحة الحقوق

إهداء

مقدمة المؤلف

مقدمة المعرب

الأعزل

ملاحظات ببليوغرافية (1)

ملاحظات ببليوغرافية (2)

المؤلفون والكتب

المؤرخون العرب للحروب الصليبية

القسم الأول: من كندي إلى صلاح الدين

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

القسم الثاني: صلاح الدين والحملة الثالثة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

القسم الثالث: الأيوبيون والهجمات على مصر

- 1 -

- 2 -

- 3 -

القسم الرابع: المماليك وتصفيه الصليبيين

- 1 -

- 2 -

- 3 -

نماذج المرحلة الأولى من الكتاب العربي

موجز سيرة المترجم